

نازك الملائكة

الأعمال الشعرية الكاملة . الجزء الأول

- مأساة حياة
- عاشقة الليل
- أغنية الإنسان
- شظايا ورماد

المجلس الأعلى للثقافة

نازك الملائكة

الأعمال الشعرية الكاملة

(الجزء الأول)



٢٠٠٢

رقـم الإيداع ١٧٦٦٧/٢٠٠٢
I.S.B.N. 977 - 305 - 332 - 6

- مأساة حياة
- أغنية الإنسان
- عاشقة الليل
- شظايا ورماد

تقدمة

أ.د عبده بدوى

– ١ –

كـان كل شىء يسـاعـد على أن تكون «نازك الملائكة» مميّـزة فى عـالم الشعر، فقد عـاشت نفسيًا فى مناخ عربى كان الشعر أوضح مـلامحه، فقديمًا تنتـمى إلى المناذرة الذين استـقرّوا فى إمـارة «الحِيـرة»، وكان فى طليـعتـهم «النعمـان بن المنذر»، وحديثـا نعرف أنها كـانت وليدة ما يـسميـه ابن رشيق «البيت الشعرى[(١)]»، فقد كان جدّها لأمها محمد حسن كبة إماما فى الفقه، فى القـرن التـاسع عشـر وأوضح الشـعراء فـى هذا القرن، أمـا أمـها «سـليمـة عبـدالرزاق» فهى صاحبـة ديوان أنشودة المجد، ووالدها صادق مـدرس النحو كان يتعـاطى الشعر، وله أرجوزة فى أكثر من ثلاثة آلاف بيت، وصـف فيها رحلته إلى إيران عام ١٩٥٦، كما قال الشعـر خالاها: جميل وعبدالصاحب، ومن خلال هذا الـزّخم الشعرى كـان الاهتداء إلى تجـربة جديدة فى العـصر الحديث، فيـما يسمّى «الشعر الأسـرى المشترك»، فقد كـانت الشاعرة والأم، والخال عـبدالصاحب يجـتمعـون، ثم يكتب أحدهم بيـتًا كمطلع لإحـساس يشغله، ثم تمرُّ الورقة عليهم، وكل واحد يضيف بيتا على الوزن والقافية حتى تنتهى القـصيدة، والشاعـرة تقول «فتحنا أعـيننا على الشعر وأنغامـه، وقرأنا العروض معا، وعشنا صبانا نتـبادل قصائد الدعابة، وننظم الأهاجى الفكاهية، والألغاز، والتاريخ، والتشطير، والتخميس والموشح، والدوبيت، ومازلنا حتى الآن نجتمع لنظم القـصائد المشتركة، وأحـياناً نتبادل رسائـل منظومة من أولها إلى آخرها[(٢)].

والملاحظ أن الشاعرة قد أخلصت نفسها للشعر من وقت بعيد، وبخاصة شعر المطولات، فقد كتبت «مأساة الحياة وأغنية للإنسان» في ثلاث صور شعرية لقصيدة واحدة، أولها قد نظم بين سنة ١٩٤٥، ١٩٤٦، وثانيهما نظم سنة ١٩٥٠، وثالثها كان عام ١٩٦٥، وهي تؤرخ لهذا العمل المركب فتقول: كنت إذ ذاك أُكثر من قراءة الشعر الإنجليزي، فأعجبت بالمطولات الشعرية التي نظمها الشعراء، وأحببت أن يكون لنا في الوطن العربي مطولات مثلهم، وسرعان ما بدأت قصيدتي وسميتها «مأساة الحياة» وهو عنوان يدل على تشاؤمي المطلق، وشعوري بأن الحياة كلها ألم وإبهام وتعقيد»(٣)، وهي متأثرة في كل هذا بقراءة للفيلسوف الألماني «شوبنهاور» جاء فيها: «حتام نصبر على هذا الألم الذي لا ينتهي؟ متى نتدرع بالشجاعة الكافية فنعترف بأن حب الحياة أكذوبة، وأن أعظم نعيم للناس جميعاً هو الموت؟» بل إنها تقرر أن تشاؤمها فاقَ تشاؤم شوبنهار، لأنه - كما يبدو - كان يعتقد أن الموت نعيم لأنه يختم عذاب الإنسان، أما هي فلم تكن ترى كارثة أقسى من الموت «وذلك هو الشعور الذي حملته من أقصى أقاصي صباي إلى سن متأخرة»(٤).

والملاحظ أن الشاعرة كان عندها دائماً استعداد لقبول الجديد، والتطور، فإلى جانب الأخذ بالمطولات من البحر الخفيف الذي يجري بين يديها كما يجري نهر عريض في أرض منبسطة، نراها تلاحظ أن القدامى يستعملون تفعلية الخبب (فَعِلن)، ولكنها ابتداء من أول «قصيدة حرة كتبتها عام ١٩٤٧، حولتها إلى تفعيلة (فاعلُ) وتقول: وأنا أقرُّ بأنني وقعت في هذا الخروج من غير تعمد، وقد ألفت أن أنظم الشعر بوحي السليقة، لا جرياً على مقياس عروضي. . ومن ثم فإن (فاعلُ) قد تسربت إلى تفعيلاتي الخببية وأنا غافلة، وحين نبهني خالي «جميل» إلى هذا كان جوابي: إن أذني على ما مر بها من تمرين، تقبل هذا الخروج، ولا ترى فيه شذوذا، فليس هو خطأ وقعت فيه،

وإنما هو تطوير سرت إليه وأنا غافلة، ومعنى ذلك أن (فاعلُ) لا تمتنع فى بحر «الخبب»، لأن الأذن العربية تقبلها فيه، ثم إن التفعيلتين، فعلن وفاعل متساويتان من حيث الزمن تساويًا تاما، لأن طولهما واحد، فكلتا الوحدتين مكونة من ضربتين قصيرتين، وضربة طويلة، وإنما تقع الطويلة فى مطلع (فاعل) وفى آخر (فعلن) ومن الناحية الموسيقية يستوى عدد الأجزاء فى التفعيلتين، فكلاهما يتألف من أربعة أجزاء[٥].

وفى هذا الوقت المبكر كان الاهتداء إلى «الهيكل الهرمى»[٦] الذى يمنح الأشياء بعدها الرابع، شريطة أن يتوفر فيه: التماسك، والصلابة، والكفاءة، والتعادل، بالإضافة إلى صلاحية بحر الخفيف للمطوّلات، وتقديم الجمل الطويلة دون تقطع، وعدم التقيد بقانون استقلال الشطر أو البيت، والتركيز على أن الشعر ليس موهبة وحسب، وإنما هو نظم قبل ذلك، وأخيراً فلابد من العودة إلى علم العروض والقافية والضرائر، وإلى التعرف على أساليب التكرار، ودلالته، وأخيرا فقد كان التعرف على أسلوب «البند» الذى كان غامضًا فى المسيرة الشعرية، ولم يلتفت إليه الخليل بن أحمد، ولا العرضيون من بعده، لأن الوزن فيه كان يقوم على أساس التفعيلة دون الشطر، وحقيقة الأمر أن البند خلافاً للشعر العربى كله يستعمل بحرين هما الهزج والرمل، فإذا كان القدامى يذكرون أنه يعتمد على الهزج فقط، فالقاعدة عندها للبند أنه شعر حر، تتنوع أطوال أشطره ويرتكز على دائرة (المجتلب)، مستعملاً منها الرمل والهزج معاً[٧].

المهم أن الأسرة التى عرفت بالملائكة، لما فيها من هدوء ووداعة، لاحظت أن ابنتها ستكون شاعرة، وكان أن عاملتها معاملة خاصة، وأعفتها من الأعباء المنزلية ثم كان الانتقال من المنزل القديم عام ١٩٣٠ إلى منطقة شاعرية، فالبيت يقع بين بستانين كثيفين مليئين بالأشجار الباسقة من نخيل،

وتوت، وبرتقال، ونارنج، ومشمش، وإجاص. . الخ، والشارع نفسه كان بستانا مغطى بمنطقة خضراء مخترقة بنهر. . . وعلى مسافة قصيرة كان نهر دجلة.

- ٢ -

أما تعلمها فقد سار في طريقه الطبيعي، وتم تخرجها بليسانس الآداب عام ١٩٤٤، من غير مفارقة للشعر، فقد بدأت تكتب الشعر بالعامية في سن السابعة[٨]، وفي سن العاشرة كتبت قصيدة بالفصحى، وعندما قرأها الوالد استشاط غضباً لأنها وقعت في خطأ نحوى، وكان أن قال لها: إذهبى أولا، وتعلمى قواعد النحو، ولما كانت مدرستها لا تفرق بين الفاعل والمفعول، فقد أخذ على عاتقه تعليمها النحو، وإرشادها إلى التعرف على مراجعه ومصادره، وقد عاشت مشغولة بهذه المادة، فحين دخلت دار المعلمين العالية، اختارت فرع اللغة العربية، وحصلت على درجة الليسانس مع مرتبة الامتياز، وكانت رسالتها في الليسانس في موضوع نحوى هو «مدارس النحو» بإشراف الدكتور مصطفى جواد، وفي هذه الفترة أكثرت من القراءة لمحمود حسن اسماعيل، وبدوى الجبل، وأمجد الطرابلسى، وعمر أبو ريشة، وبشارة الخورى، أما أمها فما كانت تقدم على الرصافى أحداً، كما أحبت اللغة اللاتينية، وكتبت نشيداً لاتينيا بعد أن استمعت إلى أغنية مشهورة اسمها Attheballalike[٩]، كما أنها توغلت في آداب الإنجليزية، وأحبت شللى، كما أحبت شكسبير، وترجمت إحدى سونيتاته، وفي الوقت نفسه درست الموسيقى في معهد الفنون الجميلة، ولحنت من شعر أمها «نشيد العرب»، وكان اللحن على نغم «النهاوندى»[١٠] وهى نفسها تقول «كان الغناء سعادتى الكبرى منذ طفولتى، وكنت أحبس أنفاسى إذا سمعت صوت عبدالوهاب، وأم كلثوم يحمله حاكى كان يدور في بيت الجيران، وكنت سريعة الحفظ، لأى أغنية أسمعها[١١]»، وهكذا كانت

ثقافتـها ابتداء محكومـة بالعروض والموسيقى، على الرغم مما يذكـره الدكتور إبراهيم أنيس «لا يبدو من كلامها أنهـا اتصلت بدراسة الموسيقى من قريب أو بعيـد، لنعتد بآرائهـا فى الحديث عن نغمـات الشعر، وإيقـاعاته»(١٢) زد على ذلك ولعها بالموسـيقى العالمية، وبخاصة مـوسيقى «تشايكوفسكى» فقـد سمته القيثارة الإلهية، واحتفلت بذكرى مرور أربع وخمسين سنة على وفاته.

سأحـب الحياة من أجـل ألحا   نك، يا بلبلى الحزين وأحيا

سأرى في النجوم من نور أحلا   مـك ظـلا مخـلداً أبديا

زد على ذلك دراستها للتمثيل لإجادة فن الالقاء(١٣)

وبعيداً عـن عالم الموسيقى نرى حـياة مليئة بالتـمزق والخوف والموت، وفقـدان السعادة، والتشكك فى وجـود المطلقات(١٤)، على نحو مـا نعرف عن مطولة (مأسـاة الحياة)، ومن ديوانها الأول (عـاشقة الليل)، ففى هذه الـفترة كانت تجتـاز عالم المراهقة، وكانت لا ترى شيئـاً إلا ويعلوه الخوف، والرحيل والموت.

ها أنا أرحـل يا أشجـار عنك   تحت عبء من شرودى وخشوعى

ليتنى أجـرؤ أن ألقـى عليـك   نظـــرةً ثـانية.. دون دمـــوع

آه يا أشجار، لا، لا تذكرينى   فـأنا تمـثال يـأسٍ بشـــرىّ

ليس عندى غـير آثار حنيـنى   وبقـايا من شقـائى الأبـدى

وحين كـانت تترجم عـن الإنجليزية كـانت تتـرجم ما يتـفق وحـالتهـا النفسية، كـقصيدة «البحر» للشـاعر ج.غ. بايرون، وقصيدة مرثيـة فى مقبرة ريفـية للشـاعر توماس غـرى، وقصـيدة «النهـر المغنى» للشـاعر كريسـمس همفريس، وقصيدة «أسفار» للشاعر روبرت بروك، كما ترجمت عن الفرنسية لبروسبيربلانشمين وببطء تقترب من دائرة الاغتراب الاجتماعى، فتقول

وأنفـر من كل ما فى الوجـود وأهــربُ مـن كـل شـئ آراه
ففي عمق نفسى صوتُ غريب يُعلِّـم قلـــبى ازدراء الحـياه
ويصـرخ بى: اهـربى. اهـربى ويتعبُ إحساس روحى صداه

. . وبعد عاشقة الليل، انتشر وبـاء الكوليرا فى مصر، وسمعت أن عدد الموتى وصل الى مائة إنسان، فكتبت قصـيدة فى الشكل القديم، ثم أعادتها، وأحـست أن هذا الشكل المتوارث لا يعـبـر تماماً عـما فى داخلهـا، وفى يوم الجمعة ٢٧/ ١٠/ ١٩٤٧ سمعت أن عدد الموتى وصل إلى ألف، وحين أعادت الكتابة للمـرة الثالثة، قـرأت ما كتبت علي أختها «إحـسان»، فتحـمست لما سمعت، وحين أسـمعتها لأمـها قالت: ما هذا الوزن الغـريب؟ الأشطر غير متـساوية، والموسيقى ضـعيفـة، وحين سمعـها الوالد سخر، وقـال: ما هذا الموت. الموت، الموت وكان أن ضحك الأخـوة/ فقالت بتحدٍ: قـصيدتي هذه ستغير خريطة الشعر العربى[١٥].

. . وفى عام ١٩٤٩ صدر ديوان «شظايا ورماد» بمقـدمة وافية، أوجزت فيها نظرية عروضـية لشعرها «وميزة هذه الطريقة أنها تحـرر الشاعر من طغيان الشرطين فالبيت ذو التفاعيل الست الثابتة، يضطر الشاعر إلى أن يختم الكلام عند التـفعيلة السـادسة، وإن كـان المعنى الذى يريده قد انتـهى عند التفـعيلة الرابعة، بينما يمكنه الأسلوب الجديد من الوقـوف حيث يريد، ثم إن القافية- ذلك الحجر الذى تلقمه الطريقة القـديمة كل بيت - حرمتنا من الملحمة، وأنها تضفى على القصيدة لوناً رتيباً يمل السامع، فضلا عما يثير فى نفسه من شعور بتكلف الشاعر، وتصيده للقافية[١٦].

فإذا جئنا للقصائد نرى أنهـا تدور فى عالم بائس وحزين ومرهق، فهى تتكلم عن الضـياع، والجرح الـغاضب، والأفعـوان، والجحـود، والأجراس

السوداء ونـهاية السلم، وأغنيـة الهاوية، وكـثير مـن الموتى، وبخاصـة موتى الكوليرا، ولعل وراء ذلك إصابتها بحمى شديدة فى هذه الفترة، أحست معها أنها عـلى حافة الـرحيل[١٧]، بالإضـافة إلى الإحـساس[١٨] الشديد بـالغربة، والانسحاب من الحـياة، وتجئ مرحلة سفرها إلى أمـريكا لدراسة النقد الأدبى فى جـامعـة «برنستن» عام ١٩٥٤ . . ثم يأتى ديوان «قـرارة الموجة» فى عـام ١٩٥٧، فتستمر ظاهرة الحزن، والقلق الوجودى، بل إنها تستدعى الحزن على أمها كما فى «ثلاث مراث لأمى»، وتصور لنا مـقدم هذا الحزن كما فى «مقدم الحزن»

أفسحوا الدرب إنه جاء خجـلا   نَ، رقـيق الخطى، كئيبَ الجبين

الندم الحسّاس، ذو الأعين الغَرْ   قَى بتاريـخ ألـف سـرٍ حزين

إنه مطـعم العـون العميقـا   ت، وينبوع كل دمع سخين[١٩]

ومع أن هناك شبهة حب بائس، إلا أنه ينتهى دائمـا بالقطيعة والغياب، كما فى قـصائد «الزائر الذي لم يجئ». و«الشخص الثانى»، و«عـندما قتلت حبى»، فـالحبيب فى كل هذا غـير مرغـوب فى زيارته، فحـتى لو جاء لكان الحلم بالزائر المستحيل، ثم إن الشخص الثانى سيمحو الشخص الأول، وحين تتم عملية القتل ستكشف أنها لم تقتل سوى نفسها:

ومع أنه قد أتيـحت لها فـرصة التأمل حين سـافرت للولايات المتـحدة للدراسة فى الخمسينيات لتكتب قصيدة بعنوان «الوصول»، ولتقول لأول مرة:

سأحب نفسى فى ارتعاش ظلالها تحيا عصور

ملأى بألوان الخيال

وهناك فى أحنائها ألقى الجمال

لكنها تعود لمحاكمة نفسها، وتواصل خط الضياع، والخوف، والانقسام على النفس

يا صمت نفسى عدتُ عدتُ إليك بعد سُرى سنين
ضاقتْ بتطوافى البحار
وشكا النهار
ما حَمَّلَتْه رؤاى من عبء الحنين
لم ألقَ غيْرَك لى نصيرا
فى ظلمة الليل المضلِّ
فافتح لى الباب الأخيرا
دعنى أمر
أنا وظلى[٢٠]

وهكذا حملت حزنها معها، وعادت به، بعد المرور على إيطاليا، وجنوب فرنسا.. وفى عام ١٩٦٧ صدر ديوان «شجرة القمر»، ونلاحظ فيه أنها بالإضافة إلى عالمها النفسى الحزين المتشائم، أضافت خطاً جديداً وطنياً، ذلك لأنها اهتمت اهتماماً خاصاً بثورة «رشيد الكيلانى» على «نورى السعيد، وعبدالإله، والإنجليز»، فقد تفجرت حماسة لتلك الثورة، ونظمت فيها عدداً من القصائد، ولكن لم يكن هناك مجال لنشرها، ذلك لأن الثورة سرعان ما انتكست، ودخل عبدالإله على دبابات الجيش البريطانى، ونصبت المشانق للأحرار، وحين نجحت ثورة ١٣ تموز عام ١٩٥٨ كتبت قصيدة «تحية للجمهورية العراقية»

فرح الأطفال بضمة حب أبويه

فرحة عطشان ذاق الماء

فرحة تموز بلمسة نسائم ثلجيه

فرح الظلمات بنبع ضياء

فرحتنا بالجمهوريه[٢١]

فقد أثرت في حياتها أعنف تأثير ولكن عبدالكريم قاسم انحرف بها، فأقامت في بيروت عاما، ثم إنها غنت لعبدالسلام عارف في قصيدة «وردة لعبدالسلام عارف» في مساء اليوم الذى اعتقل فيه[٢٢] وتزوجت في منتصف عام١٩٦١ بعد العودة من الدكتور عبدالهادى محبوبة، وقد ساقها هذا الالتفات الى عالم القومية العربية، فكتبت «أغنية للأطلال العربية»، وختمتها بقولها

فيا عربيّ.. أصخ لنداءٍ تحدَّرَ من رَحْبَة المدنيه

وقفْ حاسراً تحت ضوء النجوم على ربع تلك الطلول الأبيه

وقل: يا رمال الجزيرة، يالحـ ـنَ ملحمة العرب الأزليه

غداً ستعود إليك الحياة تعود مع الوحدة العربيه[٢٣]

ثم كتبت «ثلاث أغنيات عربية»، جعلت في مقدمتها كلمة «لقد دقَّتْ ساعة العمل الثورى»[٢٤]، وكما دندنت حول فلسطين، حلمت بالوحدة العربية، في قصيدة الوحدة العربية[٢٥]، وانتظرت إعلان الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣[٢٦]، والملاحظ أنها نغَّمت الصياغة، وحافظت عليها، وقسمت الشطر على أساس المعنى دون الوزن، وطالبت بأن يرتكز الشعر الحر على نوع من

القافية الموحدة، فذلك يزيده موسيقى وجمالا، وهناك من يرجع لفتتها المقفّاة إلى الانتماء القومى فى هذه الفترة[٢٧]، وهى نفسها تقول: من قال إن الشاعر الموهوب يستطيع أن يبدع أى شئ فى غير الإطار اللغوى لعصره[٢٨]، والملاحظ أنها ركزت على أن فكرة الجمال فى الحياة هى بعينها فكرة الجمال فى الفنون، وأن الحرية وراء كل منهما، وأن مجئ الزائر المنتظر إذا كان يمثل القمة، فتحققه ينذر بالمنحدر[٢٩].

وإذا كانت لم تنس قضية فلسطين، فإن تذكرها تضاعف فى ديوان «للصلاة والثورة» الذى صدر عام ١٩٧٥، بعد فترة انقطاع استمرت ثلاث سنوات، وقد كان الدافع وراء ذلك إنها تلقت بطاقة تهنئة بعيد الفطر، وكان مرسوماً على البطاقة صورة لمسجد قبة الصخرة بالقدس، فما كادت ترى الصورة حتى زلزلت زلزالاً شديداً، وأسرعت بالكتابة على ظهر البطاقة هذه الأشطر

يا قبة الصخره
يا وردُ، يا ابتهالةً مضيئةَ الفكره
ويا هُدى تسبيحة علويّة النبره
يا صلواتٍ عذبَةِ الأصداء
جاشت بها الأبهاء
يا حُرقةَ المجهول، يا تعطُّش الإنسان للسماء
يا ولع الركوع يا طُهْره
يا وردة الخشوع، يانداه، ياعطره

واستمر تدفقها الشعرى، وكان ديوان «الصلاة والثورة ١٩٧٨م» أما الصلاة فهى رمز الجانب الروحى فينا، هى الورود التى تنبت فى النفس الإنسانية من أثر اتصالها بالمنابع الأزلية الجميلة، منابع الله.. والثورة مرتبطة أشد الارتباط بالصلاة، وكما قالت

متى نصلى؟ إنما صلاتُنا انفجار

صلاتُنا ستُطلع النهار

تُسلّح العُزَّلَ، تعلى رايةَ الثُّوَّار

صلاتنا ستشعل الإعصار

ستزرَعُ السلاح والزنبق فى القفار

تحول اليأس إلى انتصار

«فالصلاة هنا معادل حى للقيم الثورية، والقيم الجمالية، والقيم الإنسانية، وهى تربية للروح والجسم، وإكمال لإنسانية الإنسان»[٣٠]، ثم تتعرض لقضية الشكل فهو- بصفته المطلقة- صيغة جمالية مبرأة من العيوب، سواء أكان حراً أم خليلياً، وإنما تأتى العيوب من الشعراء، هذا مع الاتفاق على أن لكل عصر لفتة مزاجية، قد تجعله يؤثر شكلا من الأشكال على سواه، هذه اللفتة ترتبط بسمة العصر الحضارية فى الأساس[٣١]، وفى هذا الديوان نجد قصيدتى «الملكة والبستان»، و«سبت التحرير»، ليستا من الشعر الحر، وإنما من البند فى صورة حديثة، وهذا يسوقنا إلى الحديث عن بحر حين كتبت عن ابنتى داليا «خضراء براقة مغدقة» ثم توقفت عند هذه العبارة، حين وجدت أن وزنها «مستفعلين. فاعلن. فاعلن» ومن هنا كانت قصيدتها «تحية للطفلة دالية»[٣٢]، وقد دار حول هذا البحر نقاش كبير، خاصة بعد أن كتبت دراسة عنوانها «ميلاد بحر جديد فى الشعر العربى»[٣٣]، وتصدى لها الدكاترة

نور الدين صمود، وعبداللطيف عبدالحليم، وعبدالعزيز الدسوقى بدعوى أن هذا الوزن وجد فى الشعر الأندلسى فى نصٍ محدود، وإن كان الدكتور شعبان صلاح قد فصل فى هذه القضية فقال «لا يستطيع الباحث المنصف أن ينحى باللاءمة على أى من الشاعرة نازك الملائكة، أو الشاعر الدكتور عبده بدوى، حين ظنا هذا الوزن مخترعاً، وليس قديما، إذ أن ما صيغ عليه فى القديم لا يعدو أبياتاً، لا تشكل ظاهرة، ولا تلفت انتباها، فضلا عن أن تقر فى وجدان شاعر مدى طويلاً، فلعل الشاعرة قرأت النموذج الأندلسى منذ زمن، ثم صاغت عليه- حين صاغت- غير واعية بأنها مسبوقة بتلك النغمة[٣٤]، وحين تحدثت معها فى هذا الشأن قالت: يعلم الله أننى لم أقرأ هذا النص القديم، وبالتالى لم أصُغ عليه، ولكن لعله المناخ العام لحضارة المشتغلين بالشعر العربى[٣٥].

وأخيراً فالشاعرة فى هذا الديوان، شغلت نفسها بما يدور فى العالم العربى، فتكلمت فى قصيدة القنابل والياسمين، عن ليلة ١٠/٤/١٩٧٣، حين اقتحم الجيش الصهيونى بيروت وصيدا، وكان نسف البيوت، وقتل ثلاثة من قادة الفدائيين، ثم هاجم مخيم الفدائيين وغادر البلاد دون أن يعترضه أحد[٣٦]، ثم تتكلم فى «اختلاجات نحو القمة البيضاء» عن الطريق المسدود أمام العرب.

كيف أهرب؟ إن طريقى مقفلْ

وستارى البليد الكثافة مسدلْ

وستارى مسدل[٣٧]

ثم تتكلم عن «سبت التحرير»، وكيف بدأت قواتنا العربية تحريرها لسيناء والجولان، وسجلت نصراً كاسحا، ولكن أمريكا تدخلت، وطالبت

العرب أن ينسحبوا إلى مواقـع ما قبل يوم السبت- ١٠ رمضان[٣٨]، وكعادتها زارت القاهرة، وحيتـها قبل حرب رمضان ثم كانت الحـرب والانفعال بها فى قصيـدة «الماء والبارود» فى ديوان «يغير ألوانه البحـر-١٩٧٧»، والتى تضفرها بكلمـة الله أكبـر، وبقصة هـاجر، والطفل إسـماعيل، والـسعى بين الصـفا والمروة، وقصـة انفجار الماء فى رمـضان لفرقـة من الجيش المصـرى فى سيناء كانت صائمة[٣٩]، ومن هنا تكون قد أدارت ظهرها وشعـرها للرموز الإغريقية على وجه الخصوص، وتكون قد دارت فى فلك جديد، هو فلك «المليك».

إننى أصعد بالنار إلى ذروة آفاق حنينى

إنني أنبذ شكى وفتونى

وإلى الشمس، إلى أعلى الذرى

يمتد جذعى وغصونى

حيث ألقى فى المدى وجه مليكى

كبياض الثلج، كالأنجم

كالفل أُلاقيه مليكى

.. حبه. حب مليكى. رحلة فى اللانهايه

وجهه يستغرق الكون، ومن آفاقه تبدأ لى كل بدايه[٤٠]

فهى قد دخلت فى عالم جديد، علمت فيـه نفسها، وتجاوزت تشككها فى المطلق[٤١]

باسمك. باسمك. باسمك. باسمك

يا ضوئى. يا عطرى. يا مجدى. يا نجمى

- ٣ -

المهم أنهـا اهتدت إلى اللجـوء إلى مـرفأ جـديد،ومن ثم كانت ابتـداء قصيدة «الهجرة إلي الله» التى تدور حول وجوده فى كل شئ، وحول وجوده فى نفسها

مليكى، أنت طعم الصيف فى عمرى

وأنت تألق الأقمار

وأنت عذوبة الواحات فى قفرى

وأنت تبلّج الأسرار

وأنت تدفقى، أنت انبثاق الضوء والعطر

نثرت الخصب واللؤلؤ فوق شواطئ الخضر

وفى روحى سكبت النار

لك الأوراد والصلوات أنثرها

فدا عينيك يا مليكى، يواقيتى أكسِّرها(٤٢)

وهذا اللجوء إلى الله يسوقها إلى اللجوء للرسول، فتقدم «زنابق صوفية للرسول»، وتكتب تصوراً للرسول فى صيغة معاصرة، بعيدة عن كل ما عرف باسم البردة ونهجهـا، فالرسول طائر حط قربها، وامتصَّ قلبهـا، وكان بينهما حوار، ليس مثله حوار، وليس مثله طائر.

وطارت الطير فى الصباح

ولم يطر أحمد، ظل قربى

وظللتنا سحب مبقعة بالضياء

كنا نغنى

للحب، للبحر، للسماء

تكسرت فى غنائنا الشمس، والمرافئ، واللانهايه

والمد جاء

يلثم أقدامنا، يتكسرً

أحمد. أحمد

نحن أنا وأنت والأعالى

ليل، وصمت

والله فى روحنا غناء[٤٣]

وكانت قصيدة «دكان القرائين الصغيرة»[٤٤] التى تدور حول إنسانة تبحث عن مصحف هدية لحبيبها فيقال لها فى «مندلى» وهى كلمة تساوى كلمة «يوتوبيا»، وقد سافر الحبيب دون الحصول على الهدية، وأصل هذه الكلمة أنها اسم لمدينة عراقية جميلة من مدن لواء بعقوبا، تنبت الرمان والبرتقال، وسواها من الفاكهة، ثم تكتب ميلاد نهر البنفسج[٤٥]، وبقدر ما يقترن التجاوز من العالم المادى، يكون التعامل مع النار

ففى أغصانى النشوى يكاد يسيل نَسْغُ النار

وتنطوى رمزية الرحلة الصوفية فى هذه الأسفار النارية، على ثلاثة طرق متعاقبة، أو ثلاث دوائر نارية متتابعة، ترقاها النفس من الأضيق إلى الأرحب، ومن الأدنى إلى الأعلى، فإذا وصلت النفس إلى غايتها اتصلت،

وإذا اتصلت بالكلية عن كليتها انفصلت، كما قال المتصوفة، وعلى كل فالدائرة الأولى للنار- هى الدائرة الصغرى، والهوى الأول، والحس الترابى، والدائرة الثانية هى الوسطى، حب الأرض، والوطن، والأمة، والدائرة الثالثة العليا هى دائرة المليك، الحبيب الأول والآخر[٤٦]، المهم أن الشاعرة وصلت إلى هذه الدائرة الأخيرة بعد مجاهدة، وبهذا تكون قد اتصلت ومن هنا ينتهى السفر، وتصل المجاهدة إلى غايتها الأخيرة، بالصعود صوب وجه المليك، وفى هذا المجلى الصوفى، ينسرب ما يمكن أن يسمى «النور المحمدى»، ليوازى «أبدَ الضوء» الذى يطلع من كل الجهات، فى «زنابق صوفية للرسول»، وهى نفسها لها رأىٌ فى التصوف فتقول: «تسألنى عن التصوف، ولست متصوفة، إلا إذا كان حب الله العلى القدير، يكفى وحده لاعتبار المرء متصوفاً، فأنا شديدة الحب له سبحانه، وأقضى أوقاتاً طويلة فى بعض الليالى أناجيه، وأمجده، وأتغنى بجماله، وروعة خلقه».

- ٤ -

إذا كان لها دور فى «التنظير الاجتماعى، على حد ما نعرف من كتابها «التجزيئية فى المجتمع العربى ١٩٧٤[٤٧]، فإن لها دوراً فى التنظير الأدبى، على حد ما نعرف من مقالاتها، ومن كتاب «الصومعة والشرفة الحمراء»[٤٨]، فقد أبدت إعجابها به، لأنه كتب من أوزان عربية قل استعمالها مثل المُنْسرح، ومثلت لهذا،[٤٩] ولأنه لم يستجب لدعوى المزج بين البحور إلا فى قصيدة واحدة، مزج فيها بين البحر السريع، والبحر المتقارب، ولأنه كتب من «الموشح المسترسل»، ومن «الموشح الوصفى الغنائى»، ثم كان رد اعتبارها للقافية، وإثبات أن عروضها مستمد من عروض الخليل، وإنه يمكن أن نستخرج من كل قصيدة حرة، مجموعة قصائد خليلية وافية، ومجزوءة، ومشطورة، ومنهكة، فللشكلين مزايا وعيوب، وهى حريصة عليهما معا،

وعلى إقامة توأمـةٍ بينهما، «مع ملاحظة أننى لا أخطو خطـوة فى تقنين قاعدة إلا بعد استشاره عروض الخليل الذى خبرت مداخله ومخارجه طويلا[50]».

أما دورها الواضح فى التنظير لحركة الشعر، ففى كتابها «قـضايا الشعر المعاصر» ١٩٦٢م المُهدى لجـمال عبدالناصر، نرى المقدمـة حريصة على إثبات أن حركات التطوير تـلك إنما كانت بدافع الرغبة إلى الجديد، ولـيست تخلصاً من قسوة عمود الشعر وكـرامته، وإلا ما ذهب «المعرى» وغيره إلى الزيادة فى القيود.. كـما أن حركة الشعـر الحر مرحلة تطورية لعروض الشـعر العربى، وليست مقـتبسة عن الشعـر الغربى، وإن كانت تشبـهه فى بعض الوجوه، إذ ليس كل شبيه مسـتمدا من شبيهه[51]، أما الشاعرة فتؤكـد ابتداء أن الشعر الحر ليس حفيداً للبند، وأن هناك قصـائد نظمت قبل عام ١٩٤٧ من الشعر الحر، ولكنها لم تتعرف عليـها، ثم إنها وضعت أربعة شروط يجب أن تتوافـر فيما قيل، وحين نحكمـها نجد أن مـا قيل قـبل عام ١٩٤٧ كان «إرهاصـات» تتنبأ بقرب ظهور حركـة الشعر الحر[52]، ولعل العصر نفـسه لم يكن مهيـأ لتقبل الشكل الجديد إذ ذاك، ولذلك جرف الزمن ما صـنعوا، وانطفأت الشعلة فلم تلتهب حتى صدر «شظايا ورماد» عام ١٩٤٩، وفيه دعوتى الرسمية الواضحة إلي الشعر الحر على أن فى مـقدمة ما كان يشغلها هـو محاولة الابتكار، فمن المعروف ان بحر البسيط التام هو «مستفعلن. فاعلن. مستفعلن. فاعلن»، وأن مخلعه هو «مـستفعلن. فاعلن. فعـول» وقد لاحظت أن من الممكن أن تقسم هذا البـحـر إلى تفـعـيلتين، فى الشـطر الواحـد، بحـيث يصـبـحن هكذا «مستفـعلاتن. مستفعلاتن. مـستفعلاتن. مستـفعلاتن» وفى ضوء هذا يكون بحراً صـافياً يضـاف إلى شعر التـفعيلة، إذا أضـفنا حرفاً واحـداً على مخلع البسيط الخليلى، بحيث يصبح مستفعلن. فاعيلن. فعولن

«وأظنني قد استفدت من تفعيلات الرصافي في استخراج هذا البحر الجديد من بحور الشعر الحر»[٥٣] وما كادت تصل إلى هذا، حتى كتبت قصيدة «زنابق صوفية للرسول»، وفي الوقت نفسه لاحظت أنها وقعت في خطأ، لأنها كانت تقول «مستفعلاتن. فعولن. فعولن. فعولن».

ومعنى هذا، أنها كانت تنتقل من تفعيلة الرجز إلى تفعيلة المتقارب، ولكنها حين كتبت قصيدة «نجمة الدم» التزمت فيها بتفعيلة مستفعلاتن التزاما تاماً «والحقيقة أنني لا أدعو أي شاعر إلى استعمال الوزن الأول المختل، واعترف أنه حدث دون أن أنتبه خلال وهج الحالة الشعرية، وإنما جاء الانتباه بعد الانتهاء من القصيدتين: «زنابق صوفية للرسول»، و«تمتمات في ساعة الإعدام»، ولا شئ أدافع به عن نفسي، إلا كون هذا الوزن ابتكاراً مني، ولم يستعمله الشعراء قبلي، بحيث تكون أمامي نماذج، وأكون مجهزة بتجارب»[٥٤]

-٦-

وهكذا كان اهتمامها باللغة العربية وتراثها الأدبي، نحواً وصرفا وإيحاء[٥٥] وأما تجديدها في العروض فيدور في دائرة التعقل، والمحافظة ما أمكن على العروض الخليلي، وكما أن العالم متغير فاللغة والفن لا يقبلان الجمود[٥٦]، وإنما يقبلان التجديد والتجدد، وهل الشعر، في واقعه، إلا مقدرة الشاعر على استعمال اللغة بحيث تشع ألفاظها المعاني والظلال ،والانفعالات، وإذا كان الشاعر لا يعترف بالأساليب والقواعد الرصينة، فكيف يصون شعره من ركاكة الفوضى، وضعف الروح[٥٧]

- ٧ -

ويبقى بعد ذلك عدد من القصائد لم ينشر في ديوانها الشعري، ويبدأ بقصيدة «الوردة الحمراء» المليئة بالشجن، والحزن، والنهاية غير السعيدة، ثم

«نجمة الدم» التى تتحدث عن المأساة التى تعيشها لبنان، ثم «الزرقاء والمدينة» التى تتحدث عن عين مازالت تجرى فى المدينة، ولها قصة شعبية مازالت تتردد، وتستحيل إلى سوسنة ترش السلام، وطعم السكينة، فى القلوب الحزينة، ثم «القمر على مزدلفة»، ففى فترة الحج، افتتنت بطقوس جمع الصخور من وادى مزدلفة تحت ضوء القمر ليلة العاشر من ذى الحجة، فقد كان القمر ينثر مرجاناً على هذا المكان، ثم يكون حلم ليلة من ليالى رمضان، حين أصبح قلبها عصفور فجر يزقزق بين يدى الله، وكيف كان ذكره المسبحة، ووجهه المجد، ولقياه أجمل وعد، وأخيراً تأتى قصيدة «سيمفونية السجاجيد» حين تتحول المدينة إلى سجاجيد سماوية، عليها صورة الكعبة، مجرد لمسها توبة.

سجاجيد، وتهمى أدمع الإيمان آلاف الثريات، وآلاف العناقيد وينزل خالقُ الأرض إلى الأرض سجاجيد.

فى ضوء هذا تكون نازك الملائكة رائدة، وعلامة بارزة فى الشعر الحديث، وفى الوقت نفسه تكون إضافة عاقلة فى حركة التجديد والتجدد، وليس من المبالغة فى شئ، إذا قلنا بأن حياتها قد تحولت إلى شعر خالص، فهى منضبطة فى حياتها كالوزن الشعرى، وحريصة على معرفة ما عند الآخر، ثم إن فيها الحزن والعمق اللذين يعتبران جناحين للشعر، بالإضافة إلى أنها من الشعراء الذين يتعاملون مع «النبوءة»، وأية قراءة عابرة لشعرها- تاريخيا- توضح أنها كانت تحس بالآتي، وتتعامل مع القادم، فكأنها زرقاء اليمامة العصرية.

... وأخيراً... فلعل من الوفاء أن تكون بداية ريادتها بقصيدة «الكوليرا» ١٩٤٧ التى لم يتنبه لها واحد من الشعراء المؤكدين، وأن يكون هناك مشروع إعادة طبع أعمالها فى القاهرة، فالوفاء ضرورة بين الشعر وبين المدن.

ويبقى الشكر للمجلس الأعلى للثقافة الذى عهد إلىّ بتقديم وإعداد الطبعة الثانية من ديوان الشاعرة التى تحقّقتْ لها الريادة السّاطعة ما يقرب من نصف قرن.

هوامش:

(١) العمدة ٢/ ٣٠٨.

(٢) قضايا الشعرالمعاصر ص ١٢٩ ط٤، وجريدة العالم العربى ١٩٤١.

(٣) مأســاة الحياة وأغنيــة للإنسان ص٦، ولم يكن ديوانهــا الأول «عاشقــة الليل»، قد ظهر للوجود أو طبع عام ١٩٤٧.

(٤) نفسه ص٧.

(٥) نفسه ١٢٦، ١٣٠.

(٦) نفسه ٢٣٦، وقد قدمته على الهيكل المسطح، والهيكل الذهنى.

(٧) قضايا الشعر المعاصر ١٩٦ ط٤دار العلم للملايين.

(٨) تعود للكتابة بها بين الحين والحين، كما فى قصيدة «ضيّعنا وردة»، التى ودعت بها ابنها البراق عند سفره للخارج للحصــول على الدكتوراة، نظرات فى الشعر العربى الحديث. د. عبده بدوى ص ٣٢ دار قباء

(٩) أجد فى اللغة اللاتينية ســحرا يجتذب كيانى كله، ولست أعرف ســر هذا الافتتان بلغة يكرهها الطلبة عادة - لمحات من سيرة حــياتى وثقافتى ٧ مخطوطة- كما أنها اقتبست فى التقفية من أسلوب الشاعر الأمريكى إدجار آلان بو ٢/ ١٨.

(١٠) أحد مقامات المــوسيقى العربية، وهى مغرمة به، ولذلك يكثــر ذكره فى شعر هذه المرحلة من حياتها

(١١) لمحات من سيرة حياتى وثقافتى، بقلم الشاعرة - مخطوط

(١٢) موسيقى الشعر ص ٥٠، ٥١ ط٤

(١٣) بالإضافة إلى دراسة الميثولوجيا الإغريقية بكل تفاصيلها وإلى التعرف على الفرنسية بعد ذلك

(١٤) نازك الملائكة. مقال سالم الحمدانى ٣٠٢.

(١٥) لمحات من سيرة حياتى للشاعرة ص٤

(١٦) ديوان نازك الملائكة. المجلد الثانى ١٠ ومابعدها ط. دار العودة

(١٧) ها أنا بين فكى الموت قلبا   لم يزل راعشاً بحب الحياة
فحرام أن تدفن الآن يامـــــو   ت شبابى فى عالم الأموات
المجلد الأول، ٤٩٢ - ٥٠٢.

(١٨) دراســات على يد ريتشــرد بلاكــور، وآلن روانر، وآلن تيت، ورونالد ســتاوغــر،

وديلمور شوارتز، ومؤلـفاتهم معروفة فى النقد الأدبى، ويعد الـعودة بدأت صلتها بمجلة الآداب والأديب، ودار العلم للملايين ببيروت.

(١٩) ثم كان موت الأم في لندن والعودة بها فى رحلة لا تنسى.

(٢٠) ديوان نازك. المجلد الثانى ٣٦٩، كما كتبت هناك قصيدة لحن للنسيان

لم يا حياة
تذوى عذوبتك الطريقة فى الشفاه؟
لم وارتطام الكأس بالفم لم يزل
فى السمع همس من صداه؟
بالإضافة إلى قصيدة «الهاربون»

(٢١) ديوان نازك الملائكة. المجلد الثانى ص ٤٤٩ ط١

(٢٢) نفسه ٤٧٩، ٤٨٠

(٢٣) نفسه ٤٦٩ - ٤٧٣.

(٢٤) نفسه ٤٩٦-٥٠٢ الكلمة لجمال عبدالناصر، ووضعت نكاية فى عبدالكريم قاسم

(٢٥) نفسه ٥٢٢-٥٢٩

(٢٦) نفسه ٥١٧

(٢٧) الشعر والنظرية عبدالجبار البصرى ص ١٧٩.

(٢٨) قضايا الشعر ٣٢٢.

(٢٩) المجلد الثانى ص ٢١٧.

(٣٠)مقدمة للصلاة والثورة.

(٣١) نفسه.

(٣٢) نفسه ١٩٢، ١٩٣.

(٣٣) مجلة الدوحة، عدد سبتمبر ١٩٧٦م ص ٢٢-٢٥.

(٣٤) موسيقى الشعر بين الاتباع والإبداع ص١٥٣ ط٢.

(٣٥) تجـارب وتطبيـقـات فى الشعـر العـربى الحـديث ١٢٩ د/ عبـده بدوى. ط ذات السلاسل.

(٣٦) للصلاة والثورة ١٣٢.

(٣٧) نفسه ١٤٨.

(٣٨) نفسه ١٦٥.

(٣٩) يغير ألوانه البحر ٢٥.

(٤٠) نفسه ١٣٤.
(٤١) غطت هذه الفترة ما بين عامى ١٩٤٨-١٩٥٥ لمحات من سيرة حياتى وثقافتى ١٩.
(٤٢) للصلاة والثورة ٦٨-٧٦.
(٤٣) يغير ألوانه البحر ٥٢-٧٣.
(٤٤) اعترض عـامر العقاد على جـمع لفظ القرآن، وقال إنه مثل كلمـة «عند» لاتجمع، لأن القرآن واحد، ولايصح أنْ يتـعدّد، والجواب أنهم فى العراق يستـعملون كلمة قرائين فى لفظة دارجة، فـهى لاتعنى عندهم أن كتاب الله متعـدد، وإنما تشير إلى نسخ القرآن كقولنا مصحف ومصاحف.
(٤٥) يغير ألوانه البحر ١٠٨، «كلمة مليكى أو مـلكى فى قصائد هذه الفترة يراد بها الله مالك الملك وملك الملوك.
(٤٦) مقال د. جابـر عصفور فى كتاب نازك الملائكة اعـداد د.عبدالله المهنا ص٥٨٧ ط الكويت.
(٤٧) ط دار العلم للملايين.
(٤٨) الصومعة والشرفة الحمراء. ط. دار العلم للملايين.
(٤٩) قضايا الشعر المعاصر ص١٨٧-١٩٢.
(٥٠) قضايا الشعر المعاصر ٢٧ ط٤.
(٥١) مقدمة الدكتور عبدالهادى محبوبة فى الطبعة الأولى- دار الآداب.
(٥٢) قضايا الشعر المعاصر ١٤ وما بعدها ط٤.
(٥٣) يغير ألوانه البحر ١٩١.
(٥٤) مقدمة يغير ألوانه البحر.
(٥٥) كانت ترى أن اللغةكـانت يوما موحية، ثم ابتليت بـحيل المحنطين، ومن ثم كانت دعوتها إلى الإيحاء حديثا، فهو جزء لا يتجزأ من حيوية اللغة والشعر.
(٥٦) الله هو الثبات الوحيد المطلق، قضايا الشعر ٢٩.
(٥٧) نفسه ٢٢١.

لمحات
من سيرة حياتى وثقافتى

نازك الملائكة

وُلدتُ فى بغداد فى ٢٣ من شهر آب (أغسطس) سنة (١٩٢٣)، وكنت كبرى إخوتى وهم: أربع بنات، وولدان.

وقد تدرجت فى دراستى من الابتدائية إلى المتوسطة فالثانوية، وتخرجت فى الثانوية عام ١٩٣٩، وكنت، منذ صغرى، أحب اللغة العربية، والإنجليزية، والتاريخ، ودروس الموسيقى، كما كنت أجد لذة فى دراسة العلوم، بخاصة علم الفلك، وقوانين الوراثة، والكيمياء، ولكنى أمقت الرياضيات مقتًا شديدًا، وأعد السنين يومًا يومًا لأصل إلى إنهاء مرحلة الثانوية، فأتخصص بدراسة الآداب، ثم دخلت دار المعلمين العالية، فرع اللغة العربية، وخرجت منها بليسانس الآداب عام ١٩٤٤ من مرتبة الامتياز، وهى أعلى مرتبة تمنح، وخلال سنوات دراستى فيها تعرفت إلى موضوع الفلسفة، وأحببته حبًا شديدًا، فساعدنى على تكوين ذهن منطقى، وكانت دراساتى الكثيرة للنحو العربى، فى أصوله القديمة، قد هيأتنى له تهيئة واضحة، وقد بدأت نظم الشعر وحببه منذ طفولتى الأولى، والواقع أننى سمعت أبوىّ وجدى يقولون عنى إننى «شاعرة» قبل أن أفهم معنى هذه الكلمة، لأنهم لاحظوا علىّ التقفية، وأذنًا حساسة تميز النغم الشعرى تميزًا مبكرًا. وبدأت بنظم الشعرى العامى، قبل عمر سبع سنوات.

وفي سن العاشرة نظمت أول قصيدة فصيحة، وكانت في قافيتها غلطة نحوية، وعندما قرأها أبي رمى قصيدتي على الأرض بقسوة، وقال لي، في لهجة جافية مؤنبة: «اذهبي أولاً، وتعلمي قواعد النحو. ثم انظمي الشعر»، وكانت معلمة النحو في المدرسة لاتميز الفاعل من المفعول، وسرعان ما اضطر أبي إلى أن يتولى تعليمي قواعد النحو بنفسه حين دخلت المتوسطة، وفي ظرف شهر واحد تفوقت على الطالبات جميعًا، وصرت أنال أعلى الدرجات.

ولاحظ أبواي أنني موهوبة في الشعر، شديدة الولع بالمطالعة، فأعفياني من المسؤوليات المنزلية، والعائلية إعفاء تامًا، وساعدني ذلك على التفرغ، والتهيؤ لمستقبل أدبي، وفكري خالص.

وكانت والدتي، في سنوات الشعرية المبكرة، تنظم الشعر، وتنشره في المجلات، والصحف العراقية، باسم السيدة «أم نزار الملائكة» وهو اسمها الأدبي الذي عرفت به، أما أبي فكان مدرس النحو في الثانويات العراقية، وكانت له دراسة واسعة في النحو، واللغة والأدب، وقد ترك مؤلفات كثيرة أهمها موسوعة في عشرين مجلدًا، عنوانها «دائرة معارف الناس» اشتغل فيها طيلة حياته، واعتمد في تأليفها على مئات المصادر، والمراجع، ولم يكن أبي شاعرًا، ولكنه كان ينظم الشعر، وله قصائد كثيرة، وأرجوزة في أكثر من ثلاثة آلاف بيت؛ وصف فيها رحلة قام بها إلى إيران عام ١٩٥٥. وكان أبي متواضعًا، ولم يرض يومًا أن يسمي نفسه شاعرًا، مع سرعة بديهته، وقدرته على الارتجال، وظرفه.

وكان لأبويَّ تأثير عميق في حياتي الفكرية، والشعرية. أما أبي، فقد بقي أستاذي في النحو حتى أنهيت دراسة الليسانس، وكنت أهرع إليه، بكل مشكل نحويٍ يعرض لي، وأنا أقرأ ابن هشام، والسيوطي، والأشموني، وسواهم، والحق أني كنت، ولم أزل، شديدة الولع بالنحو.

وقد فرش لى أبى طريقًا ممهدًا رائعًا، حين وضع بين يدى مكتبته التى كانت تحتوي على متون النحو، وكتب الشواهد جميعًا، ولذلك كان من الطبيعى، تمامًا، أن أكون الطالبة الوحيدة بين طلبة قسم اللغة العربية التى اختارت رسالة لمرحلة الليسانس فى موضوع نحوىّ، هو : (مدارس النحو)، وكان المشرف عليها أستاذى الكبير العلاَّمة الدكتور مصطفى جواد الذى كان له فى حياتى الفكرية أعمق الأثر، رحمه الله، وجزاه عنا نحن تلاميذه أجمل الجزاء، ولم تزل رسالتى هذه فى مكتبة كلية التربية، وعليها تعليقات بالقلم الأحمر، كتبها الدكتور مصطفى عبدالجواد فى حينه.

أما والدتى، فقد كان لها أثر واضح فى حياتى الشعرية، لأننى كنت أعرض عليها قصائدى الأولى، فتوجه إليها النقد، وتحاول إرشادى، ولكنى كنت أناقشها مناقشة عنيدة، فقد لاح علىّ، منذ مرحلة الثانوية، التأثر بالشعر الحديث؛ شعر محمود حسن إسماعيل، وبدوى الجبل، وأمجد الطرابلسى، وعمر أبو ريشة، وبشارة الخورى، وأمثالهم، بينما كانت هى تعجب بشعراء أقدم مثل: الزهاوى خصوصًا. فقد كان شاعرها الأثير، وكان اهتمامها بالشعر القديم أكبر من اهتمامى، ولذلك كان تأثيره فى شعرها أبرز، ولكن ذوق أمى نفسها بدأ يتطور، كما يلاحظ من يدرس شعرها الذى طبعتُ المنشور منه، بعد وفاتها، فى ديوان سميته «أنشودة المجد» وقد بدأت أمى تتجه نحو الشعر الحديث إلى درجة ملحوظة، وكانت تعجب خصوصًا بشعر إبراهيم ناجى، وصالح جودت، ولكن اتجاهاتى الشعرية بقيت مختلفة عن اتجاهاتها، بسبب معرفتى للإنجليزية، والفرنسية وكثرة قراءتى لشعرائهما.

ورغم ذلك فقد بقينا، أنا وهى، صديقتين، فكانت تقرأ لى قصائدها، وأقرأ لها قصائدى، حتى وفاتها عام ١٩٥٣، وهى فى الثانية والأربعين من العمر، رحمها الله رحمة واسعة.

وخلال دراستى فى دار المعلمين العالية، كنت أساهم فى حفلات الكلية، بإلقاء قصائدى، وكانت الصحف العراقية تنشر تلك القصائد فى حينها. غير أنى أهملت هذا الإنتاج المبكر، ولم أدرج منه شيئًا فى مجموعاتى الشعرية المطبوعة، لأننى بقيت أنظر إليه على أنه شعر الصبا قبل مرحلة النضج، والواقع أننى أقبلت على نظم الشعر إقبالاً شديداً منذ عام ١٩٤١ يوم كنت طالبة فى الكلية. فقد دخلت فى ذلك العام بداية نضجى الروحى والعاطفى والاجتماعى، فضلاً عن أنه العام الذى شهد ثورتنا القومية العظيمة التى هزت كيانى هزاً عنيفًا وهى ثورة رشيد عالى الكيلانى، وكنت أتفجر حماسة لتلك الثورة ونظمت حولها القصائد المتحمسة التى لم أنشر منها أى شيء: فسرعان ما انتصر الحكم البوليسى فى العراق، ونصبت المشانق للأحرار، ولم يعد فى العراق من يستطيع التنفس، ولكننا، أنا وأمى، استمررنا ننظم القصائد الثائرة سراً، ونطويها فى دفاترنا الحزينة.

وفى عام ١٩٤٧ صدرت لى أول مجموعة شعرية، وقد سميتها (عاشقة الليل) لأن الليل كان يرمز عندى إلى الشعر، والخيال، والأحلام المبهمة، وجمال النجوم، وروعة القمر، والتماع دجلة تحت الأضواء، وكنت فى الليل أعزف على عودى فى الحديقة الخلفية للبيت بين الشجر الكثيف، حيث كنت أغنى ساعات كل مساء، وقد كان الغناء سعادتى الكبرى منذ طفولتى، وكنت أحبس أنفاسى إذا ما سمعت صوت عبدالوهاب، أو أم كلثوم يحمله إلىّ جهاز حاكٍ (غرامافون) يدور فى بيت الجيران، وكنت سريعة الحفظ لأى أغنية أسمعها، وكانت أمى لا تفتأ تندهش دهشة كبيرة عندما تسمعنى أغنى، وما زلت أذكر صوتها فى صغرى وهى تتلفت، وتقول: يا إلهى! من أين حفظت ابنتى كل هذه الأغانى؟ ومتى سمعتها؟ وكيف؟ ولم تدر أننى كنت حين أسمع حاكيًا يدور بأغنية أقف مسمَّرة فى مكانى حتى لو كنت فى الشارع. وفى تلك

الأيام البعيدة لم يكن المذياع قد دخل الحيـاة فى العراق طبعًا، فكان الاستماع إلى الأغانى لايتم إلا عن طريق الإسطوانات، ولم تبـدأ إذاعة بغداد بالبث إلا فى سنة ١٩٣٥، كما أتذكر، يوم أن بلغت الثانية عشرة من العمر.

وبعد صدور (عاشـقة الليل) بأشهر قليلة انتشر وباء الـكوليرا فى مصر الشقـيقـة، وبدأنا نسمع الإذاعـة تذكر أعداد المـوتى يوميًا، وحين بـلغ العدد ثلاثمائة فى اليوم انفعلت انفعالاً شعريًـا، وجلست أنظم قصيدة استعملت لها شكل الشطرين المعتاد، مُغيِّرةً القافـية بعد كل أربعة أبيات أو نحو ذلك، وبعد أن انتهيت من القصـيدة، قرأتها فأحسست أنها لم تعبّـر عما فى نفسى، وأن عواطفى ما زالت متـأججة. وأهملت القصيدة وقررت أن أعتـبرها من شعرى الخائب (الفاشل) وبعـد أيام قليلة ارتفع عدد الموتى بالكوليرا إلى سـتمائة فى اليوم، فـجلست، ونظمت قصـيدة شطرين ثانية أعـبر فـيها عن إحـساسى، واخترت لها وزنًا غير وزن القصيدة الأولى، وغيرت أسلوب تقفيتها ظانة أنها ستـروى ظمأ التعبـير عن حزنى، ولكننى حين انتـهيت منها شعـرت أنها لم ترسم صورة إحـساسى المتأجـج، وقررت أن القصـيدة قد خـابت كالأولى، وأحسست أننى أحتاج إلى أسلوب آخر أعـبر به عن إحساسى وجلست حزينة حائرة لا أدرى كيف أستطيـع التعبير عن مأساة الكوليـرا التى تلتهم المئات من الناس كل يوم.

وفى يوم الجـمـعـة ٢٧/ ١٠/ ١٩٤٧ أفـقت من النـوم، وتكاسلت فى الفراش أسـتمع إلي المذيع وهو يذكر أن عـدد الموتى بلغ ألفًا، فاسـتولى علىَّ حزن بالغ، وانفـعال شـديد، فقفـزت من الفراش، وحـملت دفتـرًا، وقلمًا وغادرت منزلنا الذى يموج بالحركـة، والضجيج يوم الجمعـة،وكان إلى جوارنا بيت شاهق يُبنى، وقد وصل البناؤون إلى سطح طابقه الثانى، وكان خاليًا لأنه يوم عطلة العمل، فجلست على سياج واطئ، وبدأت أنـظم قصيدتى المعروفة

الآن «الكوليرا». وكنت قد سمعت فى الإذاعة أن جثث الموتى كانت تحمل فى الريف المصرى مكدسة فى عربات تجرها الخيل، فرحت أكتب وأنا أتحسس صوت أقدام الخيل:

سكن الليل
أصغ، إلى وقع صدى الأنات
فى عمق الظلمة، تحت الصمت، على الأموات

ولاحظت فى سعادة بالغة أننى أعبر عن إحساسى أروع تعبير بهذه الأشطر غير المتساوية الطول، بعد أن ثبت لى عجز الشطرين عن التعبير عن مأساة الكوليرا، ووجدتنى أروى ظمأ النطق فى كيانى، وأنا أهتف:

الموت، الموت، الموت،
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت

وفى نحو ساعة واحدة انتهيت من القصيدة بشكلها الأخير، ونزلت ركضًا إلى البيت، وصحت بأختى "إحسان" انظرى لقد نظمت قصيدة عجيبة الشكل أظنها ستثير ضجة فظيعة، وما كادت إحسان تقرأ القصيدة - وهى أول من قرأها - حتى تحمست لها تحمسًا شديدًا، وركضت بها إلى أمى فتلقتها ببرودة، وقالت لى: ما هذا الوزن الغريب؟ إن الأشطر غير متساوية، وموسيقاها ضعيفة يا بنتى، ثم قرأها أبى، وقامت الثورة الجامحة فى البيت؛ فقد استنكر أبى القصيدة، وسخر منها واستهزأ بها على مختلف الأشكال، وتنبأ لها بالفشل الكامل، ثم صاح بى ساخرًا «وما هذا الموت الموت الموت؟»

لكل جديد لذة غير أننى وجدت جديد "الموت" غير لذيذ

وراح إخوتى يضحكون وصحت أنا بأبى «قل ما تشاء»، إنى واثقة أن قصيدتى هذه ستغير خريطة الشعر العربى، وكنت مندفعة أشد الاندفاع فى

عبارتى هذه، وفى أمثال لها كثيرة قلتها رداً على التحدى بالتحدى، ولكن الله سبحانه وتعالى كان يسبغ علىّ رحمته فى تلك اللحظات الحرجة من حياتى الشعرية، فكتب لقصيدتى أن يكون لها شأن كما تمنيت وحلمت، فى ذلك الصباح العجيب فى بيتنا.

ومنذ ذلك التاريخ انطلقت فى نظم الشعر الحر، وإن كنت لم أتطرف إلى درجة نبذ شعر الشطرين نبذاً تاماً، كما فعل كثير من الزملاء المندفعين الذين أحبوا الشعر الحر، واستعملوه بعد جيلنا.

وفى عام ١٩٤٩ صدرت ببغداد مجموعتى الشعرية الثانية (شظايا ورماد)، وقد صدرتها بمقدمة أدبية ضافية عرضت فيها موجزاً لنظرية عروضية لشعرى الجديد الذى نشرت منه فى المجموعة عشر قصائد؛ وما كاد الكتاب يظهر حتى أشعل ناراً فى الصحف، والأندية الأدبية، وقامت حوله ضجة عنيفة، وكتبت حوله مقالات كثيرة متلاحقة، كان غير قليل منها يرفض الشكل الجديد الذى دعوت إليه، ويأباه للشعر، غير أن الدعوة لقيت أروع القبول فى الأوساط الشعرية الشابة، فما كاد يمضى عام حتى كان صدى الدعوة قد تخطى العراق إلى خارجه، وبدأت أقرأ فى المجلات الأدبية فى مصر، ولبنان، وسوريا، وسواها قصائد من الشعر الحر، كان غير قليل منها يحمل لافتات إهداء نثرىّ: "إلى الشاعرة نازك الملائكة».

* * *

فى عام ١٩٤٢ بلغ نشاطى الشعرى واللغوى، والفنى، والأدبى أوجه، فاندفعت أطلب الثقافة، والعلم فى نهم لايرتوى، وحرارة لا تنطفئ، ففى السنة نفسها سجلت نفسى طالبة فى فرع العود بمعهد الفنون الجميلة، ودخلت طالبة فى فرع التمثيل، وانتميت إلى صف لدراسة اللغة اللاتينية، وكنت إذا

ذاك - فوق هذا كله - طالبة فى السنة الثانية من دار المعلمين العالية، وقد وهبت نفسى، فى حرارة لا مثيل لها، إلى هذه الدراسات كلها، وكنت أحبها أشد الحب.

أما العزف على العود فقد كان أمنيتى منذ صغرى، وحين رأى أبى حرقة تشوقى إلى هذه الدراسة، وافق بعد تردد طويل على أن أدخل معهد الفنون الجميلة لأدرس على الفنان الكبير الموسيقار الأستاذ محيى الدين حيدر الذى كان اسمه الفنى فى المعهد: «الشريف»، ولهذا الفنان طريقة فريدة فى العزف، والتدريس عليها أثر موهبته الفنية العظيمة، وله فى العراق اليوم تلاميذ معروفون من الموسيقيين، من مثل الأستاذ سلمان شكر، والأستاذ جميل بشير، وسواهما. وكانت مدة الدراسة ست سنوات، والمنهج يقوم على تدريسنا المقامات الشرقية على بشارف وسماعيات، وسواها، وكان الطالب يتدرج حتى يصل إلى قمة المهارة الفنية فى عزف مقطوعات الشريف محيى الدين التصويرية الرائعة مثل: «تأمل» و«ليت لى جناحًا» و«كابريس». وكان للشريف، يرحمه الله، مزاج فى العزف، فكان يغير، ويعدل فى البشارف، والسماعيات التى ألفها كبار الموسيقيين، من مثل: طانيوس أفندى، وجميل بك، وعزيز دده، ويوسف باشا، وكانت هذه التعديلات تجمل الأصل أروع تجميل، وتخرجه إخراجًا حيًا، وكنت أنا أجلس فى صف العود مسحورة، وكأنى أستمع إلى صلاة، وكان الشريف يكرر علىَّ أن لى سمعًا موسيقيًا حساسًا، وموهبة ظاهرة، ولكنه كان خائفًا علىَّ أن يجرفنى حبى للشعر ويبعدنى عن الموسيقى على أى شكل من الأشكال، ورغم أننى ما زلت، حتى اليوم، أعزف لنفسى لكى يصحبنى العود، وأنا أغنى ألحان عبدالوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، وعبدالحليم حافظ، ونجاة. وهو انصراف محدود، غير ما كان أستاذى يتوقع منى، ولعله كان ينتظر أن أكون عازفة مشهورة فى الإذاعات ومؤلفة ألحان.

وأما دراستى للتمثيل، فالحق أنه كان لى فيها دافعان اثنان.

أولهما أن أتعلم فن الإلقاء، فقد كنت أرتقى المسرح لألقى قصائدى فأقرأها قراءة رتيبة دون أن أعرف كيف ألوِّن صوتى بالانفعال، وأرفعه، وأنغمه مع معانى قصيدتى، وقد خطر لى أن دراسة التمثيل ستساعدنى فى هذا المجال. والدافع الثانى أننى اطلعت على منهج الدراسة فى هذا الفرع فبهرنى. كان منه دراسة مفصلة مسهبة للميثولوجيا الإغريقية، بكل تفاصيلها الدقيقة، ومداخلها، ومخارجها. وكان موضوع «تاريخ المسرح والأدب المسرحى» للسنة الثانية يشمل دراسة إسخيلوس، وسوفوكليس، ويوربيديس، وأريستوفان، وكنت أعلم مدى غنى الأدب اليونانى، ومدى ضرورته للممثل، والدارس، فاندفعت فى حرارة أسأل أبى أن يأذن لى بدخول فرع التمثيل، وقد رفض أبى أولاً، ولكن الله سبحانه شاء أن يشملنى برعايته، فإذا أبى يُكلَّف بتدريس اللغة العربية فى فرع التمثيل، وعندما وجد أننى سأكون تلميذة له أخذنى معه إلى الأستاذ حقى الشبلى المسؤول عن الفرع، وسجلنى طالبة، واكتملت سعادتى.

وأما اللغة اللاتينية فإن قصة دراستى لها كانت أغرب، فقد كننت طالبة فى قسم اللغة العربية، وكنا ندرس اللغة الإنجليزية، وصادف أن أستاذنا أشار فى الصف، مرارًا، إلى ضرورة معرفة اللغة اللاتينية لمن يريد التخصص فى الأدب الإنجليزى، فشوقنى ذلك إلى دراستها، وبقيت هذه الرغبة عابرة فى نفسى حتى سمعت فى آخر العام الدراسى ١٩٤١- ١٩٤٢ أن إدارة الكلية قررت إضافة مادة اللغة اللاتينية إلى منهج طلبة السنة الأولى، فرع اللغة الإنجليزية، وهنا بدأت لهفتى، أردت - بأى ثمن- أن أنتمى إلى هذا الصف لأتعلم اللغة اللاتينية، وراجعت أستاذ المادة فاعتذر عن قبولى فى الصف، وسألنى مندهشا: «ولكنك طالبة فى قسم اللغة العربية، فماذا تنفعك

اللاتينية؟» ولم يوهن هذا عـزيمتى، وراجعت عميد الكـلية، ورجوته أن يأذن لى بالدراسة مع طلبة الإنجليزية، عندما رأى العميد لهفتى سمح لى، وانتميت إلى صف اللغة اللاتينية، وبدأت أحفظ، بحـماسة، تلك القوائم التى لاتنتهى من حالات الأسـماء وفصائلهـا، وتصريفات الأفـعال، وسواها مما يعتـبر من أصعب ما يعرفه طلبة اللغات.

وقد بقى حب اللغة اللاتينية فى دمى حـتى اليوم، وما زلت أقتنى كتب الشعـر اللاتينى، وأحاول أن أقرأها كلمـا وجدت فراغا، وأتذكـر أننى، بعد شهرين من بدئى لدراسة هذه اللغة، أصبحت أكتب مذكراتى بها، كما نظمت نشيدًا لاتيـنيًا على نغمة الأغنيـة المشهورة (At The Ballalika). وكان من الطبيعى أن يكون النشيد بدائيا ساذج الصيغة، فقد كنت لم أزل طالبة مبتدئة، ولقـد واصلت دراسة اللغـة اللاتينيـة سنوات كثـيرة وحـدى من دون أستـاذ بمساعدة القواميس، ثم دخلت صفا فيـها فى جامعة برنستن بالولايات المتحدة درسنا فيه نصوصـًا للخطيب الرومانى شيشرون، وقد أعجـبت أشد الإعجاب بشعر الشاعـر اللاتينى «كوتولوس»، وحفظت مجموعـة من القصائد له، وما زلت أترنم بها أحيانًا فى وحدتى، فأجد سعادة بالغة فى ترديدها. والواقع أنى أجد فى اللغة اللاتينية نفسها سحرا يجتذب كيانى كله، ولست أعرف سر هذا الافتتان بلغة يكرهها الطلبة عادة، وينفرون منها أشد النفور.

وفى عـام ١٩٤٩ بدأت بدراسة اللغـة الفرنسـية، فى البـيت، مع أخى الذى يصغرنى: نزار وكان إذ ذاك طالبـًا فى قسم اللغة الإنجليزية بدار المعلمين العالية، وكـان له ولع شديد بالأدب، واللغات، وهو شاعـر أيضًا، وإن كان مقلاً، وكانت تربطنى به صداقة عميـقة، وكنا نشترك أنا وهو فى غرفة واحدة تنتشر فيها الكتب على سـريرينا، وطالما قام الجدل بيننا فى موضوعات الأدب والحياة.

بدأنا إذن، أنا ونزار ندرس الفرنسية من دون مدرس، وذلك اعتماداً على كتاب إنجليزى يعلم هذه اللغة، أهدانا إياه عمي، وقد سعدنا سعادة بالغة بتعلم هذه اللغة الجميلة، وواصلنا تعلمها حتى أصبحنا نقرأ فيها كتب الشعر، والنقد، والفلسفة، وفي عام ١٩٥٣ دخلت دورة في المعهد العراقى، قرأنا فيها نصوصًا من الأدب الفرنسي، من مثل قصص: ألفونس دوديه، وموباسان، ومسرحيات موليير، ولكن نطقى بهذه اللغة بقى رديئًا حتى اليوم، لأننى تعلمتها من دون أستاذ يلفظ أمامى الكلمات، ولم تتح لى فرصة للسفر إلى فرنسا، والحياة فيها فترة، وهذا ما يحزننى دائمًا حين أجدنى أقرأ، وأفهم، ومع ذلك لا أحسن الكلام، ولا النطق الصحيح.

أما الأدب الإنجليزى فقد بدأت عنايتى به وأنا طالبة فى دار المعلمين العالية يوم كنا نقرأ شعر شكسبير (Sonnets) ومسرحية «حلم منتصف ليلة صيف»، وقد ترجمت إلى الشعر العربى إحدى سونيتات شكسبير، إذ ذاك. وأقبلت بعد ذلك على قراءة شعر بايرون، وشيللي. وفى عام ١٩٥٠ دخلت دورة فى المعهد الثقافى البريطانى لدراسة الشعر الإنجليزى، والدراما الحديثة، استعداداً لأداء امتحان تقيمه جامعة كامبردج وتمنح بعده شهادة الـ(PROFI-CENCY)، وكان مستوى هذه الدراسة أعلى من ليسانس اللغة الإنجليزية، لأن طالبة متفوقة فى السنة الرابعة من فرع اللغة الإنجليزية دخلت معى هذه الدورة، فكانت النتيجة أنها رسبتْ، ونجحتُ. وكان سر نجاحى أننى انهمكت طيلة العام فى قراءة عشرات من كتب الشعر، والدراما، فى حماسة، ونهم، والواقع أن أغلب الذين اشتركوا فى الامتحان معنا قد رسبوا، ولم ينجح سواى وسوى طالب واحد خارجى لم يشترك معنا فى الدراسة بالمعهد البريطانى، وكان لهذا الامتحان امتحان ثان أعلى منه تقيمه جامعة كمبردج نفسها، ولكنى لم أقدمه، وإنما سافرت إلى الولايات المتحدة لدراسة النقد الأدبى.

وكانت هذه المرحلة تمتد عامًا، وقد أوفدتنى إليها مؤسسة روكفلر الأمريكية، واختارت لى أن أدرس النقد الأدبى فى جامعة برنستن فى نيو چيرسى بالولايات المتحدة، وهى جامعة رجالية ليس فى تقاليدها دخول الطالبات فيها، ولذلك كنت الطالبة الوحيدة، وكان ذلك يثير دهشة المسؤولين فى الجامعة كلما التقى بى أحدهم فى أروقة المكتبة، أو الكليات، وقد أتيحت لى فى هذه الفترة الدراسة على أساطين النقد الأدبى فى الولايات المتحدة، من مثل ديتشرد بالاكمور، وآلن دوانر، وآلن تيت، ودونالد ستاوفر، وديلمور شوارتز، وكلهم أساتذة لهم مؤلفات معروفة فى النقد الأدبى، كما عرفوا بأبحاثهم فى مجلات الجامعات الأمريكية، وسائر الصحف الأدبية.

* * *

بعد عودتى إلى العراق عام ١٩٥١ بدأت أتجه إلى كتابة النثر بخاصة فى النقد الأدبى وفى عام ١٩٥٣ ألقيت محاضرة فى نادى الاتحاد النسائى ببغداد كان عنوانها (المرأة بين الطرفين: السلبية، والأخلاق) انتقدت فيها أوضاع المرأة الحاضرة، وعقم المجتمع العربى، ودعوت إلى تحرير المرأة من الجمود والسلبية، وقد أثارت هذه المحاضرة ضجة فى بغداد، وتحدثت عنها المحافل طويلا بخاصة وأن إذاعة بغداد نقلتها كاملة، وأذاعتها على الجمهور. وسرعان ما نشرتها مجلة (الآداب) البيروتية التى كانت تصدرها إذ ذاك دار العلم للملايين.

وواصلت خلال ذلك نظم الشعر ونشره، ونشر مقالات النقد الأدبى فى مجلتى (الأديب) و(الآداب) ببيروت.

وفى عام ١٩٥٣ حدث لى حادث هز حياتى إلى أعماقها، فقد مرضت والدتى مرضًا مفاجئًا شديدًا، وقرر الأطباء ضرورة إجراء عملية جراحية لها فى لندن فورًا، ولم يكن فى بيتنا من يستطيع السفر معها إلى إنجلترا سواى،

بسبب معرفتى للندن، وحياتى فيها فترة وبسبب إتقانى للغة الإنجليزية - وكان نزار قد سافر إلى الولايات المتحدة للدراسة. كل هذا اضطرنى إلى أن أصحب أمى المريضة أشد المرض إلى لندن على عجل، والرعب مُستَوْلٍ علىّ، فقد كنت خائفة فى أعماقى من شىء رهيب سيقع لى لم أشخصه، وقبل سفرى بأسبوع حلمت أننى أسير فى شوارع لندن وأحاول شراء تابوت ملون، وأبحث، أبحث، وأبحث فى لهفة ورعب فلا أجد من يبيعنى تابوتًا، ولم أقص حلمى هذا على أحد فى البيت، وسافرت بها، وتم إدخالها إلى غرفة العمليات، وخرجت منها محمولة على نقالة حيث أودعوها فى عنبر الموتى بالمستشفى ريثما تتم إجراءات الدفن المعقدة، وقد رأيتها، وهى تحتضر فى مشهد رهيب هز حياتى إلى أعماقها، وكان علىَّ أن أحضر مشاهد الجنازة والدفن وأنهض بأعبائها، وهى أعمال لم أعتد القيام بمثلها، وعدت إلى العراق بعد أسبوعين ذابلة حزينة مهزوزة النفس، فقد كنت أحب أمى حبًا شديدًا لا مثيل له، وما كدت أرى إخوتى، وأقاربى يلبسون السواد وهم يستقبلوننى فى مطار بغداد حتى بدأت أبكى، وأبكى بكاء لا ينقطع ليلاً ولا نهارًا، وسرعان ما لاح لى بوضوح أننى مريضة، فبادرت إلى مراجعة طبيب عالجنى بالحبوب المهدئة، فتوقفت دموعى، وإن بقى الحزن يحفر فى حياتى حتى اليوم بعد خمسة وأربعين سنة من وفاة والدتى يرحمها الله، وكانت حصيلتى الشعرية المباشرة، بعد وفاة أمى، قصيدة سميتها «ثلاث مرات لأمى» استعملت فيها أسلوبًا جديدًا فى الرثاء لم يسبقنى إليه أحد، وسرعان ما ذاعت قصيدتى هذه، واستقبلها الشعراء بحرارة، وإعجاب بالغين.

وقد كان من حسن حظى - وأنا فى أحزانى التى هدمتنى بعد وفاة أمى - أن انتخبتنى مديرية البعثات العراقية لدراسة الأدب المقارن فى الولايات المتحدة، وقد قبلت فى جامعة وسكنسن، إحدى أول عشر جامعات فى

الولايات المتحدة، فسافرت متحمسة للدراسة أشد الحماسة، وأتاح لى موضوع الأدب المقارن أن أستفيد من اللغات الأجنبيـة التى أعرفها، بخاصة الإنجليزية، والفرنسـية. وخلال هذه الدراسـة اكتسـبت ثقافة غـنية رائعة أخـصبت ذهنى وملأتنى سعادة. وقد كنت أقضى أغلب الوقت فى مكتبة الجامعة الغربية التى كان لها أعمق الأثر فى حياتى فى تلك الفترة، كما اغتنت حياتى بأفكار عذبة كثيـرة منوعة، واكتسبت من التـجارب أضعاف ما كـسبته فى حيـاتى السابقة كلها. وتغيرت مفاهيمى، ومُثلى، ومقاييسى، وتبدلت شخصيتى كلها.

وقد كـان النظام فى هذه الجامـعة رائعًـا، لأنه لايتطلب كتـابة أطروحة كبيرة، بل يكلف الطالب بإعداد مجموعـة كبيرة من الأبحاث فى موضوعات أدبية منوعـة، فكنت أجد مـتعة عظـيمة فى كـتابة هذه المقـالات التى مرنت قابلـيتى فى النقـد الأدبى، وما زالت الأبحـاث المكتوبة بالإنجليـزية تنتظر أن أترجمها إلى العربية، وأنشرها. وسبب إعراضى عنها، حتى الآن، يرجع إلى أنها كـلها تتناول الآداب الأوروبيـة، فلا يتخلـلها اسم عربى، وقـد ألفت أن أشـعر أن كـتـابة الأديب العربى مـقـالات تغص بالأعلام الأجـنبيـة نوع من التكلف، وإقحام لثـقافة أجنبية على القارئ العـربى البسيط. ولذلك أنوى أن أوسع الجانب المقـارن فى أبحاثى هذه بحيث يشـمل أعلامًا عربيـة إلى جانب الأوروبية، وإذ ذاك سأسـتريح إلى نشرها، وأرجو أن يتـاح لى يومًا أن أفعل هذا.

وكان سفـرى إلى وسكنسن عام ١٩٥٤، واستغرق إعداد الماجسـتير فى الأدب المقـارن سنتين كتـبت خلالهـما مـذكرات أدبيـة كثـيرة سجـلت فيـها ملاحظاتى على الكتب التى قرأتها، والأشخاص الذين تعرفت إليهم، وعشت بينهم فى تلـك الفتـرة، كـما احـتـوت على آرائى المفـصلة المركـزة فى المرأة الأمريكية. ومع هذا كله، كنت فى مـذكراتى أغوص غوصًا عمـيقًا فى تحليل

نفسي، وقد اكتشفت أنني كننت لا أعـبر عن ذهني، وعواطفي كما يفعل كل إنســان حولــي، وإنما ألوذ بالانطواء، والصـمت، والخجـل، واتخذت قـرارًا حاسمًا أن أخرج على هذا الطبع السلبي، وشهدت مذكراتي صراعًا عظيمًا مع نفسي من أجل تحـقيق هذا الهدف، فكـنت إذا تقدمت خطوة تراجعت عـشر خطوات بحيث اقتضاني التغير الكامل سنوات كثيرة طويلة.

وأنا اليوم أدرك أن تغـيير العادات النـفسية من أصـعب الأمور، ولذلك أعتبر كفاحي المتـواصل لتعديل أعماقي النفسية، ومسلكي الاجـتماعي كفاحًا بطوليًا، لم يساعدني علـيه إلا الله تعالى برحمته السابغـة، ورعايته الدائمة، مهـما يكن فإن في نيتي أن أفـرغ يوما لانتخـاب مختارات من مـذكراتي في مادسن/ وسكنسن للنشـر، وقد أعطيت حلقة منها إلى جـريدة الأهرام صيف سنة ١٩٦٦، فنشرتها في عددها الصادر يوم ٥/٨/١٩٦٦.

وعندما رجعت من الولايات المتحدة، مررت في طريق العودة بإيطاليا، وجنوب فرنسا، ثـم عرجت على دمشق حيث مؤتمر الأدباء الـعرب الثاني في بلودان، وكانوا قد وجـهوا إليّ دعوة وأنا في الولايات المتحـدة. وكنت يومها أحس بنوع من الأزمة أعانيـه، فقد كان التعـبير بالعربية لايـطاوعني تمامًا بعد سنتين لم أتكلم خلالهما إلا بالإنجليزية، وكانت حياتي الفكرية والروحية كلها تقوم على هذه اللغـة الأجنبية، وكنت أحـس بذلك إحساسًا قـاسيًا بخـاصة خلال وجـودي في مؤتمر الأدباء الذي افتـتحت به عودتـي إلى الوطن العربي الحبيب. ولم يزايلني هذا الإحـساس إلا بعد مرور أشهر في العـراق استعدت خلالها طلاقة التعبير بالعربية.

وفي عام ١٩٥٧ صدرت في بيـروت مجموعتي الشعرية الـثالثة (قرارة الموجة)، وقد احتوت على منتخبـات من شعري بعد (شظايا ورماد)، ونشرتها دار الآداب ببيروت.

وفى عـام ١٩٥٨ قامت فى العـراق ثورة ١٤ تموز، وأثرت فى حيـاتى أعنف تأثير حتى اسـتغرقت كل لحظة من عمـرى ذلك العام. وقد استقـبلتها بقصيدة ساخنة بدأتها:

فرح الأيتام بضمة حب أبوية

فرحة عطشان ذاق الماء

فرحة تموز بلمس نسائم ثلجية

فرح الظلمات بنبع ضياء

فرحتنا بالجمهورية

وكانت القـصيدة تعبـيرًا بسيطًا عن الفـرح العميق الغامـر. وتحذيرًا من مؤامرات أمريكا، والصهيونية العالمية:

السوق صحا يا ورد حذار

من نقمته الصهيونية

ومخالبه الأمريكية

ولكن عبـدالكريم قاسم سرعان مـا انحرف، واستهوته شـهوة الحكم، وسمح للشـعوبية أن تمس جمـال الثورة، وتقضى على مـبادئها القومـية التى أحبـها أشد الحب، وقـد اضطرنى عسف الحكم، وتهـديده المستـمر إلى ترك العـراق، والسكن ببـيروت عـامًـا كـاملاً (١٩٥٩- ١٩٦٠) وخـلال ذلك، واصلت نشر إنتاجى القومى فى مجلة (الآداب).

فى عام ١٩٥٧ عينت مدرسة معيـدة فى كلية التربية ببغداد أدرس النقد الأدبى، العـروض، وبعد عـودتى من بيروت عـام ١٩٦٠ تعرفت إلى زمـيل جديد فى قسم اللغـة العربية هو الدكتور عبـدالهادى محبوبة، خريـج جامعة

القاهــرة. وفى منتصف عــام ١٩٦١ تزوجنا، فكان لى نعم الصديق والـرفيق والزميل.

وفى عام ١٩٦٢ صدر لى أول كتاب فى النقد الأدبى هو (قضايا الشعر المعاصـر)، وقد درست فيه الشـعر الحر دراسـة خاصة مفـصلة، ووضعت له عروضًا كـاملاً اعتمادًا على معـرفتى للعروض، وعلى قوة سمـعى الشعرى، وعلى كثرة قراءتى لشعر الزملاء من الشعراء، وقد أهديت الكتاب إلى الرئيس العربى جـمال عبـدالناصر، متحـدية عبدالكريم قـاسم الذى كان يمقتـه أشد المقت.

وفى عام ١٩٦٤ سـافرنا، أنا وزوجى، للعـمل فى تأسيس جامـعة فى البصـرة؛ حيث كان الدكـتور عبـدالهادى رئيسًـا للجامعـة، وكنت أعمل فى التدريس بقـسم اللغة العربية، ثم انتـخبت رئيسًـا للقسم واستمـر عملنا هناك أربع سنوات، وغادرنا البـصرة إلى بغـداد أواخر عام ١٩٦٨ حـيث عدنا إلى التـدريس فى كليـة التربيـة سنة واحـدة، غادرنا العـراق بعـدها إلى الكويت للتدريس فى جامعتها.

وفى عام ١٩٦٤ دعانى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة إلى إلقاء محاضـرات حول الشعر فى موضـوع أختاره، فعكفت على كتـابة كتاب عن الشاعر المبدع على محمود طه الذى كنت تأثرت بشعره خلال فترة الصبا، يوم كنت طالبة فى فرع التمثيل بمعهد الفنون الجميلة، وقد طبع هذا الكتاب (شعر على محمود طه) فى القاهرة عام ١٩٦٥. وكان عنوان طبعته الثانية (الصومعة والشرفة الحمراء)، وقد طبعته دار العلم للملايين.

وفى أول سنة ١٩٦٨ صدرت لى مجموعة شعرية رابعة عنوانها (شجرة القمر)، تطور فيـها شعرى تطورًا واضحًا عما كـان عليه فى المرحلة السابقة،

مـرحلة (قرارة الموجـة) التى كنت خـلالهـا أميل إلى الفلـسفـة، والفكر فى شعرى، ونثرى جميعًا.

وفى عـام ١٩٧٠ صدرت مـطولتى الشـعرية (مـأسـاة الحيـاة وأغنيـة للإنسان). عن دار العودة ببيروت.

* * *

وبعد، فـهذه خطوات مركزة مـختصرة من سـيرة حياتى كـتبتها تلـبية لطلبات كثـيرة ترد على من الباحثين، وطلبـة الجامعات الذين يكتـبون رسائل الماچستـير، والدكتوراه. أمـا سيرة حيـاتى المفصلة، ففيـها كثيـر من الغرائب الممتعة، وأرجو أن يتاح لى أن أفرغ لكتابتها يومًا قبل الموت.

مأساة الحياة

الطبعة الأولى ١٩٧٠

«أكثـر هذه المطوّلة قـد نُظم سنة ١٩٤٥ والقليل منها امتد إلى ١٩٤٦، وكان عـمرى ثلاثة وعشرين عاماً».

تقدمة

- بقلم الشاعرة -

يضمّ الأثر الشعريّ الذى أضعه بين يدى القارئ فى هذا الكتاب ثلاث صور شعرية لقصيدة واحدة، أولها قد نظم بين سنة ١٩٤٥ و ١٩٤٦، وثانيها قد نظم سنة ١٩٥٠ وثالثها متأخر التاريخ حتى ١٩٦٥، ولقد يمكن أن تعدّ قصيدة من هذه القصائد المطوّلة مستقلّة عن الأخريين، لولا أننى قد نسخت بعض الأبيات أحيانًا فنقلتها من قصيدة إلى أخرى على اعتبار أنها مازالت ترضى ذوقى رغم مرور السنين، ولعلّ من المفيد أن أشرح الظروف الزمنية والنفسية والفكرية التى أحاطت بى خلال عشرين عامًا من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٥م:

أما القصيدة الأولى فقد نظمتها عام ١٩٤٥ - وكان عمرى إذ ذاك اثنين وعشرين عامًا- ولم يكن ديوانى الأول (عاشقة الليل) قد ظهر إلى الوجود أو طبع، وكنت إذ ذاك أكثر من قراءة الشعر الانجليزى فأعجبت بالمطوّلات الشعرية التى نظمها الشعراء وأحببت أن يكون لنا فى الوطن العربىّ مطوّلات مثلهم، وسرعان ما بدأت قصيدتى وسميّتها «مأساة الحياة» وهو عنوان يدل على تشاؤمى المطلق وشعورى بأن الحياة كلها ألم وإبهام وتعقيد، وقد اتخذت للقصيدة شعارًا يكشف عن فلسفتى فيها هو هذه الكلمات للفيلسوف الألمانى المتشائم «شوبنهاور»: (لست أدرى لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما أسدل على هزيمة وموت، لست أدرى لماذا نخدع أنفسنا بهذه الزوبعة التى تثور حول لا شئ؟ حتّام نصبر على هذا الألم الذى لا ينتهى؟ متى نتدرّع بالشجاعة الكافية فنعترف بأن حبّ الحياة أكذوبة، وأن أعظم نعيم للناس جميعاً هو الموت؟)، والواقع أن تشاؤمى قد فاق تشاؤم شوبنهاور نفسه، لأنه

- كما يبدو - كان يعتقد أن الموت نعيم لأنه يختم عذاب الإنسان، أما أنا فلم تكن عندى كارثة أقسى من الموت، كان الموت يلوح لى مـأساة الحياة الكبرى، وذلك هو الشعور الذى حملته من أقصى أقاصى صباى إلى سنّ متأخرة.

وهكذا بدأت نظم المطولة، وقد اخترت لها بحراً عروضياً مرناً هو البحر الخفيف الذى يجرى بين يدى الشاعر كما يجرى نهر عريض فى أرض منبسطة، وقد بلغت القصيدة ألفا ومائتى بيت نظمتها فى ستة أشهر تقريبا وانتهيت منها عام ١٩٤٦ وكان موضوعها فلسفيا يدور حول الموت والحياة وما وراءهما من أسرار، وقد تخلل القصيدة جزء منها شكوت فيه من المآسى التى سببتها الحرب العالمية الثانية التى كانت تستعر فى الغرب ودعوت إلى السلام وتغنيت به ونددت بتجار الحروب وقاتلى البشر، ثم انتقلت إلى الحديث عن السعادة متسائلة إن كان لها وجود حق فى الدنيا، ثم رحلت أبحث عنها فى مختلف الأوساط فلا أجدها، بحثت أولا لدى الأغنياء لعل السعادة فى قصورهم وحياتهم المترفة الناعمة، ولكنى لم أجدها لأنّ الغنىّ لا يستطيع أن يدفع وحشة القبر والأكفان بأمواله، ثم مررت بالرهبان والزاهدين فوجدت عواطفهم المكبوتة تقلقل حياتهم ومضض الحرمان يظلل مساكنهم ويبدو على وجوههم، ثم قلت لعلّ السعادة فى ارتكاب الشرور والآثام فطفت بأوكار اللصوص، والمجرمين، فوجدت أن ضمائرهم تعذبهم ولا تأذن لهم أن يرتاحوا، ووصلت إلى الريف بأشجاره وامتداداته الجميلة فوجدت سكانه فقراء محرومين يعيشون عيشة البؤس والعذاب، وصورت فى هذا القسم من المطوّلة، راعيا صغيرا يأكله الذئب ثم وصفت الثلوج التى تهبط طوال الشتاء وتحرم الفلاحين من استنبات الأرض فينتشر الجوع والحزن بينهم وتموت مواشيهم، ومن الريف انتقلت إلى دنيا الشعراء لعل السعادة عندهم، ولكن بارقة الأمل سرعان ما تخبو بسبب حساسية الشاعر وتألمه للجياع والمحزونين

والمحرومين، ثم أنتـقل إلى العشاق لعلهم ذاقوا السعـادة، فلا أجد بينهم من يعرفـها لأن الشـهوة الجنسـية تدنس الروح وتحـدّ آفاق الفكر، وهكذا تنـتهى الرحلة بالخيبة فلا تجد الشاعرة السعادة مطلقا.

ولقد كانت «مأسـاة الحياة» صورة واضحة من اتجاهـات الرومانسية التى غلبتنـى فى سن العشرين ومـا تلته من سنوات، وكـان من مشـاعرى إذ ذاك التشاؤم والخوف من الموت وهما مفتاح هذه الصورة الأولى من المطولة، صورة ١٩٤٥.

وكنت فى عـام ١٩٤٦ أنوى أن أقدّم المطوّلة لـلقراء بعـد مجـموعـتى الشعرية الأولى «عاشقـة الليل»، وعندما طبع هذا الديوان كان فى آخره إعلان صـغيـر عن «مـأساة الحـيـاة» ولكن الظروف حـالت دون ذلك، فأصـدرت مجـموعتى الشعـرية الثانية «شظايا ورمـاد» عام ١٩٤٩ وهى المجمـوعة التى دعوت فيها إلى الشعر الحرّ.

وفى عام ١٩٥٠ كان أسلوبى الشـعرى قد تطور تطوراً كبيراً عـما كان أيام نظمى للمطولة، فـأصبحت مواردى الأدبيـة أغزر، وأسلوبى أكثـر صوراً وثقافـتى أغنى، فلم أعد راضيـة عن (مأساة الحـياة) ولذلك قرّرت أن أعـيد نظمهـا بأسلوبى الجديد فكانت صورتهـا الثانية، وعندمـا مضيت فى نظمـها لاحظت أنها - رغم وحدة الموضـوع - قد أصبحت قصيـدة ثانية تختلف فى كل لفظة منها عن (مأسـاة الحياة) فرأيت أن أهبها عنواناً جـديداً خاصة وأننى بدأت أنظر إلى الحيـاة بمنظار جديد فيه مـسحة من تفاؤل ووضـوح بحيث لا أحتمل أن استبقى العنوان القديم ولذلك سميتها «أغنية للإنسان»، وقد مضيت فى نظمهـا حتى بلغت أبياتها ٥٨٦ بيـتاً من الوزن الخفيف نفـسه، وعند هذا بدأت أشعر بالضـيق، فقد لاحظت انى مقـيدة بالنسخة الأولى مـادمت أعيد نظمهـا فليس فى وسعى أن أخرج عن الإطار العـام للقصيـدة الأولى، وكان

علي في «أغنية للإنسان» أن أبحث عن السعادة فلا أعـثر عليها، بينما كنت قد بدأت أدرك أن السعادة ممكنة ولو إلى مدى محدود، فكيف أوفق بين الموضوع القديم وآرائي الجديدة؟

واستعصى علي الحل وقلت لنفسي إنني لا أستطيع مواصلة القصيدة ولابد لي من تركها، وكان ذلك، اذ توقفت عن النظم وتركت القصيدتين خمسة عشر عاما من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٥ وقد كنت خلال هذه السنوات أشعر بالضيق كلما تذكرتها لأن «مأساة الحياة» كانت أجمل شعري في مرحلتي الأولى، مرحلة «عاشقة الليل» وكانت نسخة ١٩٥٠ أجمل شعري في مرحلتي الثانية، ولذلك عزّ علي أن تبقى محجوبة عن القراء، وراح الدكتور عبدالهادي محبوبة (زوجي) يحثني على إتمامها، وفكرت في ذلك فعلا، ولكني لاحظت أن أسلوبي الشعري قد تطور وتغيَّر ما بين ١٩٥٠ و ١٩٦٥ فلو أتممت (أغنية للإنسان) لظهر عليها فارق الأسلوب، وبقيت حائرة ماذا أصنع، ثم قررت أن أنشر (مأساة الحياة) كما هي دون تعديل، وجلست ذات صباح أنسخها معدّلة كلمة هنا وشطرا هناك دون أن أعيد نظمها كما صنعت سنة ١٩٥٠.

ولكني ما كدت أمضي صفحات حتى بدأت التغييرات تتسع وتشمل كثيراً من الأبيات، وبعد يومين وجدتني أغير القصيدة القديمة تغييرا كاملا دون أن استبقي من المطولة الأولى لفظة واحدة، وهكذا ولدت الصورة الثالثة من القصيدة عام ١٩٦٥، ولسوف يلوح للقارئ أنني أقرب إلى التفاؤل في هذه القصيدة، والواقع أن آرائي المتشائمة كانت قد زالت جميعا وحل محلها الإيمان بالله والاطمئنان إلى الحياة، ولذلك راح جو مأساة الحياة يتبدد تدريجيا، وقررت أن تجد الشاعرة السعادة في هذه القصيدة، وعندما بلغت ستمائة بيت أو يزيد شغلتني الحياة بأعمال وظروف معقدة فاضطررت إلى ترك المطوّلة والانصراف إلى مشاغلي، ومنذ ذلك لم أعد إلى المطوّلة.

واليوم إذ أقدّم الصور الثلاث إلى المطبعة، أحسّ اننى أقدّم عملا أدبياً متكاملا، لأن الشعر قد يقرأ لمجرد كونه شعراً، وهذه المطوّلة بصورها الثلاث تدلّ على خط التطوّر فى شعرى ما بين السنوات العشرين من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٥.

وبعد فلست أول من تعتريه هذه الحالات الشعرية فى سنين مختلفة فإن الشاعر الانجليزى جون كيتس مثلا قد نظم قصيدة عنوانها «هايبيريون» HYPERION تناول فيها سقوط الآلهة الأوائل فى الميثولوجى اليونانية، عندما حلّت مكانها أسرة جوبيتر Jupiter إله الآلهة الثانى، وقد صوّر «كيتس» فى هذه المطوّلة ميلاد (أبولو) إله الشمس وكيف حلّ محل الإله السابق هايبيريون إله الشمس الأول الساقط، وتعده هذه القصيدة من أروع شعر كيتس، وقد نشرها فى مجموعته الشعرية الصادرة سنة ١٨٢٠، وعندما انصرم الوقت شعر كيتس أن قصيدته لم تعد تمثل أسلوبه، فعاد ونظم منها نسخة ثانية سماها «سقوط هايبيريون» The Fall of Hyperion ونجد النسختين منشورتين فى ديوان كيتس تدلان على تطوره الشعرىّ من مرحلة إلى مرحلة.

وأنا إذ أقدم اليوم مطوّلتى باشكالها الثلاثة إنما أرجو أن يعذرنى القارئ بعد أن قصصت عليه التاريخ النفسى لها وصلتها بالتيارات الخفية من عواطفى وآرائى وحياتى، ومهما يكن من أمر فإن نسخة ١٩٤٥ كاملة لا نقص فيها، وأما القصيدتان التاليتان فحسبى أنهما تقدّمان الحقيقة الشعرية التى تختلف عن الحقيقة القصصية، فالشعر أعمق وأجمل من مجرد الموضوع الذى يعالجه ولذلك يمكن أن ترتوى مشاعرنا بجزء من قصيدة، وأما القصة فإن تمام الحكاية فيها جزء من كمالها لا ينفصل عنه.

وأود هنا أن أقتبس نماذج من موضوع واحد من القصائد الثلاث ليرى القارئ اتجاه التطور فى شعرى عبر عشرين عاماً، ورد فى «مأساة الحياة» عام

١٩٤٥ فى موضوع البحث عن السعادة عند سكان الأديرة الأبيات التالية:

أيهـا الراهبُ الذى يـقطع العـمـ ـر وحـيـداً فى كـوخـه المكفـهـر
هات حـدثنّىَ العـشـيّـة عـمـا عنـد دنيـاك من نعـيم وبشـر
حـدثونى عنكم فـقـالوا حيـاة من نـعـيم وأنـفس مـن نقـاء
عـجبـاً أين مـا يقـولـون؟ مـالى لا أرى غـيـر حـيـرة الأشـقـياء؟
مـا الذى عندكم من البشـر والأفـ ـراح مـاذا يـا أيهـا الزاهـدونا!
ليـس إلا عـمـر يمـرّ حـزينـاً يتـهـاوى كـآبـةً وسكـونا

أما فى نسخة ١٩٥٠ فهذه هى الصورة الـتى صورت بها مشاعر الرهبان ومملكتهم التى تقوم على الكبت والحرمان:

شـيّدوها مـن كـل لفتة شـوق فـى العـيون الحبيسـة المحرومه
وسقـوا أرضهـا الجـديبة مـن بـر كـان تـلك العواطـف المكـتومه
وحمـوهـا مـن أن تغـازلها الشمـ ـس بألـوانها ولـين شـذاها
وأبـوا أن يلامـس القـمر المنـ ـفعل الضـوء فـى المسـاء دجـاها
وتمـنّوا ألاّ تمـرَّ بهـا ريـ ـحٌ عبـيرية الصـدى والنشـيد
فشفـاه الـرياح تكمُن فـيها قـبلٌ عـذبة وذكـرى خـدود
وتمـنوا أن يقفـل اللـيل عينيـ ـه وتخـبو نجـومه السحـريّه
فعـيون النجـوم تغـوى بأهدا ـب حـريـرية الـرؤى قمـريه

أما فى نسخة عام ١٩٦٥ فقد تحوّلت هذه المعانى إلى الصيغة التالية:

أيهـا الراهـب الـذى يقطع العمـ ـر وحـيداً فـى غـرفة منسيـه
ليـس يدرى دفء المودة فى عيـ ـنين فـى قـرّ ليـلة شـتويه
حـدّثونى عنكـم فقالـوا ضياء وكـؤوس مـن الشـذى روحيّه
وسموٌّ إلـى الذرى الطاهرات الـ ـبيض فـوق الرغـائب البشـريه

عجباً أين ما سمعت هنا شو ... قٌ ونارٌ وأعينٌ مفتونه
وهوى قيّدوه عطشان محرو ... ما فأين السلام أين السكينه؟

ولكن الذى يلاحظ أن نسخة عام ١٩٦٥ قد لمحت تلميحاً واضحاً إلى أن هذه الشاعرة لا تنظر بعيداً ولا عميقاً وهى تبحث عن السعادة وإنما هى متشائمة لأن نظراتها تقع فوق السطوح ولا تغوص عميقاً وراء المظاهر الخادعة. وقد جاء هذا المعنى فى «أنشودة الرياح» التى خاطبت الشاعرة قائلة:

أنصتى تسمعى ... فى السكون حفيف
وانظرى تبصرى ... أن جدبى وريف
لك قلب غفا ... عن معانى الذرى
لك روح ثوى ... فى ضباب الكرى

وهذا التطوّر فى النظرة هو التمهيد لفكرة عثور الشاعرة على السعادة فى ختام القصيدة.

وقد يتساءل متسائل: لماذا بقيت متمسكة بالبحر الخفيف فى القصائد الثلاث دون أن أخرج عنه إلى بحور أخرى؟ وجواب هذا أننى رأيت هذا البحر أكثر ملاءمة للمطوّلات فهو يسمح بالعبارة الطويلة على صورة تريح الشاعر الحديث، ولا يخفى أننا إنما دعونا إلى الشعر الحرّ لنمكن الشاعر العربى من ايراد جمل طويلة دون تقطع.

نازك الملائكة

بحمدون فى ١٩٧٠/٨/١١

مأساة الحياة

عــبثــاً تحلمــين شــاعــرتى مــا من صـبــاح لليل هـذا الوجــود
عبثــاً تسـألين لن يكـشف السر ولن تـنعــمى بفك الـقــيــود

فى ظلال الصفصاف قضيت ساعا تك حــيــرى تمضك الأسـرار
تســـألين الظـلال والظلّ لا يعـ ـلم شـيـئـا وتعلم الأقـدار

أبداً تـنظـريـن لـلأفـق المجـ ـهـول حيرى فـهل تجلىّ الخـفى؟
أبداً تـســألين والـقـدر السـا خـر صمت مـسـتـغلق أبدىٌّ

فـيم لا تيأسـين؟ مـا أدرك الأسـ ـرارَ قلبٌ من قـبل كى تدركـيـهـا
أسـفـا يـا فـتـاة لن تفـهـمى الأيـ ـام فلتـقنعى بأن تجـهليـهـا

أتركـى الزورق الكلـيل تسـيـر هُ أكف الأقـدار كـيـف تشـاء
مـا الذى نلت مـن مـصـارعـة المو ج؟ وهل نام عن مـناك الشـقـاء؟

آه يا من ضاعت حـياتك فى الأحـ ـلام مـاذا جنيت غـيـر الملال؟
لم يزل سـرها دفيـنـا فـيـا ضـيـ ـعة عـمرٍ قـضيتـه فى السؤالِ

هُوَ ســـرٌّ الحـــيـــاة دقَّ عـلى الأفـ ـــهـام حـــتى ضـاقت به الحـكمـاء
فـايأسى يـا فـتـاة مـا فُـــهـمت من قـبـلُ أسـرارها فـــفـيم الـرجـاء؟

جـاء من قـبلِ أن تجـيـئى إلى الدنْـ ـيـــــا مـــــلاييـن ثم زالـوا وبادوا
ليتَ شـعـرى مـاذا جَنَوْا من ليـاليـ ـهم؟ وأيـنَ الأفـراحُ والأعــيـــادُ؟

ليـس منهم إلا قـــبـــورٌ حـــزينـا ت أقـيـمت على ضـفـاف الحـيـاة
رحلوا عن حِـــمَى الوجـود ولاذوا فى سـكونٍ بـعـــالم الأمـــواتِ

كم أطاف الليلُ الكئـيب على الجو وكـم أذعـنـت له الأكـــــــوانُ
شـــهـــد الليـلُ أنّه مـــثـلـمـــا كـــا ن فـــأيـن الذين بالأمس كـــانوا؟

كـــيف يا دهر تنـطفى بين كـــفَّـــيـ ـك الأمــانى وتخـمــد الأحـلامُ؟
كـيف تَذْوى القلوبُ وهى ضـيـاءٌ ويـعـــــيش الـظـلام وهْو ظـلامُ

كـيف تحـيـا الأشـواك والزهر الفـا تن يذوى فى قـــبـضـة الإعـــصـار
كـيـف تمضى إلى الفناء الأناشـــيـ ـد وتبـــقى ســخـــرية الأقـــدار

حـــدثّى الـقلبَ أنتِ أيتـــهــا المأ ساة يا من قـد سُـمّـيت بالحـيـاة
ما الذى تصنعين بى فى الغد المجـ ـهـول مـاذا ترى مـصـيـر رفـاتى؟

أي قبر أعددت لي؟ أهْو كهفٌ ... ملء انحائه الظلامُ الداجي؟
أم ترى زورقي سيغرق بي يو ... ماً فأثوى في ظلمه الأثباج

لهفتي يا حياة كم تلعب الأو ... هام بي؟ كم يؤودني التفكير
أبدا أسأل الليالي عن المو ... ت وماذا ترى يكون المصير؟

طالما قد سألت ليلي لكن ... عز في هذه الحياة الجواب
ليس غير الأوهام تسخر مني ... ليس إلا تمزق واضطراب

هل فهمت الحياة كي أفهم المو ... ت وأدنو من سره المكنون
لم يزل عالم المنية لغزا ... عزَّ حلا على فؤادي الحزين

فليكن يا حياة لن أسأل الليـ ... ـل عن السر فاحكمي كيف شئت
امنحيني عمر الزهور فلن أبـ ... ـكي ومدى الأيام لي إن رغبت

ما الذي ينفع البكاء وما يصـ ... ـغي إلى الصارخين قلب القضاء
لن يزيد البكاء يوماً على عمـ ... ـري ولن يرحم المماتُ شقائي

ولتجرّعني الحياة كؤوس الـ ... ـحزن واليأس ما يشاء شقاها
هل ستصغي إلى رجائي المنايا ... إن تمنيت صمتها ودجاها

هكذا جـئت للحـيـاة ومـا أد ... رى إلى أين سوف تمضى الحيـاةُ
وسأحـيا كـمـا يشـاء لى المجـ ... ـهول حيرى تلهـو بى الظُلُمـاتُ

إن تمنيت أن أعـيش فـمـا يسـ ... ـتـمع الموت أو يمـد السنينا
أو تمنيت أن أمـوت فـمـا يُرْ ... حم حـلمى ولست ألقى المنونا

هكذا، مـا يريده القـدر المحـ ... ـتـوم لا مـا تُريدُهُ آمـالى
سـيرتنى الحيـاةُ أين ترى مَـرْ ... سى سـفـينى؟ وعند أى رمـالِ؟

ها أنـا الآن حـيـرةٌ وذهولٌ ... بين مـاض ذَوىَ وعُـمْـرِ يمـرُّ
لست أدرى ما غـايتى فى مسيرى ... آه لو ينجلى لعـينىَّ سـِرُّ

يا ضـفـافَ الأفـراح يا ليتنى أعـ ... ـرفُ شيئاً عن أفقك المجهولِ
لم أعـد أسـتطيع أن أكتم الشو ... قَ فـأيان يا ضفـاف وصولى؟

كلُّ شئ حـولى يحـدِّثنى عنـ ... ـك ولكن متى يحـينُ اللقـاءُ؟
فـارحمينى من قبل أن يحطم المو ... جُ شـراعى وتصـخب الأنواءُ

آه يا ضـفّـة السـعـادة مـا أنـ ... ـت؟ خيـالٌ أم واقعٌ مشـهـودُ؟
أترى قـلبى الطـعـينُ سـيلقـا ... كِ أخـيـراً أم أنت حلمٌ بعـيـدُ؟

طالما حـــدثوا فـــؤادي عن لـقـ　　ـيـاكِ لكن مــا زلتِ حُلْمَ صـــبى

لم أزل أصـــرفُ الليـــالىَ أبـكى　　وأغنى حـــزنَ الوجــودِ الشـــقىِّ

على تل الرمال

لم يزل مـجلسى على تلّـىَ الرمـ ـلىٍّ يُصـغْى إلى أناشـيـد أمسى
لم أزلْ طلـفــة سـوى أننـى قـد زدتُ جـهلاً بـكُنْه عُمْـرى ونفسى

ليـتنى لم أزَلْ كـمـا كنت قلبـا ليـس فـيـه إلا السَّنا والـنقـاءُ
كلَّ يـومٍ أبنى حـيـاتىَ أحـلا مـاً وأنسَى اذا أتـانى المسـاءُ

أبداً أصـرف النهـار على الـتل وأبنـى من الرمـال قـصـورا
ليت شعـرى أين القصـور الجمـيلا تُ وهل عُـدْنَ ظلمـةً وقـبـورا؟

ايه تـلَّ الرمـالِ مـاذا تـرى أبـ ـقـيتَ لى من مـدينة الأحـلام؟
أنظر الآنَ هـل ترى فى حـيـاتى لمحـةً غـيـرَ نشـوة الأوهام؟

ذَهبَ الأمـسُ لم أُعـدْ طفلـة ترْ قُب عشَّ العـصـفور كلَّ صبـاحِ
لم أعـد أبصـر الحـيـاة كـمـا كُنْـ ـتُ رحـيـقـاً يذوب فى أقـداحى

لم أعـد فى الشـتـاء أرنو إلى الأمـ ـطار من مَـهْدىَ الجـميلِ الصـغيـرِ
لم أعـدْ أعـشقُ الحـمـامـة إن غنـّ ـت وألهـو علـى ضـفـاف الغـديرِ

كم زهور جـمـعـتـهـا لم تذر منـ ـهـا الليالى شـيئـاً سوى الأشـواكِ
كم تعـاليلَ صـغـتـهـا فَنيتْ إلا خـيـالاً يؤودُ قلبى البـاكى

آه يا تـلُّ ها أنـا مـثـلمـا كـنـ ـتُ فـأرجع فـردوسىَ المفـقـودا
أىُّ كفّ أثـيـمـة سـلبتْ رَمْـ ـلَكَ هذا جـمـالَهُ المعـبـودا

كنتَ عـرشى بالأمسِ يـا تلىّ الرمـ ـلىَّ والآن لم تَعُـدْ غـيـرَ تلٍّ
كـان شـدو الطيـورِ رجعَ أنـاشيـ ـدى وكـان الـنعـيم يتـبـع ظلى

كـان هذا الوجـود مملكتى الـكبـ ـرَىُ فـيـا ليتنى أعـودُ إلـيـهـا
ليت هذى الرمال تسترجع السحـ ـرَ وليـت الربيع يحنو عـليـهـا

لم أعـدْ أستطيعُ أن أحـكم الزَهْـ ـرَ وأرعـى النجـوم فى كل لـيلِ
هل أنا الآنَ غـيـرَ شـاعـرةٍ حَـيْـ ـرى وهل غير هيكـلى المضمحلِّ؟

ذهب الأمسُ والطفـولةُ واعـتَـضْـ ـتُ بحسّى الرهيف عن لهو أمسى
كل مـا فى الوجـود يؤلمنى الآ نَ وهذى الحـيـاةُ تجـرحُ نفـسى

أيـن لونُ الأزهـار لم أعـد الآ نَ أرى فى الأزهار غـيـر البـوارِ
كلمـا شـممتُ زهرةً صـورّ الوْهـ ـمُ لعـيـنـىَّ قـاطـفَ الأزهارِ

أين شـدو الطيـور مـا عـدت ألقى   في صَـفَـاهُ من يأس قلبي خـلاصـا
كلّ لحـنٍ لصــــادحٍ يتــــلاشي   في ادّكـارى الصـيّـاد والأقـفـاصـا

أينَ همـس النسـيمِ لم تَعُـد الأنـ   سامُ تغـرى قلبي بحبّ الجـمـال؟
فـغـداً يهـمس النسـيـمُ بموتي   في عـميقِ الهُـوَى وفـوق الجبـالِ

أين منّـى مـفـاتنُ القَـمَـرِ السـا   حـرِ والصـيف والـظلام المثيـرِ؟
لم أعـدْ أعـشـقُ الظلامَ غـداً أر   قـدُ تحـت الظلام بيـن القـبــورِ

ها أنا الآن تحـت ظلّ من الصَـفْـ   ـصـاف والتيـن مـسـتطاب ظليلِ
أقطف الزهر إن رغبـتُ وأجني الثـ   ـمـرَ الحُلْوَ في صبـاحي الجَـميلِ

وغــداً ترسم الظلالُ علـى قــبـ   ـرى خطوطاً من الجـمـال الكئيبِ
وغـداً من دمي غـذاؤكَ يا صـفـ   ـصــاف يـا تيـنُ أيُّ ثأرٍ رهـيبِ

ذاك دأب الحـيـاة تـسلبُ مـا تعـ   ـطيـه بخـلاً لا كـان مـا تعطيـه
تتـقـاضى الأحـيـاءَ قـيـمـةَ عـيشٍ   ضـمـهم من شَـقـاهُ أعـمقُ تيـهِ

هي هذى الحيـاةُ سـاقيـة السمّ   كـؤوسـاً يـطفـو عليـهـا الرحـيقُ
أو مـأتْ للعطاش فـاغـتـرفـوا منـ   ـهـا ومـن ذاقـهـا فليس يُـفـيقُ

هى هذى الحـــيـــاةُ زارعـــةُ الأشـ ـواكِ لا الزهرِ والدُجى لا الضـيـاءِ
هى نـبعُ الآثامِ تســـتلـهمُ الشــر وتحـيـا فى الأرض لا فى السـمـاء

آدم وحواء

حَسْبُها أننا دفعنا إليها ... ثمنَ العيشِ حَيْرةً ودموعا
أيُّ ذنبٍ جناه آدمُ حتى ... نتلقى العقابَ نحنُ جميعاً؟

وليكن آدمُ جَنَى حسبُهُ فُقْـ ... ـدانُ فردوسه الجميلِ عقابا
حسبُهُ يا حياةُ أن هبط الأر ... ضَ ليحيا ويجرعَ الأوصابا

حسبُهُ أنه أتى الأرضَ مطرو ... داً من الخُلْد مستطاراً حزينا
حسبُهُ ما رأى من الشر والإثـ ... ـم وما ذاقَ من عذاب السنينا

ليت شعرى ماذا يروق لعينَيْـ ... ـه على الأرضِ بعد سحر السماء
كيفَ ينسَى جمالَ فردوسهِ المفـ ... ـقود فى عالمٍ دجيِّ الفضاء

كيف ينسَى الأمس الجميل ليهنا ... بحياة موسومة بالشقاء؟
ليس يحيا فيها سوى الآثم الجبّـ ... ـارِ يا رحمتاهُ للضعفاء

قابيل وهابيل

ولماذا ينسَى وهل ثمَّ فى الأر ... ضِ عزاءٌ عن حلمه المعسولِ
كلما لاذ بالخيالِ تجلّى ... لأساهُ ما كان من قابيلِ

أوَ لم تسمع الحقولُ صدى صر ... خة هابيلَ حين خرَّ قتيلا؟
أو لم يشهدِ القطيع على الجا ... نى؟ ألم يبصرِ الدمَ المطلولا؟

أين هابيلُ؟ أين وقعُ خطَى أغـ ... ـنامه فى الحقول والوديان؟
ليس منه إلا ضريح كئيبُ ... شادَهُ فى العراء أول جانِ

وأتت ظلمة المساء على الحقـ ... ـلِ وعاد القطيعُ من دونِ راعى
ليس إلا قابيل يمشى كئيباً ... وهو نَهْبُ الأفكارِ والأوجاعِ

ما الذى تنفعُ المدامعُ يا آ ... دم فيما قَضَتْ به السنواتُ
إن يكن من فقدتَ أول مقتو ... لٍ فلاَ يا سُيْقَتلُ العشراتُ

يا لأحزان آدمٍ حينما أبـ ... ـصَر بابنيه قاتلاً وقتيلاً
أيها المستطار لن تردع الأقـ ... ـدارَ حتى إذا بكيتَ طويلاً

استرح أنت، نَمْ، دع العالَم المحـ ـزون يحيا فى ظُلْمة الأرجاسِ
دعْهُ فى غيِّه فما كان هابيـ ـلُ القتيلَ الوحيد بين الناسِ

إنها لعنةُ السماء على العا لَمِ مسدولةَ الرؤى مكفهرّه
كلما ذاق قطرة من نعيمٍ أعقبتها من الأسى ألف قطره

الحرب العالمية الثانية

لم يكد يستفيق من حربه الأو لىَ ويهنا حتى رمتْه الرزايا
رحمةً يا حياةُ حسبُكِ ما سا ل على الأرض من دماء الضحايا

انظرى الآنَ هل ترينَ سوى آ ثار دنيا بالأمسِ كانتْ جِنانا
ليس من سحرها سوى سودِ أحجا ر تثير الدموع والأشجانا

أين نُعماك يا بقايا القصور الـ بيضِ أين الأزهار والأطيارُ؟
هجرتْكِ الطيورُ غيرَ غرابٍ وجفاك الأريج والإخضرار

أين أهلوكِ؟ حدثينى ماذا يا ركام الأنقاضِ كان المصير؟
أين يحيون؟ أى كهف من الأر ضِ زواهم أساه والديجور؟

أين أهلوك يا قصورُ أتحتَ الثـ لجِ أم مزقْتهُمُ القاذفاتُ
أسفاً ضاقت الميادينُ بالقتْـ ـلى وما عاد يُدْفَن الأمواتُ

فى سفوح الجبال تحت ذُرى الأشـ ـجارِ خلف القصور والاكواخ
ليس غيرُ الموتى عظاماً وأشلا ءً وغير اكتآبةٍ وصُراخِ

يا مـلاكَ السـلامِ أقـبل من الأجـ واءِ واهبط على الـوجـود الكئـيبِ
إبكِ للـراقـدينَ فى وَجْـمـة المو تِ وأشـرِقْ عـلى الظلامِ الـرهيب

طف بهـذى القُـرىَ لتلـمَسَ آها تِ الحزَانَى والسـاغبـينَ الظمـاءِ
وارحم الصـارخينَ فى سُرر الأمـ ـراضِ بيـن الأحـزانِ والأدواءِ

طُفْ بانقـاضِ عـالـمٍ ليس يدرى هل سيحظـى ببهـجـات الحيـاةَ؟
هو إن نـامَ لحظةً هـبَّ مـذعـو راً لـيـبكـى ويـرسلَ الآهـاتِ

مـا درَى حيـنَ أضـرمَ الحـربَ إلا حُلُمَ الـنَصْـر والفَـخَـارِ العـظيمِ
يا لقـلب المسكين! مـا ينـفع المجـ ـدُ لـقلـبٍ مُلَـوَّعٍ مـصـدومِ

فلُيـفقْ حـسبُـهُ خيـالاً وأوها مـاً ليَلْقى مـا قـد جَنَتْ كـفَّـاهُ
عـالم مـظـلم يـضـجُّ به المـرْ ضَـى ويـشكـو مـن الـطَوىَ أبْـنـاهُ

جفَّ زهْرُ الـرياض والورقُ النَضْـ ـرُ وآوتْ إلى الجـفـاف الحـقـولُ
أسـفـاً لـم تَدَعْ لـنا الحـرب شيـئـاً وتلاشى الحُلْـمُ الطَرُوبُ الجـمـيلُ

من ترى يحـرُثُ الحـقـولَ ويشـدو أغنيـــات المراحِ وقتَ اَلحَـــصَـــادِ
أين لهـوُ الأطـفـالِ عند البـحـــيـرا تِ وفــوقَ الـثلوج فى الأعـــيـــادِ

أين؟ ضـاع الخـــيـالُ والُحُلم الـفـا تنُ ضـاع الجـمـــالُ ضـاع الرخـاءُ
ليس إلاّ دنْيـــا من الجــوعِ والفـــقـ ـرِ عـليـــهـــا يعـــذَّبُ الأبـريـاءُ

يا قلوب الأطفـــال لا تخـفـقى الآ نَ حـنـيـنـــاً لـن يـرجـعَ الآبـــاءُ
هكذا شـــاءتِ الـسنينُ فـــرفـــقـــاً بعـــيـونٍ قـد عضً فـيـهـــا البكاءٌ

عيون الأموات

يا رُفاتَ الأموات فى الأرض ماذا رَسَم الموتُ فوق هذى العيونِ؟
أىّ رعبٍ وحَسْرَةٍ وشَكاةٍ أىُّ معنىً من الرجاء الحزينِ؟

كل عينين فيهما صور تبـ ـكى وترثى للعالم المغرورِ
كلّ عينينِ تَسْخَران من العَيْـ ش وتستهزآن بالمقدورِ

كل عينينِ تنظران إلى الأفـ ق بعيداً عن كل ما فى الحياةِ
آه يا ربِّ آه لو فهم الأحـ ـياءُ ماذا فى أعين الأمواتِ

يا فتاةَ الخيال حسبُك شدواً برثاء الموتى وحسبُك، حزنا
سوف يبقَى الخصام والشرّ ما عا ش الأناسىُّ والاناشيدُ تَفْنَى

هكذا شاءت المقاديرُ للعا لم إثم وشقوةٌ وحُروبُ
وهىَ النفسُ تحملُ الشرّ والبغـ ـضَ فماذا يُفيدُها التهذيبُ

كم تغنّى بالسلم والحبِّ والرَحْـ ـمة من شاعرٍ ومن فيلسوف
أسفاً ضاعت الأغانى ولم تَبْـ ـقَ سوى ضَجَّةِ القتالِ العنيفِ

يا لهــذا الكـون المعــذب فى قــيـ ـــد من الـشـــــرّ والاذَى والأثـام
كـيف ينجـو من الآسى ومـتى يَشْــ ـفـى من الموجــعــاتِ والآلام؟

كـيف ينجـو والطبعُ والقَـدَرُ القـا سى يَسُــوقـانه الـى الأحــزان؟
يَـا لَقَـلْب المسكـينِ ليسَ له فـى حــومــة الشــرِّ والشَـقَـاءِ يدانِ

كم أرادَ السُـمُـوَّ عن وَهْدَة الـشـر فـحــالت طبـاعُـه الآثمـاتُ
كم أرادَ النجـاة مـن مـخْلب الغَـدْ رِ فـعــزَّتْ علـى مُنَاه الـنجــاةُ

مــا الذى رامَـهُ المسـيحُ لـكى يُجْـ زى بما كـان مــا الذى كــان منه؟
أيهــا العـالمُ الـذى اقـتـرفَ الذنـ ـبَ أمـــا آنَ أن تكـفِّــرَ عـنه؟

أو لم يَكْـفكَ الشــقـــاءُ أمــا زلـ ـتَ مَـشُـوقـاً إلـى حـيـاة الدمـاء؟
جفَّ نبـعُ الدمــوعِ والدمِ يـا كــو نُ فــهــلاّ رثيـتَ للاشــقـيــاءِ؟

لُذْ ببُـرْج السـمـاء من نشـوةِ القَـتْـ ـلِ ألا ولْيُـخـتمْ سـجلُّ الرزايا
وليكن مـن فـقـدتَ فى هــذهِ الحـر بِ ختـامَ الذين مـاتوا ضـحـايا

أنشودة السلام

أيهـا السـادرونَ فى ظلمـة الأر ... ض كـفـاكم شـقـاوةً وذهولا
احـملوا نـادمـينَ أشـلاء مـوتا ... كم ونوحـوا على القبـور طويلا

ضمّـخوها بالعطر لفّوا بقـايا ... ها بـزَهْر الكنـارِ واليـاسـمـينِ
واهتـفوا حـولهـا بـأنشـودة السلـ ... ـمِ ليـهنا فـى القـبـر كلُّ حـزينِ

اجمعوا الصـبية الصـغار ليشدوا ... بلحـون الـصـفـاء والإبتـسـامِ
أنقـذوا الميّـتين من ضـجّـة الحر ... بِ ليـستـشعـروا جـمـال السـلامِ

فـيم هذا الصـراع يا أيهـا الأحـ ... ـيـاءُ؟ فـيم القـتالُ؟ فـيم الدمـاءُ؟
فـيمَ راح الشُبّـانُ فـى زَهْرة العُـمْـ ... ـرِ ضـحـايا وفـيمَ هذا العـداءُ؟

أهْو حبُّ الثـراء؟ يا عَـجَـبَ القلـ ... ـبِ! ومـا قـيـمـة الـثـراء الفـانى؟
فى غــدٍ رحلةٌ فـهل يدفـع الأمـ ... ـوات بالمـالِ وحشـةَ الأكـفـانِ

كل حىّ غـداً إلى القـبـر مـغـدا ... ه فـهـل ثَمَّ فـى المـمـاتِ ثراء
افـتـحـوا هذه القـبـورَ وهاتوا ... حـدثونـا أين الغنـى والرخـاءُ؟

انظروا ها هنا على الشوك والرمْـ ـلِ ثوى الأغنياء والمعدمونا
أيُّ فَرقٍ ترى وهل غير صمت الـ موتِ فوق القبور والراقدينا؟

عجباً ما الذى إذن ساق هذا الـ ـكون للموت والأذى والدمَارِ
فيم تحدو الشعُوبَ أطماعُ غرٍّ يتصبَّى عينيهِ وهْجُ النارِ

نشوةُ النَصرِ؟ يا لسُخرية الألـ ـفاظ! يا للأوهامِ يا للضلالِ
أيها الواهمونَ حسبكمو وهْـ ـماً وهبّوا من الكرَى والخيالِ

نحن أسرى يقودنا القدر الأعـ ـمى إلى ليل عالمٍ مجهولِ
ليس منا من يستطيع فكاكاً ليس منا غير الأسيرِ الذليلِ

أبداً تأمرُ الليالى ونمشى ليس يُجْدى تضرّعُ أو بكاءُ
ليس يخشى المماتُ صولةَ جبّا رٍ وما يستثيرُهُ الضُّعَفاءُ

هكذا الموت غالبٌ أبد الدهـ ـر ونحن الصرْعى الضعافُ الحيارى
وله النصْرُ والفخارُ علينا فاندبوا ما دعوتموهُ انتصارا

أيها العالمُ المخرَّب قد أسـ ـفرتِ الحربُ عن غلاب المنايا
شهدتْ هذهِ القبورُ لها بالنـ ـصْرِ يا رحمتا لتلك الضحايا

ثم مــاذا يا ســاكنى العــالم المحـ ـزونِ؟ مـاذا من القـتـال جنيتُمْ؟
هل وصلتم إلـى النجـوم البـعـيـدا تِ وهل من كفّ العـذابِ نجوتم؟

هل تغلَّبتُمُ علـى الفـقـر والأحـ ـزان والسُـقْمِ أيهـا الواهـمـونا
أنجـــــــوتم مـن المـآثـمِ أم لـم يَزَلِ الـعـيشُ فـتـنةً ومـجـونا

أسـفـاً لم تزل كـمـا كـانت الأنـ ـفُسُ تحـيـا فى إثمـهـا الابدىِّ
لم تزل خـمـرةُ الضـلال رجـاء الـ آدمـيـيـنَ فى الوجـود الـشـقىِّ

لم تزل فى الـوجـود أغنيـةُ الحـز نِ يغنّى بـهـا الضـعـاف الجـيـاعُ
لم يزل فى الوجود مـرضى حيارى أبداً تـعــتــريهـمُ الأوجـاعُ

كل شئ باق كــمـا كـان قـبل الـ ـحرب غـيـر الأيتـام والأمـواتِ
غـيـر ظلّ من الكـآبة والحـيْـ ـرةِ يمـشى عـلى ضـفـاف الحـيـاةِ

هؤلاء الأيـتــامُ بالأمس كـــانوا صــورةَ البـشـرْ والمراحِ الجـمـيلِ
تحت ظلّ الآباء يقــضـون عـيـشـاً مـا دروا غـيـر صــفـوه المعـسـول

وأفـاقـوا من حلـمـهم فـإذا الاقـ ـدارُ حــربٌ والكونُ قـتلٌ ونارُ
يا عـيـونَ الأطفـال لا تسـألى الدنـ ـيـا عـلام اللظـى؟ وفـيم الدمـارٌ؟

فى سـبيـل المجدِ المزيـف هذا الـ ـهـولُ لا كـان مـجـدهُـم لا كـانا
فى سـبيل النَصْـرِ المموّهِ عـاد الـ ـعـالم الحلو فى اللـهـيبِ دخـانا

هؤلاء الصرعى على الصخر والشو كِ شـبـاباً وفـتـيـةً وكـهـولا
كـيف كـانوا بالأمس أية رؤيا رسـمـوها فـلم تَهِشَّ طـويلا؟

أيهـا الأشـقـيـاءُ فى الأرض يا من لم تمـتـهم قـذائفُ النيـرانِ
عـبـثـاً تـأملون أن يـرجع الآ نَ أعـزاؤكـم إلـى الاوطـانِ

أنظـروا ها هـم الجنـود يعـودو ن فـرادى مـهـشّـمى الاعـضـاء
آهِ لولا بـقـيـةٌ من حـيـاةٍ لمْ يُعـدّوا فى جـملةِ الأحـيـاءِ

عـبثـاً يبحـثـون فى هذه الأنـ ـقـاضِ عن أهلهم وعن مـأواهم
عـبثـا يسـألون مـا يعلم العـا برُ شـيـئـاً فـيـا لنـارِ أسـاهم

كـيف ذاقـوا مـرارة الخـيبـة السَوْ داء بـعـد الآلامِ والأدواءِ
هل نجـوا من براثـن الموت والأسـ ـر لكى يسقطوا أسارى الشقـاءِ؟

أيهـا الأشـقـيـاء يا زُمَـر الأحـ ـيـاء فى كـل قـرية وصـعـيـدِ
آنَ أن نسـتـعـيـد مـاضىَ حبٍّ هو مـفـتـاح حلمنا المفـقـودِ

مـا الذى بيننا من البـغض مـاذا كـان سر القـتـال والأحـقـاد؟
أيهـا النـاقـمـون نحن جـمـيـعـا شـرعٌ فى أيدى الخطوب الشـداد

نحن نحـيـا فـى عـالم ليس يُدْرَى سـرُّه فـهـو غـيـهبٌ مـجـهـولُ
تطلعُ الـشـمس كل يومٍ فـمـا كنْـ ـهُ سناهـا؟ وفـيـم كـان الأفـولُ؟

مـا الذى يُطْلعُ النـجـومَ على الكو نِ مـسـاءً؟ مـا كـنْهُ هذا الوجـودِ؟
أى شئ هذا الفـضـاء ومـا سـر دجـاه؟ هل خلـفَـهُ من حـدودِ؟

نحن هل نحن فى الوجود سوى الجهـ ـلِ مَـصُـوغاً فى صـورة الإنسان؟
كلُّ مـا فى الأكـوانِ يحكمنا مـا ذا إذنْ سـرُّ ذلك الـطُغـيـانِ؟

فـيم نطغى؟ وكـيف ننسى قـوى الكو نِ ومـا فى الوجـود أضـعـف منّا
ينخَـرُ الدودُ مـا نشـيـدُ ولا تُبْـ ـقـى البـراكـينُ والـرياحُ علينا

فـيم نقـضى حـيـاتنـا فى العـداوا تِ ونمضى السنين يأسـاً وحـزنا؟
كـيف ننسى أنّا نعـيش حـيـاة الـ ـوردِ سـرعـان مـا يمـوت ويفنى

لن تدوم الأيـام لن يحـفـظ الدهـ ـرُ كـيـانـاً لكـائنٍ بشـرىّ
فلندعْ هذه الضـغـائنَ والأحـ ـقـادَ ولنحى فـى الوداد النقىّ

البحث عن السعادة

قــد بحــثنا عــن الســعــادة لكنْ ... مـا عــثرنا بكوخــهـا المســحـورِ
أبداً نــســأل الــليــالــىَ عنهـــا ... وهى ســرُّ الدنـيـا ولـغــزُ الدهورِ

طالمـا حــدّثوا فــؤادىَ عنهـــا ... فى ليــالى طفــولتـى وصــبــايا
طالمـا صــوروا لعــينىَّ لقــيـــا ... ها وألـقــوا أنْبــاءها فـى رؤايا

فـهى آناً ليستْ ســوى العطرِ والألـ ... ـوانِ والأغـنيــاتِ والأضـــواءِ
ليس تحـيــا إلاّ على باب قَــصْــر ... شــيـدتـه أيدى الغنـى والرخــاءِ

وهى آناً فى الصـوم عـن مُتَع الدنـ ... ـيـــا وعنـد الزهّـادِ والرهبـــانِ
ليس تحــيـا إلا علـى صخــر المعـ ... ـبــدِ بين الدعـــاء والإيمـــانِ

وهى حـــيناً فـى الإثم والمتع الـدنُـ ... ـيـا وفى الـشـرِّ والأذى والخـصـامِ
ليس تصــفـــو إلا لقلـب دنىءٍ ... لائـذٍ بـالـشــــــــرور والآثـامِ

وهى فى شـرع بعــضـهم عند راعٍ ... يصـرف العمـر فى سفـوح الجبـالِ
يتـــغنىَّ مع القـطيـع إذا شـــا ... ء ويغــفـو تحت الشـَّــذَى والظلالِ

وهي في شرعِ آخَرينَ ابنةُ العُزْ — لةِ والفنّ والجمال الرفيعِ
ليس تحيا إلا على فمِ غرّيـ — ـدٍ يغنّي أو شاعرٍ مطبوعِ

وهي حيناً في الحبِّ يُلْهمها سَهْـ — ـمُ كيوبيد قلبَ كلّ محبٍ
ليس تحيا إلا على شفة العا — شقِ يشدو حياتهُ لحنَ حُبٍّ

حَدَّثوني عنها كثيراً ولكن — لم أجدْها وقد بحثتُ طويلا
لم أزَلْ أصرفُ الليالي بحثاً — وأغنيِّ بها الوجودَ الجميلا

مرَّ عمري سدى وما زلت أمشي — فوقَ هذي الشواطئ المحزونه
لم أجدْ في الرمال إلا بقايا الـ — ـشوك! يا للأمنيةِ المغبونه

أين اصدافكَ اللوامع يا شطُّ — إذن أين كنزُكَ الموعودُ؟
هاتهِ رحمةً بنا، هات كنزاً — هو ما يرتجيهِ هذا الوجودُ

هاته حسبُ رملك البارد القا — سي خداعاً لنا وحسبُكَ هُزْءا
يا لحلمٍ نزيدُ منه اقترابا — وهو مازال أيها الشط ينأى

لم تعد قصة السعادة تغريـ — ـني فدعني يا شاطئَ الآهاتِ
عبثاً أرتجي العثور على الكنـ — ـز فلا شئ غيرُ صمتِ الحياةِ

أين من هـذه الحـيـاة ابتـسـامـا   تُ الأمـانـى ونشـوةُ الأفـراحِ؟
كيف يحـيا فـيها السـعيـدُ وليستْ   غـيـر بحـرٍ تحت الدجـى والرياحِ

طال بـحـثـى يا ربِّ أيـن ترى ذا   ك السـعـيـدُ الجـذلانُ أين تراهُ؟
ليس حـولى إلا دياجـيـرُ كـونٍ   لـيـس يَفْـنَـى بكاؤه وأسـاهُ

كل يوم مَـيْتٌ يسـيـرُ بهِ الأحـ   ـيـاءُ باكـينَ نـحـوَ دُنْيـا الظلامِ
يا لأسطورةِ الخلود فـمـا الخـا   لدُ غـيـر القـبـور والآلامِ

يـا دويَّ الـنُـواحِ فـى الأرض أيّـا   ن يكفُّ البـاكـونَ والصـارخـونا؟
ومـتى ينتـهى الشـقـاءُ مـتى يَرْ   تاحُ كـونٌ ذاق العـذاب قـروناً

عـالمٌ كلٌّ من على وجـهـه يَشْـ   ـقَى ويقـضى الأيامَ حـزناً ويأسـا
جـرّعـتْـهُ السنينُ حـنظلَهـا المرَّ   فـعـافَ الحـيـاةَ عـيناً ونفسـا

إيه أُسْطورةَ السـعـادة هـاتى   حـدِّثينى عن سـرِّك المنشـودِ
أينَ ألـقـاكِ؟ أين مـسكنُـك المر   موقُ؟ فى الأُفْـق أم وراءَ الوجودِ؟

سرتُ وحـدى تحت النجوم طويلاً   أسـألُ الليلَ والدياجـيـرَ عنكِ
أسفاً لم أجدْكِ فى الشاطئ الصخـ   ـرىِّ حـيـثُ المياهُ تفـتـأُ تـبكى

حيثُ تبقَى الأشواكُ والورد يَذْوى تحتَ عـــينِ الأيّـامِ والأقــــدارِ
حـيثُ يفنى الصـفـاءُ والـليلُ يأتى بجنونِ الأنـواءِ والأعـــصــــارِ

حـيثُ تقـضى الأغنامُ أيامـهـا غـرْ ثى ولاعُـشبَ فى جـديبِ المراعى
أبداً تـتــبـعُ الســــرابَ وتشـكو بُـخْلَ دهـرِ مـــزيّـفٍ خَـــدّاعِ

حـيث يحيـا الغـرابُ، والبلبلُ المو هوبُ يُهْـوى فى عـشّـه المضـفـورَ
ويغنّى البـومُ الـبـغـيضُ على الدَوْ حِ ويثْـوى القـمرىُّ بين الـصخـورِ

حيـث تبقى الغـيومُ فى الجـوّ رمزاً لـحـيــــاة ســـوادُها لـيسَ يَفْـنَى
حيـث تبـقى الرياحُ تصـفـر لحناً هو ســـخّـــريّـةُ المقـــادرِ منّا

حيثُ صـوتُ الحياةِ يـهتفُ بالأحـ ـيـاء: ماذا تحتَ الدُجَى تبتـغـونا؟
انظروا كلُّ مـا عـلى الأرض يبكى فـأفــيـقــوا يا مـعـشـر الحــالمينا

بين قصور الأغنياء

سرتُ بين القصور وحدى طويلاً ... أسألُ العابرينَ أين الطروبُ؟
فإذا فتنة القصور ستارٌ ... خادعٌ خلفَهُ الأسَى والشحوبُ

لم أجِدْ فى القصور إلا قلوباً ... حائرات وعالماً محزونا
ليس إلا قوم يضيقون بالأيّـ ... ـام ضيقَ الجياع والبائسينا

ليس ينجيهم الغنى من يد الأشـ ... ـجانِ ليستْ تُنْجيهمُ الكبرياءُ
ليس يعفو المماتُ عنهم فهم حز ... نٌ وصمتٌ وحيرةٌ وبكاءُ

كم وراء القصور من مُقَل تبـ ... ـكى وتشكو قساوةَ المقدورِ
كم قلوبٍ تَوَدُّ أن تُبْدلَ القصـ ... ـرَ بكوخٍ على حِفاف الغديرِ

إن يكونوا نَجَوا من الجوع والفقـ ... ـر ولم يفترِسْهمُ الحرمانُ
فلقد طالما أحسُّوا بجوعِ الـ ... ـروحِ واستعبدتهمُ الأحزانُ

إن يكونوا يقضونَ أيّامَهم بيـ ... ـن الحريرِ الملَّونِ الجذَّابِ
فغداً تعبرُ الدهورُ وهم مَوْ ... تَى على الشَّوْكِ والحَصى والترابِ

إن يكن في قصورهم من سَنا الأضـ ـواء ما يُرجْع الظلامَ ضياءَ
فغداً يخمَدُ الضياءُ وتبقى ظلمةُ الليلِ بُكْرةً ومساءَ

ليس تُنَجى القصورُ من ربْقة الحُزْ ن إذا طافَ بالقلوب دجاه
كم غنيٍّ يَقْضى الحياةَ شقيّاً مُغْرقاً في أنينهِ وبُكاه

كل ما في هذا الوجود من الأمـ ـوالِ لايستطيعُ دْفعَ الشقاءِ
كلُّ تلكَ الكنوزِ ما غَمَرَتْ قطٌّ غنياً بساعةٍ من هناءِ

يا طريقي ملْ بي العشيّة ما عا د جمالُ القصور يَحلُو لعيني
لم أجدْ وَمْضَة السعادة فيها لم أجدْ غيرَ ظلّ يأسٍ وحزن

عند الرهبان

سِــرْ بنا نحــو ذلك المعْــبـد القــا ئم فـوق الـصـخـور بين الجـبـالِ
سِــرْ بنا ســـر بنا لعلّ لـدى الرُهــ ـبـان ســرَّ النعــيمِ والآمـــالِ

هؤلاءِ الـزُهَّادُ فـى القـنّة البـــيـ ـضاء حيث الصفـاءُ ملء الوجودِ
علَّهم يـعـرفــونَ مـا قــد جَــهِلْنا عن شِـهـابِ السـعـادةِ المفـقـودِ

قد سألتُ الرهبان عن كنزنا السِّحْـ ـرِيِّ لكـن لم ألـقَ منـهمْ جـــوابا
لم يُجِبْنِى منهم سوى صوتِ محزو نٍ يغنّى ويـجـرَعُ الأوصـــابا

لم أجدْ فـى تلك الصوامعِ غـير الـ أوجُــهِ الشـاحـبـاتِ والديجـورِ
لم أجـد غـيرَ وحشـةٍ تبعثُ اليـأ سَ وصمتٍ كـمثل صمتِ القبورِ

هؤلاء الأشــبــاحُ مــاذا تراهم؟ آدمـــيّـــونَ أم بقـــايا طُـيــوفِ
فـــيـم جـــاءوا هــنا وأيةُ سـلوىً وجـدوها مـا بيـنَ هذى الكهـوفِ

فى بعـــيــدِ الآفــاقِ تحتَ دياجـيـ ـرِ وجــودٍ تمضـى الكآبةُ فــيــهِ
حيثُ مـا زالتِ الحـيـاةُ كـمـا كـا نتْ عـلى عــهــدِ آدمٍ وبنيــهِ

حـيث لا زهر لا عـرائش لا أشـ ـجـار لا شئَ غـيـر هـذا السكونِ
لا جـديدٌ فـيـه سـوى مـوتِ حيٍّ من بنيـه مـا بـينَ حـينٍ وحـينِ

أيّهـا الراهبُ الذى يـقطعُ العُـمْـ ـرَ وحـيـداً فى كـوخِـه المكفـهِـرِّ
هاتِ حـدِّثنىَ العـشـيَّـةَ عـمـا عنـد دنيـاكَ من نعـيمٍ وبِشْـرِ

حـدَّثونى عنكم فـقـالوا حيـاةٌ من نـعـيمٍ وأنـفُسٌ مـن نقـاءِ
عـجـبـاً أين مـا يقـولـونَ؟ مـا لى لا أرى غـيـر حَـيْرةِ الأشـقـيـاءِ

مـا الذى عندكم من البـشـر والأفـ ـراحِ؟ مـاذا يا أيّهـا الـزاهدونا؟
ليس إلا عُـمْـرٌ يـمـرّ حـزيناً يتـهـاوَى كـآبةً وسكُـونا

حـدّثونى عنـكم فـقـالـوا قلوب نُسـجـتْ من نـقـاوة وثَرَاءِ
ونفوسٌ صـيغَتْ من الزهْرِ والعطـ ـرِ وهـامتْ مـع السَّنَا والنَّقَـاءِ

أين هـذا الذى يـقـولـونَ عنـكم أيّهـا الراهـبـونَ؟ أيـن تراهُ؟
إسمُ (تاييـسَ) لم يَزَلْ يمـلأُ الكو نَ فـأيـنَ الذى أضـلّت خُـطَاهُ؟

مـا نَسِـينا غَـوَايةَ الراهـبِ المنْـ   ـكينِ فى حبِّـهـا، وكـيف هداها!
يـا لـه بـائسـاً بابنـةِ الإثـ   ـم إلى قـمّـةِ السَّـمـاءِ وتاها

أيّهـا الـراهبـون لن تنبت الأز   هارُ والعـطرُ والسَّنا فـى النفـوسِ
عبـثـاً تَهْـربونَ من مُـغْـريات الـ   ـعَيْشِ كم فى الـوجـودِ من تاييسِ

لن تذوقـوا شهـدَ السـعادة مـا دمـ   ـتم أنـاسىَّ مـن تـرابٍ ومـاءِ
كـتـبت هذهِ الطبـيـعـةُ للأحـ   ـياءِ أن يَكْرعـوا كـؤوسَ الشـقـاءِ

أوَ تَـنْسَـون أنكـم لـم تزالـوا   مـثلمـا كنـتـمـو حَـيَـارَى حَـزَانَى
لم تَـزَلْ فـتـنةُ الوجـود تنـاديـ   ـكم وتُـهْـفـيكمُ إلـى مـا كـانا

لم تَـزَلْ ذكـرياتْ أمْـسِكُمُ المهـ   ـجور تحـيـا فى الأنفسِ المحـزونه
وخـيـالٌ من عـالـمٍ فـاتنِ الألـ   ـوانِ ملءَ المشـاعـرِ المغـبـونه

أيهـا الراهـبـونَ مـاذا إذَنْ نـفـ   ـعُ اعـتـزالٍ تشـوبُهُ الصـبـواتُ
آهِ عـودوا إلى مـصـارعـةِ الدهـ   ـرِ وعـيـشـواً كـمـا تشـاءُ الحـيـاةُ

أيها المعبدُ الحزين وداعاً   أنت يا من لاذتْ به آمالي
لم أجدْ في حِمَاكَ زهرةَ أحلا   مي فيا ضَيْعةَ السُّرى والكلالِ

لم أجد زهرةَ السعادةِ والأفـ   ـراحِ عند الزُّهّادِ والراهبينا
آهِ ضاعتْ أيّامُ عُمري وما زا   لَ شِراعي يطوي فراغاً حزيناً

عند شط الحياة ألقيتُ مَرْسَى   زورقي في الضبابِ تحت الظلامِ
أرقُبُ السائرينَ في الشاطئِ الصخـ   ـريِّ بين الوهاد والآكامِ

أين ألقاكِ يا سعادةُ؟ هاتي   حدّثيني فقد بحثتُ طويلا
طال تيهي فنبئيني متى يبـ   ـلغُ قلبي مقرَّكِ المجهولا

أوَلم أقطعِ البحارِ إلى الرُّهْـ   ـبانِ والزاهدينَ في الصْحراءِ
أوَلَم تُنْكر الفضيلةُ ألوا   نَكِ يا لهفتاهُ ضاع رجائي

مع الأشرار

قـد رقبتُ الأشـرارَ حيناً فلم أعـ ـشـر لديهـم على سناك الحـبـيب
فـهمُ البـائسـونَ تـطْحَنُهـم أيـ ـدى الليـالى بما جَنَوا من ذنوبِ

ورأيتُ الطغـاةَ يحيـون مـحـزو نيـن بين الأوهـامِ والأشـبـاحِ
ليس يشـفـيـهمُ من الحـزن واليـأ س دواءٌ فـالداءُ فـى الأرواحِ

فـإذا أخـمـدوا هتـافـاتِ مـظلو مٍ فـما يُخْـمدون صـوتَ الضـميـرِ
ذلـك الـراقبُ الإلـهـيُّ فـى النـفـ ـس لسانُ الهُدَى وصـوتُ الشعورِ

أبـداً سـاهـرٌ يـراقبُ أقـدا رَ الـليـالـى وسَطْـوة الأيّـامِ
أبداً يـرمقُ الحـيـاةَ مـن الأعـ ـماقِ، مُـسـتـهـزئـاً من الأعـوامِ

فـإذا حـادت القلـوبُ عن الخـيـ ـرِ عـلا صـوتُ ذلكَ الجـبّـارِ
فَـهُـوَ النـاقمُ النبـيلُ على الشـرِّ وقـاضـى الطُغَـاةِ والأشـرارِ

كيف ينجو الأشـرارُ من شقوة الرو حِ وصـوتُ الضـمـيـر بـالمرصـادِ
لا مـلاذٌ مـن حـاكمٍ يمـلكُ الرو حَ بما فى كـفَّـيْـهِ من أصـفـادِ

عـجـبـاً أينَ تلتـقـيك حَـيَـاتى؟ يا ضـفــافَ السـعـادة المنشـوده؟
جـسـبتُ هذا الوجـود أبحث لكن لم تزالـى الحـقـيـقـةَ المفـقـوده

جـهلتك الـدنيـا فـلا أحـدٌ يعـ ـلم مـا أنت واقعٌ أم خـيـالُ؟
كلُّهم يـسـألون عـنكِ ولـكن لـم تحـدّثْ بسـرّكِ الآزالُ

ها أنا ذى حملتُ قلـبى على كـفّـ ـى وسـرتُ الحـيـاةَ أبحثُ عنك
أسـألُ العـابرينَ هل فـيـهمُ من قـد روَى قلبَـهُ المشـوّقَ منكَ

فـى الـريـف

عند هذى الأكـواخ شـاعـرتى ألـ ـقى المراسى تحتَ الفضاء الصاحى
أنظـرى أىُّ عـالـم فـاتـنِ المجـ ـلى بعـيـدٍ عـن ضَـجَّـة الأتراحِ

أنظـرى علّنا بلـغنـا أخـيـراً ذلكَ الـشـاطئَ الذى نـتـمـنّى
بعـدَ لـيلٍ من المسـيـر طـويلٍ ضـاعَ فـيـه عمـرى كَـلالاً وحُـزْنا

أنظرى أنظـرى هنا العُـشْبُ الأخـ ـضـرُ نشـوانَ فى سُـفـوح الجـبـالِ
عنـدَ نبـعٍ من قُـنّةِ الجـبـلِ الأبـ ـيضِ يَجْـرى تحتَ السَّنا والظلالِ

الصـبـاحُ الجـمـيلُ قـد توّجَ الود يان بالضـوء والجـمـال البـهـيجِ
مـا أحـبَّ الحـيـاةَ فى هـذه الجنّـ ـة تحـتَ الضـيـاءِ بيـن المروجِ

ما أحبَّ الصـفاءَ يحتـضن الأشجـ ـجارَ والوادىَ النضيرَ الخصيبا
مـا أرقَّ الأزهـارَ فى مَـهْـدها الور دىِّ مـا أعطر الـرُّبَى والسـهـوبا

كـلُّ شـئٍ فـى هـذه الجـنّـة الحُـلْـ ـوة يوحـى بأننا قـد وصلنا
ها هنـا شـاطئُ الـسـعـادةِ هذا حُلْـمُ قلبى فـمـا ألذَّ وأهـنا

فلنُطفْ بالعرائشِ الخُضْر فلنغْـ ـنمْ صفاءَ الحياة بَعْدَ أساها
فلتجفّ الدموعُ فليمضِ أمسٌ مـرَّ بالقلبِ باكـيـاً أوّاها

ولنعش للصفاء يفتنُ دنيا نا غناءُ الرُعَاة عند الجبال
ونشيدٌ تُديرُهُ شَـفـتـا طفـ ـلٍ يُغنّى على تلولِ الرمال

وقطيعُ الأغنامِ فى المَرْج تحت الظـ ـلِّ والفجرُ والنَدَى والنسيمُ
وليالى الحصادِ والقَمَرُ السِحْـر ىّ والطيفُ والصَدى والغيومُ

فلنُقَضِّ الحياة فى هذه الجنـ ـة ناسينَ حادثاتِ الحياة
ها هنا فتنةُ الطبيعة تُنْجى الـ ـكائنَ الحىَّ من خيالِ المماتِ

هاهنا أستطيعُ أن أفهم السرَّ ففيم الأسى وفيم البكاءُ؟
هل خَلَتْ هذه المجالى من الأغـ ـنامِ يوماً؟ وهل تعرَّى الفضاءُ؟

ها هنا يستطيعُ أن يفهَمَ القلـ ـبُ جمالَ الدنيا وسرَّ الخلودِ
كل حىٍّ باقٍ فإن ماتَ غِرِّيـ ـدٌ فكم فى الأعشاش من غِرِّيدِ

ها هنا كلُّ زهرة تبعثُ العطـ ـرَ فإن تَفْنَ فالشذَى غيرُ فانِ
كم زهورٍ ستنشُرُ العِطْرَ والألـ ـوانَ من بعدُ فى فضاءِ المغانى

ها هنا إن يَسِرْ أبولو بضوء الشـ ـمسِ نحوَ المغيب كلَّ مساءِ
فالنجومُ الملألئاتُ جمالٌ شاعريٌّ الألوان والأضواءِ

ها هنا تنطقُ العرائشُ بالشعْـ ـرِ وتحنو على مجارى الجداول
هاهنا تستحمُّ آلهةُ الأنـ ـهار فى الماء تحت ظلٍّ الخمائل

كلُّ شئٍ حُلْوٌ فأينَ ترى السكـ ـانُ؟ أين الفلاّحُ والقُطْعانُ؟
فيمَ لا يملأون عالَمَهم لهـ ـواً؟ وأين الآمال والألحان؟

سرتُ فيه وحدى أسائلُهُ عن ساكنيه وأىُّ وادٍ حَواهم؟
أىُّ لحنٍ يرنّمونَ إذا الشمـ ـسُ أطلّتْ؟ وما ترى نجواهم؟

كيف يحيَوْنَ فى صفاء من العيـ ـشِ بعيد عن قَسْوة الضرّاءِ
أأظلّتْهُمُ السعادةُ بالأحـ ـلامِ أم هُم كسائرِ الأشقياءِ

اتراهم يرنّمونَ الأغاريـ ـدَ ويَلْهُونَ فى ليالى الحصادِ
تحت ضَوْءِ النجومِ والقَمَر البا سمِ بين العطورِ والأورادِ

أتراهم أولئك البَشَر اللا هونَ بين الجمال والأحلامِ؟
أتراهم كما تخيّل قلبى؟ أم ترانى أمعنتُ فى أوهامى

يا رُعاة الأغنامِ فى السفح عند النـ ـبعِ بين العرائشِ السّنْدسيّه
حدّثونى عن أغنياتكم الجَذْ لَى وعن بسمة القُرَى الشاعريّه

حدّثونى عن الربيع إذا مرَّ على هذه القُرَى والشطوط
حدّثونى عن الحَصَادِ ومجنى الـ ـزهرِ والبرتقالِ والبلّوط

حدّثونى ما لى أراكم حَزَانَى؟ كلُّ راعٍ فى وحشةٍ واكتآبِ
كلُّ راعٍ جهمُ الملامح لا يشـ ـدو ولا يَزْدهيه سحرُ الغابِ

أنت يا أيّها الحزينُ أجبنى أىُّ حزن فى مقلتيكَ أراهُ؟
أى قيدٍ من المرارة واليأ س أظلّتْكَ يا كئيبُ يداهُ؟

كيفَ يَشْقَى من فى حِمى هذه الجنـ ـة يحيا وتحت هذى السماءِ
كيفَ يشقى الراعى وبين يديْهِ جنّةٌ من مفاتنٍ وضياءِ

أسفاً قد خُدِعْتُ لم تَصْدُقِ الأحـ ـلامُ فيما رسمن من أفراحِ
لم أجدْ عند ذلكَ الشاحبِ الصامتِ إلا مرارة الأقداحِ

فهو عندَ الينبوعِ ينظُرُ فى الظلِّ إلى الأفْقِ شاحباً مصدوما
ممعناً فى الجُمُودِ والصمتِ كالمو تَى ينُاجى الفضاءَ يَرْعَى الغيوما

لم تزلْ قُـربَـهُ على العُـشُب النا دى عظـامٌ لكائـنٍ مــقـــتــولِ
هو ذاكَ الراعى الصـغـيـرُ الذى را حَ طعـامـا للذئـبِ بين الحـقــولِ

إيه راعـى الأغنـامِ يا أيّـهــا المقـ ـتـولُ فوق العُـشْب الندىِّ النضيرِ
كيف مـاتَ الراعى ولم تَمُتِ الأغـ ـنـامُ يا لَـلْمـــقــــدَّر المَسْـطورِ

يا لحَـكمِ الأقــدارِ يا راعـىَ الأغـ ـنامِ يـا ظُلْمَ مـا تُريـدُ الصـروفُ
كيف تَفْنَى الأشـواكُ حارسةُ الزهـ ـرِ ويَبْقـى الوردُ الرقيق الضـعيفُ؟

إنهـا قــصَّــة الطـبـيــعــة يا را عـى قـــتـــالٌ وأدمـعٌ وشكـاةُ
إن تكنْ قــد قُــتلتَ فـالثـأرُ باقٍ وغـــداً تَقْـــتلُ الـذئابَ الرُعَـــاةُ

نازعـــتنا البــقــاءَ فـى هذه الأر ضِ وحـوشُ الأحـراش والأطيـارُ
فلـنا النـصـــرُ مــــرّةً ولهـم أُخْـ ـرى كـمـا تبـتـغى لنا الاقــدارُ

فــعــزاءً يا أيّهــا الجَـسَــدُ المصـ ـروعُ فى غــمــرة الـكرى الأبدىّ
قـد بكاكَ الراعى الصـديقُ ومـا زا لَ غــريقــاً فـى حُــزْنه الأخـوىّ

لم يَزَلْ جـامـداً على حـافـةِ النبـ ـعِ وفى مـقـلتيـه دمْع الشـجـونِ
يرقب الماءَ شـاكـيـاً قـسـوة الاقـ ـدار مــســتنكراً ضـلال المنونِ

صـامـتـاً سـاهـمـاً بعـيـداً عن الأغـ ـنامِ حـيـرانَ فى ضَـبَـاب الوجـودِ
رازحـــــاً تحـت وَطْأة الألَـمِ الطـا غى مُـشيـحاً عن الشـذى والورودِ

كلمــا جفَّ دمـعُـهُ ذكــر المقـ ـتـولَ والذئبَ فـاسـتـردَّ أسـاهُ
يا لأحــزانِهِ المُـلحّــاتِ يا لـلـ ـهـولِ مـاذا ترى يعـيـدُ صـفـاهُ؟

السَّنـا والجـمـال؟ يا حَـيْـرةَ الرا عى ويا ضَـيْـعـةَ السنا والجـمـال
بعد حـينٍ ستَعْـصفُ الريحُ بالصفْـ ـصافِ والوردِ فى سُفُـوح الجبـالِ

بعـد حـينٍ يأتى المسـاءُ كـئـيـبـاً ويلـفُّ الجــبـــالَ بالأحْــزانِ
ويســودُ السُّكونُ غـيــر هُتَــافٍ ردّدتْهُ ضــفـــادعُ الغــدرانِ

غـيرَ صـوت النشـيج فى قـرية الرا عى تعــالَى تحتَ الـدُجَى المنشــورِ
غـيرِ صـوتِ القَـدُومِ يُعْمِلُهُ الحـفّـ ـارُ فى الأرض بين صَـمْتِ القبـورِ

ثم يمـضى الليلُ العـميقُ إلى غـيـ ـرِ رُجــوعٍ وتبــسِـمُ الاضـــواءُ
ويعـودُ الـقُـمْرىُّ يَصْـدحُ جـذلا نَ كـأنْ ليس فى الحـيــاة شـقـاءُ

غـيــرَ دارٍ مــاذا يعــذِّبُ أهل الـ ـقـــرية البــائـسـيـن من آلامِ
غـيـرَ دارٍ مـا خلفَ اكـواخـهـم من رَعَــشــاتٍ ولوعــةٍ وسَـقَــامِ

ليسَ يدرى القُمْرىُّ لا ليس يدرى ... مـا وراء الأكـواخ من حِـرْمـانِ
ليس يدرى أنّ الطـبيـعـةَ تَقْسو ... ليـس يدرى مـرارةَ الأحـزانِ

ليس يدرى مـاذا وراء بـيـوت الطـ ... ـيـنِ هذى من وحـشـةٍ وظلامِ
ليس يدرى مـاذا يهزُّ الخـيـامَ الـ ... ـسـودَ من لهـفـةٍ ومن آلامِ

ليس يدرى القمرىُّ ما يُحْزِنُ الفـ ... ـلاحَ فـى كـوخـِـه وليس يراهُ
ليس يـدرى أنّ الأمـاسىَّ قـد تمـ ... ـضى عـليـهِ ومـا يغـيبُ أسـاهُ

ليس يدرى مـا يفعلُ الجـوعُ والحز ... نُ بأهـلِ الأكـواخِ كلَّ شـتـاءِ
حـينمـا تَغْمـُـرُ الثلـوجُ ثُرَى المر ... جِ وتطـغَى عـواصفُ الأجـواءِ

حـينمـا فى حَضَـائرِ القـريةِ الحيـ ... ـرَى يمـوتُ القطيعُ مـوتَ غَـبـينِ
حـينـمـا تُذْبلُ العـواصفُ زهر الـ ... لوز والبـرتـقـال واليـاسـمـينِ

حـينمـا تدفن الثلوجُ حـقـول الـ ... ـقـمح يـا رحـمـتـاه بالفـلاّحِ
حـينمـا يصـرخُ الجـيـاعُ الحَـيَـارَى ... فى ظلامِ الأكـواخِ كلَّ صـبـاحِ

أيّهـا الصـادحُ المغـرِّدُ فـوق الـ ... ـدَّوحِ طِرْ عن هذا الـوجـودِ الأليمِ
دَعْ أسـاهُ يا طيـرُ لى أنا وحـدى ... واحىَ أنتَ الجـذلانَ بين الغـيـومِ

دعْـــهُ لى دَعْ آمـــالَ قـلبىَ تـذبل | بعـد بحثى الطويل فى الكون عنـها
دع فـؤادى يَعُـدْ إلـى ظُلْمـة الأحـ | ـزانِ واخلص يـا بلبلى أنت منـهـا

خَـيبتْ هذه الـقُرَى حُلْوَ أحــلا | مى فـــلا رَسْمَ للسـعـادة فـيـهـا
ليس يدرى الـراعى المعـذَّبُ مـأوا | ها ولا كـــان مــرةً من بـنيـهــا

خـدعـتنى الأوهامُ لـيس لدى الرا | عى رخـــاءُ الحـيـــاة ليس لـدَيْه
فـهو ذاك المـكدودُ تصهـرُهُ الشـمـ | ـس ويقسو الحَـصَى على قَـدَمَيْـه

يتـــمنّى أن لو تبـــدّلَ بيتُ الـطـ | ـين قـصـراً على حـفــاف المدينه
ويُريدُ الحـــيــاةَ لـهـواً فـــلا أغـ | ـنامَ تـشـغـو ولا نُـفُــوسَ حــزينه

يا لوهـم المسكين، كـم من شـقىٍّ | فى ظلال القـصــور كم مـصـدومِ
ليس للـمـــال أن يُـذَيقَ فـــؤاداً | بشــرّيا مـــعنى الرضى والـنعــيمِ

يا سـفيـنى ما عـاد فى القـرية الحلـ | ـوة مــرسى لـنا فـفـيـمَ البـقـــاءُ
ليسَ تحتَ الصفصاف إلا بيوتُ الطّ | ـيـن والسُـقْم والـطَوَى والبـكاءُ

أقلعـى أقلعى بـنا قـد سـئـمـنا | صَـرَخـات الجـيـاع فى كلّ شـعْبِ
قـد رأينا الـدموعَ فـى كلّ عـينِ | وشَـهِدْنا الشـقـاءَ فـى كلٍّ قلبِ

مـا الذى يا سـفـيـنُ يُغْـرى بأن نَبْـ ـقى إذن؟ مـا الذى تـرى يبُـقـينا؟
هل وجـدنا طيفَ السعـادة هل فى هذه الأرضِ فـــرحـــةٌ تُغْـــريـنا؟

بين الفنانين

انشرى يا سفينُ أشرعةَ السيـ ... ـر وشُقّى عُبابَ هذى الحياة
ثم ارسى بنا على شاطئ الفنِّ ... وبين الأشعار والأغنيات

علَّنا واجدونَ فى ذلك الشا ... طئ ظلَّ السعادة المتمنَّى
علهم قد ترشّفوا شهدَهَا السا ... حرَ حتى صاغوه شعراً وفنّا

طالما صوّروا لألحانهم ما ... قد دَعَوْهُ بنشوة الفنّانِ
طالما حدّثوا عن الأملِ الحلـ ... ـوِ وغنَّوا بالنور والألوان

فلنقف عندهم إذن ولنراقبْ ... ركبَ أيّامهم وكيفَ تمُرُّ
أتراها ليلٌ ودمعٌ وحزنٌ؟ ... أم تراها فجرٌ وضِحْكٌ وبِشْرُ؟

مأساة الشاعر

قد هبطنا في شاطئ الشعر والفن فـمـاذا فـيـه من الأفـراحِ؟
ها هو الشـاعرُ الكئيبُ وحـيداً تحت سـمع الآصال والأصباحِ

أبداً ســـاهمٌ يراقبُ أيّا مَ حـيـاة لاتنقـضى بَلْواها
لا يرى الواهمون غير ضُحَاها ويعـيشُ الفنّانُ تحت دُجَاها

يرقبُ الأشـقياءَ فى ظُلْمة العَشْـ شِ ويبكى لهم بكاءَ غَـبـينِ
ويصـوغ الألحانَ يرثى لبلوا هُمْ ويبكى على الوجودِ الحزينِ

طالما باتَ ساهدَ الطرف حيرا نَ يُسرُّ الظلامَ أحزانَ شـاعـر
لا يَرَى فى الحـيـاة إلا وجـوداً ظلّلتـهُ يدُ الشـقـاء العـاصـرْ

أبداً لا يَرَى سـوى مسـرح المأ ساةِ بين الدموع والتنهـيـدِ
وسـتـاراً من الدُجَى يتجلّى كلَّ يومٍ عن مـيـتٍ ووليـدِ

واكتئاباً يمشى على صور الكو نِ جميـعـاً ولوعـةً وشقـاءَ
ودمـوعـاً تلوحُ فى كل عَـيْـنيـ نِ ودهراً يخـادعُ الأحـيـاء

ليس يَلْقَى الحياةَ إلاّ حزينَ الـ ـقلب حيرانَ فى هموم الحياةِ
كلما أنَّ بائسٌ ذرف الشا عرُ دمع الأسَى على المأساةِ

وإذا أذبلَ الجليدُ زهو الـ لوز رانَ الأسى العميقُ عليهِ
واذا ماتت البلابلُ ظمأى جال دمعُ الرثاءِ فى مُقلَتْيهِ

فهو قلبٌ قد صيغَ من رقّة الزهـ ـر وعينٌ قد طُهّرتْ بالدموعِ
وحياة حسّاسة ليس يدرى سرَّها غيرُ شاعرٍ مطبوعِ

هى عمر ظمآنُ تعصُرُهُ العُزْ لةُ عَصْراً، يمرُّ كالآزالِ
فى سكونٍ لا صوتَ يُسْمعُ فيه غيرُ صوتِ الصرّارِ تحت الليالى

غير همس الحمام فى الجَبَل المو حشِ أو لحن بلبلٍ مهجورِ
وحفيف الأشجار فى قبضةِ الر يحِ وصوت الرعود فى الديجورِ

غير همس الأشباح ملء دُجَى الشا عرِ فى ليله الطويل الجديبِ
يتلقّى الأشعارَ عنها ويحيا أبداً فى حمى الأسَى والشحوبِ

أيها الشاعرُ الذى يسهرُ الليـ ـلَ وحيداً مستَغرقاً فى الجمودِ
مُحْرِقاً روحَهُ بَخوراً على حبِّ (أبولو) ووحيِهِ المنشودِ

ساهـداً حـانيــاً على القلم الـشـا عــر يرثـى الدجى ويبـكى السنينا
راسـمــاً للحـيــاة صـورتَهـا المرّ ةَ بيـن الجـيـــاعِ والبـــائســيـنا

أطفئ الضــوءَ أيّهـا الشـاعـر المتـ ـعبُ وارحـم فـؤادَكَ الموجـوعـا
كـاد يخـبـو ضــوء السـراج وتأتى ظُلُمـات الـدُجَى عليـه جـمـيـعـا

رقــد الـعــالَمُ المعـــذَّبُ تحت الـ ليلِ فـارقــد واتركْ بقـايا النـشـيـد
حـسبُكَ الآن مـا سـهرتَ مع الحـا رسِ تَـرْثــى لـلـيـلـه المكــدود

قد أَوى الحـارسُ الكئيبُ إلى الكو خِ إلى غـمـضـة الكَرَى والطيـوف
فكَفَى يـا حـزينُ عطفـا عـلى الكو ن ورفـــقـــاً بقلبك المـلهـــوف

عـجبـاً كـيف تُسْـهِر الشـاعـرَ المُدْ ـهَمَ أحـزانُ من عـن الحزن نامـوا
كـيف ترقا مـدامعُ الورد فى الحقـ ـل ويبـكـى على أســاها الحَـمَـــامُ

آه يا شـــاعـــرى المـعـذَّبَ مــاذا؟ أكـــذا تصـرف الحـيـــاةَ غـبـينا؟
فى سـبـيل الوحى السـماوىِّ تحيـا شـاحب الوجـه مـتـعـبـاً مـحـزونا

بعتَ بالشـعـر لـهـوَ أيّامك الظمـأ ى وعُــفتَ الحيـــاةَ عــيناً وقلبـــا
ونذرت الشـــبـــابَ والحبَّ لـلفن لتــحـيـــا على الجـراح مُــحـبّــا

ليس يعنيكَ أن ترافقَك الأحـ ـزانُ ما دمت مُلْهَما صَدَّاحا
ليس يُرْضيك غيرُ لحنٍ تغنّيـ ـه وإن صغتَهُ أسىً ونواحا

ليس تُعْطى الحياةُ للشاعر المجـ ـدَ إذا لم يَذُقْ همومَ الحياةِ
ليس تسمو الأرواحُ إن لم تطهّرْ ها معاني الدموع والآهاتِ

فإذا أشحبَ الأسى وجنةَ الشا عرِ أو بات ليلَهُ أوّاها
وإذا عضّ قلبَهُ مخلبُ الحز نِ وضاقت حياتُهُ بأساها

خاطبتْهُ الحياةُ: يا شاعرى الملـ ـهمَ يا ابن الشحوب والآلامِ
النجومُ الوضاءُ لاتبعثُ السحـ ـرَ اذا لم يُسدَلْ ستارُ الظلامِ

والذى يجمعُ الزهورَ يدوس الـ ـشوكَ يا شاعرى ويمشى عليهِ
والذى يعشقُ الطبيعةَ لا يثْـ ـقُلُ صمتُ الدُجَى على مِسْمعيه

فاحتمل ما استطعتَ أحزان عمر هو لولا الأحزانُ ما كان شيّا
وادفنِ النورَ فى جفونك مَيْتاً وابعثِ الشعرَ من فؤادك حيّا

غنِّ هذا العذابَ صف لحياة النـ ـاسِ ماذا يُبْكى فؤادَ الشاعرِ
صِفْ لهم كيف يصرفُ العمرَ حيرا نَ ويحيا على أساهُ العاصرِ

صفْ لهم ذلك الصـراعَ صـراعَ الـ ـفكـر والقلبِ فى ظلامِ الحـيـاةِ
كلَّمـا أخـفتَ النعـيـمُ صـراخَ الـ ـقلـب ضجَّ الفكـرُ الأبِّى العـاتى

فـهـمـا فى حـيـاته نبعُ أحـزا ن يَردّ الحـيـاة أفْقـاً كـئـيـبـا
وهمـا الثـائرانِ لابدَّ ممن صـو تِهـمـا وليـكنْ دمـاً ولهـيـبـا

شـرعـة الـفكر أن يغـرِّدَ بالشـعـ ـر ويشـدو وان يكن مـحـزونا
ومُنَـاه السـمـوُّ للـعـالـم الأعـ ـلـىْ وان يَلْـق فى الـطريـق المنونا

فـهـو أفْقٌ حـرٌّ يريد حـيـاة الـ ـعقل فى مـعـزلٍ عن الإحـسـاس
وسـواءٌ لـديه أن يشـحبَ الـشـا عـرُ أو أن تقـسـو عليـه المآسى

أفليـس الشـحـوبُ والألمُ العـا صـرُ نبـعـاً لـلشـعـر والألحـانِ
أو لا تقـنعُ الحـيـاةُ مـن الشـا عـر باللحـنِ فى حِمَى الحـرمـانِ؟

فـيمَ كـان الصـراعُ يبعـثـه القلـ ـبُ إذنْ فـيـم؟ فـيم لا يطـمـئنُّ
فـيمَ يأبَى الحـيـاةَ فى وحشـة العُـزْ لةِ والـفكر فـيـم يمـضى يئنُّ؟

هكذا تـصـرُخُ الخـواطرُ بـالشـا عـر فى ليلـه، فـإن جـاءَ فـجـرُ
ورأى الراعىَ الـصـبـىَّ يسـوقُ الـ ـغنَم الـظامـئـاتِ لم يبـقَ شِـعـرُ

ومضى القلبُ صارخاً أين حبّى؟ أين لهوى؟ وفيمَ أبقَى أسيرا
أبداً لا أنى أضحّى بأفرا حى، وأحيا ذاكَ الحزينَ الكسيرا

من بكائى تصوغُ شعركَ للكو نِ ومنّى المُنَى ومنّى الحنينُ
من دمى هذه الملاحمُ فارحمـ ـنى أنا العاشق الشجِى المغبونُ

انطلق بى دعنى أذقْ فرحة الحبِّ لعلّى من الشقاء أفرُّ
ما غَنَاُء الأشعارِ يا شاعرى المتـ ـعَبَ إن كانتِ الحياة تمرُّ؟

ليس يُغْنى عنكَ النشيدُ إذا متَّ حزيناً وليس يرويك لحنُ
لاتقُلْ فى غدٍ غدٌ نَدَمٌ قا سٍ على ما مضى ويأسٌ وحزْنُ

تحت ثقْلِ الثرَى وفى وحشة المو تِ سيخبو هذا النشيدُ ويَفْنى
فإذا لحنُكَ الذى صغتهُ يأ سا وحزناً للناعمينَ يُغنَّى

وستُنْسَى أنت الذى ملأ الدنـ ـيا جمالاً وماتَ ظمآنَ جَهْما
وسيُبْلى الترابُ ما يتبقّى منك يا مستطارُ لحماً وعظما

ثم ماذا؟ غداً يقولونَ قد كا نَ فتىً بيننا طواهُ الهزالُ؟
ما رأينا منه سوى طيفِ إنسا نٍ فقدناهُ واصطفاهُ الخيالُ

سـيقـولون شـاعـرٌ رَكـبتْـهُ لُوثَةٌ فـانزوَى وعـاشَ غـريبـا
أبداً يرقب الـفـضـاء يصيـد النـ ـجمَ أو يحـصـدُ الـظلام الكئيـبـا

يرمق الزهـر من بعـيـد وفي عـيـ ـنَيْـه أحـلامُ عـاشقٍ ولهـانِ
جـامـداً قـانعـاً بعُـذْرِيِّ حبٍّ يـكتـفـي بـالعـطورِ والألـوانِ

أيهـا الشـاعـرُ السجينُ كـفـانا غـربةٌ فـي حـيـاتنا ووجـومـا
حسبُكَ الآنَ ما خضعتَ لـصوت العـقل وارحم شبـابَكَ المحـرومـا

ويمـرّ الـنهـار والشـاعـر المغـ ـبونُ حـيـرانُ بيـن فكّي أسـاهُ
بين همس الصـوتين يحـيا كـئيباً ويـنـاجـي طيـوفَـهُ ومُنَاهُ

فـإذا جـاش قلبُـهُ بمعـانى الـ ـيأس ألـقى أحـزانَهُ فى النشـيـدِ
لائذاً بـاليَـرَاعِ يـسكبُ فـيـه مـا يُعَانى من العـذابِ الشـديدِ

سـاكـبـاً روحَـهُ على كـل بيت ناحـتـاً مـن فـؤاده الألحـانا
راضيـاً بالشُـحـوب والسُقْم حبّاً لأبولو مُـسْـتـسـهـلاً مـا كـانا

كلُّ بيتٍ من شعـره يتـقـاضـا هُ شـحـوباً ورعـشـةً وسَـقَامـا
فـهـوَ فى لحنه يُذيبُ صـبـاهُ ويضـيعُ الشـبـابَ والأحـلامـا

ثم مـــاذا؟ ســرعــانَ مــا يزأر الإعـ ـصــارُ، والزهرةُ الجـمــيلةُ تذْوى

وإذا الضـوءُ فـى الأعـالىِّ يخـبـو وإذا النجـمــةُ الوضـيئـةُ تهـوى

ويغــيبُ الضــيــاءُ فى لـيلِ قـبـر ليس تبـكى لـه ســوى الأمـطارِ

ليس يرثـيـه غـيـر ذاوى صِبـاهُ وبقـايا الـقـيـثـارِ والأشـعــارِ

ذلك الشــاعـرُ الذى كـان يحـيـا عــمَـرهُ باكــيــاً علـى كلِّ باكِ

ذلك العــاطفُ النبـيـلُ على الأحـ ـزان ذاكَ المُلْقَى عـلى الأشـــواكِ

نبـــذْتهُ الأيام فـى قــبـــره المو حش تحت الريـاح والظلـمـــاتِ

حــيثُ لا آهةٌ يُصَــعِّــدُها قـلـ ـبٌ ولا دمــعـــةٌ على المأســاةِ

هكذا فى العذاب تمضى حياة الشـ ـاعـــرِ الملهـمِ الرقــيقِ وتُنْسَى

هكذا يـمــلأ الوجــود جــمـــالاً ويذوق الآلام كـــأســـاً فكأســـا

هكذا كـلُّ شــاعــر فــارحـلى بى يا ســفـينى عن عــالَمِ الشــعـراءِ

ولندْعــهم فى ذلك الشَـجَـنِ العـا صــف بِـيــن الآهــات والأدواءِ

ولنسـر فى بحـر الحـيـاة كـمـا كنـّ ـا ونُلْقى المرَسى على كل ساحلْ

ربما يـا ســفــينُ نلـقى ضـيــاءً يتــجلّى بعــد الظـلامِ القــاتلْ

عند العشاق

ربما كــان فــى حــيــاة المحــبــيــ ــنَ رجــاءٌ أو دفـقــةٌ من ضـيــاءِ
ربما كـــــان عـندهـم ذلكَ الإكــ ــسـيــرُ بين الخـيـــالِ والأهواءِ

شــاطئَ الحبِّ أيّهــا اللامعُ الخـــا دع هات الحـــديث عـن أبنـائكْ
صفْ مُنَاهم وبِشْـرهم وأســاهم صفْ لنا مـا اختـفى وراء صفـائك

صفْ لنا كيف يعصرُ العاشقَ الشو قُ إلــى من يـنــامُ عــن بـلــواهُ
كـيف يلهو به الخيالُ فـيُمْـضى الـ ـلـيـلَ سـهـرانَ غـارقــاً فـى مناه

صفْ حـيـاةَ الذى استبـدَّ به الحبُّ فــخــال الحــيــاةَ جنّة سـحْــر
ومــضى فــاتحــاً ذراعــيــه لـلنو رِ يصــوغُ الحــيـاةَ ديـوانَ شِـعْــر

يلثم الـزهْرَ فى الحــقــول ويشــدو للـيـــالى الحـــصـــادِ لحنَ هواهُ
راقـصــاً كـالفـراش لـلقَـمَـر الحلـ ـو خـليــاً مـن يأسِـــهِ وأســـاهُ

راسـمـاً للغـد الجـمـيلِ من الأحـ ـلام مـــا لا تطيـقـُــهُ الأقـــدارُ
ســادراً فــى أوهامــهِ غــيــرَ دارٍ أن هذى الحـــيــــاةَ هـولٌ ونارُ

فى يـديه كـأسُ الرحـيق يغنيـ ـه على مِسْمعِ النهار ويَشْربْ
وعلى ثغره ابتسامةُ مخدو عٍ يُغّنى له الشقاءُ فيطرَبْ

ثم يخبو الضياءُ ذات مساء ويُفيقُ النشوانُ بالأوهامِ
فإذا الحقل ذابلٌ لا زهورٌ لا فراشٌ لا شىءَ غير الظلام

أين تلكَ الأحلامُ؟ كيف ذوى الحبُّ؟ وأين الوجهُ الحبيبُ النضيرُ
يا لَغَدْرِ الأيامِ لم تحفظِ العهـ ـدَ لقلبٍ جَنَى عليه الشعورُ

وتمرّ الحياةُ والعاشق المهـ ـجورُ قلبٌ دامٍ ووجهٌ شاحبْ
أبداً يُرجعُ الخيال إلى الما ضى ويبكى على الغرام الذاهب

أبداً يَرْمقُ الحياة كئيباً من وراء الدموع والأحزان
ويراها الذئبَ الذى ينهشُ القلـ ـبَ ويقسو على الأسى الإنسانى

أبداً يسأل الظلام حزيناً شاردَ الفكر أين ألحانُ قلبى
أين زَهرى وأين بلبلىَ المنـ ـشودُ؟ ماذا أضاع أحلامَ حبّى؟

أين تلكَ التى سكبتُ عليها من حياتى ومن فؤادى ولحنى
أين تلكَ العيونُ تُلْهمُ أحلا مى وتمحو غشاوة الحزن عنّى؟

يا لَقلبِ المسكينِ تلذعه الذكـ ـرى وتُخْـيي غرامَه وأساهُ
هكذا قد قضى عليه كيوبيـ ـدُ فماذا تُفيدهُ شكواه؟

فليجدْ فى الخيالِ والشعرِ والذكـ ـرَى دواءً لحبّه المصدومِ
وليقض الحياةَ بين حقول الـ ـقمح والقطن تحت ضوء النجومِ

وليحبّ الغيومَ والفجرَ والنهـ ـرَ ويُمْضى الأيّامَ بين التلالِ
يتغنّى فيعشقُ الزهرُ موسيـ ـقاهُ عند الهُوَى وفوق الجبالِ

فحياةُ الخيالِ أجملُ من وا قعِ حبّ ملفّعٍ بالرمادِ
وهنا يا مصدومُ حرّيةُ الرو ح فماذا يُغْريكَ بالأصفادِ

سل كيوبيد عن شقاوة صرعا هُ وماذا يَلْقَوْن من تعذيبِ
كيف يَحْيَوْن فى جحيمٍ من الشكِّ وليل من الضّنَى والشُحُوبِ

إن قضتْ بالحرمانِ أيَّامُهم عا شوا حَزَانَى معذَّبين حَيَارى
يشتكون الأقدار والزمن العا تى ويحيون أشقياء أسَارى

وإذا ما تحقق الحُلُمُ العَذْ بُ أشاحوا عن سحره كارهينا
ويعودُ الضياءُ ليلاً دجيّاً وتعود الأزهارُ شوكاً وطينا

هكذا يخمد الغرامُ وتخبو شعلةُ الحبّ والمنى والحنينِ
فالسعيدُ السعيدُ من دَفَنَ الحبَّ وعاشَ الحياةَ غيرَ سجينِ

يا دموع العشّاق قد شبع العا لم بؤساً فلا تَزيدى أساهُ
قد ملأنا الكون الجميل دموعاً وشبعنا من صمتهِ ودجاهُ

فانضبى أنت حسبُنا شَجَنُ العيـ ـش وبلوى الحياة والأيامِ
حسبُ هذى الأرضِ الكئيبةِ دمع الـ ـبائسين الجياعِ والأيتامِ

انضبى واطردى خيالَ كيوبيـ ـدَ وحسبُ الغرامِ هذى الضحايا
لن ينالَ العشّاقُ يوماً سوى أد معِ حبٍّ حفَّتْ سناهُ المنايا

قيس وليلى

كيف مات المجنون؟ هل سَعدتْ ليـ ـلى؟ سلوا هذه الصحـارى الحزينه
اسـألوها ما حـدَّثَ الريحَ قـيسُ الـ أمسِ ليـلاً وكـيف عـاش سنينَهْ

ذلك الشـاعـرُ الشـريدُ الخيـالىُّ صـديقُ الظبـاءِ فى الصـحـراءِ
ونجىُّ الـرمـالِ والوحـشِ والبـيـ ـدِ وطيـف الشـحـوب والأدواءِ

سـحقَ الحبُّ قلبَـهُ المرهَفَ الغضَّ فـعـاش الحـيـاةَ دونَ مـقـرٍّ
فـوق تلـك الرمـالِ يُنْشـدُ أشـعـا رَ هواهُ لـكل هوجـاءَ تسـرى

راسمـاً فوق صـفحـةِ الرملِ مـا كا نَ من الـشـوقِ والأسى والحنينِ
لاثمـاً كلَّ مـوضعٍ خطرت لـيـ ـلَى عليـه فى مـاضيـاتِ السنينِ

يومَ كـانـت ترعى الشيـاهَ ويرعى قـيسُ أغنـامَـهُ فـتشـدو ويشـدو
وتدوّى بـاللحن تـلك الرمـالُ الـ ـسُمْرُ حيث الظبـاءُ تلهو وتعـدو

يومَ كـانتْ يا لهـفـةَ الشـاعـرِ العـا شقِ مـاذا قـد أبقـتِ الأقـدارُ؟
نضـبتْ فـرحـةُ الصـبـا وذَوَى الوا دى وجـفَّت فى رَحْـبِـه الأزهارُ

وتبــقّى قــبـــر على قَــدَمِ التلِّ ... ذَوَتْ تحـــتَــهُ مــــعـــالم ليـلى
وحَنَتْ فـــوقَــهُ شــجـيــرةُ ورد ... تخـذَتهـا الأشـلاءُ فـى القـبـرِ ظلاًّ

وتبــقّى قـــيسُ المعـــذَّبُ يبـكى ... مــا تبـقّى من عُـمْـره المصـدومِ
راقـداً عـند حـافــة القـبـــر لا يفـ ... ـتـأ يشـكو إلى الصَبَا والـغـيـومِ

يتـــــمنى ليـلَ المنـايا ويـدعـــــو ... هُ إليــــه بأعـــذبِ الأســـمـــاء
ويغنِّى للمـــوت أجـمـلَ ألحـــا ... نِ هواهُ تحـت الدُجى والضــيـــاءِ

ثم جــاء الصبــاحُ يومـاً وقــيسٌ ... فى يـد الموتِ ذاهلٌ مـــصـــروعُ
ليس تَبـكيـه غـيــرُ تنهـيــدةِ الريـ ... ـحِ وصـوتِ البومِ الـكئيبِ دموعُ

يا قلوبَ العـشّـاق حـسبُك حبّـاً ... واقـبسى من مـأسـاة قـيس مـثـالا
هى هذى الحـيـــاةُ لاتمنحُ الأحـيـ ... ـيـــاءَ إلا الـعـــذابَ والأهوالا

خـدعـتنا بالحـبّ والشـوق والذكـ ... ـرى ومـا خلفــهـا سـوى الأوهامِ
عـــالـمٌ ســـافـلٌ يضجُّ مـن الإثـ ... ـم ويحــيــا بين الهُــوَى والظلامِ

فى أحضان الطبيعة

أيها الشاعرون يا عاشقى النبـ ـلِ وروحِ الخيالِ والأنغامِ
ابعدوا ابعدوا عن الحبِّ وانجوا بأغانيكمُ من الآثام

اهربوا لا تدنّسوا عالمَ الفنِّ بهذى العواطف الآدميّه
احفظوا للفنون معبدها السا مى وغنّوا أنغامَها القُدُسيّه

قد نعمتم من الحياة بأحلى ما عليها وفزتُمُ بجَنَاها
يعمَهُ الآخَرون فى ليلها الدا جى وأنتم تحيَوْنَ تحت سناها

اقنعوا باكتئابكم واعشقوا الفنَّ وعيشوا فى عُزْلة الأنبياءِ
وغداً تهتفُ العصورُ بذكرا كم وتحيَوْنَ فى رِحابِ السماءِ

اقنعوا من حياتكم بهوى الفنِّ وسحر الطبيعة المعبودِ
واحلموا بالطيور فى ظُلَلِ الأغـ ـصان بين التحليقِ والتغريدِ

اعشقوا الثلجَ فى سفوح جبال الـ أرضِ والوردَ فى سفوحِ التلالِ
وأصيخوا لصوتِ قمريّةِ الحقـ ـلِ تغنى فى داجيات الليالى

اجلسوا فى ظلال صَفْصافة الوا   دى وأَصْغُوا إلى خرير الماءِ
واستمدّوا من نغمة المَطَر السا   قطِ أحلى الإلهام والإيحاءِ

وتغنّوا مع الرعاة إذا مرّ   وا على الكوخ بالقطيع الجميلِ
وأحبّوا النخيلَ والقمحَ والزَهْـ   ـرَ وهيموا فى فاتناتِ الحقولِ

شجرات الصَّفْصاف أجملُ ظلاً   من ظِلال القصورِ والشُرُفاتِ
وغناءُ الرعاةِ أطهَرُ لحناً   من ضَجيجِ الأبواقِ والعَجَلاتِ

وعبيرُ النارنج أحلى وأندى   من غُبارِ المدينة المتراكِمْ
وصفاء الحقول أوقَعُ فى النفـ   ـسِ من القَتْل والأذَى والمآثِمْ

وغرامُ الفراشِ بالزهر أسمى   من صبابات عاشق بَشَرِيٍّ
ونسيمُ القُرَى المغازلُ أوفى   لعهودِ الهَوَى مِن الآدميِّ

وحياةُ الراعى الخياليِّ أهنا   من حياة الغنيّ بين القُصُور
فى سفوحِ التلالِ حيثُ القطيعُ الـ   ـحلوُ يرعَى على ضفاف الغديرِ

حيثُ تثغو الأغنامُ فى عطفة المَرْ   ج وتلهو فى شاسعات المجالى
وينامُ الراعى المغرِّدُ تحت السـ   ـروِ مستسلماً لأيدى الخيالِ

فى يـديه النايُ الـطَروبُ يناجـيـ ـه ويـشـــدو علـى خُطَى الأغـنامِ
مـستـمداً من همـسِ ساقـية السـفـ ـح لحــونَ الشـبــاب والأحـــلامِ

آه لو عـشتُ فى الجبـال البـعـيـدا ت أســوقُ الأغنامَ كل صـبــاحِ
وأغنّى الصـفـصاف والسّروَ أنغـا مى وأُصْـغـى إلى صـفـيــرِ الرياحِ

أعــشقُ الـكَرْمَ والعــرائشَ والـنبـ ـع وأحــيـا عُــمْـرى حيــاةَ إلهِ
كلَّ يومٍ أمــضـى إلى ضــفّــة الوا دى وأرنو إلـى صـــفـــاء الميـــاهِ

أصـدقــائى الثلـوجُ والزَهْرُ والأغـ ـنامُ، والـعــود مــؤنسـى ونجـيّى
ومــعى فى الجبـــال ديوانُ شـعــرٍ عـــبـقـــرىٍّ لشـــاعــرٍ عـــبـقـــرىٍّ

أتغنّى حــيناً فــتُــصْغـى إلى لحـ ـنى مــيــاهُ الوادى ومـرتـفـعـــاتُهْ
وأناجى الـكتــابَ حــيناً وقــربى هدهدٌ شــاعـــرٌ صَفَتْ نـغـمـــاتُهْ

وخـريرٌ من جدول مُعْشبِ الضـفّـ ـة يجـرى إلـى حــفـــاف الوادى
وثغـــاءٌ عـــذْبٌ من الـغنم النشْـ ـوَى وهمسٌ من الـنسـيم الشادى

آه لو كــــان لـى هنالك كـــوخٌ شـــاعـرىٌّ بيـن المروج الحـــزيـنه
فى سكون القُرى ووحـشتـهـا أقـ ـضى حيـاتى لا فى ضجـيج المدينه

ليـتنى من بنات تـلك الجبــال الـ ـغُنّ حيثُ الجـمـالُ فى كل رُكْنِ
ليـتنى ليـتنـى وهل تبـعث الأحـ ـلامُ إلا الـدمــوعَ فـى كلّ عــينِ

قــدّرتْ لى السنيـنُ أنى هنـا أقـ ـضى حيـاتى قلبـاً رقيـقـاً شـجيّـا
فى ضبابِ الخيـالِ أمشى وحـولى عــالم لـلغنِى يمــوت ويحــيــا

قــد أحــبُّــوا أيّامَــهـمْ وتمرّدْ تُ عليـهـا فـعشتُ فـى أحـلامى
إن أكنْ قد وُلدتُ فى هـذه الضجّـ ـةِ فـــلألـتـــجـئْ إلى أوهـامى

ولأعشْ فى الخيال حيث تهيمُ الـ ـروحُ بين المروجِ والقـطعـــانِ
هكذا تَهْـدأُ الأمـانى إلى حيـ ـنِ وتخـبـــو مـرارةُ الأحــزانِ

هكذا أدفِنُ الطمـوحَ كـمـا يَدْ فِنُـهُ كـلُّ طـامحٍ بَشـــــرىٍّ
وعـيـونَ الأقـدارِ يضـحـكن منى هازئـاتٍ بضــعـــفـىَ الآدمىِّ

يا عـيــونَ الأقـدار لا ترمـقى دمـ ـعى ولا تـهـزأى بقلبـى الحـزينِ
إن يكـن فى دمـى طمــوحُ نـبىٍّ فـأسـى اليـائسـينَ ملء عـيـونى

كـــان هذا الطـمـــوح لعنـةَ أيّا مى فـيـا ليـتنى عـصـيتُ هواهُ
كلـمـــا حــقّق الـزمـــانُ لقلبى حُلُمـاً صـوّرتْ حيـاتى سـواهُ

لست أدرى مـاذا سيجنيـه قلبى	من شُـــرُودى فـى كل أُفُـقٍ ونجمِ
أبـداً أرتقـى الـنجـــومَ وأرنـو	لمجـــاهيلِ عـــالمٍ مـــدلهمٍّ

لست أدرى شيـئـاً أنا اليـأس يا أر	ضُ وأنت ابتـسـامتى ودمـوعى
أنتِ وحـــيى ومنـكِ تنبُعُ أحـــلا	مى، وإن كنتُ فى حماكِ الوضيعِ

ارفـعـــينى إلى السـمـاء إذا شـئـ	ـتِ بوحيٍ من سحـركِ الشاعـرىِّ
وأعـيـــدى منى إذا شـئـتِ للطيـ	ـنِ فـتـــاةً تبكى على كـل حيِّ

أضــحكـينى وأطلقـــينى ورقـــاء	تغـنى بحـــسنك الـفَتَّـــان
أو دعينى أبكى عـلى أشـقـيـاءِ الـ	أرضِ بيـن الحنيـنِ والحـــرمـــانِ

ضاع يا أرضُ فـيكِ معنـى الأمانى	وتبـــقَّى الـشـــقـــاءُ والأكـــدارُ
وخـــبَتْ فى كـــآبةِ الموتِ أصـوا	تُ الأغـانى واستـسلـم القـيـثـار

فـــعــــلام الـعـــزاءُ والأمـل المو	هومُ فى حـــومـة الدجى المدلهمِّ
ولم الأشـــقـيـــاءُ يُخـفـــون بَلوا	هُمْ ويَخْـيَـــوْن فى خـداعٍ ووهمِ

قد وصـفتُ الشقاء فى شعـرى البا	كى وصـــوّرتُ أنفسَ الأشـقـيـــاءِ
وشـــدوتُ الحيـــاةَ لحناً كـئـيـبـا	ليس فـى ليلِه شـعـــاعُ ضـيـــاء

فـــأثارت كـــآبتى عَـــجَبَ الـنا سِ وحـاروا فى سـرِّهـا المجـهـولِ

مـــا دروا أننـى أنوح عـلى مـــأ سـاتهم فى ظلامـهــا المسـدولِ

أنـا أبكـى لكـل قلـب حـــزيـنٍ بعـــثـــرتْ أُغنيــاتـه الأقــدارُ

وأروِّى بأدمـــعى كـلَّ غـــصنٍ ظـامـئٍ جـفَّ زهـرهُ المَـعـطـارُ

القصر والكوخ

كلَّ فجرٍ أرى الرعاةَ يمرّو ... نَ فأبكى على حياة الرُّعاةِ
فى ثلوجِ الجبالِ أو لهب الشمـ ... ـسِ يريقون مبهجات الحياةِ

ويمرّ القطيعُ بى فأرى الأغـ ... ـنامَ بين الذبَّاحِ والسكّينِ
يا حياةَ الإنسانِ لا فرحةٌ فيـ ... ـكِ إذا لم تُصحبْ بدمع غبينِ

فكنوز الغنىِّ يجمعها الفلاَّ ... حُ فى عُمُره الشقىّ الكسيرِ
ذلكَ الكادحُ المعذّبُ فى القَرْ ... يةِ بين المحراثِ والناعورِ

كلَّ صيف يسقى البساتين تحت الشـ ... ـمسِ ، والقصرُ هاجعٌ وسَنْانُ
فهو يُلْقِى البذورَ والمترفُ الها ... نئُ يجنى وتشهدُ الأحزانُ

يا ليالى الحصادِ ماذا وراء الـ ... ـحقلِ والحاصدينَ من مأساةِ
شهد الكوخُ أنّه يحمل الحز ... نَ لتحظى القصورُ بالخيراتِ

كيف يجنى الأزهارَ والقمحَ والأثـ ـمارَ من لم يجرحْ يديْه القَدُومُ؟
ويموتُ الفلاّحُ جوعاً ليفترَّ لعينَى ربٍّ القصورِ النعيمُ؟

كيف هذا يا ربّ؟ رفقاً بنا رفـ ـقاً قد غَصَّتِ الكؤوسُ دموعا
وطغتْ في الفضاء آهاتُنا الحيـ ـرَى تغنى رجاءنا المصروعا

كآبة الفصول الأربعة

نحن نـحـيـا فى عـالمٍ كـلُّه دمـ ـعٌ وعُـمْـرٍ يفـيض يأسـاً وحـزنا
تتـشـفّى عنـاصـر الزمن الـقـا سى بـآهاتـنا وتـسـخَـرُ منّا

فى غمـوضِ الحياةِ نسربُ كالأشـ ـبـاحِ بيـن البـكاءِ والآهـاتِ
كلَّ يـومٍ طفلٌ جـديدٌ ومَـيْتٌ ودمـوعٌ تـبكى عـلى المآسـاةِ

ثم مـاذا؟ فـى أىّ عـالمنا المُحْـ ـزنِ نلقَـى العـزاءَ عـمّـا نـقـاسى؟
عند وجـهِ الطبـيـعـة الجـهم أم عنـ ـدَ فـؤادِ الزمـانِ وهو القـاسى

قـد عـبـرنا نَـهْـرَ الحـيـاة حَـيَـارَى فى ظـلامِ الفـصـول والسَنَواتِ
وثبـتـنا على أسـانا خـريفـاً وربيـعـاً فـمـا جـمـالُ الحـيـاةِ؟

طالما مـرّ بى الخـريفُ فـأصـغـيـ ـتُ لصـوتِ القُـمْـريّةِ المحـزونِ
وأنا فـى سكون غـرفـتى الـدجـ ـياءِ أرنـو إلى وجـوم الغـصـون

طالما فى الخـريف سرت إلى الحـقـ ـل وأمـعنتُ فى وجـومى وحـزنى
كـيـف لا والـكآبـةُ المرّةُ الخـر ساءُ قد رفـرفتْ على كلِّ غـصنِ

والحمامُ الجميلُ قد هَجَر الأعـ ـشاشَ سأمانَ من وجومِ السهوب
وطيورُ الكنار آثرت الهجـ ـرةَ والعيشَ فى حقول الجنوبِ

وغصونُ الأشجار مصفرّةُ الأو راقِ والزهرُ ذابلٌ مكفهرٌّ
ورياحُ الخريف تعبث بالأو راقِ والسُحْبُ فى الفضاءِ تمرُّ

طالما سرتُ فى المساء وفى سمـ ـعىَ صوتُ الأوراقِ تحت خُطايا
كلّما سرت خطوة أنّت الأو راقُ فاستجمعتْ بعيد أسايا

أرمقُ الحقل والجداولُ قد جفـ ـتْ ولون الفضاء أسودُ غائم
وأحسُّ اليومَ الكئيبَ يُغنّى من بعيدٍ بين النخيلِ الواجمْ

وأرى النهر من بعيد كسرٍّ غلّفته أيدى الخريف الكئيبَ
لا رُعاةٌ على شواطئه يُزْ جونَ أغنامهمُ قُبيلَ الغروبِ

لا اخضرارٌ يغرى الحزانى بأن يَسْـ ـعَوْا إليه ولا صفاءٌ جميلُ
ليس إلا رطوبةُ الأرض والوحـ ـشةُ والصمتُ والرُبَى والنخيلُ

فإذا رعشةٌ تضمُّ فؤادى وإذا الروحُ ضائق بأساهُ
ما أمرَّ الخريفَ يا ربِّ ما أو حشَ إصباحَهُ وأقسى مَساهُ

ثم يأتى الشتـــاء بالثلج والأمـ ـطارِ والـريح فى سكون الـليـالى
وتمرّ الأيام مـــوحـــشــةَ الخطـ ـو بطاءَ الإصبـــاحِ والآصـالِ

وتموتُ الأزهارُ فى قـبـضـةِ الـثلـ ـجِ ويعـرو الأشـجارَ لونُ الزوالِ
وتغـيب الأطيـارُ فى الموقـد المهـ ـجور أو فى كـهفٍ وراء الجبـالِ

ويـجىءُ المســـاءُ بـالمطـر المنـ ـهلِّ يبـكى على شَـجا الإنسـانِ
وتظَـلُّ الرياحُ تـعـصـفُ بالنـخـ ـلِ وترثـى لكـل قـلبٍ عـــانِ

آه مـا أكـأبَ الـشـتـاءَ ليـاليـ ـه وأيـاَمــهُ ومـــاأقــســـاهُ
حينَ أخـلو لنارِ موقـدىَ الخامـ ـدِ والـقلبُ مُـغْـرَقٌ فى أســاه

لستُ أصغى إلا إلى ضجة الإعـ ـصارِ بين النخيل والصـفـصافِ
واصطفاقِ الأمواجِ فى شاطئ النهـ ـرِ ووقعِ الأمطارِ فـوق الضـفـافِ

كل شىء فى الكون حولى كئيب فى ليـالى الشـتـاء ذات الرعـودِ
كل شىء حولى سوى ساعتى الصمّـ ـاء فى صمتِ غـرفتى المعهـودِ

ايه يا سـاعـتـى الكئـيبـةَ يا من صـحـبـتنى فى فـرحـتى وشـقـائى
مـا الذى تبـعثـين فى نفسى الحيـ ـرَى من الحزن فى ليـالى الشتـاءِ

أبداً تخفقين فى معصمى البا   رد والليلُ مُظلمٌ ممدودُ
لحظاتٌ تمرُّ فى ثِقَلِ السا   عِ وليلٌ معذَّبٌ منكودُ

كم سهرت المساءَ أصغى إلى دقـ   ـاتك الحائراتِ فى مسمعيّا
أنت يا من أحصيتِ ساعاتِ أيّا   مى وكنتِ الرسولَ منها إليّا

رحمةً فى الشتاء بى لا تعدّى   ما تبقّى يا ساعتى من حياتى
واتركينى أُصْغى إلى نَغَم الأمـ   ـطارِ فوقَ الحقولِ والرَّبواتِ

اتركينى فنغمةُ المَطَرِ الها   مرِ أحلى من صوتكَ الجبّارِ
يا رسولَ القضاءِ والزَمَن المُفْـ   ـنى وصوتَ الأحداث والأقدار

اتركينى وحدى وإن كان ليلى   مكفهراً تحت البروقِ طويلا
اتركينى أُصْغى إلى الرعدِ والأمـ   ـطارِ يا ساعتى وكُفّى العويلا

وغداً يُقْبلُ الربيعُ فيحلو   عقرباكِ المحبّبان لعينى
وتعود الدقّاتُ منك نشيداً   أتغنّى به ويصدَحُ فنّى

الربيعُ الجميلُ فصلُ الطيور الـ   ـبيضِ والزَهْرِ والسَّنا والعطورِ
عندما تكتسى العرائشُ بالكر   مِ وتشدو طيورُها فى البكورِ

عندما يخرجُ الرعاةُ إلى الوا ... دى بأغنامهم وتزهو الضفافُ
عندما يُزْهر البنفسجُ والخبّـ ... ـازُ والبرتقالُ والصفصافُ

وتذوبُ الثلوجُ فى القمم العُلْـ ... ـيا فتجرى السيولُ فى كل وادِ
ويعودُ البطُّ الجميلُ إلى الشا ... طئ بين الأعشابِ والأورادِ

ويعود الفلّاحُ يخرُجُ للحقـ ... ـلِ طروبَ الفؤادِ كلَّ صباحِ
تحت شمسِ الربيعِ يسقى جذورَ الـ ... ـتينِ والبرتقالِ والتفّاحِ

وتعود الطيورُ للوطن المهـ ... ـجور جَذْلَى مفتونةً بالربيعِ
فى ثنايا الأغصانِ تتخذُ الأعـ ... ـشاشَ تحتَ النور النقىِّ البديعِ

والقمارىُّ تستحمُّ وتلهو ... بين زهر الخبّاز فوق الضفافِ
وتغّنى للنهر أعذبَ ألحا ... نِ الأمانى فى مِسْمع الصفصافِ

وزهورُ السفوحِ تضحكُ للنحـ ... ـلِ وتُحنى رؤوسها للنسيمِ
وقطيعُ الأغنامِ يمَرحُ والرا ... عى يُقَضّى النهارَ تحت الكروم

وصبايا القُرَى يرحنَ ويغدو ... نَ نشَاوى على ضِفافِ السواقى
منشداتٍ أحلامَهنّ على سمـ ... ـع الينابيعِ والورودِ الرقاقِ

وسـماء الحـيـاة تزخـر بـالوحـ ـى ويصـحـو الشـعـورُ والأحـلامُ
أي أدونيس آهِ لـو عـشتَ فى الأر ضِ فـعـاشَ السَّنا ومـات الظلامُ

آه لو لم يـكن مـقـامُكَ فى عـا لمنا المكفـهـرِّ حُلْمـاً قـصـيـرا
آهِ لـو دمـتَ يـا أدونـيسُ لـلأر ض وأبقـيتَ عطرَكَ المسحـورا

يا ضيـاع الأحلام فى مِسْمع المو ت ومـاذا تُفـيـدنا الأحـلامُ
ليس يبـقـى الربيعُ إلا قليـلاً ثم يخـبـو الجـمـالُ والأوهامُ

مثل زهْر الصحراء سُرْعـان ما تقـ ـتلُهُ الشـمسُ والـرياحُ الهـوجُ
وتعـودُ الواحـاتُ قَـفْـراً كـمـا كـا نت ويَذْوى العشبُ النضيـرُ البهيج

هكـذا يرحل الربيعُ سـريعـاً وتعـود الحـيـاةُ لـلأحـزانِ
وتمـوتُ الآمـالُ فى كـل قلـبٍ وتعـيـشُ النفـوسُ للحـرمـانِ

فكأنّ الحـيـاةَ لـم تبـتـسم إلاّ لـتُلـقـى سـوادَهـا فى رؤانـا
وكـأنّ الزهـورَ لم تنشـرِ الأشـ ـذاءَ إلا لـكى تُثـيـرَ أسـانا

وكـأنّ النضـارةَ الحلوة الجَـذْ لى حُـداءٌ بنا لصمت القبـورِ
وكـأنّ الطيـورَ ترسل لحن الـ ـمـوتِ فى سمع كلِّ حىّ غـريرِ

يا شبـابَ الحيـاة مـا أنتَ بالخـا ... لـد إلا خلـودَ زهـرِ الـربيـعِ
ليس تُبْقى علـى نَضَـارتك الأقـ ... ـدارُ فى حـومـةِ الأسَى والدمـوعِ

أسـفـاً يا ربيعُ يا وردُ يا عـطـ ... ـرُ أهـذا ختـامُ كلِّ جـمـالِ
أكـذا يخفتُ الضـياءُ ويبْـقى الصـ ... ـمتُ والحـزنُ فى سكون الليـالى

قـصّـةُ الحبِّ والجـمـال أهذا ... مـا إليـه تكونُ بعـد صبـاها؟
تتـصـدَّى لـهـا يدُ الزَمَـن المـا ... حى فـتُبْلَى ضيـاءَها وصـداها

هكـذا يا ربيـعُ يَخْـتـتم النسـْ ... ـيانُ والصمتُ كلَّ شىء جميلِ
ويعيـشُ الإنسـانُ تعصـرُهُ الذكـ ... ـرى ويبكى علـى أسـاهُ الطويلِ

فـإذا عـضّتِ الـكآبـةُ قلـبى ... فى أضـاحى الربيعِ واشتـدَّ حـزنى
فـعلى مـصـرَعِ الـفـراشـاتِ أبكى ... وذبولِ الوادى الـشـجـيـرِ الأغنِّ

يا مـعـانى الزَوَالِ والعَـدَم الرا ... ئع رحـمـاك وارفـقى بصـبـايا
لا تُطّلى علـىَّ من كـلّ شـىءٍ ... فى وجـودى فـقـد سئمتُ أسـايا

اتركـينـى أرَ الربيع طـيـوراً ... ليس يَنْوى لهـا الأذَى مُغْتـالُ
ولتكـن زهرةُ البنفـسج فى عـيـ ... ـنى خلوداً لا يَعْـتـريهِ زوالُ

ودعـيـنى أعشْ مع الذكــريات الـ ــبـيض فى أمســى الجمـيلِ الراحلْ
علَّ هذا يجلو أسَى الصيفِ عن قلـ ــبى ويُحْـيى مَـوَاتَ حُـلمى الذابلْ

فلقــد جـفّت الريـاضُ الجـمــيـلا تُ فــــلا زهرةٌ ولا أشـــــذاءُ
وانطوتْ فـرحَـةُ الـربيع ومـات الـ ـعُـشْبُ فى أرضــهـــا وجفَّ الماءُ

لم تَعُـدْ فى العـشـاشِ قـمـريّة تشـ ـدو وتسـقى أفـراخـهـا فى النهـارِ
كـيف تحيـا الطيورُ فى لَهَب الشـمـ ـسِ وتـلهـــو تحتَ الـلظى والـنارِ

لم يعــد للنسـيم قلبٌ يـحبُّ النـ ـهــرَ والمرجَ فى ظلام الأمـــاسى
لم يعـــد للأزهار لونٌ جـــمـيلٌ يتـــجلَّى لمرهفى الإحـــســـاسِ

كلُّ شىءٍ فى الصيف يـنطق بالقَسْـ ـوة والشـــمسُ شــعلةٌ ولـهــيبُ
تتـــشكّى عــريشـــةُ الكَـرْم لكن ليـس يُجْـــدى توسُّلٌ ونـحـــيبُ

آه مـا أكـأبَ الظهـيــرة فى الصيـ ـف إذا لاذَ جـــوُّهـا بالـسكـون
وتلاشـى فى الجـــوِّ كلُّ هُـتـــاف غـيـرَ صـوتِ الـطاحـونةِ المحزونِ

وبكاءُ الحـــمـامــة الخـافـت النا ئى وصـــوتُ الغـرابِ بـين الكرومِ
وأزيـزٌ مـن نَــحْـلـةٍ تملأُ الـقـلـ ـبَ مَــلالاً بصـــوتـهـــا المســؤومِ

ثم ماذا؟ ماذا ترى العينُ فى الصيـ ـف إذا أقـبل المسـاءُ الـداجى؟
هل سوى مَنْظرِ النخيلِ البعـيـدا ت وحزنِ الاشجار خلفَ السياجِ

هل سـوى منظر الرعـاة يعـودو نَ بأغنامهم حـيـارَى بـطاءَ
بعـدَ يومٍ أمضَـوهُ تحت لَظَى الشمـ س مـلالاً وشـقـوةً وعناءَ

هل سوى الصائدين فى النَهَر الضَحْـ ـلِ يعـودون فى المساءِ الكئيبِ
لم يصيدوا وصادَ أرواحَهم حـرُّ نهـارٍ مـؤذٍ وعيشٍ جـديبِ

كلَّ يوم يمضى النهـارُ ولا صيـ ـدَ يـعـزِّى صيّادَهُ الطَوَّافـا
يا لَقَلْبِ المسكينِ قـد سئمَ النهـ ـرَ وعافَ المياهَ والمجـذافـا

فـهـو عند الغروبِ يرجعُ بالزَوْ رقِ سأمانَ واجمَ الألحـانَ
إن تغنَّى فـبالشكاةِ يُزَجّيـ ـهـا إلى خافق الحياةِ الجانى

كم رأيتُ الصيَّادَ فى الشارع المُقْـ ـفرِ يمشى معذَّباً مَصْدوما
عكستْ مقلتاهُ أحزانَ قلبٍ سئم العيشَ والوجودَ الأليما

لستَ أنتَ المحزونَ وحدَكَ يا صيّـ ـادُ فى حومة الشقاء المخيفِ
هو سجنُ الحياةِ قد كَبلت أقـ ـيـادُهُ السودُ كلّ قلبٍ رهيفِ

ذلك شأنُ الإنسانِ يا أيّها الصيّـ ... ـادُ يا شاكياً ظلامَ الرَزايا
فى صراعٍ مع العناصر لا يَهْـ ... ـدأُ حتى يأوى لوادى المنايا

فى سبيل الحياة يبدلُ أفرا ... حَ صِباهُ ويستطيب أساهُ
فهو يجرى وراءَ حُلُم كذوبٍ ... رسمَتْهُ أوهامُهُ ورؤاهُ

وعجيبٌ أنّا نذوقُ سوادَ الـ ... ـعيش واليأسِ والملال لنحيا
أيُّ عُمْرٍ هذا؟ وأيّةُ مأسا ... ةٍ بَلَوْنا سوادَها الأبديّا؟

أبداً نحنُ فى كفاحٍ مع الأقـ ... ـدار والحادثاتُ تُبْلى وتُفْنى
يتحدَّى أحلامَنا الواقعُ المرّ ... ويقسو زمانُنا المتجنّى

ونخافُ الغدَ الدجيَّ ولا نعـ ... ـلمُ ماذا يكونُ فيه المصير
يا ظلامَ المجهولِ ما أرهبَ التفـ ... ـكيرَ لا كانَ سرُّكَ المَسْتورُ

آه لو كان فى الحياة مفرٌّ ... من شقاءِ الأوهامِ والأفكار
فى شعابِ الهُدوء يا ليتنا نُلْـ ... ـقى بأعباءِ خوفِنا الجبَّار

أسطورة نهر النسيان

مخْلبُ الخوفِ والتشاؤم قد جَرَّ ... حَ أيَّامنا وأدْمَى صبانا
ليت نَهْرَ النسيانِ لم يكُ وهماً ... صورتّهُ أحلامُنا لأسانا

ليَتهُ كانَ ليتَ أخبارَهُ حقٌّ ... لننسَى ما كان أو ما يكونُ
ونعيشُ الأحرارَ من قيدِ بلوا ... نا ويعفو عنا الغدُ المجنونُ

يا ضفافَ النسيان قد جاءك الشا ... عرُ فلترحمى جراحَ أساه
انضَحيهِ بمائك الأسودِ البا ... ردِ ولتُشْفقى على بلواهُ

فهو ذاكَ القلبُ الذى طوّفْتهُ ... حادثاتُ السنين بالأشواكِ
منحتْهُ الحسَّ الرهيفَ وقالتْ: ... لتكن فى الحياةِ أوّلَ باكِ

يا ضفافَ النسيانِ يا ليتَ هذا الـ ... موجَ يَطْغَى على الوجودِ الحزينِ
يغسلُ الإثمَ والدموعَ ويأسو ... كلَّ جرحٍ فى قلبه المطعونِ

ألمُ العيش يا ضفافُ قويٌّ		وشقاءُ المماتِ أقوَى وأقسَى
فى ظلام الحياةِ نضطربُ الآ		نَ ونفنى عمَا قليلٍ ونُنْسَى

كلُّ عُمْرٍ قصيدةٌ كتبتْها		فى كتابِ الحياة كفُّ الزمانِ
وغداً يمحَّى الكتابُ جميعاً		وتذوبُ الحروفُ فى الأكفانِ

أنشودة الأموات

لحظةُ الموتِ لحظةٌ ليس من رَهْـ   ـبتها فى وجودنا المرِّ حامى
وسيأتى اليومُ الذى نحنُ فيه   ذكرياتٌ فى خاطر الأيّام

كلُّ رسمٍ قد غيّرتْهُ الليالى   كلُّ قلبٍ قد عادَ صخراً أصمّا
دفنتْ عُمرَنا السنينُ كأنْ لم   نملأِ الأرضَ بالأناشيدِ يوما

ليسَ إلا صوتُ العواصف فوق الـ   ـمدفنِ الصامتِ الرهيبِ الستورِ
وحفيفُ النخيلِ فى رعشةِ الريـ   ـحِ ونوحُ الأمواجِ بين الصخورِ

قد سمعنا صوتَ الرياحِ المدوِّى   حينَ كانَ الوجودُ ملْكَ يدينا
وعَشِقنا صوتَ النخيلِ وهِمنا   بخريرِ الأمواجِ قلباً وعَيْنا

وعبدنا أشعّةَ القمر الضا   حكِ فى الصيف وابتسمنا إليه
وشدونا الأنغامَ تحتَ سناهُ   ورسمنا الأحلامَ بين يَدَيْه

وضحكنا مع الزمانِ وسرنا   فى ظلامِ الحياة مُبْتسمينا
تارةً ساخرين من كل ما نَلْـ   ـقَى وأخرى تحت الدُجَى باكينا

وبنينا قصورنا تحت ضوء الشـ ـمس يوماً إلى جوارِ القبورِ
وزرعنا زهورَنا وتخذنا من دماءِ الموتى غذاءَ الزهورِ

وضحكنا إذ الطبيعةُ تبكى بالدُّجى والرياحِ والأمطارِ
وسَخِرنا والدهرُ غضبانُ جَهْمٌ ورقَصْنا على حفافِ النارِ

فإذا غَنّت العصافيرُ وافترَّ تْ ثغورُ الأزهارِ فوقَ ثرانا
وتمشَّى الأحياءُ فوقَ بقايا نا وداسُوا عظامَنَا ودمانا

فهو ثأرُ الطبيعةِ البارد المرِّ وسخريّةُ الزمانِ العاتى
وحقودُ الحياةِ لابدَّ للميِّـ ـتِ منها فى عالمِ الأمواتِ

يا جموعَ الأحياءِ فى الأرضِ هيها تَ يعودُ الماضى الجميلُ إليكم
فاغنَموا لَيلكُم وغنُّوا فمن يَدْ رى؟ لعلَّ الصباحَ يقضى عليكم

علّها الليلةُ الأخيرةُ من عُمْـ ـركمُ فى الوجودِ يا أحياءُ
ليس منكم من يضمَنُ الغَدَ فاشدوا فقريباً يضيعُ هذا المساءُ

ربما كنتمُ مساءَ غدٍ تحـ ـتَ ترابِ القبورِ والأحجارِ
يتباكى عليكمُ البومُ والغِر بانُ بعدَ الكؤوسِ والأوتارِ

وتعـودُ الـقـصـورُ والزْهرُ مـلْكاً لسـواكـم من ضـاحكى الأحـيـاءِ
ويظَلُّ الـقـمـرىُّ يشـدو وأنـتم فى سـكونِ المنّيـةِ الخـرسـاءِ

وتعـود الحـقـولُ فى الفـجـر خلواً من أغـانيكـمُ ووقعِ خـطاكـمْ
ويذيبُ الـنسـيـانُ ذكـر أمـانيـكمْ ويُذْوى المماتُ غـصنَ صباكم

ويـظلّ الـراعى يـغـرِّدُ للأشـجارِ والـنبع فى صـفـاء المـغـانى
وتـنامـونَ أنـتمُ لا حَـرَاكٌ لا نشـيـدٌ فى قـبـضـةِ الأكـفـانِ

لن تـنوحَ الحـيـاةُ إن مُـتّـمُ أنـتم فـغنّوا ولا تَنـوحـوا عليـهـا
فـهى تلكَ الخَلُوبُ تبسِمُ للأحـيـاءِ والسمُّ كـامنٌ فى يديْـهـا

فـانعَـمُوا فى ظلال أفـراحِكم فـيـهـا ورَوُّوا الـظَمـاءَ قـبـلَ المماتِ
وامرحوا فى الحقولِ واستنشقوا العطـرَ وصـوغـوا فـواتنَ النَغَـمـاتِ

ودِّعـوا هذه الشـوارعَ عند النـهـر يا أشـقـيـاءُ قـبلَ الرحـيلِ
ودّعوها فليس فـى القَبْرِ غـيرُ الصـمتِ والهـمِّ والـظـلامِ الطـويلِ

وابسـمـوا للنـجـومِ والقـمـر الخُلْـوِ وغنّـوا النسـيمَ كلَّ مـسـاءِ
أىُّ غبنٍ أن تـفـقِـدُوا كـلَّ شىء فى الـبِلَى والسـكونِ والظـلمـاءِ

مرثية للإنسان

أيُّ عَبنٍ أن يذبلَ الكائنُ الحىُّ ويذوى شبابُهُ الفَيْنانُ
ثمّ يمضى به محبُّوهُ جثماً ناً جَفَتْهُ الآمالُ والألحانُ

ويُنيمونَه على الشوكِ والصخـ ـرِ وتحتَ التراب والأحجارِ
ويعودونَ تاركينَ بقايا هُ لدنيا خفيّة الأسرارِ

هو والوَحْدةُ المريرةُ والظُلْـ ـمةُ فى قبره المخيفِ الرهيبِ
تحت حكم الديدانِ والشوكِ والرَمْـ ـلِ وأيدى الفَناءِ والتعذيبِ

وهو من كان أمسِ يضحَكُ جذلا نَ ويشدو مع النسيمِ البليلِ
يجمعُ الزْهرَ كلَّ يومٍ ويلهو عند شطِّ الغديرِ بين النخيلِ

ذلكَ الميّتُ الذى حَملوهُ جُثّةً لا تُحسُّ نحو القبورِ
كان قلباً بالأمسِ تملؤه الرغـ ـبةُ والشوقُ بين عطرِ الزهورِ

كان قلباً له طموحٌ فماذا تَرَكَ الموتُ من طموح الحياةِ
يا لحزنِ المسكين لم تبقَ أحلا مٌ سوى ظُلمةِ البِلَى والمماتِ

آهِ يا حاملِيه نحو سكون الـ ـقبرِ لاتُسرعوا وسيروا الهوَيْنا
اتركوه يودّعِ العالمَ الفا تنَ قبل الرحيل ظلماً وغُبنا

واكشفوا جسمَهُ الغبينَ لضوء الشـ ـمسِ والعطر فهى آخرُ مرّه
لن يَرَى بعدُ ذلكَ الضوءَ لن ينـ شقَ فى سجنِ قبرِهِ عطْر زهرَه

لا تنوحوا عليه وليكنِ الشَدْ وُ ختاماً لما وَعَتْ أُذُناهُ
حسبُهُ أنّه يودِّعُ دنيا هُ إلى قبرِه وتفنى مُنَاهُ

فاتركوا نعشَهُ على الأرض حيناً قبل أن تقبروهُ تحت اللحودِ
ربّما كان خائفاً من دُجَى القبـ ـرِ حريصاً على جمالِ الوجودِ

ربما كان راغباً فى وَدَاع الـ أرضِ من قبلَ أن يسودَ الظلامُ
قبلَ أن تتركوهُ فى وحشة المو تِ وتخبو العطورُ والأنغامُ

اتركوهُ يراكمُ أنتمُ يا من دفعتُمْ به إلى الظلماءِ
وهو من كان أمسِ ملءَ أمانيـ ـكم فصار الغداةَ ملء الفناءِ

هكذا الآدميُّ يُسْلِمُهُ أحـ ـبابُهُ للتراب والديدانِ
ربِّ لا كانت الحياةُ ولا كنّـ ـا هبطنا هذا الوجودَ الفانى

فيمَ جئنا هنا؟ وماذا يعزّيـ ـنا عن العالم الذى قد فقدْنا
ليت حوّاءَ لم تذُقْ ثمَرَ الدو حةِ ليت الشيطانَ لم يتجنّا

علمتْنَا ثمارُها فكرةَ الشرِّ فكان الحزنُ العميقُ العاصرْ
وفهمنا معنى الفناءِ وأدركـ ـنا صراعَ البقاءِ تحتَ الدياجر

وهبطنا هذا الوجودَ لنشقى منذ فجرِ الحياة حتى المغيب
كلّنا نستغيثُ من شَجنِ العيـ ـش فيا لليلِ الحزينِ الرهيب

يا لَظلمِ الأحزانِ ما سَلِم الأط ـفالُ من أسرِها ولا الشبّانُ
كم وليدٍ يبكى وما تعلم الأمّ لماذا يبكى وما الأحزانُ

مأساة الأطفال

ودمـــوعُ الأطفـــال تجـرحُ لـكن — ليس مـنهـا بدٌّ فـيـا لَـلْشـقـاءِ
هؤلاء الذيـنَ قـد مُنِحــوا الحسَّ — ومـــا يـملكـونَ غـيــرَ البُكاءِ

منحـتْـهم كـفُّ الطبيــعة قلبـاً — بشـريـاً يسـتـشـعـرُ الآلامـا
ورمتْــهم فى كـفّـة القَـدَر الـغـا — شمِ جـسـمـاً لا يستطيع كـلامـا

فـإذا مـا بكوا فـأدمـعُ خُـرْسٍ — ربما كـان خلـفَـهـا ألـفُ مـعنى
ربما كـان خـلفـهـا الألـمُ القـا — تلُ أو رغـبــةٌ مع الـريحِ تَفـنَى

ربمـا ربمـا ومـــا يـنـفع الـظَـنُّ — ونَـوحُ الأطـفـال ملء الحـيـاةِ
وُلِدوا صــارخــينَ بين يـدِ الأقـ — ـدارِ فليـصـرخُـوا ليـوم المماتِ

علهـم يدركـونَ مـا لم نقـفْ نحـ — ـنُ عليـه من ظُـلْمـةِ الأسـرارِ
ويرونَ الحـيـاة ليــلاً من الشـرِّ — تدلّـى علـى حـــفـــاف النـارِ

فـهـمُ يصـرخـونَ من ألم المُـقْـ — ـبلِ أو يندبون مـا قـد أضـاعـوا
أو لم يُقْـبلوا على غَـيْـهَب الـعـا — لم حـيـثُ المحـيـا أسىً وصـراعُ

لم يَـزَلْ فى نفـــوســـهم أثَـرُ المـا ضى النقىِّ الجـمـيـلِ أو ذكـراهُ
حين كـانوا فى عـالم عبـقرىٍّ كـلُّ حــىٍّ عـلـى ثـراهُ إلـهُ

عـالمٌ غـيرُ عـالم البَـشَـر المرّ بعــيــد عـن الدُجَى والفَنَاء
ليس فـيــه أسـىً عنيف ودمعٌ وقـبـورٌ تلفّـعتْ بالخَـفَـاء

ليس فيـه طبيعـة جَـهْـمـةُ المر أى تدوسُ الأحـيـاءَ والأيّامـا
ليس فـيـه مـعـذّبـون حَـيَـارَى وثَكَـالى تحت الدُجَى ويتـامَى

ليس فـيـه شـرٌّ وظُلْم وتعـذيـ ـبٌ ولا فـيـه مـولـدٌ ومماتُ
ليس فـيـه هـذا النزاعُ على الخُـبْـ ـزِ ولا فى صـفـائه مـأسـاةُ

يا جموع الأطفال يا مُرْهَفِى الحسِّ كـفـاكم تفـجـعـاً وبـكاءَ
لم تـزالوا فى أوّلِ الـعُـمُـر المرِّ ولأياً سـتـعـرفـونَ الشـقـاءَ

لاتنوحـوا على الذى قـد فـقـدتم من جـمـالٍ ومتـعـة وسـموٍّ
وأصـيـخـوا لمأتم القَـدَر الظا لمِ فى عـاصـفِ الحيـاةِ المُدوّى

لم تزالوا براعـمـاً لم تُـفَـتّـحْـ ـهـا الليـالى على ظـلام الحيـاةِ
فـاضحكـوا الآنَ قبلمـا يزأرُ الهـو لُ وتسـتنسِرُ الهـمـوم العـواتى

قـبلمـا تدلهمُّ أعـمـارُكم تحـ ـتَ غـيـوم الشـبـاب والاحـلامِ
وترَوْنَ الوجـود قـفـراً فـمـا فـيـ ـهِ سـوى الليلِ والأسى والقـتامِ

أينمـا تـرسلوا عـيـونَكُمُ الـظمـ ـأى فـثَمَّ الأهوالُ والأضـغـانُ
وتضـيـعُ الآمـالُ والمُثُلُ العُلْـ ـيـا وتبـقى الآهاتُ والأحـزانُ

امـرحـوا الآنَ فى ظـلال أب يَشـ ـقَى وأُمٍّ جَنَتْ عليـهـا الحـيـاةُ
فـغـداً تحـملـون أنتم همـومَ الـ ـعـيشِ إذ ذاكَ تُسْـفـرُ المأسـاةُ

شـيّدوا فى الـرمـالِ أبراجَ أحـلا مكمُ وابسـمـوا للهـو الطفـوله
كلُّ طفلٍ غـداً فـتىً ضـائعُ الأحـ ـلامِ تحتَ المقـادرِ المجـهـوله

وغـداً تدركـونَ مـاذا أضـعـتم من صـفـاء ومُـتْـعـة ونقـاءِ
وترونَ الحـيـاةَ منبعَ شـرٍّ ليس منه منجىً وليلُ شَـقـاءِ

وإذا مـــا بـنيـــتـمُ أمس زَهْـرٌ ذابلٌ تحت رحــمــة الإعــصــار
وإذا كلٌّ رغـــبــةٍ كـوكـبٌ خـا بٍ وأنتـم علـى شـــفـــاهِ الـنار

تتــشــفَّى بكـم يدُ القَــدَر الـقــا سى وتُـلقَـى عليـكمـــو بالـرزايا
وتبـيـع الـشــبــابَ بالأدمُعِ الحـرّ ى وتَلْهــو على رُفَـاتِ الضــحـايا

فــإذا كلُّ ضُــحْكةٍ من صــبــاكم بعـدها فـى شبـابكم ألفُ عَـبـره
وإذا عُــمْــرُكم مــســاءٌ حــزينٌ ليس تجـلو ســوى المـنّيــةِ سِــرَّه

أحزان الشباب *

يا همــوم الشــبــابِ فــيمَ تكـونيـ ـنَ أحــرَّ الهــمــومِ والأحــزانِ؟
أنتِ يا مَـنْ يصـوغُـكِ القَـدَرُ الظا لمُ ليــلاً على الوجــودِ الـفــانى

فـيمَ كـان الشبـابُ مـرمـاكِ يا أحـ ـزانُ مــاذا ترى الشــبــابُ جَنَاهُ؟
فــيمَ لاتعــصــرينَ إلا صِــبَــانا حَــسْـبُنا يا أحــزانُ مــا ذقـنـاهُ

سـوف يطوى شـبـابَنـا الزمنُ المُسْـ ـرِعُ والحلمُ ينطـفى ويـضــــيعُ
وتُميتُ الشـيــخوخـةُ المرّةُ السَـوْ داء أحــــلامنـا ويمــــضى الربـيعُ

فــاتركــينا رحـــمـاكِ نَنْعَمْ به الآ نَ لننسَى مــا فى غــد ســيكونُ
قــبلَ أن تخــمــد الأمـانى ويَـفْنَى فى الديـاجى شــبــابُنَا المغـبــونُ

ها أنا فى الشــبــاب تقـتلـنى الوحـ ـدةُ والصــمتُ والأسَى يا همــومُ
أينمــا أتجــهْ فــثــمّــةَ أحــزا نٌ أراها ووحــــشــــةٌ ووجــــوم

كـلُّ شيء أراه يملؤنى حُــــزْ ناً ويأسـاً من مُــبْـهـجات الحيـاة
يا لعُـمْـرٍ يمــرُّ جَـهْـماً مـخيـفاً تحت عـبءِ الأحـــلامِ والآهاتِ

ومـعـانى الفـنـاء ألمحُـهـا حَـوْ لىَ فـى كلِّ مـا تراهُ عُـيونى
فـى دوىِّ الريـاح فـى نَغَـم الـطيـ ـرِ وفى ظُلْمـة المسـاءِ الحـزينِ

فـإذا أنّـتِ الريـاحُ الحـزينا تُ تـذكّـرتُ خُلْـدَها وفـنائـى
ورأيتُ الـقـبـورَ تحت يدِ الـريـ ـحِ وصـوتِ الأمطـارِ والأنواءِ

واذا غنّت الحـمـامـةُ فـى الوكـ ـرِ تبـرّمْتُ بالنشـيـد المثـيـرِ
وتذكـرتُ أنّـهـا سـوف تَثْـوى فى غـدٍ تحـتَ عشِّـهـا المهـجـورِ

وإذا أقـبلَ المسـاءُ ولـفَّ الـ ـكونَ بالصمتِ والدُجَى والهـمومِ
وحـملتُ العـودَ الكئيبَ الى الوا دى أُغنّى شعـرى لضـوءِ النجـومِ

صـرخَتْ نفسىَ الكئيبةُ لا يخـ ـدعْـك هذا الظـلامُ يا أخـتـاهُ
كم شـعـوبٍ غنّتْ له فـمـحاها وهو مـا زالَ فى ربيـعِ صـبَـاهُ

نحن تحت الليلِ العـميق ضيوفٌ وقـريبـاً تدوسُنَا قَـدَمَـاهُ
فـاحفظـى يا أختـاهُ ألحانك الظَمْـ ـأى فـمـا ترحـمُ الشَـجَـا أُذُنَاهُ

أينَ أمـضى يـا ربِّ أم كـيف أنجـو من قـيـود الـفَنَـاء والأيَّامِ؟
ضـاقَ بى العـالم الفـسيحُ فـيـا لَلْـ ـهـولِ أينَ المفـرُّ مـن آلامى؟

كلَّ يومٍ أرى شَبابَ حياتى ... فى حمى الوَحْدَة المريرة يَذوى
وأرانى أسيرُ مرغَمةَ الأقـ ... ـدامِ فى عاصفِ الزمانِ المُدَوِّى

لستُ ألقى حولى سوى عالمٍ يَشْـ ... ـقَى ويَلْقَى عزاءَهُ فى الشُرُورِ
ويبيع الحياةَ بالمُتَعِ الحمـ ... ـقاءِ والإثْمِ والأذَى والغرورِ

ويرَى اللهو فى الحياة أمانيـ ... ـه ويدعو الخيالَ والشعْرَ حُمْقا
يا لَجهلِ الإنسانِ فليبقَ حيرا ... نَ إذن ولْيَظَلَّ يأسى ويَشْقَى

ولأعِشْ فى ظلال وَحدتَى الخر ... ساء أبكى ولا مُصيخَ إليّا
لا فؤادٌ أبثّهُ ألمى المرَّ ... ولا خافقٌ يحنّ عليّا

ولْيقولوا إنّى فتاةٌ جنى الشعـ ... ـرُ عليها فعشتُ للأحزانِ
وعبرتُ الحياةَ كالشَبَحِ الضلّـ ... ـيلِ فى غَيْهب الوجودِ الفانى

يا ظلالَ الشباب فابقَىْ إذا شئـ ... ـتِ معى أو فأسرعى بالرحيلِ
لستُ أُعْنَى بظلّك الشاحب المُقْـ ... ـلق ما دمتُ فى خيالى الجميل

سوف أبنى اذا رحلت شباباً ... لفؤادى أعيشُ تحت سمائهْ
من رحيق الخيالِ والشعرِ والأنـ ... ـغامِ أَسْقى الزهورَ فى أرجائهْ

وجـمـالُ الحـيـاة يَذْوى ويُفْنيـ ... ـه الأسَـى والدمـوعُ والآهـاتُ
فليـضعْ عُـمْـرى الحزيـنُ كمـا شـا ... ءَ فـعندى من الشـعـورِ حيـاةُ

فـاذا أدبر الـشـبـابُ وآويـ ... ـتُ لـظلٍّ المشـيـبِ والأسـقـامِ
ظلَّ قلبى الحسَّاسُ ذاك الـفَتَى الفيـ ... ـنانَ بين الخـيـالِ والأحـلامِ

ثم مـاذا؟ من قـالَ إنّى سـأبقى ... فى الوجـودِ الحـزين يا آمـالى
كـيف أدرى أنّى سـألبث فـيـه ... ربّمـا متُّ فـى صـبـاىَ الحـالى

ربما تنـقـضى حـيـاتى قـريبـاً ... وتموتُ الألحـانُ فـى شَـفَـتَـيـا
قـبلَ أن أسـمعَ الحـيـاةَ أناشـيـ ... ـدى ويُصْغى سمعُ الوجود إليَّـا

ربّمـا... لـستُ أعلمُ الآنَ شـيـئـاً ... فـلأعشْ فى انتظارِ مـا سـيكونُ
ولأُحبَّ الحـيـاةَ مـا شـئتُ من أجـ ... ـلِ نشـيـدى وان رَمَـتْـنـى المَنُونُ

ولتـجئْ بعـدها المـنايا كـمـا تر ... جـو فـمـا فى الوجـودِ مـا يُغْـرينى
لستُ ألـقَى فـيـه حـيـاةً أغـنّيـ ... ـهـا فـيـا بـؤسَ عُـمْـرىَ المغبـونِ

أو لم أتـركِ الحـيـاةَ ومـا فـيـ ... ـهـا إلى مـعـبـدِ الأَسَى والشـعـورِ
أولَم أرْضَ عُـزْلـتـى فى ظلال الشـ ... ـعـرِ والعـودِ والخـيـالِ الطَـهُـورِ

فــاذا مــا أتمتُ لحنى كــمــا أهـ ... ـوَى فــمــاذا أريدُهُ مـن حـيــاتى؟
ليس فى الكونِ بعـد شعرى مـا يغـ ... ـرى فـؤادى فـمـرحـبـاً بالممـاتِ

سـوف ألقى الموتَ المحَّبب روحـاً ... شـاعـرّياً يُحـبُّ صَمْتَ التـراب
وفـــؤاداً يرى الممــاتَ شـبـــاباً ... للمُنَى والشـعــورِ أىَّ شـبـــابَ

سـوف ألقــاكَ غـيـرَ مـحــزونة يا ... مـوتُ فى مـيـعة الشبـاب الغَـرِيدِ
وعـــــزائى أنّـى تـركتُ ورائـى ... لحنَى الـســرمــدىَّ ملء الوجـــود

لستُ وحــدى التى تموتُ ومــا زا ... لتْ شـبـــاباً لم تَسْـــقــه الأنداءُ
تَعِـسَـتْ هذه الحـيــاةُ فـكم قــد ... مـاتَ فى مـيـعـة الصِبَـا شـعـراءُ

أذبلتْ عُـــمْـرَهـم يدُ القَـدَر الجـــا ... نى وكـــانوا نشـيــدَ هذى الحـيــاةِ
يسكبـونَ الشـبـابَ والحبَّ والأحـ ... ـلامَ لحناً مــرقــرقَ النـغــمـــاتِ

ويُضـيـعـون عُـمْــرَهم وصـبـاهم ... ليـصـــوغـوا الحـيـاةَ لحنَ صـفـاء
وإذا عـــــاصفُ المنـايا المُدَوّى ... يتَـــعَـــالَى علـى لحـــونِ الغـنـاء

يا يدَ الموت فـيمَ كـان نصـيبُ الشـ ... ـاعــر الفـــذِّ منك هــذا التــجنّى؟
فـــيم لا تُطْفـــئـــين إلاّ مـناهُ؟ ... وهو فى مـيـعـــةِ الشـبــابِ الأغنِّ؟

ألكـى تكتـــبى الخـلودَ لذكـــرا ... هُ علـى الأرض وهو غـضٌّ يافـعْ؟
أم لكى تُنْـقـذيه مـن شَـجَن العُــزْ ... لـةِ والـفـكـرِ والأسَـى والمـدامـعْ؟

أم تُرى تـبـــخَلين بـالنَغَـمِ العَـذْ ... بِ على الـعـالمِ الأثـيمِ الشـــقىِّ
فـــتـضـــمّين لـلدُجَى والمنـايا ... كلَّ شـادٍ فى الأرض أو عـبـقـرىٍّ

أم ترى سـنّة الوجـــود تـرَى مـــا ... ليس يَدْرى الأحـيــاءُ أو يُدْركـونا
فـهى تَسْـرى كـمـــا تشـاءُ المقـاديـ ... ـرُ وتُصْــمى شـبـــابنـا المطعــونا

وسـواء عـلى المقـادير مــوتُ الشـّ ... ـاعـرِ الفـذِّ فى الـصـبَـا أو حـيـاتُهْ
فـهـــو جـسمٌ على الثَـرَى بشـرىٌّ ... ضــيَّـعْــتــهُ أحــلامُــهُ وشـكاتُهْ

فـاذا مـاتَ فى صِبَـاهُ فـمـا اختـا ... رَتْهُ كـفٌّ المنـون للأكـــــفـــــانِ
واذا عـــاشَ مـــا يشـــاءُ فـــمـــا للْـ ... ـمــوتِ فى عُــمْـرِهِ الطـويلِ يدان

نبـــئـــينى أهكذا الأمـــر يـا أقـ ... ـدارُ أم قـــد ضللتُ فـى أفكارى؟
أترانـا كـــالزهْـرِ يقطفُـــهُ الفـــلاّ ... حُ فى الفـــجـرِ شـارداً غـــيرَ دارِ؟

ليـس تعـنيــــه هذه الـزهرةُ الحُـلْـ ... ـوةُ مــــا دام فـى يَدْيـه ســـواها
وهو يَـجْنـى منـهنَّ مــــا هو دانٍ ... منْهُ مــا دمنَ فى الشَّـذَى أشـبــاها

أكـذا يا أقـدارُ؟ مـا أخـيب المَسْـ ـعَـى إذن فى ظلامِ هـذا الوجــودِ
أكــذا تتـركـينَ حـكمَكِ للصُــدْ فــةِ؟ يا للـشـقـاءِ والتـنكيـدِ

كـل حَـيٍ مـنـا إذن لـيـس يـدرى مـا سـيلقى فى يومـه من شـقـاءِ
ربمـا كــانـت المَنـيـــةُ فـى أوّ لِ سـاعِ النهــارِ أو فى المســاءِ

فـهـو يحـيـا عـلى شـفـا الألم الرا ئعِ منـذ الشـروق حـتى المغـيبِ
كلَّ يوم يـقــول: حــان رحــيلى يا لَهـذا الـعُـمْـرِ الشـقىِّ الـكئـيبِ

أفليس الممـاتُ فى مـيعـة العُـمْـ ـرِ إذنْ نعــمــةً على الأحـيــاءِ
حـين ينجو الحىُّ الشقىُّ من الخو فِ ويَفْـنَى فى داجــيـاتِ الفـناءِ

تاركــاً هـذه الحـيـاةَ ومـــا فـيـ ـهـــا من الزيفِ والأسـى والظلامِ
بيـن كفِّ الرياح والـقَــدَرِ العــا تى ونَـوْحِ الشـيـوخِ والأيتــامِ

آلام الشيخوخة

يا دموعَ الشيوخِ فى الأرض هيها ... تَ تجفّين فى العيونِ الشقيّه
أىُّ شيخٍ لا يَذْرِف الأدمُعَ الحرَّ ... ى على ما مضَى ويشكو البليّه

فهو ذاكَ المحزونُ قَضّى صِبَاهُ ... فى لهيبِ الهمومِ والأحزانِ
ثم ذاق الشبابَ كأسةَ دمعٍ ... ما لحىٍّ على قَذَاها يدانِ

ثم غاب الشبابُ فى ظلمة العُمْـ ... ـرِ ومات الأحبابُ والأنصارُ
كلَّ عامٍ يَرَى الأحبّاء يَفْنَوْ ... نَ وتمحو ذكراهمُ الاقدارُ

يا لرَكْب مشى به القَدَرُ الخا ... دعُ تحتَ الرياحِ والظَلْماءِ
رامياً فى فم المنيّةِ فرداً ... منه فى كلّ بُكْرةٍ ومَسَاءِ

يا شتاءَ الحياة لم يبق فى الظُلْـ ... ـمة إلا هذا الشقىُّ الغبينُ
ذهبوا كلُّهم إلى الموتِ إلاّ ... هُ فدوًى نحيبُهُ المحزونُ

وهو ذاكَ المسكينُ أضعَفَهُ العُمْـ ... ـرُ وحلَّتْ بجسمه الأدواءُ
ومضتْ ظُلمة الحياة بعينيـ ... ـه وغابتْ عن وعيه الأشياءُ

وهو يـدرى أنَّ الممـــاتَ قـــريبٌ منهُ قُـــرْبَ الأحـــزانِ والأوجـــاعِ
كلّ يـومٍ يكـادُ يُلقـى علـى العـــا لمِ والـعُـــمْـــرِ أغـنيـــاتِ الوداعِ

يا غـمـوضَ الحـيـاة من أسلمَ الإنـ ـســـانَ لـلحـــادثات والأقـــدار
ذلك البـــائسُ الضـعـيفُ الذى يأ تى ويمـــضـى ولم يَزَلْ غـيـــرَ دارِ

فـهـو مـــا زالَ هائمـاً بهَـوى العـا لمِ والـعـــيشِ فـى ظلال الـزهورِ
يتـــغنَّى بحـــبِّـــهِ رغـم مـــا يَلْـ ـقى من الحُـزْنِ واحـتدامِ الـشعـورِ

فـــاذا مـــا بَدَتْ لـه ســـاعـــةُ المو تِ ولم يبـقَ فى الحـيـــاة رَجـاءُ
رسمَ الحـــزنُ فى مـحـيَّـاهُ رعـبـاً مـــا رأى مـــثلَ هَولِه الأحـــيـــاءُ

وأطَلّـتْ عـــيناهُ تُلـقى على الـكو نِ تحـــايا الوَدَاع والحـــرمـــانِ
فى ذهـولٍ وروعـــةٍ يمـــلآنِ الـ ـقلبَ حـقداً علـى الوجود الفـانى

يا مـعـانى الذهولِ فى جـبـهـة الميّـ ـت، لا لن أخـافَ هذى المعـانى
سأرَى فـيك بَلْســمـاً يُنقـذ الأحـ ـيـــاءَ مما يَلْقَـــوْنَ من أحـــزانِ

سأرَى فى المـمـات خُلْدَ حـيـاتى حـين تـعـفـو عَنى المُنى والجـروحُ
وينامُ الجـــسمُ الـوضَـيـعُ على الأرْ ضِ وتخـتـالُ فى الـسـمـاءِ الروحُ

عندمـا تخفتُ الأعـاصيرُ فى سَـمْـ ـعى وأنسى الأصـواتَ والأشـيـاءَ
كلُّ شيء فى العـالمِ الأحـمقِ الجـا هلِ يخـبـو ويسـتـحـيلُ هبـاءَ

فـإذا أمـعنَ الـنشـاوَى بـكأس الـ إثم فى الـلهـو والصُـراخِ الأثيمِ
لم يجـئْنى مـن صـوتهم أىُّ همسٍ وتفـرّدْتُ بـالسكونِ المُقـيمِ

وتمـرُّ الـسنيـنُ لا ألـمٌ فـيـ ـهـا ولا إثمَ فـى ظلال الخـلود
عـالـمٌ ليس لى التـغلغلُ فـيـه الـ آنَ فـلأمـضِ فى غناءِ نشـيـدى

ولأَعشْ فى هذى الحـيـاة مع الأحـ ـلامِ تحت النهـار والظـلمـات
أعـشقُ الفـتـنةَ النبـيلـةَ فى الور دِ وفى ضـجّـةِ الرياحِ العـواتى

وأسلّـى نفـسـى وقـلبى بمـرأى الـ ـعـابثـينَ الأشـرارِ والواهمـينا
هؤلاء الـذينَ يـقـضـون أيّا مَ صـبـاهُمْ فـى هَذْرهم سـادرينا

ليس تَعنيـهـمـو الفـضيـلةُ والنبـ ـلُ ومـا يحـزنون للأشـقـيـاء
فـإذا مـا رأوا حـزينـاً مـعـنّىً رجـمـوهُ بالـشـوك والأقـذاء

وضـعـافُ الطيـور فى ظُلَلِ الأغـ صـانِ تَلْقى مـنهمُ صنوفَ الـنَكال
وزهورُ الخـبّـازِ فى رحـبـةِ الحـقـ ـلِ يدوسـونهـا فـيـا لَلضَّـلالِ

وحـيـاةُ الفنّانِ فـى عـالـم الوَحْـ ـدة والـفكـرِ عنـدهم كـالجـنونَ
يا لـهـذى المأساةِ يا ربِّ مـاذا كـتـبتْ للأحـيـاء كفُّ السنينِ؟

ولتـسـرْ هذه الحـيـاةُ كـمـا تر جـو المقـاديرُ والأسى والظَّلامُ
وليَظَلّ الأحـيـاءُ فى التـيـهِ يشـقـو نَ وتقـسـو عليـهـمـو الأيَّامُ

ولأعشْ مـا يشـاؤه الـقَـدَرُ الظا لمُ أَبـكى علـى أسَى الأحـيـاءِ
هؤلاء الصَـرْعَى الظمـاءُ الحَيَارَى بـيـن فـكّ الآثـامِ والأدواءِ

بين يدى الله

المســاكــينُ يا ســمــاءُ فــمُــدِّى	لأســاهم كَّــفْــيك يَفْـنَ الشـقــاءُ
إن يكونـوا جنَوْا فــقلـبُك أسْـمَى	أو يكونوا ضَـلُّوا فـأنـتِ السـمــاءُ

ليس يُعْـــيى كفَّ الألوهـة أن تمـ	ـحــوَ حُـزْنَ المعــذَّبين الجـيــاعِ
فـهـى نبعُ الحـيــاةِ والخـيــرِ والفنِّ	وبُـرْءُ الأحـــــزانِ والأوجـــــاعِ

جئتُ يا ربِّ تحتَ ليلى الطويلِ الـ	ـمـرِّ أبكى حـزنى وحـزنَ الوجـودِ
حـينَ ضـاقتْ بى الحـيـاةُ وأسلمـ	ـتُ قــيــادى لليــأسِ والـتنكيــدِ

جــئــتُك الآنَ يا إلـهى ومــالى	غـيـر قـلبى ونغـمـتى من شــفـيعِ
أنا من قـد رسـمتُ مـأسـاة هذا الـ	كـــون شــعــراً روّيتُــهُ بدمــوعى

ها أنا قـــد مـــددتُ كــفَّىَّ يا ربَّ	وعـــودى مُلْـقىً على قَـــدَمَــيّــا
وهو لحنـى الأخـيـــرُ يا ربِّ ذوَّبْـ	ـتُ حـيـاتى فـيـه وحُلْـمى النقـيّـا

فــإذا لـم تصِلْ ســمــــاءَكَ ألحـــا	نى فـــعُــذْرى كــيــانىَ البَـشَــرىُّ
وإذا مــا تـركــتَنى لشــقـــاء الـ	ـعــيشِ يَلْهــو بىَ الـدُجَى الأبدىُّ

فـهـو حـظّى من الحـيـاة قـضـتْـهُ شـــرعـةُ الدهرِ والـوجـود الأبيــدَ
كلّ حـىٍّ لابدَّ أن يـقطعَ الـعُـــمْـ ـرَ صـــريعــاً على ترابِ الوجــودِ

بـين فـكِّ الـرَحَى يـغنّـى ويـبكـى ويذوقُ الحــيــاةَ بِشْــراً وحُـــزْنا
آه لابدَّ مـن أســـانـا فـــمــــاذا نفعُ هـذى الشكوى الحـــزينة منّا

فلنلـذْ بالإيمـانِ فـهـو ختـامُ الـ ـيـأسِ والـدمعِ والشـقـاء الـعـاتى
يمــسَـحُ الأعــينَ الحـــزيـنةَ من أد مـعـهـا الهـامـراتِ فـى الظلمـات

فـاصرخى يا رياحُ فـى شُعَبِ العـا لم وامــضى تفــجُّـــعــاً وعـــويلا
واصخبى يا بحارُ ما شئت فى سمـ ـعىَ واستصرخى الضُحَى والأصيلا

واطغَ يا ليـلُ بالأسَى ومـعــانى الـ ـيـأسِ فى قـلبىَ الرقـيقِ الكـئـيبَ
لن تـنالَ الآهـاتُ منّـىَ بعــــد الـ آنَ حـتى إن عـشتُ فـوقَ اللهـيبِ

فـــوراء الحـيـــاة مـــعنىً عـــمـيقٌ ليـس تفنيـــه ســـورة الأحـــزانَ
هو مـــــعنى الألوهةِ الخـــالـدُ المر جــوُّ خـلفَ الوجـــود والأزمـــانِ

الرحيل

فـوداعـاً يا كلّ مــا فى الوجـود الـ ـعـبـقـرىِّ العـمـيقِ من آهاتِ
كنتِ فـى قلبىَ الخـيـالـىِّ مـأسـا ةً وأنت الـغَـدَاةَ سِـرُّ حـيـاتى

سـوف أهواكِ يا دموعى وأحـزا نى مـا عشتُ فى الوجـودِ الجميلِ
فاصْحَبينى إذا أنا عشتُ فى الـعا لم أو حـانَ عن ثَـرَاهُ رحـيـلى

يا حـيـاتـى فى هذه الأرضِ أمّـا أنت فـامـضىْ كـمـا يشـاءُ الزمـانُ
انشـرى ذلك الشـراعَ وسِـيـرى وتَغَـنِّىْ مـا شـاءتِ الألحـانُ

وإذا مـا هـبّت رياحُ الرَدَى يَـو مـاً وهزَّت كفُّ القـضاء الـشراعـا
فـابسمى للأمـواج مـغـمَـضَـةَ العيـ ـنِ وقـولى يا أُغنيـاتُ وَدَاعـا

هكـذا تبلـغ السـفـينـةُ يا شـا طـىءَ الحـزن شطَّهـا الأبـديّا
شاطىءَ الموتِ شاطىءَ الوحى والأسـ ـرارِ ذاك المحـجَّب المخـفـيَّـا

أغنية للإنسان

- ١ -

"نظمت هذه القصيدة عام ١٩٥٠"

فى عـمـيق الظلام زمـجـرتِ الأمـ ـطـارُ فى ثـورة وجُنَّ الـوجـــودُ
طاش عَـصْفُ الرياح والتهب البـر قُ وثارت علـى السكون الـرعـودُ

ثـورةٌ ثـورة تمـزّق قـلـب الـ ليل والصمت بـالصـدى بالبـريق
ثورةٌ تحت عـصـفـهـا رقـد الكو نُ عـمـيقَ الأسى كـجـرْحٍ عـمـيقِ

٥

صرخـاتُ الإعصـار أيقظتِ الرعـ ـبَ بـقلب الطـبـيـعـة المدلـهمِّ
تتلوَّى الأشـجـار ضـارعـة والـ ـمطـر البـارد الشـتـائىّ يهـمى

تتلوّى فى رعـشـة، فى جـنون وفـؤادُ الإعـصـار فى غَلَيـانهْ
تتلوّى كـأنهـا روح إنسـا نٍ يريـد الخـلاصَ من أحـزانهْ

كل شـىء فى ثورة وانـفـعـال كلُّ شـىءٍ فى لـيلـىَ المحـزونِ
وأنا مـثـلُهـا تمـزقنى الثـو رة والحـزنُ، مـثلُهـا فـى جنونِ

أنا حـيثُ الآلامُ تُطبـق جُنْحـيـ ـها المخـيفـين فى الدياجير حولى
أدمع فى مـحـاجـرى، ولهـيبٌ فى دمى واكـتـئـابةٌ فـوق ظلّى

لم أزل فـى كــآبتـى وشــرودى أرقبُ الليلَ والأعـاصيـرَ حَيْـرى
فى عـيـونى آثارُ حُـلْمٍ جـمـيلٍ كـان يـومـاً وأصـبـح الآن ذكـرى

فى جـمـود وقـفتُ أرقـب من نا فــذتـى ثورةَ الـدُجَى وجـنونَـهْ
ورشـاش الأمطار يلـطم وجـهى وأنا فـى خــواطـرى المحــزونهْ

يا أعـاصيـرُ من دمـائى خـذى النا رَ ومن حـزنى العـمـيق الشـديدِ
يا دياجيرُ من فـؤادى خـذى الظلـ ـمـةَ إنى فى غــيــهـبٍ ممدودِ

عـصـرتـنى الحـيـاةُ لم يبـقَ مـعنىً لوجـودى لأدمـعـى لحـيــاتى
كل شىء يـلوحُ لى عَـدَمـاً مـرّاً ولـغـــزاً مكـفّـنـاً بـالشـكـاةِ

كلُّ شـىء تلـفّـه ظلـمــة أعـ ـمـقُ من أن يُنيـرهـا قطُّ ضـوءُ
ظلمـة كـالـمـات تخنقنـى خنـ ـقـاً هـى اللاانتـهـاءُ واللاشىءُ

ظلمـة فى امتـدادها يخـبط الأحـ ـيـاءُ فـى غـفـلـة عن الأقـدارِ
أين نمشى مـا عدتُ أحـتمل الجـهـ ـل متى الفجـرُ؟ طاَل بى انتظارى

فى ضبـاب الأحلام والشعـر مرّغـ ـتُ غـرامى ونشـوتى وصـبـايا
فى بحـار الخـيـال تاه شـراعى فـيمَ؟ مـاذا جنيتُ غـيـر أَسـايا؟

ودفنتُ الشـبـابَ والحبّ من أجـ ... ـلِ طموحي ولـم أزل في هيامي
حـرقـة الاطّلاعِ تصـهـر أحـلا ... مي وإحسـاس فكري المترامي

وشعوري الرقيقُ؟ أوّاه من عمـ ... ـق شعوري وحسّي المشبوبِ
كيف أنجو من الأحاسيس من حـ ... ـبّي وكرهي؟ من هدأتي ولهيبي؟

كيف أنجو من الأسى إن يكن حو ... لي وجود مقيّدٌ موبوءُ
ألفُ جُرْح في صدره ثار في عمـ ... ـق هدوئي فلم يعد لي هدوءُ

وأكفّ الحياة تجرحني والـ ... لغزُ يبقى لُغْزاً عميقاً خفيّا
تتحدّى الأحياءَ قهقهةُ المو ... تِ وتبقى الحياةُ ليلاً دجيّا

أين أين الذين غنّوا على الأر ... ض طويلاً واستبشروا وأحبُّوا؟
لا صدىً من غنائهم لا لهيبٌ ... من أحاسيسهم يثورُ ويخبو

ليس منهم إلا قبور حزينا ... تٌ تبقّت على ضفاف الحياة
جفّ نبع الحياة فيهم فلاذوا ... في سكون بعالم الأمواتِ

المساء الجميل حدّثني عنـ ... ـهم أقاصيص كلُّها أحزانُ
شهد الليل أنّه مثلما كا ... ن فأين الذين بالأمس كانوا؟

كـيف يا دهر تنطفي بين كـفّـيـ ـلك الأمـانى وتخـمـدُ الأحـلامُ؟
كـيف تذوى القلوبُ وهى ضـيـاءٌ ويعـــــيش الظـلامُ وهو ظـلامُ؟

كـيف تحـيا الأشـواكُ، والزَهَرُ الفا تنُ يَذْوى فى قـبـضـة الإعـصـارِ؟
كـيـف تمضى إلى الـفناء الأناشـيـ ـدُ وتـبـقى مـرارةُ الأقـدارِ؟

وأكفّ الحـيـاة تجـرحنى فـيـ ـمَ بقـائى؟ حـسـبى أسىً وعـذابا
فى ربيع الشـبـاب مـا أعـمق الجرْ حَ إذا كـانـت الحـيـاةُ شـبـابا

الشـبـابُ الذى يسـمّـونه نُعْـ ـمى شـبـاب الشـعورِ والرَغَـبـات
والشـبـابُ الذى أسـمّيه إحـسـا ساً عـمـيـقـاً بـكلّ مـا فى الحـيـاةِ

الشـبـاب الكئـيـب حـين يفـيق الـ ـحـالـمُ القلب شـارداً مـسـتطارا
ويرى فـى تفـجّـعِ جـثّـة المـا ضى الغريقِ الشـاوى وكيف تُوارى

ذكـريـاتُ الطفـولة الـعـذبةُ البـيـ ـضـاءُ راحت تنهـار فى اسـتسـلامِ
وظلال البـسـاطة الفـجّـةُ الحُلْـ ـوةُ ذابـت فـى مُـنـحَـنـى الأيّـامِ

والفـؤاد الرقـيـق يصـدمـه الإحـ ـسـاس بـالواقع الغـريـب الجـديد
واقع لـم يحـسّـهُ قـط من قـبـ ـل وأفقٌ مـن عـالمٍ مـفـقـودِ

ليس يدري مـــاذا يُحسُّ لماذا
تتبـقّى أعمـاقُهُ في انتفاض
مُـــــثُل في تمزّق واصطراعٍ
وأحاسيسُ مـا وعاها مـاضي

رَغَبـاتٌ كالليل غامضةُ الأصـ
ـداء تُرْغي فيما وراء الشعورِ
وشعورٌ بفورةٍ في الدم الجا
رفِ تبـقى كناقمٍ موتورِ

وانبـثاقٌ يريد أن يملكَ النجـ
ـمَ ويسطو على ذرى الآفاقِ
واندفاع إلى معانٍ وراء الـ
ـحسّ في المستحيل في الأعماقِ

كل هذا يُحسّه قلبي الدا
مي بجُرْح الشباب والإحساسِ
ليتني لم أشبَّ بعدُ عن العشـ
ـر ولم يَستفقْ شعوري الناسي

ليتني لم أزل كما كنتُ قلباً
ليس فيه إلا السّنَا والنقاءُ
كلَّ يوم أبني حياتيَ أحلا
مـاً وأنسى إذا أتاني المساءُ

فوق تلّ الرمال أصرف أيّا
مي وأبني مستقبلاً من رمالِ
لا أحسّ المأساة حولي ولا أسـ
ـمعُ في الرمل ألفَ ألفِ سؤالِ

كالعصافير لم أحيّر أحاسيـ
ـسي يومـاً بما تقول الرياحُ
فوق تلّ الرمال أرسم أشبا
هَ قصورٍ سكّانُها أشباحُ

وتمرّ الســـاعــــاتُ بى وأنـا أبـ ـنى خـــفــايـا مــدينـة الأحــلامِ
أىّ يوتوبـيـا فــقــدتُ وعــزّ الآ نَ إدراكُــــهــــا على أيّامـى

تلـك يوتوبيــا الـطفــولة لـو تر جع لـو لم تكـن خــيـــالَ مَنامِ
إيه تـلّ الرمـــال مـــاذا تُـرى أبـ ـقَـيْتَ لى من مـدينة الأحـلام؟

هو ذا أنـت، مــثـلمـــا كنـتَ تَلاً شـــاعــريـاً مكـللاً بالجــمـــال
وأنـا لم أزل أمــــرّغ أحـــــلا مى وأبنى... لـكن قـصـورَ رمـالِ

كنتُ عرشى بالأمس كنت لىَ الأو لمبَ والآن لـم تعــد غــيـــر تلٍّ
كـــان فى هذه الـرمــال وجـــودٌ شـــاعـــرىٌّ يـلفُّــــهُ ألـفُ ظلٍّ

ذهب الأمـسُ لم أعـــد طفلـة تر قبُ عشّ العـصـفـور كل صبـاح
لم أعـد أبصــر الحـيـاة كـمــا كـا نتْ رحـيــقـاً يذوب فى أقــداحى

لم أعــد فى الشتــاء أرتقب الأمـ ـطار من مـهدىَ الجميلِ الصـغيـرِ
لم أعــد أَتبعُ الحـمـامـة إن غنّـ ـتْ وألهـو علـى ضـفـاف الغـدير

لم أعـد أستطيعَ أن أحـكم الزهـ ـر وأرعـى النجـــومَ فى كلّ لـيلِ
لم أعـد أمـــزج الوجـود بقـلبى وأعــدُّ الحــيـــاةَ قـــصّـــةَ طـفلِ

ذَهبَ الحُلْم والـطفـولة واعــتـضـ ـتُ بحسّى الرهـيفِ عن لهو أمسِ
كل مـا فى الوجــود يجـرحنى الآ نَ ولون الحــيــاة يطـعن نفـسى

أين شعر الوجـود؟ أسفر عن شىء طَـوَى ســـرَّهُ ذبـولُ الرمــــاد
كل شىء قــد عـاد أشــبـه بالقــبـ ـر رهيــبــاً ملّـفــعــاً بالـســواد

النشـيــد القــديمُ ضـاع صــداه حــيـن مــرّت به يـد الأعـــوام
كـلّ شىء يـنهـــــارُ إلا عنـادى وحنـين الجـمـــال فى أحـــلامى

وحـــوالىّ تُطبـق الخـيــبـــةُ المرّ ةُ جنُحَى نـسْـرٍ مــخـيـف السكون
أيهـــا الواقـعُ الثــقــيلُ حنانَـيْـ ـكْ أهذى عــقـبى المنى والحنين؟

رعـــشـــات الأزهار لم تـعــد الآ نَ نشـيــداً وضـحكة استــبـشـار
بعضُ شىءٍ فـيـها يمرّ على سَمْـ ـعى بأقـــدام قــاطـفِ الأزهار

وغنـاء الطيـــور لم يـعـــد الآ نَ شـفـــاءً لأدمـــعى وخـــلاصـــا
بعضُ شىءٍ فــيــه يذكّـرنى الأقـ ـيـادَ والصــائدين والأقــفـاصـــا

وعــبـــور النســيم لم يـعــد الآ نَ كـمـا كـانَ فـرحـةً فى كـيـانى
بعضُ شـىءٍ فــيــه يُذكّــرنى الأ مــواتَ تحت السكون والنسـيـــان

واختلاجُ الأمواجِ فى النهر ما عُدْ ... تُ أراه إلا دُجًى مـدلهّمـا
بعض شىء فيه يذكّرنى جسـ ... ـم غـريقٍ رأيتُـهُ فيه يوما

ومـرور الأيّام ما عـاد يبدو ... لى ربيعـاً ملوّناً سحـريّا
بعض شىء فيه يذكرنى الأقـ ... ـدار والموت والأسى الآدميا

وجمـال الوجود ما عـاد يبدو ... لى مثيراً لنشوةٍ لا تُحَدُّ
بعض شىء فيه يلخّص لى القصّـ ... ـة فى لفظتين: مهـدٌ ولحـدُ

عُدْتُ أخشى الحياةَ، أفرق منها ... وأراها دعـابةً لاتطاقُ
إنهـا الآن قصّـةُ حـاكها بالدّ ... معِ والنار ماردٌ عملاقُ

حسبُها أنّنا دفعنا إليها ... ثمنَ العيش حُرْقةً ودموعا
أى ذنب جناه آدم حتى ... نتلقّى العقاب نحن جميعا؟

أيُّ ذنب جنتْه حوّاءُ؟ ماذا ... عرفتْ من ثعبانها المشؤومِ
ليتهـا لم تمسَّ دوحتها قطُّ ... ولم تصبْ للجَنَى المسموم

ليتهـا لم تحسّ بالشرّ والخيـ ... ـر ولم تَدْرِ للتمرّد طعمـا
ليتها حافظت على جهلها المطـ ... ـبق ما دامت الغباوةُ نُعْمى

وليكن آدمٌ وحواءُ قد ثارا   وداسا السماءَ فى إصرارِ
أو لم يكفِ أن أضاعا جنانَ الـ   ـخُلْد؟ لم تكف سورة الاحتقار؟

وسدىً يبحثان فى عالم يَسْـ   ـكنُ فيه الغموض والأسرارُ
السماء التى أضاعها خلودٌ   وهنا يحكم الرّدَى الجبّار

هبطا فى تعثرٍ صامت الآ   هاتِ غرقانَ فى جمود الذهولِ
يسحبان الذكرى الكئيبة فى صمـ   ـتٍ ويستحييان جَذْبَ الحقولِ

إيه حوّاءُ! كيف عوقبتِ بالنفـ   ـيِ ولولاكِ ما عَرَفْنا النورا
أنتِ يا من بعتِ الخلودَ بأحزا   نِ لياليكِ واشتريتِ الشعورا

الخطايا التى اقترفتِ ستبقى   شُعَلاً فى وجودنا وضياءَ
كخطايا الربّ سرق النا   رَ لعبّاده ونال الشقاءَ

آهةٌ فى الوجود تُسْمع يا حوّ   اءُ روحى حديثك المجهولا
كيف ألقيتِ رأسك الحلو فى يأ   سٍ على صخرةٍ ونُحتِ طويلا

وعلى بعد خطوتين هنا آ   دم فى صمته الرهيب الحزينِ
شعرهُ الأشقرُ الجميلُ تهاوى   خُصُلاتٍ على شحوب الجبينِ

إهدآ أيّهـا الكئـيـبـان مـا زا ل لقلبـيكـمـا بقـايا هـناء
بعضُ ذكـرىً من السـماء غـداً تُمْـ ـحَى بذُرِّيَةِ مـن الأشـقـيـاءِ

فى الجـبـال التى تموتُ بهـا الأصـ ـداءُ رجعٌ من مـاضيـاتِ القـرونِ
وكـأنى هـناك أسـمع أصـدا ءَ خطىً تسـتـثـيرُ قلـبَ السكونِ

شـبهُ أقـصـوصـة يُرَجّعـهـا الوا دى حـديثاً عـن سيـرة بَشَـريّه
مـسـحـتـهـا الأيّامُ لم تُبْقِ منـهـا غـيرَ همس فى الأنـفس الشاعـريّه

حـدّثتنى الـوديانُ عن زمنٍ مـرّ ولفـتْـه بالضـبـاب الليـالى
عندمـا كـان فى الوجـودِ فتىً را عٍ يُغـنّى الرياحَ فـوقَ الجـبـالِ

كـان يُدْعى هابـيل كـان يسـوق الـ ـغَنَـم الظامـئـاتِ كـلَّ صـبـاحِ
كـان فى روحـه بقـيـةُ ذكـرىً من حـيـاة الـسـمـاء والأرواحِ

مـقلتـاهُ حُلْمـان بالشـعـر والحب يذوبـان فى صـفـاء المـراعى
شـفـتـاه ارتعـاشـتـان لمـا يُبْـ ـصِـرُ من فـتـنةٍ ومـن إبداعِ

يسـقط الليل بـالنّدَى فـوق جَـفْنَيـ ـه ويغـفـو على ظـفـائر شـعـره
ذلـك الحُـلْـمُ، ذلـك الأبَـدُ الـنـا ئمُ هابـيلُ فى صـفـاهُ وطُهْـرِهْ

كـان يـومـاً ينـام فى ظُلَّةِ الجـو ... ز على شطّ جـدول نعـسـان
حـالمـاً بالآفـاق كـفـّاه فـى المـا ... ء العـبـيـرىّ فى سكـون المكان

نشـوةٌ ملءَ روحـه، روحـه الظمـ ... ـأى إلى كـل فـاتن مـسـحـورِ
ليس يصـغى إلا إلى هـمـسـة المـا ... ء وخطو القطيع قـوى الصخـورِ

لم يشـاهد قـابيلَ تـقـتـلُهُ الغَـيْـ ... ـرةُ يمشى فى نقـمـة محـمـومـه
فى يـديه سكّينُهُ الحـاقـدُ المسْـ ... ـمومُ فى مقلتَيْـهِ طيفُ جريمـه

لم تكن غـيرُ صـرخة، غـيـر تأويـ ... ـهة حزنٍ غـيـر اضطرابٍ قـصيرِ
هدأ الجـسم بعـدها وثـوى الرا ... عى النبـيلُ المقـتـول عند الغـدير

وأتت ظلمـةُ المسـاء على الحـقـ ... ـل وعـاد القطيـعُ من دون راعى
ليس إلا قـابيل يمـشـى رهيبَ الـ ... ـخـطوِ نهبَ الأفـكارِ والأوجـاع

عَـبَـثـاً يطرد الجـريمـةَ والمقـ ... ـتـولَ عـن ذهنه الأثـيم المسىءِ
كلـمـا قـاتل الأسـى عـاودتْهُ ... فى الدُجَى صـرخةُ القـتيل البـرىءِ

أولم تسـمع الحـقـولُ صـدى أنّـ ... ـة هابـيل حـين خـرّ قـتـيـلا
أولم يشـهـدِ القطيعُ عـلى الجـا ... نى ألـم يبـصـرِ الدمَ المطلولا

أيـن هابـيلُ؟ أيـن وقع خـطى أغــ ـنامـه فى الجـبـال والـوديان؟
ليـس منه إلا ضـريح كـئـيب شـادهُ فـى العـراء أولُ جـان

يا لأحـزان آدم عـندمـا أبـ ـصـرَ بابـنيـه قـاتلاً وقـتـيـلا
أيهـا المسـتطارُ لن تـردعَ الأقـ ـدارَ حـتى إذا بـكيـتَ طويـلا

اسـتـرحْ أنت، نم دع القـاتل الآ ن يسـكر على نـشـيش الـدمـاء
لَعَناتُ القـتـيـل لن تعـرفَ الصـمـ ـت غـداً تسـتـبـدّ بالأحـيـاء

لعـنات تـظل تـصـرخ بالـشـأ ر وتبـقـى تحـزُّ فى الأعـصـاب
وتحـيل الأيـدى مـخـالبَ والأر ضَ قـبـوراً والنـاسَ مـحض ذئاب

سوف يأتى جيل من الناس مـحمو مٌ يصـيحُ الجنونُ فـى رغـبـاته
يتـمنى لو كـانت الأرض لحـمـاً ليـصـبَّ المزيـدَ من طَـعَـناتـه

وانبـثـاقُ الدمـاء يُغـريه مـا لذ ةُ هذى الثـمـالة المسـمـومـهْ؟
إنهـا اللـعنة الـقـديـمـة أبـقت فى عـروقِ الأبناء نـبض الجـريمـهْ

ذلـك الـنـبـض لـن ينـام إلـى أن يتـرك الـكون فى الفـضـاء شظايا
ذلك النـبض لو يحـدّثُ عـمـا سال فى الأرض من دماء الـضحايا

حـدثينا يا فـورة الشـرّ فى أعـ ـمـاق هذى السلالة الـعـمـيـاءِ
عن جنون الطموح يقتات من ضوء المـآقـى ويـرتوى بـالـدمـاءِ

عن جـمود الرجـاء فى أعين القَتْـ ـلى ولـون الشـرود والنسـيـان
العـيـونُ التى تحـدّق فـى اللا شىءِ فـى غـفـلة من الأزمـانِ

عن عـيـون كـأنّ فـيـها فُـتـوراً سـاخـراً مـن وجـودنا المجنونِ
وعـيـونٍ كـأنهـا تقـذف الـلعنة والمـوت فـى لـظـى وجـنـونِ

وعـيـون تـرسّب الصـمتُ فـيـهـا وانطوى خـلف لونهـا ألف سـرٍّ
وعـيـون أخـرى يضـجُّ أسـاها ترمق المـوت فى ابتـهـال وذُعْـرِ

والعـيـون التى تحـدّق لا قـعـ ـر لـهـا لا بداية لا نهـايـه
والعـيـون التى اسـتـحـالتْ رمـاداً مطفـأ ليس فى تلاشـيـه غـايه

والعـيـون التى تحـقّـرُ فى صـمـ ـت وتـلـك الـتـى تـلـوح ذهـولا
والعـيـون التـى يغلفـهـا الحـز نُ وتبكـى شـبـابهـا المقـتـولا

والعـيـون التى يـعـفّـرهـا الرمـ ـلُ وتمحـو ضـيـاءَها الظلمـاتُ
والعـيـون التى تحـدّق فى الأر ضِ كـأن ليس فى الـوجـود حـيـاةُ

وعـيـون العـدل الصـريع مع الأمـ ـوات بـين الدمـــاء والأشـــلاءِ
من رآها اسـتـحال صـخـراً أصمّـاً مّـيت الحـسّ خـادر الأعــضـاءِ

أين أيـن المفـــرُّ مـن هاتـه الأعـ ـينِ من لـونهـا العـمـيـق الرهيبِ
إنهــــا لا تنـام لا تعــــرف المو تَ وتبـقى فى حـقـدها المشـبـوبِ

إنهـا لا تغضُّ أحـداقـهـا الـسـو د وتبـقى غـضـبى تفـيـض جنونا
إنها فى السماءِ فى الأرض فى كل مـكانٍ يـحسّ بـالمـيـــتـــينا

فى هدوء العـروق تصـرخ فى الليـ ـل وتـعـــوى فـى كلّ قلـب أصمٍّ
فى جـمود الضـمائر الميـتة الشـلاَّءِ فـى كل قـــادم مـــدلهمٍّ

ليس يقـوى على فـظاعـتـهـا النِسْـ ـيـانُ فـهى ارتجـافـة فى الشـعـورِ
وانعـــصـار فى الروح يغلـى جنونا وسـيـاط تـنـصبُّ فـوق الضـمـيـرِ

وكـوابيسُ كـالسَعَـالى تجـوسُ اللـ ـيلَ خلـف استنامـة اللاشــعـورِ
كلمـا أخلد الضـــمـيـرُ إلـى النو م أفـاقت من كـهـفـهـا المسـحـورِ

ودعت مـــوكبَ الخطايا فــخــفّتْ من أقاصى الدُجَى المخيف الجديبِ
مــوكب قـــاد خطوهُ الندم القــا تل غــرقـانَ فى جـمــود رهيبِ

أين أين المنجى؟ وكيف تنامُ الر ... وحُ فى ضجّةِ الضمير المُهان؟
أىّ نوم يذوق راحته الجلاّ ... دُ؟ هل للذنوبِ من نسيانِ؟

يا حبال الجلاّد لقّى على الأعـ ... ـناق أفعى الذنوب والآثامِ
انسجيها من رجع أغنية الأمـ ... ـواتِ من لعنةِ الجراحِ الدوامى

اجمعيها من كل عمر طوتْهُ ... كفُّ (آريس) وهو ما زال غضّا
القطى لحنها من الموكب الأخـ ... ـرسِ ما بين ثاكلين ومَرضَى

من شفاه الأطفال تحلم بالمأ ... ـوَى وبالدفء فى رياح الشتاءِ
من عيون الصبيان ترسم فى الظلـ ... ـماءِ أحلامَ عودة الآباءِ

من جنون الرياح تعصف كالأقـ ... ـدار فوق الخرائب المنثوره
حيث كانت تقوم أبراج تلك الـ ... ـمدن العبقريّة المسحوره

حيث أمست تمتدّ مملكة الغر ... بان والليل والمنايا السودِ
عالم يحكى التأكّل فيه ... ليس فيه غير الصدى من جديدِ

وأماسيه لا تمرّ كما كا ... نت عليها الأوتار والأقداحُ
إنها الآن مسكنُ الرُعْب تأوى ... لذراها الرياح والأشباحُ

القـصور الـبيـضـاء هبّت من الحُلْـ ـم عـلى منجـل الردى القـتّـال

تتهـاوى أحجارها الـسـود فى صمـ ـتِ وتنـهــار فى سكون الـليــالى

ذلك الحلم فى عـيـون الصـبـايا الـ ـناعـسات الأجـفـانِ والأعـمـارِ

حَـصَـدَتْهُ فى الفـجـر قهـقـهـةُ المد فعِ فـانهــار خـامــدَ الأوتارِ

والشـفــاه العـذراء أطبـقــهـا المو تُ على لحـن حبَّـهـا المبـتـورِ

والجــبــاه التى ذوت قــبـل أن يلـ ـمَـسَـهـا إصبعُ الهـوى المسـحـورِ

والخـدود التى تعيـر مـغيب الشـمـ ـسِ ألوانـهـا وتسـقـى الـشـروقـا

غـارَ فيـهـا جُرْحُ الـتراب عـمـيقـاً وذوت قـبل أن تذوق الرحــيـقـا

والعيون الظمـأى التى تشرب الأنـ ـجم منها وتـسـتـعـيـر سـناها

دفن المـوت خلف أهـدابهـــا أغـ ـنيـــةَ اللون وانطـوت ذكـــراها

والأكف التـى انطوت وهى مـا زا لت تحـوك الطـمـوح والأهواء

لـم تزل غـضّـة أصـابعـهـا اللد نة تستـعـصـر الحـصـى والهـواءَ

والقلـوب التى بنت من صـبـاها مـعـبـدا للجـمـال والألحـانِ

من ضباب الأحلام من ملمس الور د ومن روعـــةِ الدجى الوسـنان

فى جنون ظلت تصفّق شوقاً ... لرحيق المستقبل المجهولِ
فأفاقت على مطاردة المنـ ... ـجل فى ميعة الصبا المعسول

وأطلّت إلهةُ الفجر أورو ... را على المشهد المثير الرهيب
لحظة ثم أطبق الأمس جفنيـ ... ـه على الحاضر المقيت الجديبِ

لحظة ثم نامت الأعينُ الشهلا ... ءُ واستسلمت إلى النسيانِ
وحَشَاها التراب صمتا وبردا ... بعد دفء الشعور والألوان

لحظةً ثم مَرَّغَت مُدنُ الأحـ ... ـلام أبراجها الضخام القباب
فى تراب الفوضى وعادت خيالاً ... مَسَحَتْ رسمَهُ يدُ الأحقاب

حيث كان الجمال يفرش ضوء الشـ ... ـمسِ روحاً وفتنة وطيوفا
أصبحت ترسل الخرائب صوت الصـ ... ـمتِ والموت غيهبيّا مخيفا

حيث تمتدّ وحشةُ المُدُن الميـ ... ـتة صمّاءَ فى جُمُودِ الصخورِ
كل شيء فيها تحوّل صمتا ... ليس فيه من خلجةٍ أو شعورِ

غير معنىً مكبّل ربما استيـ ... ـقظَ فى رقدة الرخام الحزين
لا تعيه إلا النفوسُ التى تَسْـ ... ـمعُ همس الدجى وصوت السكونِ

لا تعيه إلا القلوبُ التى تقـ ـرأ سرَّ الذهول فى عينينِ
وتُحسّ البغضاء ترجف كأسا وتحسُّ الجنونَ فى شفتين

هذه الأنفس العميقة تدرى أنّ سِراً يشيع فى الأحجار
وتواريخَ كاملاتٍ يغنيـ ـها العمود الكابى لحزن الجدارِ

وتلال الأنقاض تروى الأقاصيـ ـصَ لسمع الظلام والأشباح
عن مئات الخطى التى عبرت يو ماً وماتت مع الدجى والرياح

عن أغانٍ مرّتْ بأعمدة الأبـ ـهاء غَرْقَى بالدفءِ والأحلامِ
ناعماتٍ تغوص فى رجعها الآ هاتُ سكرى الخطوط والأنغام

الأغانى التى تلامس خد الـ ليل ملساءَ صافياتِ الشفاهِ
نام فيها لُغْزُ الجمال وأغفت فتنة الحبّ والشبابِ اللاهى

جفّ عرق الحياة فيها وعادت ذكريات مطموسةَ الألحانِ
فى زوايا الأنقاضِ تسردها الأعـ ـمدةُ الباليـاتُ للجُدْرانِ

وتلولُ الأنقاض تروى الأقاصيـ ـصَ لسمع الظلام والأشباح
عن فلول الذين عادوا من الحر بِ حطاماً وحفنةً من جراحِ

كيف مرّتْ على وجوههمُ الربـ ـداءِ كفُّ الردَى فلم تُبقِ لونا

كيف عادوا يرتلون نشيدَ الـ ـموتِ ملء الفضاء لحناً فلحنا

كيف ألقى الحرمان ظلَّ السنين الصـ ـفرِ فوق العيون فوق الشفاه؟

ويدُ الموتِ كيف أبقتْ أساها وتراث الذهولِ فوق الجباه؟

وخطاهم كأن وقعَ صَداَها جرسُ الموت رنّ ملء الفضاء

منشداً للحياة أغنيةَ الفَوْ ضى ولحن الجنائز السوداءِ

رَجَعوا فى جباهِهم صُفْرةُ الأشـ ـباح يمشون فى جمودٍ عميقِ

هذه الأعينُ الرماديةُ الأسْـ ـرارِ هل خلف صمتها من بريقِ؟

هل حديث عن الليالى البطيئا تِ وعن ثلجها الكثيف الثقيل

عن جليد الضباب ينهش جسمَ الـ ـصمت فى ظلمة المساء الطويلِ

عن سهاد الأحزان فى أعين الحرّ اسِ فى الخندق الرهيب الدامى

رَسَبَ الليلُ فوق أهدابهم ثلـ ـجا ومات الإحساسُ فى الأقدام

سهروا يرصدون أقبية الليـ ـلَ سكارى بالسهد والانتصار

مات فى ذكرياتهم وتر الإحـ ـساس بالبرد والسكون العارى

يرصـــدون الحـــيـــاة فى ملل مـــرّ التـلوى مـــــسنِ الأصـــفـــاد
كل عـــينين فـيــهــمــا قـصـــة تُتْـ ـلى وتَروى لـلّيل ســهـد الرمـاد

والجنـود الذين أغـــفـــوا مـع المو تى ونامـوا عـلى الثـرى الثـلجى
كل أحــلامـــهم كــوابيس من نا رِ وقـــتـلى ووحـــشـــةٍ ودوىّ

ثم يـأتى الصـــبــاحُ ثـانيـةً يـصـ ـحَبُـهُ الموتُ أسـودَ الأنيـابِ
من جـــديد يمــرُّ يحـــصُـــدُ لا يُبْـ ـقى على الأرض غير صمتِ الخرابِ

ويضـــيعُ المســاءُ فى ألف فـــجـــر ويضـيع الصـــبـاح فى ألـف ليلٍ
كلُّ شـىء يذوى وينـهـــار لا يُبْـ ـقى على الأرض غيـرَ ذِكرىً وظلٍّ

ويطلُّ الســـلام ذاتَ ضـــحىً حطّ ـمــه الليل والمدى المســتــحـيل
ملء عـينيـه نعـسـة الحـلم الخـجـ ـلان والصـمت والـرجـاءُ الهزيلُ

الســلام الحـــزين هذا الطـريد الـ ـتـــائه الخطو مـــا له من مَـــقَـــرّ
ذو العـيون الزرقـاء ينبع منهـا الشـ ـعـــرُ والحبُّ فى صـفـاءٍ وطهـر

ها هو الآن يـســتــقـــر على الأر ض غـــريبـــا ممرغ الجنحـــين
فى دمـــاء الـسنيـن تتكئ الخـــيـ ـبة فـى مـقلتيـه فى الشـفـتينِ

يعــبــر الميّــتــين والمُـدنِ الصـمّـ ـاءَ والجــدب والأسى والـذهولا
باســمـا فى مــرارة لـيس يدرى كـيف عـاد الأمس القـديم ذبولا؟

اتركــوه يـهـيم فى الجـدب والفـو ضى ويحــصى الجــراح والآهاتِ
اتركــوه مـضــيــعـاً دونَ مــأوى تائهــاً فى مــجــاهـل الظُلُمــاتِ

يتـــغـــذى بالـذكــريـات ويأوى لتـــلال الأنـقـــاض والأشـــلاء
ويغنـى له الغــراب نشــيـــد الشـ ـرّ والموتِ فـى اربداد المســـاءِ

أيُّ قلبٍ يؤويه؟ كيـفَ يعيش الضـ ـوءُ فى رفـقــه الدُجَى والشـرورِ؟
كـيفَ يحـيا البـيـاض فى هذه الأو عـية السـود فى خـمودِ الصـدورِ؟

أيُّ عــينينِ تُدركــانِ صَــفَـــاهُ وتُحـــســّـــان ســــره المكنـونا؟
هل تبــقـت إلا كـهــوف شــقـيّـا تِ تسـمى مـــآقــيــاً وعــيــونا

ملـؤها اليـــأس والمرارة حــيـناً ملـؤها الشــرُّ والأذى أحـيـــانا
أين يأوى الســلام والحب؟ يـا للـ ـحربِ لم تبق فـى الثرى إنسـانا

ليـس إلا قـــوافل مـن حَــيــارَى نام فـى ذكــرياتـهم كلُّ صــوتِ
يذرعـون الحـيـــاة فى حـيـرة الأشـ ـباح يـمـشـون مـيـتـا إثـر ميتِ

بردت فى عــيـونهم قــصـة الحب — وأبقت صـمـتـا عـمـيـقـاً طويلا
وخـبتْ فى جفونهم ومْضـة المعـ — ـنى وأبقت غــشــاوة وذهولا

الحـــيـــارى لا يـدركـــون لماذا — يمـلأون الوجـودَ ضـحكا وحـزنا
وجنونُ الحــيـــاة من أجلِ مـــاذا؟ — أى مـــغـزى وراءها؟ أى مـعنى؟

الحـيــارى أبقت لهم قـصــة الحـر — ب اضطـرابا ممـزقـــا لا يقـــــر
وجـــحـــوداً يكادُ يـكفُـرُ بـالرّو — حِ وشكـا فى كـل شىء يـمــــر

يعــبــرون الأيام أجنحــة شـلاء — قـــــــــصت زوابـعُ الأيـام
ريشهـا فهى فى الثرى تبصـر التحـ — ـليق فى غـطّة من الأحــــلامِ

وانطوت فى عـيـونـهم قـدرةُ التلـ — ـوين والخـلْق واصطيــاد المعـــانى
فــهم لا يرون مـــا يخـــتـفى خَلْـ — ـفَ جــمـودِ الأشـيــاء من ألوانِ

ربما أبـصـــــروا على الأفـق النعـ — ـسان قـوسَ الأمطار يقطر شـعـرا
كل لونٍ يـذيع فى خـــاطر الغـــيـ — ـم نشـيـداً يذوب شـهـداً وعطراً

وهم يســحـبـون أقـدامـهـم فـو — قَ تراب الملال والبـــغـــضـــاء
ومـــآقـيـــهم الرمـــادية الجـــد — باء قـــبـــر الجـــمـــال والإيـحـــاءِ

اشـحـبى يـا غـيـوم وانطفـئى يا مـقلة الشمس فى الفـضاء البـعيـد
ولمن يشـــرق الجـمـــال؟ أللـنسـ ـيـــان؟ للاحـتـــراق؟ للتـبـــديدِ؟

ولمن تضـــحك النـجـومُ؟ لمـن تَسـ ـكبُ أهدابـهـا كـؤوس الضـــيـاء
ولمن ترقـص الفـــراشـــات سكرى بعـــيـــون البـنـفـــسج الـزرقـــاء؟

ولمـن هذه الـعـــــــذوبة فـى الأز هار؟ فى نَعـسةَ الـشذى النشـوان؟
فى غنـاء الجـداول الـعـذبـة الوَسْـ ـنَى لأرض عـشـبـيـة الأحـضـان

فى ابتـــسام المروج بـعـد مـســاء ممطـر الصــمـت دافئ الديجـــورِ
فى دمـــــوع النَدىَ عـلى زهرة بـيـ ـضـاءَ نامتْ على حـفاف الغـديرِ

ولمن تُرسلُ الـعـصـــافـيـرُ لحن الـ ـحبٍّ والضوء والشَذىَ كل فجر؟
والحـفـيف المفــتـون إن لم توسـد ه رؤانـا لمن يـذوبُ ويَسْـــــــرى؟

أغنـاءٌ ولا مـــــــامعَ تـؤوى الـ لحن والحب فى كـؤوس الشعـور؟
وجـــمـــال ولا عـــيـون تحـوك الـ ـحبَّ مـنه لحُلْمــهـا المسـحـــورِ؟

ويـنـابيـعُ تـسـكـب الـسكّـر الـذا ئبَ مـــــاءَ وليس مـن عطـشـــان
وورودٌ حـــمـــراء يحـــتـــرق العط ـرُ عليـهـا فـى الجـدب والنسـيـان

ومـهادُ من الشـذى رخـصة العشـ ـب تذيع اخـضـرارها فى الفـراغ
وعطـور تظل تجـرفـهـا الأمـ ـطارُ فى عـاصفِ الريـاح الطاغى

كلٌّ هذا العـطر المبـعـثـر ملء الأ رضِ ملء الحـيـاة والآفـاق
لم يعـد يوقظ الـعـروق التىْ أغـ ـفـت عن اللـونِ والسنـا البـراق

وانطوت فـوق ذاتهـا ترقب الأيـ ـامَ مملـوءةً أسـى ومـلالا
الشـعـورُ العـمـيق تدعـوه وهمـاً وتسـمى حب الجـمـال خيـالا

هذه الأنـفسُ الممـزّقـةُ العـمـ ـيـاء، هذى المدافـن الجـوفـاءُ
هدّمـتْها مـخالـبُ الحربِ وامتـصّـ ـت شـذاها الدمـاءُ والأشـلاءُ

وتبـقت فـيـهـا مـقـابرُ للشـر ولليـأس جـهـمـة الآفـاق
عكست بـعض جـدبـهـا وأسـاهـا صـرخـات الفـراغ مـلء المآقى

أين تمضى هـذى الملايين فى العـتـ ـمـة؟ مـاذا يجـرّهـا للمسـيـر؟
ما مـعانى الألـفاظ فى صـمتهـا الـ ـمسكون بالحزن والرجاء الكسير؟

إنهم يـقطعـونَ أرض الأسى والـ ـجَـدْبِ حيث الجـمالُ لا يسـتقرُّ
حـيـث فكُّ الملال يـبـتـلـعُ الألـ وانَ حـيـث الذكـرى ظلام وشـرٌّ

حيثُ يبنى الفــراغُ عشّــا رَمَاد   يأ وينمى فيــه الأذى والشــقــاء
وطيــورا شــوهاء حــاقــدة الأنـ   ـغــام مملوءةَ الصَــدَى بغــضــاء

اشْــحبى يـا غيــومُ وانطفــئى يا   مقلة الشـمس فى الفضاء الفـسيح
ودعـــينا هنـا مع الـنقم الـســـو   داء نهب الـســهــاد والتــبــريح

فى دوى الـرياح مــــوكــــبنـا يز   حفُ نحــو الضيــاء تحت الظلامِ
عــاثراً بالأشــلاء أشــلاء من مــا   توا وأبقــوا هيــاكــلا مـن عظامِ

من بعيـد خلف الـغيـوم التى تفـ   ـغــر فــاها فـى دربنا المجــهــولِ
ربّمـا لاح بارق كــــــشــــــراعِ   أبيضِ الوعــد فى الظلام الثـقـيل

بعض دفء نـاد يسـيلُ عـلى الأفـ   ـق وراءَ الـوهـادِ والآكـــــامِ
بعضُ كـأسٍ تنالُ حــافَتـهـا البيـ   ضـاءَ إغــمـاءةُ الشـفــاهِ الظوامى

ذلك النبعُ بعـد هـذا السُّرَى العطـ   ـشـانِ بعـد الـصـراع بعـد الجـراحِ
لـو لمسناهُ لـو غــــسلنـا به كـلّ   أســـــانـا ويأسـنـا الملتــــاحِ

ذلك النـبعُ حيـث نغـمـس شكوا   نا ونَـسْـــقى تعـطُّشَ الأحـــلامِ
من جـديدِ نعــيشُ تَعْـرِفُنـا الريـ   ـحُ وتتـلو نشــيـدَنا لـلغــمــامِ

من جديد يعودُ يَبْني لنا التـا ريخ في ظلّه الفسيحِ مكانا
وتقول الحياةُ إن لنا ظلاً لنا بعضَ قصّةٍ وكيانا

إننا لم نمرّ بالعالم الميْـ ـت صَرْعَى ولم نعش أمواتا
إنّ في ذكرياتنا وتراً يخـ ـفقُ بالضوءِ إنّ فيها حياةَ

ستقولُ الحياةُ إنّا مررنا وملأنا الحياة شعراً وفنّاً
إن شيئاً منّا عميقاً سيبقى في سكونِ الوجودِ لحناً يُغَنَّى

في حفيف الأوراق تسحبها الريـ ـحُ على الأرض في وجوم الخريف
في بروق الشتاء تقتحم الليـ ـلَ وفي عاصف الرياحِ المخيفِ

في ارتشاف الظلام للقمر الأبـ ـيض في الصيفِ في سكون المساءِ
في أغاني فلاّحتين تجوبا نِ مع الفجر دولة الأنداءِ

ستقول الحياة إنّا بحثنا في الدياجيرِ أشهراً وسنينا
عن رحيقٍ مغلّفٍ بالأساطيـ ـرِ جَهِلْنا وعاءَهُ المكنونا

نحن ندعوه بالسعادة لكن ليس منّا من ذاقَهُ أو رآهُ
ذلك اللُغْزُ، ذلك الحُلُمُ المحـ ـجوبُ خلفَ الضبابِ أين تراهُ؟

في أناشيدنا يعيش ضباباً تائهاً في مدىً فسيحٍ عريضِ
في حكاياتنا يَظَلُّ أساطيـ ـرَ ولُغْزاً محجّباً بالغموضِ

نتغنَّى به ونجهل ما كُنْـ ـهُ شذاهُ وأين يحيا ضياهُ؟
أهو جنيّةٌ مجنَّحَةُ الأقـ ـدامِ تحيا في عالم لا نراه؟

من حرير السحاب أثوابُها النا عمةُ النَسْج من خدود الزهور
من جَنَاح الفراش ملمسُ خدّيـ ـها ومن رقّة الشّذى المسحورِ

مقلتاها العميقتان وجودٌ أزرقُ اللون ناعمٌ وُضّاءُ
منهما تنبعُ السماءُ ولون الـ ـبحر من نَعْسَتيهما الأضواءُ

من غبار النجوم جذرانُ مأوا ها الغريبِ المَشيد فوق الزمانِ
في مَكانٍ من الوجود على با بِ رؤاهُ يضيعُ حدُّ المكانِ

وعلى رأسها جدائلُ بيض الـ ـعطر من زنبقٍ غريبِ الرُواءِ
أنبتته حدائقُ القمر النا ئي لتلك الجنّيةِ البيضاءِ

ويداها المسحورتان تقودا نِ النجومَ الشقراء عبر الفضاءِ
وتسوقان ركب أحلامنا الحو راءِ نحو الضياع والانطفاءِ

تلكَ جنيّة السعادة في قصـ ـرٍ بعيد يقومُ خلف الغيومِ
عنده تنتهي رغائبُنا الولـ ـهى وأشتاتُ حُلْمنا المحطوم

وعلى سوره تصبُّ أمانيـ ـنا وأشواقُنَا ونارُ صبانا
في انفعالٍ نَدُقُّ أبوابَهُ الصمـ ـاء والصمتُ ساخرٌ من أسانا

وهي تلك الجنّيةُ الفَظّةُ الوحـ ـشيةُ القلب من بنات السَعَالي
ربّما اقتاتَ روحُها بصدى آ هاتنا في الفراغ ملءِ الليالي

ربّما شّيدتْ أريكتَها الفضّـ ـيةَ النَسْج من حُطَام مُنَانا
ربّما لونّت ملابسها الفجـ ـريّة اللونِ من لهيب دمانا

وصداها ترويه من عَطَش السا رينَ في كل قفرة ربداء
وتغذّي نيرانَ موقدها من كل حُلْمٍ نصوغُهُ ورجاءِ

هذه الربةُ النحاسيّةُ الإحـ ـساسِ لو لانَ قلبُها الصخريُّ
لو أراقَتْ ضياءَها فوقَ هذي الأ رضِ وافترَّ وجهُها الزنبقيُّ

لو حنَا سمعُها وأصغى إلى رَجْـ ـعِ الأغاني المُسَوَّدات الرنينِ
يتلوّى الحنينُ فيها وينسا بُ كأمواج جدولٍ مفتونِ

أرسلتــهــا حناجـرٌ نـسـيت أنّ	الأغـــانى قـــد لاتـكون بـكاء
لم تعــد تعــرف العـذوبـة فـاليــأ	سُ حَـشَـاها خـشـونة وازدراءَ

آه اصـــــغـى يا ربَـةَ الافُـق المفـ	ـقـود من ســتـرك الذى لا يُزاحُ
ربَما لـم تزل حـناجـرنـا تمـ	ـلكُ لحناً لم تبـتلعْـهُ الجـراحُ

وانظرى من ضباب قـصرك من لُغْـ	ـزك من صمت جـوِّك المجـهـول
أرسلى نظـرةً كـمـا يـعـبـرُ البـر	قُ إلينـا من جَـفْـنك المعـسـول

نحـن جـئنـا بيـأسنـا بأمـانيـ	ـنا بـأشـلاء أمـسنا المدفـون
الملايينَ مُـرْسِلين مع الأحـ	ـزانِ حُلْمَ المسـتـقـبـل الموهونِ

نداء إلى السعادة

يا ضباباً من الشذى الشفّافِ
يا جمالاً بلا حدودْ
يا رفيفاً معطّراً فى ضفافِ
ليس يدرى بها الوجودْ

أين تحيينَ فى شغافِ الغيومِ
حيثُ لايبلغُ الخيالْ؟
أم تجوبينَ فى بحار النجومِ
زورقاً يعبُدُ الجمال؟

أسدلى شَعْرَكِ الطويل الطريّا
خُصُلاتٍ من الحريرْ
وأريقى اشقرارَها الغيميّا
يفرش الكونَ بالعبير

وأزيحي أهدابَكِ العَبِقاتِ
عن أساطيرِ مقلتينْ
ملءِ لونيهما اندفاعُ حياةِ
وائتلاقاتُ كوكبينْ

يا جبيناً ملوّناً بالمعاني
حجبتْ سحرَهُ الغيومْ
يا عبيراً نشوانَ بالألحانِ
يا خدوداً من النجومْ

من ضبابِ الرؤى إلينا إلينا
قبل أن نُزْمِعَ الرحيلْ
وابسطي ظلَّكِ الحنونَ علينا
ظلَّكِ الدافئَ الجميلْ

نحن في ميْعة الصباحِ سنمضي
قبل أن تفرَغَ الكؤوسْ
وركابُ الديدان في كلّ أرضِ
لم تزل تحفِرُ الرمُوسْ

ووراء السياج ينعَقُ بومُ
ملء عينيه أحجياتْ
رنَّ في صوته الصَدَى المشؤومُ
دون أن تعلمَ الحياةْ

والسكونُ العميقُ ملءالوجودِ
جامدٌ يرصُدُ الحياه
يتغذى بكل لحنٍ سعيدِ
لَمَسَتْ عطرَهُ الشفاهْ

وزهور الحقول تحمل سرآ
بذرةَ الموتِ والذبولْ
لحظةً في الصباح تقطرُ عطِرا
ثم يمضى بها الأفول

وكؤوسُ الهوى المعطرِ تَسْقى
عسلَ الحبّ لحظتينْ
يختفى بعدها الرحيقُ ويبُقى
فى فمِ الكأسِ غُصّتَيْنْ

وارتعاشُ الظلالِ فوق السواقى
سوف يمضى به الشَفَقْ
والجمْالُ الذى يُظِلُّ المآقى
ربّما غاله الأرق

والأغاريدُ قد يرنُّ صداها
لحظات مع الصَبَاحْ
وزهورُ المروجِ عُمْرُ شذاها
ليس أبقى من الرياحْ

نحن نحيا فى عالمٍ من ظلالِ
عابرٍ نَسْجِ عنكبوتْ
كالعصافيرِ فى ربيعِ الدوالى
نتغنّى لكى نموتْ

فامنحينا رؤياكِ قبلِ الرحيلِ
يا ابنة الحبّ والخيالْ
لحظة عند نبعك المعسولِ
نغسلُ اليأسَ بالجمالْ

علّنا من رحيق عينيك نَسْقى
عَطَشَ الروحِ والشفاهْ
وعلى مُلْتَقَى سواقيك نُلْقى
عبءِ ما شَجَّتِ الحياهْ

علّنا بازْرقاقِ عينيكِ نبنى
من جديد لنا سماءْ
علّنا باشقِرارِ شَعْرِكَ نُفنى
سطوةَ الليلِ والفَنَاءْ

آه مُدِّى يديك مدّى يديكِ
كلُّ شىء هنا يضيعْ
وانبجاسُ النعيم من شفتيكِ
كيف نُبْقيهِ للربيعْ؟

وهنا تغربُ النجومُ وتَذْوِى
فى الدُجَى رقصةُ القَمَرْ
وكؤوس الأزهار فى الحق تَهْوِى
هكذا يحكمُ القَدَرْ

فى شعابِ الظلام نبقَى نسيرُ
أين أوّاهُ تهرُبينْ؟
قصرُكِ الزئبقىُّ أينَ يغورُ؟
كلَّما كادَ أن يَبينْ

فيمَ، كالماءِ فى رمالِ الصحارى،
لَحَظات وتَنْضَبينْ؟
كشُرُوقِ الهلال، كالأزهارِ
كخيالاتِ حالمينْ؟

ولماذا، إن جئت بعد العذابِ،
يقتفى خطوَكِ القلقْ؟
فيحسّ الفؤادُ ظلَّ اكتئاب
كغيوم على الأُفُقْ؟

وذراعاكِ فيم بالسُمّ تَهْمى
حينما تملأُ الكؤوسْ؟
كلُّ كأسٍ وفيه قطرةُ همٍّ
ما زجتْ نشوةَ النفوسْ

كلُّ لون تعيش خلفَ صفائه
ظلمةٌ تأكلُ الجمالْ
كلُّ حبٍّ يضمُّ خلف انتشائه
بذرةَ الموتِ والزوالْ

اهبطى يا أنشودةَ الحالمينا
من فَضَاكِ المورَّد
وامسحى مرةً صدَى الظامئينا
فى دُجَىً ضائعِ الغدِ

وسنبنى هنا معابدَ بيضا
فوق أرضٍ من الرجاءْ
غسلتْ صدْرَها الفسيحَ العريضا
أدمعُ اليأسِ والشقاءْ

علَّنا مرةً نذوقُ شذاكَ
بعد هذا الصدَى الطويلْ
والشفاهُ الظمأى لشَهْد نداكَ
تلمُسُ الكوثَر الجميلْ

•••

فى غبار الحياة، فى مَزْلق الأيّـ ـام فى كل معبرٍ مسكونِ
رنَّ هذا النشيدُ مُخْتلج التر ديد نشوانَ بالأسى والحنينِ

وشَدَتهُ القرونُ منذ رأى الفجـ ـرُ بعينىْ حواءَ أولَ حُزْنِ
منذُ رنَّتْ فؤوسُ آدم فى الصخـ ـر ولم تَبقَ فسحةٌ للتمنى

منذُ مرّت قوافلُ البشر الأو لى وعمرُ الوجود بضعُ سنينِ
عبروا يبحثون عنها عن الجنّـ ـيّةِ الزئبقية التكوين

باسمها يحرثون من أجل عينيـ ـها أحبّوا حتّى أكتئابَ الرحيل
ثم ماتوا وأوْرثونا هَواها وخفايا كيانِها المستحيلِ

حدّثونا عنها فقالوا فتاةٌ غَمَسَتْ فى الحرير شوق صباها
ليس تَقوى على الحياة إذا جا عتْ إلى رقّةِ القصور رؤاها

فهى للأغنياء تبسط من أهـ ـدابها الناعمات ألفَ خميلِ
وعلى شعرها العبيرى يقضو ن لياليهمو كحلم جميلِ

ثم قـــالـوا جنيـــة تتـــبع الـرهـ ـبـان والزاهـدين حـيث أفـاءوا
مـثلَهـم تعـشقُ السكونَ ويـرضيـ ـهـا مكانَ النعـيم خـبـزٌ ومـاءُ

من تـراتيلهـم تشـيّـد مـأوىً ظـلـلـتـــــهُ سكينـةٌ ديريـه
من بَخـور الكُهَّانِ جـدرانه الـبيـ ـضُ ومن خـشعـة الشمـوع النقيّـه

وســـواهـم يظـنّهـــا ربّةَ الـريـ ـفِ وبـنـت الـذرى وأخت الـوهادِ
ليس يروى إحسـاسَهـا غيـرُ جـوٍّ أثقلـتْ عطرَهُ أغـانـى الحـصـادِ

من كـؤوسِ الأزهار حـمرةُ خـدّيْـ ـهـا وتأوى إلى بيـوت الفـراشِ
وتغنى لهـا النواعـيـرُ والشـمـ ـسُ إذا قـبَّلَتْ ذُرى الأحــراشِ

وسـواهم يروى الحكـايات عنهـا كـيف تحـيـا فى عـالم النـغـمـاتِ
من بـكاء الأوتـار تنسـجُ أُرْجـــو حَـتَـهـا الكوكـبيّـة الرَعَـشـاتِ

ويقـــولون إنَّ مـــسكنهـــا الأعـ ـلى خـيـالاتُ شـاعـر مـسحـورِ
ظَلَّلـتْ روحَـهُ جـدائلُهـا الشُـقْـ ـرُ وأسـرارُ طرفـهـا البَلّوری

وقـلوب تَـظـنُّـهـــا ربّة الحـبّ تصـبُّ الرحـــيقَ للـعـشـــاقِ
ويقـــولون إنَّهـم شــهــدوها تسكبُ الـظلَّ فى هَجـيـر الفـراقِ

ورأوها تهشُّ في مقلتى (قيـ ـس) مع الدمع والضباب الثقيل
وأحسّوا كيانها المَرِحَ الرا قصَ في حزن (توبةٍ) و(جميل)

ومئاتٌ تُحسُّها في شفاه الـ ـكأسِ في غمرةٍ من الهَذَيانِ
في ضَبابِ الجنونِ، في دولة الأجـ ـسادِ في عالمٍ من الأدرانِ

ومئات ترجو العثور عليها في زوايا النفوس خلف دجاها
في دروبٍ دكناءَ يَجْهَدُ ضوءُ الـ ـقمرِ الطفلِ أن يَمسَّ ثراها

في خفايا مغمورة عنكبوت الـ ـشر ألفَى فيها سريراً مريحا
وركاب (السيرينِ) آوت إليها والثعابين أثقلتْها فحيحا

صلاة إلى بلاوتس
(إله الذهب)

من ضفاف الدُجَى الأُخَرْ   نحن جئناكَ لاهينْ
واقتفينا خُطَى القَمَرْ   فوق أرضٍ من الإبرْ
في دياجيرَ من أنين

الصحارى رمتْ بنا   في متاهاتها الغلاظْ
رملُها في جلودنا   في حنايا جفوننا
لم يزل يسكبُ الشواظ

والأعاصيرُ والرياح   تركتْ في جباهنا
من سكاكينها جراحْ   وأراقت مع النواحْ
مِلْحَها في شفاهنا

كلّما رقرقَ الكلالْ   بحّةَ الموتِ في نشيد
وحَنَتْ أذرعُ الرمال   فوقَ أجسامنا الثقالْ
عبئَها الساحقَ المبيدْ

رنَّ فى أُفْـــقنـــا صَـــدَى   مـن رنيـنِ اســـمك الأحـبْ
فـــمــضـــينا إلى المَـــدَى   فـــى صـــراعٍ مـــع الـــرَّدَى
باسم مـــعـــبـــودنا الـذهب

هكذا يـمّـــمـوا إلى الـشـــرق آلا   فـــا جـيــاعـــاً للمنبـع المزعــومِ
يقطعـون الآكـامَ ترسيـهمُ الصـحـ   ـراءُ مـن حـــيــرةٍ ليـــأسٍ ألـيم

ضَلـلتـــهـم أسطـورةٌ عن مـكانٍ   خلفَ بعضِ الجبـالِ فى حضن وادِ
حيث يجـرى نهرٌ من التبر مـسحو   رٌ طوتْ سـرَّهُ صـخـــورُ الوهادِ

قـطرةٌ منه تمنحُ الـكفَّ لمـســـاً   ذهبـىَّ الـتـأثيـر فـى الأشـيــاءِ .
والـزهور الـتى تحـفّ بشـطّيـــه   شظـايا كـــواكـبٍ بيـــضـــاءِ

أين هذا الوادى؟ وضجَّ فضاءُ الصـ   ـمـتِ والليل والمدى بـالســـؤالِ
أين هذا الوادى؟ وســاروا يجــرّو   ن قــيـوداً مـن الرِّغـابِ الـثـقـالِ

فـى سكـون يـلوذ كـلٌّ بـســـــرٍّ   ذهـبىّ الـوشـــــاحِ والـتـلويـن
حـــالماً فى الظـلام بالجـــدول المو   عـودِ فى عـاصفٍ عـمـيق الحنين

من خـيـالاتـه يصـوغ عـلى الأفـْـ ـق قـلاعـاً فــضّـيــة الأبوابِ
وبلادا وديـانُهـــا تُنبتُ الـتـبـ ـرَ مكانَ الأشـجـار والأعـشـاب

ومكـان الفـراش تـسـرحُ أطيـا رُ رقـــاق تبـــريّة الأبـدان
ومكـان القطيـع تحـيــا وعــول متـرفـات فـضيـة السيـقـان

فى خـفـايا هذا المكان الخـرافى أسـاطيـرُ قـلعـةِ مـسـحـوره
من تراث الإغـريق شيـدها (فلـ كـان) سـرا فى أعـصـر مطمـوره

وبـنـاهـا عـلـى رَوَابِ مـن المعـ ـدن منحـــوتة الذُرَى ســوداءَ
ناعــمـات عـلى مـزالقــهـا تصـ ـقلُ (فــيكا) خـدودها الملســاءَ

هى برجٌ عَـلَتْ حـواليـه أشـجـا رٌ ضـخـامٌ تَمَسٌّ أفقَ النجـومِ
ونَمَتْ فـى أنحـائه الكوكـبـيّـا تِ أسـاطيـرُ عـن زمـانٍ قـديمِ

ويقـولـون إن جـدرانهـا الـغـا مـضـة اللونِ من لآلى البـحـارِ
جـمـعـتـهـا عـرائسُ الماءِ من أعـ ـمـاقِ بـحـرٍ مُطَلْسم الأسـرارِ

ويقــــولـون إنّ أبوابَهـــا المُقْـ ـفلةَ الصمتِ فـوق أروعِ سـرٍّ
نُزِعتْ من جُـدْرانِ قـصـرِ سميـرا ميـسَ فى ليلِ بابـلِ ذاتَ عـصـرِ

والقبابُ الضخامُ من خَشَب الجو ز الشـــذىِّ المعطّرِ الألواحِ
من شِعَاب الهندِ الملفّعةِ الغا بات بالذكرياتِ والأشباحِ

هذه القلعةُ الضبابيةُ الشكـ ـلِ إليها يضيعُ خطوُ السارى
ليس يدرى مكان سلّمها العا لى رواةُ الألغازِ والأخبار

ليس يدرونَ كيف يبلغُها سا كنُها الصامتُ الغريبُ الطباعِ
ذلك الأعرجُ البطىء الخطى يَسْـ ـبقُهُ النملُ - إن مَشَى - والأفاعى

٥

ذلكَ العاجزُ الكفيفُ الذى يَمْـ ـنحُ من لا يَرَى كنوزاً ضخاما
ليس يَعْنيه أن يُسَلّمها شيـ ـخاً بخيلاً أو قاتلاً أو غلاما

ذلك الشيخ، كيف يصعَدُ أين الـ ـضبابُ؟ أينَ السلالمُ السحريّه؟
أتراهُ -كما يقولونَ- يؤوى بين جُدْرانِ قصرِهِ جنّيه؟

شعرُها -هكذا رَوَوْا- باركتْهُ من قنانِ (الأولمب) أيدٍ خفيّه
فنما كالحياةِ ثرًّا غزيراً أبدىَّ المسيلِ كالأبديّه

ونما كالضياء كالبحر يمتدّ سحيق السواد دون انتهاءِ
إن أرادتْ شدّتْ به القَمَرَ النا ئى إلى الأرضِ أو إلى الجوزاءِ

ذلك الشَعْرُ ربّما أرسلتْهُ سلّماً للضرير كلّ مساءِ
يتخطّى عليه مرتعشَ الخَطْـ ـوِ مراقى تلك الرُبَى الملساءِ

أرسلى يا طويلةَ الشعر يا سمـ ـراءُ إحدى الجدائلِ المسحوره
وارفعى الهائمين بالذَهَب البرّ اقِ من هذه الوهادِ الكسيره

أو أطلى يوماً بوجهك، بالفتـ ـنة والصمت فى مَدَى أحداقكْ
وأعيدى على الجموعِ أقاصيـ ـصَ عن الهالكينَ من عُشّاقك

حدّثيهم عن ذلك الملكِ الغا برِ (ميداس) كيفَ كان مصيرُهْ؟
أين ساقتهُ شهوةُ الذهبِ العمـ ـياءُ ماذا جَنَى عليه غرورُهْ

جُنَّ بالتبر لم يعُدْ يعشق الأنـ ـجمَ إلاَّ إن أذكرتْهُ سَنَاهُ
وازرقاق الغيومِ والبحرِ ما عا د مثيراً لحبِّهِ ورؤاهُ

واخضرارُ الجبال أصبحَ يؤذى روحَهُ، والزهورُ لا تَروِيه
فهو عطشانُ يدفعُ الذهبُ الوهّـ ـاجُ أحلامَهُ إلى ألف تيهِ

ودَّ لو حوّلَ الخدودَ وأهدا بَ العيونِ الكحلاء تبراً نقيّا
واشقرارَ الآفاقِ، والشَفَقَ الخجـ ـلانَ والشوقَ نائماً فى مُحيَّا

والشفاهُ الحوّاءُ ينضَحُ منها الذ ... فءُ كم ودَّ لو تحوّلن سرّا
ذهباً تجمدُ الشفاهُ عليه ... قُبَلاً كالرخامِ يقطرن تبرا

حدّثيهم وكيفَ ذاتَ مساء ... كان (مَيداسُ) لاهثَ المقلتينِ
يلمسُ الكنزَ فى انفعالٍ جنونيٍّ ... وفى كفِّه لَظَى شفتَيْنِ

وأزاح المساءُ سِتْرَ دجاهُ ... عن صبيٍّ من عالَمِ الأطيافِ
فى استداراتِ وجههِ المخمليّ الـ ... لونِ إبراقُ مَنْبَعٍ شَفَّافِ

وعلى رأسه جدائلُ شعر ... ذهبيٍّ يغار منه الفتونُ
وسماء فى مقلتَيْهِ من الزُّرْ ... قةِ والعُمْقِ لم تنَلْها عيونُ

«عِمْ مساءً» وأجفل الملِكُ الشيـ ... ـخُ وماتَ البريقُ فى عينيهِ
غير أصداءِ بحّةٍ حشرجتْ وانـ ... ـطلَقَتْ صرخةٌ على شفتَيْه

أىُّ باب قادتْ خُطى الوافد المجـ ... ـهول؟ هل جاءَ من شُقوق الجدار؟
أم تَرَاهُ خيالةٌ جسَّدتْها ... فتنةُ الكنزِ وائتلاقُ النُضَارِ؟

«عِمْ مساءً ميداسُ» مَنْ أنت ماذا ... تبتغيه فى قبوِى المجهول؟»
وأجاب الطيفُ الكريمُ: «أنا أمـ ... ـلك تحقيقَ كلِّ حُلمٍ جميلِ

أنا ربّ التـمنّيـات شـفـاهى		تملكُ المسـتـحـيلَ والأبعـادا
فى ذراعىَّ قـدرةُ الخَلقِ لو شـئـ		ـتُ لحـوّلتُ كلَّ حىٍّ جَـمَـادا

ملء كـفّى الورودُ والذَهـبُ الوهّـ		ـاجُ والـلونُ والشَـبَـابُ الـطرىُّ
كلَّ مـا شئتَ فاقـترحْ تهـبط الأفـ		ـلاكُ والأُفـقُ والسَّنا الـكوكـبىُّ»

أرأيتَ الأغـصانَ فى قَبْضـة الإعـ		ـصـارِ تهـتـزُّ وردةً بعـد ورده؟
أرأيتَ الـنعـيم فى قـلب رحّـا		ل سنينٍ واتـاهُ حُلْـم العـوده؟

هكذا لـوّن الحـمـاسُ خـدود الـ		ـملك الغـرِّ وهو يـسـمـعُ هذا
وجثـا ضـارعـاً وصـاحَ: «حنانَيـ		ـكَ مـلاكى مـاذا سؤالُكَ مـاذا

أعط هذى الـيـدَ المشـوقـةَ لمسـاً		ذهبـيّـاً وقـوّةً من سـحْـر
دع ذَراعـىَّ لا تَمَـسَّـان إلاّ		لتُـعـيـدا الأشـيـاءَ عـاَلَم تبـرِ

إيهٍ مـيـداسُ، أيّهـا المـلكُ الأحـ		ـمقُ مـاذا جنيتَ؟ أىُّ غـرورِ؟
ارقبِ الآنَ مطـلعَ الفـجـرِ وانظر		كـيف عُـقْبَى خـيـالـكِ المغـرورِ

فى غـد تستـحـيلُ أشـجارُكَ الحـيّـ		ـةُ تـبـراً تعـافُـه الأنداءُ
وسـواقى الميـاهِ تجـمـدُ صَفْـرا		ءَ كـصـحـراءَ جفَّ فـيـهـا الماءُ

ودموع النَدَى تعود حَصَىً صُلْـ ـبـاً ولينُ الورودِ يُصْبحُ صلدا
ورحيقُ الكرومِ يجمدُ كالصَخْـ ـر ودفءُ الأعشاشِ يُصْبح بَرْدا

وحريرُ الستائرِ اللُدْن يغدو جامداً لا ليونةٌ لا انثيالا
و(نهاوندُ) بنتُك العذبةُ الجذ لى ستغدو فى لحظةٍ تمثالا

هكذا تنتهى خيالاتُكَ التبـ ـريةُ الصُفْر للأسى الأبدىِّ
فاشربِ الآن خمرةَ الندمِ البا ردِ واسكَرْ بِحُلْمك الذهبىِّ

أنشودة الرهبان

نحنُ بالأمسِ تركنا صِبَانا ووهبنا للسماءِ هوانا
ودفناً كلّ حبٍّ عميقٍ في مكان لا تعيه رؤانا
ولفَفْنا في ذهولٍ أبيدٍ كلّ درب قطعتْهُ خطانا
وأصرنا للسكونِ نشيداً بشريّاً كان ملءَ منانا

لا تَسَلْنا عن طَرَاوة أمسِ عن معاني ألف كأسٍ وكأسِ
عن عيونٍ مرحات الأماني نثرت في عمرنا دفءَ شمسِ
عن شفاهٍ في برودةِ فجرٍ مَطَريٍّ الصمتِ لمياءَ لُعْسِ
عن خدودٍ دافئاتٍ عذابٍ كخدودِ الوَرْدِ رقّةَ لمسِ

نحن ضيّعنا روابيَ حُلْوه ودفَّنا الحبَّ في كلِّ ربوه
ثم تهنا في مسالكِ حُلْمٍ وأفقنا عند حافةِ هوّه
وشربنا اللونَ والعطرَ حتى عادت الكاساتُ تَنْضَحُ شقوه
فأتينا الدير صَرْعَى حَيَارَى علّ في ديجورِهِ بعضَ سلوه

هذه يا حياةُ مملكةُ الرهـ ـبانِ في عزلة وفي اكفهرارِ
دفنوها وكاد ينسَى رعايا ها الحَيَارَى حتى ضياءُ النهارِ

شـيّدوها مـن كلّ لفـتـة شـوقٍ في العـيـون الحـبـيـسـة المحـرومـه
وسـقـوا أرضـهـا الجـدبيـة من برٍّ كـانِ تلكَ العـواطفِ المكـتـومـه

وحَـمَـوْها من أن تغازَلَها الشمـ ـس بـألوانـهـا ولـيـنِ شـذاها
وأبوا أن يـلامسَ القـمـرُ المُنْـ ـفـعـلُ الضـوءِ في المسـاءِ دجـاها

وتمـنّـوا ألاّ تمـرَّ بـهـا ريـ ـحٌ عـبـيـريّةُ الصَـدَى والنشـيـدِ
فـشـفـاهُ الرياحِ تـكمن فـيـهـا قُـبَلٌ عـذْبـةٌ وذكـرى خـدودِ

وتمنّوا أن يُقْـفلَ الليلُ عـينيـه وتخـبـو نجـومُـهُ الـسـحـريّه
فـعـيـونُ النجـوم تُغْـوى بأهدا بِ حـريـريّةِ الرؤى قَـمَـريّة

وهم يمـقـتـون أن تشـرب النحـ ـلةُ شـهـدَ الأزهار كلّ صـبـاحِ
فـرحيـق الورود في شرعـهم خـمـ ـرٌ تُـريقُ السُـمـومَ في الأرواحِ

والعطـورُ السكرى ألم تنبعِ الأحـ ـزانُ بعـد ارتشـافـهـا والجـراحُ
إنّهـا كـالنبـيـذ تُسْكِـرُ تُذْكى من حنين الجـمـالِ مـا لا يُبَـاحُ

وغـنـاءُ الـقـنـابـرِ الـذاهـلَ المبـ ـهـورُ -في عـرفـهـم- نداءُ خطايا
في ثـنـايـاه آهةٌ كـسّـرَ الحبُّ صـداها وفـيـه نجـوى صَـبَـايا

وخـــدودُ الفـــجـــر المورَّدُة الـنا عـمـةُ الدفـء والشَـذَى والرحـيقِ
حـــرمّوهـا فـقـــد تمرُّ على الزهـ ـدِ فـتُصْحـيـهِ من سُبَاتٍ عـمـيقِ

وأقـــامـــوا ســـوراً ليـمنعَ عـنهم كلَّ ذكــرىً من كلِّ أمسٍ بـعـيــد
وأرادوه حـــــارســـاً يـطرُدُ الـعطْـ ـر ويَحْـمى مـن النسـيمِ الَبـرُود

وأباحــوا أيّامــهـم لـيـد الـصــمـ ـتِ الرصـاصـيةِ العـروق الثـقـيله
وأقـــامــوهُ حـــاكـمـــاً مـخـلبيَّ الـ ـحكـمِ لاذت به الُمنَى المقـتــوله

إنه الـديرُ فـــيـــه يـنـتـــصـــرُ المو تُ وفى قـــبـــوه يعــــيش الآهُ
فى خـــفـــاياه، فـى ممرّاتهِ الســـو د الحـــزيـنات لا يعـــيش الـلهُ

مـسكـنُ الصـمتِ والكـآبة والجَـدْ بِ ومــأوَى الـرغـــائب المدفـــونه
وصـراعٌ مـع العـواصفِ تُصْـحى نارَهُ أذرع الـليــــالى الـلعـــيـنه

ذلك العنكبـوتُ ذو الأرجُلِ الفظّ ـةِ هـل منه مـــهـــربٌ أو مـــلاذُ
إنه مـن دمــــائهـم يتـــغـــذَّى وهو من قـلب أمْـسِـهـم أفـلاذُ

إنه حـــبُّـــهم يـعــود إليــــهمْ ينسـجُ الذكـــــرياتِ والأهـواءَ
لا تـطيـق الأســـــوارُ رَدَّ خُطـاهُ فـهـــو قـد خـالطَ الـرؤى والدمـاءَ

وهو حيناً عينانِ صافيتا اللو … نِ كأعماقِ بركةٍ صيفيّه
أو شفاهٍ من قعرِ حُلمٍ بعيدٍ … أو يدٍ لدنةِ البَياضِ شهيه

ذلك العنكبوتُ كم عادَ وجهاً … عكستْهُ للراهبينَ الكؤوسُ
إنَّه وجهُها، أينسَوْنَ؟ هذي … ربّة الدير، هذه تاييسُ

أغنية تاييس

من خـيـوطِ الضـوء أرديتي　　　ومـن الأزهـار ألـوانـي
الهـوى المبـهـورُ في شَـفَـتي　　　عـصـرتْـهُ كفٌّ شـيـطانِ
ولـهـاثُ الورد أغنيـتـي　　　وخـفـايا عـالم ثـانِ

وخـدودي مُـخـمـلٌ لَدْنُ　　　بقَـعـتْـهُ حـمـرةٌ خـجلى
مـن شـذاهـا ينبُعُ الـلـونُ　　　ويـرُشُّ الـوردةَ الجَـذْلَى
وأنـا الـلـذّةُ والأمـنُ　　　لـلرياح الـعَـذْبَةِ الكَسْلَى

وشـفـاهـي ها هـنا الـلـينُ　　　ورؤىً صـيـفـيـةٌ لَـدْنَه
إنـهـا إن شـئـت سكّينُ　　　وإذا شـئتُ رُقَـى فـتـنه
وذراعـايَ أفـانـين　　　فـيـهـمـا النشـوةُ واللعنه

مـن قـديمٍ عَـشِـقَ الديـرُ　　　ضَـحكاني واسـتطاب اسـمي
ذكـرياتٌ مـا لهـا غَـورُ　　　رَسَـخَت في الـدمِ والـعَظْمِ
أأنـا النـقـمـة والشـرُّ　　　لـم يُضـنيكم إذنْ رسـمي؟

راهبُ الأمسِ أنساه؟   كيف أشعلتُ أحاسيسَهْ؟
ما حياةُ الدير؟ ما اللهُ؟   إن أنا أصبحتُ تايِسهْ
وهَوَى في ركبِ من تاهوا   وهبطتُ الخُلْدَ قِدّيسهْ

أغنية للإنسان

- ٢ -

"نظمت هذه القصيدة عام ١٩٦٥ عدا الأبيات المنسوخة

من مأساة الحياة في القسم الأول من القصيدة"

عَبثا تَحلُمين شاعرتى ما   من صباحٍ لليلِ هذا الوجودِ
عبثاً تسألينَ لن يُكْشَفَ السرُّ   ولن تنعمى بفكِّ القُيودِ

فى ظلال الصَفْصاف قَضيْت ساعا   تك حَيْرى تُمضُّكَ الأسرارُ
تسألينَ الظلالَ والظلُّ لا يعـ   ـلَمُ شيئاً وتعلمُ الأقدارُ

أبداً تنظرينَ للأُفُقِ المجـ   ـهولِ حَيْرَى فهل تَجَلَّى الخفىُّ؟
أبَداً تسألينَ والقَدَرُ السا   خرُ صمْتٌ مستغلق أبدىُّ

فيمَ لا تيأسينَ؟ ما أدرك الأسـ   ـرارَ قلبٌ من قبلُ كى تُدْركيها
أسفاً يا فتاةُ! لن تفهمى الأيـّ   ـامَ فلتقنعى بأن تجهليها

اتركى الزورقَ الكليل تُسَيِّرْ   هُ أكُفُّ الأقدار كيف تشاءُ
ما الذى نلتِ من مصارعَةِ المو   جِ؟ وهل نامَ عن مناكِ الشقاءُ؟

آه يا من ضاعتْ حياتُك فى الأحـ   ـلامِ ماذا جنيتِ غير الملالِ؟
لم يَزَلْ سرُّها دفيناً فيا ضَيْـ   ـعةَ عُمْرٍ بدّدتهِ فى السؤالِ

هو سـرُّ الحـيـاة دقَّ عـلى الأفـ ـهامِ حـتى ضـاقتْ به الحُـكَمـاءُ
فـا يأسى يا فـتـاةُ، مـا فُـهِـمَتْ من قـبـلُ أسـرارُها فـفـيمَ الـرَجَـاءُ؟

جـاء من قـبلِ أن تجـيئى إلى الدنْـ ـيـا مـلاييـنُ ثم زالـوا وبادوا
ليتَ شِـعـرى مـاذا جَنَوْا من لياليـ ـهِمْ؟ وأيـن الأفـراحُ والأعـيـادُ؟

ليـس منهم إلا قـبـورٌ حـزيـنا تٌ أُقـيـمت على ضـفـاف الحـيـاةِ
رَحَلوا عن حِـمى الوجـود ولاذوا فى سـكونٍ بـعـالَمِ الأمـواتِ

كم أطافَ الليلُ الكئيبُ على الجوِّ وكـم أذعـنـتْ له الأكـوانُ
شَـهِـدَ الليلُ أنّـه مـثلمـا كـا نَ فـأيـنَ الذين بالأمسِ كـانوا؟

كـيف يا دهرُ تنطفى بين كـفَّـيْـ ـكَ الأمـانى وتخـمـدُ الأحـلامُ
كـيفَ تذوى القلوبُ وهى ضـيـاءٌ ويعـيشُ الظـلامُ وهو ظـلامُ؟

كـيف تحيـا الأشـواكُ والزَهَرُ الفا نُ يَذْوى فى قـبـضـة الإعـصـارِ
كـيف تمضى إلى الـفَناء الأناشيـ ـدُ وتَبْـقَى سُـخْـرِيَّـةُ الأقـدارِ

حـدّثى القلبَ أنـتِ أيتـهـا المأ ساةُ يا من قـد سُـمِّـيَتْ بالحـيـاةِ
ما الذى تصنعين بى فى الغدِ المجـ ـهـولِ؟ ماذا ترى مـصـيرُ رفـاتى؟

أيّ قبرٍ أعددتِ لي؟ أهو كَهْفٌ ملءُ أنحائه الظلامُ الداجي؟
أم ترى زورقي سيغرَقُ بي يو ماً فأثوى في ظلمة الأثباجِ

وغرامي بالسرِّ يصرُخُ من أيـ ـنَ؟ إلى أين؟ ما مصيرُ حياتي؟
وأمامي أفقٌ من الصمتِ والألـ ـغازِ ضلّتْ في تِيْهه خُطُراتي

لهفتي يا حياةُ كم تلعبُ الأو هامُ بي كم يؤودُني التفكيرُ
أبداً أسألُ الليالي عن المو تِ وماذا ترى يكونُ المصيرُ

طالما قد سألتُ ليلىَ لكن عزَّ في هذه الحياة الجوابُ
ليس غير الأوهام تسخر مني ليس إلا تخبُّطٌ واضطرابُ

هل فهمتُ الحياةَ كي أفهمَ المو تَ وللموتِ صمتُ قلبٍ ضنينِ
لم يَزَلْ عالَمُ المنيّةِ لُغْزا عزّ حلاً على فؤادي الحزينِ

فليكن يا أيّامُ لن أسألَ الليـ ـلَ عن السر فاحكُمي كيف شئتِ
امنحيني عُمْرَ الزهور فلن أبـ ـكي ومُدّي الحياةَ لي إن رَغِبْتِ

ولماذا أبكي؟ وهل يردع الدَّمْـ ـعُ المنايا؟ وهل يُحسُّ القضاءُ؟
لن تزيدَ الدموعُ يوماً على عُمْـ ـرى غداً رقْدةٌ غداً انطفاءُ

ولو أنّى أحـبـبتُ مـوتـى وناديْـ   ـتُ دُجـاهُ بـأجـملِ الأسـمـاء
هل يُجيبُ المـماتُ رغـبـتىَ الحرَّ   ى ويأتـى ملبّـيـا لندائى؟

هكذا جـئتُ للحـيـاة ومـا أد   رى إلى أينَ سوف تمضى الحياةُ
وسأحـيا كـما يشـاءُ لىَ المجـ   ـهـولُ قلباً حـفّتْ به الظُلُمـاتُ

هكـذا، مـا يُريدُهُ القَـدَرُ المَحْـ   ـتـومُ لا مـا تُريدُهُ آمـالى
سَيَّرتنى الحيـاةُ أين ترى مَـرْ   سَى سـفينى وعند أىِّ رمـال؟

لم أزَلْ ملْكَ حَيْـرتى وذهولى   بينَ مـاضٍ ذَوَى وعُمْرٍ يَمُرُّ
لستُ أدرى مـا غايتى فى مسيرى   آهِ لو ينجلى لعـينىَّ سـرُّ

لم أزَلْ اقـتُلُ الليـالىَ بحـثـاً   عن ديار السَّعَادة البَشَريّه
دون يأسٍ بحـثتُ دون كـلالٍ   فى قِفـارٍ ممتدةٍ أبَديّه

يا ديارَ الأحـلام يا شاطئَ الغـبـ   ـطة يا من يضُمُّكَ المجهولُ؟
لمْ أعُدْ أستطيعُ أن أُسْكتَ الشَوْ   قَ فكيف الوصولُ؟ كيف الوصولُ؟

كل شىء حولى يحدّثُنى عَنْـ   ـك ولكن متى يَحينُ اللقاءُ؟
فاحملينى إليكِ من قبلِ أن يَهْـ   ـوى شِراعى وتصخَبَ الأنواءُ

ودعــينى أعــرفْكِ مــا أنت؟ حقٌّ		وعِــيــانٌ وواقعٌ مــشــهـــودُ؟
أم ترى أنــتِ مــحضُ وهــمٍ ورؤيا		وضَــبــــابٌ مُطَـلْسَمٌ ممدودُ؟

طالمـا حــدّثوا فـــؤاديَ عن لُقْـ		ـيــاكِ لكنْ مــا زلتِ حُلْمَ صــبيٍّ
لم أزلْ أمـــلأُ الـليـــالى حنيـناً		وأغنّيكِ لـلوجــــودِ الشـــــقيِّ

ذكريات الطفولة

لم يَزَلْ مـجلسى على تلِّـىَ الرَمْـ ـلىِّ يُصْـغى إلى أناشيـد أمسى
لم أزلْ طـفلةً سـوى أننى قـد زِدتُ جـهلاً بـكُنْه عُمْرى ونفسى

ليـتنى لم أزلْ كـمـا كنتُ قلبـاً ليس فـيـه إلا السَّنَا والـنقـاءُ
كلّ يـومٍ أبنى حـيـاتى أحـلا مـاً وأنسى إذا أتانى المَسَـاءُ

فى ظلال الـنخـيلِ أبنـى قـلاعـاً وقـصـوراً مَـشـيـدةً فى الـرِّمـالِ
أسـفـاً يا حـيـاةُ أيـن رمـالى وقُصورى؟ وكيف ضاعتْ ظلالى؟

إيه تـلَّ الرمـال مـاذا تـرى أبـ ـقَـيْتَ لى من مـدينةِ الأحـلام؟
أينَ أبراجُـهـا العَلِيَّـات هل تا هتْ وراء الـزمـان فى أوهـامى؟

ذَهَبَ الأمـسُ لم أعُـدْ طفلـةً تَرْ قُبُ عشَّ العـصـفـور كلَّ صـبـاحِ
لم أعُـدْ أُبْصـرُ الحيـاة كـمـا كـا نتْ رحـيـقـاً يذوبُ فى أقـداحى

لم أعُـدْ فى الشتـاء أرنو إلى الأمـ ـطارِ من مَـهْدى الجميلِ الصـغيـرِ
لم أعُـدْ أعـشَقُ الحـمـامـةَ ان غنَّـ ـتْ وألهـو على ضِـفَـافِ الغـديرِ

كم زهور جَـمَّـعتُـهـا وعطور سـرقَـتْـهـا الحـيـاةُ لم تُبْق شـيّـا
كم تعـاليلَ صُـغْـتُـهـا بدَّنْهـاً وتبـقَّى تَـذْكـارُهَـا فى يَـدَيّا

كنتَ عَـرْشى بالأمسِ ياتـلِّىَ الرَّمْـ ـلىَّ والآنَ لم تَعُـدْ غـيـر تَلٍّ
كـان شـدوُ الطيـور رجْعَ أنـاشيـ ـدى وكـان الـنعـيمُ يتـبعُ ظِلّى

كـانَ هذا الوجـودُ مملكتى الـكُبْـ ـرَى فـيـا ليـتـهـا تعـودُ إليّـا
ليت تلَّ الـرمـالِ يسـتـرجع الأسـ ـرارَ والشِـعْـرَ والجـمـالَ الطَرِيّا

لم أعُـدْ أستطيعُ أن أحكُمَ الزَهْـ ـرَ وأرْعَى النجـومَ فى كلِّ ليلِ
هل أنا الآن غـيـر شـاعـرةٍ تُدْ ـركُ سـرَّ الكون الجـديبِ المُملِّ؟

ذهبَ الأمسُ والطُفـولةُ واعْـتَـضْـ ـتُ بحسِّى الرهيف عن لهو أَمْسى
كل مـا فـى الوجـود يؤلمنى الآ نَ وهذى الحـيـاةُ تجـرحُ نفـسى

قـد تجلّـتْ لى الحـقـيـقـةُ طيـفاً غـيـهـبيّـاً فى مُـقْلَـتَـيْـه جنونُ
وتلاشـى حُلْمُ الـطفـولة فـى المـا ضـى ولـم يَـبـقَ منه إلا الحَـنـينُ

أينَ لـونُ الأزهارِ؟ لـم أعُــــد الآ نَ أرَى فى الأزهار غـيــر البَـوَارِ
كلّمــا أبـصــرتْ عـيــونىَ أزهـا راً تذكّـــرتُ قـــاطفَ الأزهارِ

أين لحـنُ الطيـــور؟ لم يعُــد الآ نَ اشتــيـاقـاً وفرْقـةٌ فى فـؤادى
فـــالغنـاءُ اللذيذُ ضـــاعَ صَــدَاهُ وانطـوى فى تذكــرُ الصَـيّـــادِ

أينَ همْسُ النسـيمِ؟ أشواقُـهُ السَكْـ ـرَى انطفَتْ لم تَعُـدْ تُثـيـرُ خيـالى
فــغــداً يهـــمسُ النســيـمُ بمَوْتى فى عـميقِ الـهُـوَى وفـوق التـلالِ

أينَ منى مـفــاتـنُ الليلِ، شــعْــرٌ وغـمـوضٌ فى غـيهب مَـسْحـور
لم أعُــدْ أعــشَقُ الظلامَ غــداً أهـ ـوى عظامــاً تحت الظلام الكبــيـرِ

ها أنـا الآنَ تحت ظلٍّ من الـصَـــفْـ ـصاف والتـينِ مُـسْـتَـطاب ظليلِ
أقطُفُ الزَهْر إن رَغِــبتُ وأجنى الـ ـثَمَـرَ الحُلْوَ فى صباحى الجـميلِ

وغــداً ترسـمُ الظلالُ علـى قَـــبْـ ـرى خطوطاً من الجـمـال الكئيب
وغــداً من دمى غــذاؤك يا صَــفْـ ـصـــــافُ يـا تيـنُ أىُّ ثأرٍ رهـيب

ذاكَ دأبُ الحـيـاة تسلـبُ مـا تُعْـ ـطيـه بُخْـلاً لا كـان مـا تُعْطيـه
تتـقـاضى الإحـيـاءَ قـيـمـةَ عـيشٍ ضـمَّـهمْ من شـقـائه ألفُ تيـهِ

هى هذى الحـيـاةُ سـاقـيـةُ السُّمِّ كـؤوسـاً يـطفـو عليـهـا الرحـيقُ
أومـأتْ للعِطَاشِ فـاغـتـرفـوا منـ ـهـا ومـن ذاقَـهـا فليسَ يُـفـيقُ

هى هذى الحـيـاةُ زارعـة الأشـ ـواكِ لا الزهرِ والدُجَى لا الضيـاءَ
هى نـبْعُ الآثام تسـتـلـهمُ الشـرَّ وتحـيـا فى الأرضِ لا فى السَّمـاءِ

آدم وفردوسه

حسبُها أننا دفَعنا إليها ثمنَ العيشِ حَيْرةً ودموعا
أيّ ذنبٍ جَناه آدمُ حتى نتلقّى العقابَ نحنُ جميعا؟

وليكن آدمٌ جَنَى حسبُهُ فُقْـ ـدانُ فردوسه الجميل عقابا
أوَلم يَكْفِ أنَّهُ هبط الأر ضَ ليُسْقَى آلامَهَا أكوابا؟

أو لم يكف أنهُ هبط الدُنْـ ـيا طريداً من خُلْدِه الفَيْنَانِ
أو لم يكفِ أنّهُ عَرَفَ الشرَّ وقد كانَ طاهراً فِى الجِنَانِ؟

ليت شعرى ماذا يَرُوقُ لعَيْنَيْـ ـيه هُنا فى انغلاق هذا الوجود؟
كيف ينسَى آفاقَ جنّتِه ما ذا يغذِّى حنينَهُ للخلود؟

كيف ينسَى الأمسَ الطليق ليَهْنا بحياة القيود والأرسْان؟
أين ذاكَ الحسُّ الرهيفُ؟ هنا سجـ ـنٌ بليدٌ مغَلَّفُ الجُدْرانِ

ولماذا يَنْسَى وهل فى الثَرَى شىءٌ يعزِّى عن حُلْمه المَغْسُول؟
كلما لاذَ بالخيالِ تجلّى لأساهُ ما كان من قابيلِ

أوَ لَمْ تسمَعِ الحقولُ صَدَى صر ... خةِ هابيلَ حين خرَّ قتيلا؟
أوَ لَمْ يشهَدِ القطيعُ على الجا ... نى ألم يُبصِرِ الدمَ المطلولا؟

أينَ هابيلُ؟ أين وقْعُ خُطَى أغـ ... ـنامه فى الحقول والوديان؟
ليسَ منه إلا ضريحٌ كئيبٌ ... شادَهُ فى العَراءِ أوّلُ حانِ

وأتت ظلمةُ المساءِ على الحقْـ ... ـلِ وعاد القطيعُ من دون راعِ
ليسَ إلا قابيلُ يمشى رهيبَ الـ ... ـخطوِ نهبَ الأفكارِ والأوجاعِ

يا لأحزانِ آدم عندما أبـ ... ـصَرَ بابنَيْه قاتلاً وقتيلا
أيّها المُستطار لَن تردَعَ الأقـ ... ـدارَ حتى إذا بكيتَ طويلا

ما الذى تنفعُ المدامعُ يا آ ... دمُ؟ هل تدفعُ القضاءَ المريرا؟
إن يكنْ من فقدْتَ أولَ مقتو ... لِ على الأرضِ فهو ليس الأخيرا

إنّها لعنةٌ تَظَلُّ على العا ... لَمِ مَسدولةَ الدُجى مُكْفَهِرّهْ
كلّما ذاقَ قَطْرةً من نعيمٍ ... أعقبتْها من الأسى ألفُ قَطره

كلّما أسدَلَ الستارَ على حَرْ ... بٍ أطلّتْ حربٌ وجاءت رزَايا
رحمةً يا حياةُ حسبُكِ ما سا ... لَ على الأرضِ من دماءِ الضحايا

الحرب العالمية الثانية

انظري، هل تَرَيْنَ غيـر بقـايا ... ذلكَ العالَمِ الجميلِ الخصيبِ
هل تبقَّى منهُ سوى دِمَنٍ جَدْ ... باءَ فى قَبْضةِ الدَمَارِ الرَّهيبِ

يا قصوراً بالأمسِ كانت هنا يضـ ... ـحَكُ من حولها نَدَىً واخضرارُ
أصبحَتْ مسكنَ الخرابِ وجفّتْ ... فى حِماها العطورُ والأزهارُ

أينَ أهلوكِ يا قصورُ؟ وفى أيِّ ... قبورٍ ثَوَوْا أتحتَ الثُلوجِ؟
أم ترى مزّقتْهمو قاذفات الـ ... ـنارِ فى عاصفٍ رهيب الأجيجِ؟

أسَفاً يا قصورُ أهلُكِ ناموا ... فوقَ صدْرِ الثرَى عُراةَ الصُدورِ
رقدوا حاسرى العظامِ فلا قَبْـ ... ـرَ لهُمْ فى التُرابِ أو فى الشُعورِ

فى سفوح الجبالِ، تحت ذرى الأشـ ... ـجارِ خلف الضياءِ والظلماءِ
ليس غيرُ الموتى عظاماً وأشلاءً ... وغيرُ اكتئابةٍ وبكاءِ

يـ نشيدَ السَّلامِ يا ساكناً فى ... قعرِ أحلامنا وراءَ مُنَانا
رفَّ فوق الدُنْيا الحزينة وابعثْ ... لحنَ حُبٍّ فى تيهنا ودُجَانا

طُفْ بأنغامكَ النَّشَاوَى على هَـ ـذي القُرَى المُسْتباحَة المهدومه
بنداكَ الرحيمِ رطِّبْ شِفاهاً ظامئاتٍ أو جبهةً محمومه

طُفْ بأنقاضِ عالمٍ ليس يَدْرى أترى للدِّماء بَعْدُ بقيَّه؟
راسفٌ فى الدُّجى، ويَسمعُ بالفجـ ـرِ حديثاً وقِصَّةً مرويَّهْ

كانتِ الحَرْبُ يوم أشعَلَها صو رةَ حُلْمٍ مُضَوَّأ الأستار
غلَّفوها له بومضِ بريقٍ من سَنا المَجْدِ والرؤى والفَخَارِ

فإذا نبعُها دمٌ وشَذاها لَهَبٌ آكلُ اللظَى وهَجيرُ
وإذا مجدُها شَقاءٌ طويلٌ ليس ينجابُ ليلُهُ المحرورُ

جفَّ زهرُ التلال والوَرَقُ النضْـ ـرُ وآوَتْ إلى الجَفاف الحقولُ
أسفاً لم تَدَعْ لنا الحربُ شيئاً وتلاشى الحُلْمُ الطَروبُ الجميلُ

من ترى يحرُثُ الحقولَ الجديبا تِ؟ وأين اختفتْ أغانى الحَصَاد
أين لَهوُ الأطفالِ عند البحيرا تِ النَشَاوَى فى بهجةِ الأعياد؟

يا قلوب أطفالٍ لا تخفقى الآ نَ حنيناً لن يَرْجِعَ الآباءُ
ذلك الحُلْمُ فى مآقيكمُ الولـ ـهى طوتْه المنيَّةُ السوداءُ

وبقــايا الآبـاء نهبَ غُــبــار الـ أرض صـمّاءُ شـاخصـاتُ العيـونِ
أيُّ مــعنىً فى هذه الأعْــيُنِ الغَــرْ قَى، من الصمتِ والذُهولِ الحزينِ؟

كلُّ عـينينِ فـيـهـما صـورةٌ تبـ ـكـى وترثى لـلعـالَمِ المغــرورِ
كل عــينينِ تســخـرانِ من العَـيْـ ـشِ وتـســتــهــزآنِ بالمقــدورِ

كلُّ عــينيـنِ تنظرانِ إلـى الأفْـ ـقِ بعـيـداً عـن كلِّ مـا فى الحيـاةِ
آهِ يـا ربِّ، آهِ لو فَــــهِمَ الأحـ ـيـاءُ مـاذا فى أعـيُنِ الأمــواتِ

يا فـتـاةَ الأحـلامِ حــسبُك شـدواً برثاء الـقَـتْلَـى وحـسـبُك حُــزْنا
سوف يَفْنَـى هذا النشيدُ ويَـبْقَى الـ شـرُّ فى الأرض خـالداً لـيس يَفْنَى

هكـذا شــاءت المقــاديـرُ للعـــا لَمِ إثـمٌ ونقــــمـــــة وحــــروبُ
وهى النفسُ تحملُ الشرَّ والبـغضاءَ مـــاذا يُفـيــدُهـا الـتــهــذيبُ؟

وأغــانى الســلام كم قــد وهـبنا ها قـلوبـاً وألسُناً وشــــفَـــــاها
فطَـوَاها الفــضــاءُ وابـتلعَ النِسْـ ـيـانُ ألحـانَهـا وضـاعَ صـداها

كيف ينجو الوجودُ إن كان فى الإنـ ـسـانِ عــرقٌ من الشـرور عـريقُ
كـيف يَشْفى مـن الأسَى يا مقـاديـ ـرُ؟ مـتـى فـجـرُهُ السنىُّ الوريقُ؟

مـا الذى رامَهُ المسيحُ لكى يُجْـ   ـزَى بما كانَ؟ ما الذى كانَ منه؟
أيّها العالمُ الذى اقترفَ الذنْـ   ـبَ أما آنَ ان تُكَفَّر عنه؟

أو لم يَشْبعِ الوجودُ من الحُزْ   نِ أما زال ظامئاً للدِّماء؟
أوما فى كاساتِهِ غير مِلْحِ الـ   ـدمعِ للجائعينَ والأشقياء؟

أيها الكونُ يا جَنَاحاً مُدمًّى   حطّمتْهُ مقادرٌ ومَنَايا
ليكن من فقدتَ فى هذه الحَرْ   بِ ختامَ الذينَ ماتوا ضحايا

نَهَمُ القتلِ فى عُروقك قد آ   نَ له أن ينامَ أن تَنْسَاهُ
فالتجئْ للسماءِ حيثُ المُنَى والـ   ـرىُّ حيثُ الضياءُ حيثُ اللهُ

ذلكَ المنبعُ الأثيرىُّ ما أعـ   ـذبَ كاساته لمن يُسْقَاها
لم يزل فى انتظارِ دنياً ترامتْ   فى دروبِ الدُّجَى فضلّتْ خُطَاها

أيُّها التائهونَ تحجبُ أبصا   رَهُمُ ظُلْمةٌ وألفُ ستارِ
احملوا نادمينَ أشلاءَ قَتْلا   كُمْ وغنُّوا لها نشيدَ اعتذارِ

ضمّخوها بالعطرِ لفّوا بقايا   ها بزَهْرِ الليمونِ والياسمينِ
احملوا الميّتينَ فى نعشِ موسيـ   ـقىً وحبٍّ وعِطرِ دمعٍ سخينِ

واجمعوا الصبية الصغار ليُلقوا أغنيات فجريّةَ الأنغامِ
وليكن آخرُ اللحون التى تُلـ ـقَى على سمعهم نشيدُ السَّلامِ

فيم هذا الصراعُ؟ فيم الدماءُ الـ ـحُمْرُ تجرى على الثرَى العَطْشانِ
والشبابُ البرىءُ فى زهرة العُمـ ـرِ لماذا يُلقَى إلى النيرانِ

فى سبيل الثرَاءِ هذا؟ أليس الضـ ـوءُ والحبُّ والورودُ ثَراءَ
وليالى السلامِ والأمْنِ هل فى الـ ـعُمْرِ أغلى منها وأحلى ضياءَ؟

وغداً رحلةٌ إلى الأُفُق المجـ ـهول، نحو السكونِ والنسيانِ
وغداً رحلةٌ فهل يدفع الأمـ ـواتُ بالمالِ وحْشَةَ الأكفانِ؟

إنّه الموتُ ذلك الواهبُ العا دلُ مُلقى الهمود فى كل قبرِ
ومُريقُ الفناء فى كلِّ خدٍّ وذراعٍ وكلِّ نحرٍ وصدْرِ

فلماذا إذن مَشى العالَمُ المجـ ـنونُ للموت والأذَى والدَّمَارِ
فيم تحدو الشعوبَ أطماعُ غرٍّ يتصبَّى عينَيْهِ وهْجُ النَّارِ

أعن النصر يبحثونَ؟ وهل نصـ ـرٌ لمن تستذلُّهُ الأهواءُ
هل فَخَارٌ وحولنا عالَمٌ يمـ ـلؤهُ الجائعونَ والأشقياءُ؟

نحنُ أسـرى يقـودُنا القَـدَرُ الأعـ ـمى إلى ليلِ عـالمٍ مـجهـولِ
وسنيـنُ الحـيـاةِ نومٌ ونصـحـو ذاتَ يومٍ عـلى نـداءِ الرَّحـيـلِ

وطبـولُ النَصْـر العظيم غـداً تَفْـ ـنَى وتغـفـو فى قـبرهـا المقـدورِ
وتُضـيعُ الرِّيـاحُ فى أفُقِ العـا لَمِ ذكـرى المنصـور والمدحـورِ

وصحـا العالَمُ العـميقُ الأسى وانـ ـتـهت الحـربُ بانتـصـار المنايا
شَـهِـدت هذه الـقـبـورُ لهـا بالـ ـنصـرِ يا رحـمتـا لتلكَ الضـحـايا

ثم مـاذا يـا سـاكنى العـالم المو جـوعِ مـاذا مـن القـتـالِ جنينا؟
هل وصلنـا إلى النجـوم الحـوالى ولَمَـسْنا أسـرارَها بيَـدَيْنا؟

هل غلبنـا الشـقـاءَ والفـقْـرَ فى أر جـاءِ هذا الكون الطـعـين الذليلِ؟
والصِـغـارُ العُـراةُ هل وجـدوا مـأ وىً ودفـئـاً عبـر الشـتـاءِ الطويلِ؟

والأذى والشـرورُ هل دَحَـرَتْهـا الـ ـحَـرْبُ يا من حـمّلتـمـونا لظاها؟
أسَـفاً لـم يزَلْ على الأرض من يتّـ ـخِـذُ الـكأسَ والمجـونَ إلهـا

لم تَـزَلْ فى الوجـود أغنيـةٌ تـقْـ ـطُرُ حـزناً على شـفـاهِ جيـاعِ
فى هتّـافـاتِ لاجئـين رمـتْـهم محـنـةُ الحَـرْبِ للضَنَى والضِـيـاعِ

كل شيء باق كما كان قبل الـ ـحرب غير الأيتام والأمواتِ
غيـر ظلٍّ من الكآبة والحَيْـ ـرة يمشي على ضِفافِ الحياةِ

هؤلاء الأيتام بالأمس كانوا صورةَ البِشْر والمراحِ الجميلِ
تحت ظلِّ الآباءِ يقضُون عَيْشاً ما دروْا غير صفوِهِ المَغْسولِ

وأفاقوا من حُلْمِهم فإذا الآ مالُ حربٌ والذكريات دُخانُ
يا عيونَ الأطفالِ لا تسألي الدنـ ـيا فقد مات في القلوبِ الحَنانُ

في سبيل المجدِ المزيَّف هذا الـ ـهولُ لا كان مجدُهمْ لا كانا
في سبيل النصرِ المموَّه عاد الـ ـعالَمُ الحُلْوُ في اللهيبِ دخانا

هؤلاء الصرْعَى على الشوك والصخـ ـرِ شباباً وصبيةً وكهولا
كيف كانوا بالأمس؟ أيّةُ رؤيا رسموها فلم تهشّ طويلا؟

أيها الأشقياءُ في الأرضِ يا من لم تُمتْهم قذائفُ النيرانِ
عَبثاً تأملونَ أن يرجعَ الآ نَ أعزّاؤكم إلى الأوطانِ

انظروا ها هم الجنود يعودو ن فرادَى مُهشّمي الأعضاءِ
آهِ لولا بقيّةٌ من حياةٍ لم يُعَدُّوا في جملةِ الأحياءِ

عـــبـثـــاً يـبـحــثــون فى هذه الأنـ ـقــاضِ عن أهلهم وعن مــأواهُمْ
عـــبـثـــاً يســألون مــا يعلم العـــا ـبرُ شـيــئـاً فــيــا لنار أســاهُمْ

كـيـف ذاقـوا مـرارةَ الخـيـبــةِ المُرَّ ـة بعـــد العــذابِ والأوصـــابِ؟
أتراهــم نجـــوا من الموتِ كى يحـ ـيــوا بلا رفــقــةٍ ولا أحــبــابِ؟

أينَ تلكَ البـيوتُ يلمعُ فـيهـا الضـ ـوءُ والحبُّ أيـن مـن سكنـوهـا؟
أين أطـفـــالُـهم ورجْـعُ أغـــانـيـ ـهِمْ وتلـكَ المُنى التى صَـــوَّروها؟

أيهـــا الأشـــقـيـــاءُ يا زُمَــر الأحـ ـيــاء فى كـل قــرية وصـــعـــيــدِ
آن أن نســتــعـــيــدَ مــاضىَ حبٍّ هو مـــفــتـــاحُ حُلْمِنا المـفـــقـــودِ

مـا الذى بيـننا من الحِـقْـد والـبـغـ ـضـاء؟ مـا كان سـر هذا الدمَـار؟
أيهـا الأشــقـيـاءُ نحن جـمــيـعـاً لعـــبـــةٌ فى مـــخـــالبِ الأقـــدارِ

نحنُ نحـــيـا فى عـالـمٍ ليس يُدْرَى سـرهُ فـــهـو غـيــهـبٌ مـجــهـولُ
تطلَعُ الـشـمسُ كل يومٍ فـمـــا كُنـ ـهُ سنـاهـا؟ وفـيـمَ كـان الأفــولُ؟

مـا الذى يُطلع النـجـومَ على الكو ن مـــســاءً مـــا كُنْهُ هذا الوجـــودِ؟
أىُّ شىءٍ هذا الفـــضـــاءُ؟ ومـا سـرُّ دجــاهُ؟ هل خلـفَـــهُ من حُـــدودِ؟

يا ضـبـابًـا من الجَـهَــالةِ والحَـيْـ ـرة قــد لـقّــبـوهُ بالإنـســان
كل مـا في الوجـودِ يـحكمُهُ مـا ذا إذنْ ســرٌّ ذلكَ الـطُغْـيــانِ؟

فيمَ نَطْغَى وكـيف ننسَى قوى الكَوْ نِ ومـا في الوجـود أضـعـفُ منّا
ينخـرُ الدودُ مـا نَشـيـدُ ولا تُبْـ ـقَى البــراكـينُ والـرياحُ علينا

فـيم نقـضى حـيـاتنـا في العـداوا تِ ونُمْـضى السنينَ يأسـاً وحُـزْنا
كـيف ننسَى أنّا نعـيشُ حـيـاةَ الـ ـوَرْدِ سُـرْعَـانَ مـا يمـوتُ ونَفْنَى

لن تـدومَ الأيامُ لن تَحْـفـظ الـدنـ ـيــا كـيــانـاً لكائنٍ بشــرىٍّ
فلـنَدَعْ هذه الضـغـائـنَ والأحـ ـقــادَ ولنَـحْـيَـا للوداد النـقىِّ

البحث عن السعادة

كم بَحثْنا عن السعادة لكن ... ما عَثَرْنا بكوخها المَسْحورِ
أبداً نسألُ الليالىَ عنها ... وهى سرُّ الدنُيا ولُغْزُ الدهُورِ

طالما حدّثوا فؤاديَ عَنْها ... فى ليالى طفولتى وصِبَايا
طالما صوّروا لعينيَّ لُقْيا ... ها وألقَوْا أنباءَها فى رؤايا

فهى آنا ربيبةُ اليُسْر والثَرْ ... وة بنتُ الألوان والأضواءِ
ليس تحيا إلا على باب قَصْر ... شيّدتْهُ أيدى الغنَى والرَّخاءِ

وهى آناً فى الزُهْدِ عن مُتَعِ الدنـ ... ـيا وعنْد النُسَّاكِ والرُّهبانِ
ليس تحيا إلاّ على صَخَرِ المَعْـ ... ـبدِ بين الدُعَاءِ والإيمانِ

وهى فى شَرْع بعضِهم ملْكُ من يُطْـ ... ـلِقُ أهواءَ قلبِه دون قيدِ
ليس تصفو إلا لمن عاشَ للكأ ... سِ وللّهو بين ثَغْرِ وخَدٍّ

وهى فى شرع آخرينَ لراعٍ ... يصرفُ العُمْر فى سُفُوح الجبالِ
يتغنّى مع القطيعِ إذا شاء ... ويغفو تحت الشَذَى والظلالِ

وهى فى شَرْع غيرهم فى حِمَى العُزْ ... لة والـفنِّ والجـمـال الـرفـيعِ
ليس تحـيـا إلا عـلى فم غـرِّيـ ... ـدِ يُغنّى أو شـاعـرٍ مَطْبـوعِ

وسـواهم يَرَى السـعـادَةَ فى الحبِّ ... وفى أغـنيـاتِ كـلِّ مُـحبٍّ
ليس تحـيـا إلاّ على شَـفَـة العـا ... شـقِ لحنـاً من الـوداد العـذْبِ

حـدثونى عنهـا كـثـيـراً ولكن ... لم أجـدْها وقـد بحـثـتُ طويلا
لم أزل أصـرفُ الليـالى بَحـثـاً ... وأغنّى بهـا الوجـودَ الجـمـيـلا

مرّ عـمرى سـدًى وما زلتُ أمـشى ... فـوق هذى الشـواطئ المحـزونه
لم أجـدْ فى الرمـالِ إلا بـقـايا الشـ ... ـشـوكِ يا للأُمـنيّـةِ المـغـبـونَهْ

أينَ أصـدافُكَ اللـوامعُ يـا شطُّ ... إذنْ؟ أيـن كنـزُكَ الموعـودُ؟
هاتـهِ رحـمـةً بنـا هاتِ كـنزاً ... هو مـا يرتجـيـه هذا الوجـودُ

هاته حـسـبُ رمـلكَ البـارد القـا ... سى خـداعـاً لنا وحـسـبُكَ هُزْءا
يا لحُـلْمٍ نـزيدُ مـنه اقـتـرابـاً ... وهو مـازال أيهـا الشطُّ يَـنْأَى

طال بحثي يا ربّ أينَ ترى ذا   كَ السعيدُ الجذلانُ أين تراهُ؟
ليسَ حولي إلا دياجيرُ كونٍ   مغرقٍ في نُوَاحِهِ وأسَاهُ

لم أجدْ في الرمالِ إلا بقايا الـ   ـموت من أعصُرٍ طوال دفينه
كلُّ جيلٍ يعيشُ يحلمُ حتّى   يُطفئَ الموتُ قلبَهُ وعُيونَهْ

عالم يَنْشُدُ السَعَادةَ والأيّـ   ـامُ تَسْقيه غُصَّة بعد غُصَّه
كلَّما ضجَّ شاكياً أمّلتْهُ   مُقَلٌ عذبةٌ وأيدٍ رخصه

إيه أسطورة السعادة غنّيـ   ـني نشيداً عن أفْقك المفقودِ
أين ألقاكِ؟ أين مسكنُكِ المَسْـ   ـحورُ؟ في المستحيلِ أم في الوجود؟

سرتُ وحدي تحتَ النجوم عصوراً   أسألُ الليلَ والدياجيرَ عنك
أسَفاً لم أجدْكِ في الشاطئ الصَخْـ   ـريِّ حيثُ المياهْ تَفْتأُ تبكي

حيثُ تبْقَى الأشواكُ والوردُ يَذْوى   تحت عينِ الأيّامِ والأقدارِ
حيثُ يَفْنَى الضياءُ والليلُ يأتي   بوعيدِ الرياحِ والأمطارِ

حـيثُ تحـيـا الأغنامُ جـائعـةً لا عُـشْبَ لا رِىَّ فى المراعى البـخـيله
وغــداً فى الصــبــاح تنتظـرُ السكِّـ ـينُ أعناقَــهـا العِـجَـافَ النـحـيله

حيثُ يحـيـا الغُـرابُ والـبلبلُ المو هوبُ يَهْـوى من عُـشِّـه المضـفـورِ
ويغنّـى البــومُ البـليــدُ عـلى الدّوْ حِ ويَـثْـوى القُـمْرىُّ بين الـصُخـور

حيثُ تبـقى الغيـومُ مُـمْطرةَ الأهـ ـداب رمـــزاً لدمـــعنا وبُكَـانا
وتَظَلُّ الـريِّاحُ تصــفـرُ سُـخْـريِّـ ـتَــــهَـــا مـن أهوائـنا ومُـنَانـا

أنشودة الرياح

-١-

أيهــــا الســــــادرونْ ما الذى تَنْشُــدونْ؟
مــلءَ هــــذا المَــــدَى فى الــدُجَى حــــالمونْ
كم رَسَــــمْــــتم منّى أطفــــأتْهــــا القــــرونْ
وأغــــانيكمــــو كم طــواهــا الســكــونْ

تــذرعــــون الـذُرى تقطعــــونَ القــفــــارْ
تحت ســمــع الدُجَى وعــــيــونِ النَهَــــارْ
تُطعــمــــونَ الرؤى بالـدمــــوع الغــزارْ
إنّ دونَ المُــنَــى ألفَ ألف سِــتــــارْ

وأمــانيكمــو طيفُ حبٍّ نَفُــــورْ
أتــظّــنــونهــــا فى زوايا القــصــورْ؟
دونَكمْ فــابحــثــوا فى حــريـر السُّــتــورْ
وأنــا لــلــمَــدَى كلُّ عُــمْــرى مــرورْ

بين القصور

سرتُ وحدى بين القصور طويلاً أسألُ العابرينَ أين السعيدُ؟
فإذا بهجةُ القُصور ستارٌ يختفى خلفَهُ الظلامُ المديدُ

إنّ فيها أغانياً ذابلات وصلاةً حزينة النَبَرات
وعُيوناً مملوءةً حَيْرَةً تَسْتفهمُ اللُّغزَ فى ضباب الحياة

شبعوا وارتووا وما شَبِعت أرواحُهم وارتوتْ وباتوا حَيارَى
إن جوع النفس المُنّعمةِ النَشْوى إلى حُلْمها أشدُّ استعارا

ليس يُنْجيهمو الغنى من يد الحُزْن وإن طاولوا الذُرَى بالغرورِ
ولهم موتُهُم ومأساتُهُ المُغْلَقَةُ السرِّ مثلَ ما للفقيرِ

كم وراءَ القصور من أغنياتٍ أخرستْها عواصفُ المقدورِ
كم قلوبٍ تَوَدُّ أن تُبْدلَ القصرَ بكوخٍ على ضفافِ الغديرِ

ليس يُنْجي الحريرُ من عُمْقِ هذا اللغْزِ لغزِ المصيرِ لُغْزِ البدايه
هل يبيعُ الفضاءُ أسرارَهُ بالمالِ هل تُشْتَرَى به اللانهاية؟

وعــبــرنا الـقُـصــورَ لم نجـدِ المنـ ـشـودَ فى ضـوئهـا ولا فى دُجـاها
فــهى خلوٌ من المـعـانى ومــا فـيـ ـهــا ســوى المال والحـرير إلهــا

أقـفرتْ من سـعـادة الروح من مُنْـ ـطَلَـقِ الفكْر فـى مَــدَى الأزمــانِ
وسَـــرَى المَحْلُ فى أزهارها الـظَمْـ ـأى إلى اللون والـشـذَى والمَعـانى

غَـرقـوا فى الضـيــاء والـعطر لكنْ ليس فــيـهم قلبٌ يحـسُّ الضـوءا
وتمرُّ أنـهـــارُ فى أرضــــهم تـسـ ـقى شـفـاهاً وتتركُ الروحَ ظمـأى

تلك إغـفـاءةُ القـصـور يمـوتُ الـ ـحسُّ والشـعرُ فى حَمـاها الضَنينِ
آهِ فلـنمضِ بـاحـــثـــينَ لعـلَّ الـ ـكـونَ يُفْــضى بـســرِّه المَكْـنونِ

أنشودة الرياح

-٢-

كلُّ عُـمْـري سُـرَى   فى الوجودِ الجميلْ
فى الصباحِ النَدِى   والظلامِ الثقيلْ
فوق سَرْوِ الذُرَى   فوق حقلِ النخيلْ
أنا أمضى أنا   كلُّ عمرى رحيلْ

وشهِدْتُ هنا   ألفَ جيلٍ وجيلْ
وُلِدوا وانطووا   فى التُرابِ المَهيلْ
ضَحِكوا أو بكَوْا   فى الضُحَى والأصيلْ
ما لهمْ مهربٌ   من رُقَادٍ طويلْ

وسمعتُ هُنا   كلَّ جيلٍ يقولْ:
«فى يدى منبعٌ   خالدٌ لا يزولْ»
وأناشيدُهمْ   قد طَوَاها الذبولْ
ومبانيهمو   جَرَفَتْها السُّيولْ

أقبلى أقبلى — فتاةَ النشيدْ
وابحثى بينهم — عن فؤاد سعيدْ
كلَّ يومٍ لنا — منكِ حُلْمٌ جديدْ
وأنا ما أنا — غير سيرٍ أبيدْ

ومَضى بحثها — عن ديارِ النعيمْ
لم يَزَلْ قلبُها — فى المَرَاقى يهيمْ
القصورُ طوت — حُلمَها المستديمْ
فانتهى سيرُها — عند ديرٍ قديمْ

فى دنيا الرهبان

سرْ بنا يا طريقُ نحو حِمَى الديـ ـرِ فقد نلتقى الرِّضَى والأمَنّا
فلعلَّ الرُّهبانَ قد أدركوا السرّ المعمّى الخافى الذى نتمنَّى

هؤلاءِ الزُّهّادُ فى القُنَّة الخضـ ـراء حيثُ الحياةُ صمتٌ مديدُ
ربما كاشَفَتْهمُ الأنجُمُ العُلْـ ـيا بأسرارها وباحَ الخلودُ

مرحباً يا رهبانُ هل فى حِماكم من حديثٍ عن كنزِنا المفقودِ؟
هل لمستمْ بريقَهُ وشذاه؟ هل نعمتم بظلِّه الممدودِ؟

إنّ فى أفْقكمْ جلالاً وشعْراً وسكوناً مُطَلْسَمَ الأستار
وصلاةً للّه تقطُرُ حبّاً طهّرتْها يدُ الدمُوعِ الغزارِ

فلمَ الحزْنُ والشحوبُ يُطلاّ نِ لديكمْ من أعينٍ وشفاه؟
يُلقيانِ الظِلالَ فوقَ وجوهٍ صامتاتِ المَرْأى خواء الجباهِ؟

ووراءَ الأهدابِ أستارُ حزنٍ وذهول ووحشة لا تَنَامُ
إن يكنْ ديرُكُم عذاباً وهمّاً أيُّها الراهبونَ فيمَ المُقَامُ؟

لم أجدْ فى الصوامع الرّثة الحَيْـ ـرَى عُلواً ولم أجدْ آفاقا
إنّ هذا الجَناحَ يا ديرُ مقصو صٌ فلن يستطيعَ قطُّ انطلاقا

أثقلتْهُ رغائبٌ ثرّةٌ حَرّ ى تبقّتْ من أمسه المدفونِ
واشتياقٌ إلى الطُفولة والحبِّ إلى ضَمّةٍ وصدْرٍ حنونِ

أيُّها الراهب الذى يقطعُ العُمْـ ـر وحيداً فى غُرْفة منسيّه
ليس يدرى دفْءَ المودّة فى عيـ ـنينِ فى قَرٍّ لَيلةٍ شِتْويّه

حدّثونى عنكم فقالوا: قلوبٌ نُسجتْ من وداعةٍ ونَقَاء
ونفوسٌ صيغت من الضوء والعِطْـ ـرِ وحامتْ على شِفَاهِ السَمَاءِ

وحكَوْا لى عنكم فقالوا: ضياءٌ وكؤوسٌ من الشَذَى روحيّه
وسُمُوٌّ إلى الذُرَى الطاهرات الـ ـبيضِ فوق الرغائبِ البَشَريّه

عَجباً أين ما سمعتُ؟ هنا شَوْ قٌ ونارٌ وأعينٌ مَفتونهْ
وهوىً قيّدوه عطشانَ محرو راً فأين السلامُ؟ أين السكينه؟

واسْمُ (تاييس) لم يَزَلْ فى شفاه الـ ـريحِ يُتْلى على الوجود اللاهى
رمزَ قلبٍ ممزَّقٍ بين صَوْتَيـ ـنِ: نداءِ الهوى وصوتِ الله

مـــا نَـســـينا غَـــوايةَ الراهــبِ المُفْـ ــتـونِ فـى حـبِّـهـا وكـيـفَ هَدَاها
يا لـه بائســـاً ســمـــا بابنـةِ الإثـ ـــمِ إلى قـــمّـــةِ الـسـمـــاءِ وتاها

أيّهـــا الديرُ يـــا جــديبـــاً من الحبِّ خـــــــواءً مـن النَدَى والـحنـان
يا غريقاً فى الصمتِ والوحشة الصمَّـ ـاءِ يا مُـــقْـــفِـــرَ الرؤى والأمـــانى

حـانَ عن صمـتِكَ الكئيبِ رحـيلى فـدروبُ الحـيـاة خـضـراءُ حـيّـه
وذراعُ الوجـــودِ يـفـــرشُ لى دَرْ بـاً من الخِـــصْـبِ والظِلالِ الـثـريّه

وســـألقـى ربِّى هنـاكَ بعـــيـــداً عن ديـاجـيكَ إنَّ ربّـى ضـيـــاءُ
وطريقـى يمـــتـــدُّ حـــيثُ يـدُ اللـ ـــهِ جـــمـــالٌ ورحــمـــةٌ وارتواءُ

أنشودة الرياح

-٣-

طال تَجْوالُها ... في الفجاحِ الفِساحْ
في مُرورِ الدُجَى ... وانطواءِ الصَباح
في تَلاَشي النَدَى ... وضياع الرياحْ
إن احلاَمها ... ملّكتْها جَنَاحْ

كلّما ضيَّعتْ ... في الدياجي رجاءْ
فتّحتْ قلبَهَا ... للشَذَى والضياءْ
إنّ في روحها ... ودماها نداءْ
لارتقاء الذُرَى ... وبُلُوغِ السماءْ

يا فتاةَ الرؤى ... ما أحبَّ الوصولْ
حيث يمضي الأسَى ... والضَبابُ يزولْ
غير أنّ السُّرَى ... في جديبِ طُلولْ
والمَدَى شاسعٌ ... والديارُ مُحولْ

مـــــا وجـــــدتِ المُنَى		فى حــــمى الرهْبـــــانْ
عـــــالمٌ مُـــــغْلَقٌ		قـــــاتم الجُـــــدْرانْ
وأطـــــلَّ عـــــلـــــى		طـرفـك الحــــيــــرانْ
شـــــاطئ أخـــــضـــــرٌ		مُــــبْــــرقُ الغُـــــدْرانْ

إنّـــه شـــــــــاطئٌ		غـــــامضٌ لا يَـبِـــــينْ
واعـــــــدٌ بـالـسَّـنـا		كلَّ قـلـب حـــــــزينْ
وهــــبــــطــــتِ إلـــى		أرضِـــه تـبـــحـــثـــينْ
أســـــفـــــاً إنّـه		شـــاطئ العـــابثـــينْ

فـى دنيا الأشـرار

عند شطِّ الحـيـاة ألـقيتُ مَـرْسَى | زورقى فى الـضـبـاب والأوهامِ
أرقبُ السائرينَ فى الشاطئ الصَخْـ | ـرىِّ بيـن الـوهـاد والآكـــامِ

أينَ ألقـاكِ يـا سـعـادةُ؟ هل من | نبـأ عن حـمَاكِ يَهْدى الحَيَـارَى؟
كلَّمـا قلتُ هـذهِ دارُهَا امـتـدَّ | تْ قـفـارٌ لاتنتـهى وصَحَـارَى

فـى ديار الأشـرارِ نـحنُ نـزلـنـا | بين أشـواكهـا وحـزِّ حَصَـاها
ربَّمـا كـان فى جـداولهـا الفظّـ | ـةِ كـأسٌ يَرْوى المُنَى والشـفَـاها

ونزلـنا فى أرضـهـا ورَحَلْـنا | عن دُجَـاها وحـرِّها مُـسْرِعـينا
لم يَزَلْ طـعْمُ مـائـهـا المرِّ يـحيـا | فى رؤانـا يَفـيضُ مِلْحـاً وطينا

الطُّغـاةُ المُلوِّثـو الروحِ فـيـهـا | لم نَجِـدْ فى عـيـونهـم من نورِ
فَـقَـدوا الحبَّ والسَّـلامَ ونامـوا | فـوقَ شـوكٍ من الـعـذابِ المريرِ

فـإذا أسـكتـوا تَـظلُّمَ مظـلو | مٍ فهـل يُسْكتون صوتَ الضمـيرِ؟
ذلـكَ الـراقبُ الإلـهـىُّ فـى النَـفْـ | ـسِ لسانُ الهُدَى وصـوتُ الشعُورِ

لم يَزَلْ ساهراً يُراقبُ فى صَمْـ ـت خُطاهم فليسَ منه هروبُ
أبداً يرقُبُ الحياةَ وفى عيـ ـنيـهِ سرٌّ عاتٍ ومعنىً رهيبُ

فإذا حادت القلوبُ عن الخيـ ـرِ عَلاَ صوتُ ذلكَ الجبَّار
إنّهُ الناقمُ النبيلُ على الشرِّ وقاضى الطُغاةِ والأشرارِ

كيف ينجو الأشرارُ من شقوة الرُّو حِ وسوطُ الضميرِ بالمِرْصادِ
لا ملاذٌ من حاكم يملكُ الرو حَ بما فى كفَّيْهِ من أصفادِ

ولصوصٌ فى هذه الدار عاشُوا يسرقونَ الحياةَ والأشياءَ
يسرقون الجَمالَ والحبَّ والُخبْـ ـزَ جميعاً ويسرقون الضياءَ

وأكفٌّ تمتدُّ تسرِقُ قرطاً وسواراً وخاتماً لمّاعا
وأكفٌّ لاترتوى دون أن تَسْـ ـرقَ خداً ومعصماً وذرَاعا

ونفوسٌ وضيعةٌ تسلبُ العا برَ حُلماً أو رغبةً أو قلبا
ونفوسٌ أحطُّ تؤمنُ بالعفّـ ـةِ والعدْلِ ثم تسرِقُ شَعْبا

هل يعيشُ الضياءُ في هذه الُجدْ ... رانِ حيثُ الأقباءُ حيث الزَوَايا
في عيونٍ مزيّفاتٍ تُغَذّيـ ... ـهـا رغابٌ دنيئةٌ ونوايا

عالمٌ مُقفر من الحُبِّ والدِّفْء ... تعيشُ النفوسُ فيه خواءَ
نُزِعَتْ من فضائه لَمسةُ اللـ ... ـهِ فأبقتْ أذلّةً أشقياءَ

يا نشيدَ الرياح خذنا مع اللَحْـ ... ـنِ إلى عالمٍ أرقَّ وأغْلى
كلَّما لامستْهُ أقدامُنا افترَّ ... وفاضتْ أنداؤه واخضلاّ

أنشودة الرياح

-٤-

انبسطْ يا مَدَى | واختفي يا حدودْ
إن أقدامها | شردت في الوجود
كلَّما صعَّدَتْ | في الذُرَى والنجودْ
قابلتها ذرى | ومَضَتْ في صعود

إنها رحلةُ | في طريق الحياة
بحثَتْ عن دُنَىً | تتحدّى المماتْ
كلَّما أبصرت | رَمّةً في فلاة
جددّتْ عزْمَها | بنَدَى الأغنياتْ

يا فتاةَ الرؤى | والفؤادِ الرهيفْ
خاطبتْك الدُنَى | في الظلامِ الكثيفْ:
«أنصتي تَسْمعي | في السكونِ حفيفْ
وانظري تُبصري | أنَّ جدْبي وريفْ»

لك قلبٌ غفا   عن معانى الذُرَى
لك روحٌ ثوى   فى ضَبابِ الكرى
لا يُحسُّ النَدىَ   فى جَفَاف الثَرَى
فاهبطى وابحثى   عند أهلِ القُرَى

ربّما حرّروا   مُقْلةً راسفه
أغمضتْ لا تَرىَ   روعة العاصفَه
ربّما خفّفوا   حُرْقةً لاهفه
انّ دنياهمُ   جنّةٌ وارفه

فى الريف

مـا تقـول الريـاحُ؟ هذى هى اَلجبـ ـةُ؟ هـذى ظلالُهـــا المـمــدودة؟
أترى حـــانَ أن تـراكِ عــيــونى يا ضـفــافَ السـعـادةِ المفـقـودة؟

بعــد طول السُرَى وتيــهىَ فى الآ فـــاق، والـدربُ ظلـمـــةٌ وزوالُ
بعــد بحــثى عن التى غَلَّفتْ أسـ رارَهـا لـم تَبُحْ بـهـــــا الآزالُ

أنا من قـد حـملتُ قلبى على كـفـ ـى وسـرتُ الوجـودَ أبـحث عنهـا
أســـألُ العـــابرينَ عـــمّن رآها وَرَوَى قلـبَـــهُ المُشـــوَّقَ منْـهـــا

أتـراهـــا هـنـــا؟ أتـلـــكَ إذن أســـ ـوارُهَـا تملأُ المشـــاعـــر أمـنَا؟
أتـرانا إذن وصـلنـا أخــــيـــــرا ذلك الـشـــاطئَ الذى نتـــمـنَّى؟

إنّهُ الـريفُ فـــالحــيـــاةُ ربـيعُ خـــــضـلُ العـطْـر باردُ الأنـداء
والمراعى النشـوى تُرَاقـصُـهـا الريـ ـحُ وتغـفـو عـلى خـدود الضـيـاءِ

والصبـاحُ الوضىءُ قـد ذوّب الألـ ـوانَ والعـطْرَ فى كـؤوس الورودِ
والفــراشـــات يرتشــفن ويَثْـمَلْـ ـنَ من الـوَهج والرحـيقِ البَـرُودِ

وفروعُ النخيل مدّتْ على مجـ ـرى السواقى ظلالها السَمْراءَ
سكبتْ عطرها وخدّرتِ المرْ جَ وفاضتْ خصوبة ونَمَاءَ

وذراعُ الضياء تحتضنُ الأشـ ـجارَ والوادىَ النضيرَ الثريّا
وورودٌ بيضٌ تنامُ على ينـ ـبوعِ ماءٍ يسيلُ شهداً نقيّا

كلُّ شىء فى هذه الجنّة العَذْ بة يوحى بأنَّنا قد وصلنا
إنَّ ما فى قُلوبنا من هوىً عط شانَ قد نال حُلْمَهُ المُتَمنَّىَ

أنَّ هذى ديارُهَا، هى جنّتـ ـةَ حُلْمى الخافى وسرٌّ رحيلى
هى ذاكَ اللغزُ المحيِّرُ شوقُ الـ أمسِ واليومِ والغد المجهولِ

فلنُقمْ ها هنا عريشَ أمانيـ ـنا من الورد والشَذَى الروحىِّ
ولنَذُقْ حكمةَ النخيلِ ونقبسْ بعضَ أسرارِ صبرِهِ الأبدىِّ

لنعشْ ها هنا تعلّمُنَا الأشـ ـجارُ سرَّ الدنيا وموسيقاها
والمروجُ الغنّاءُ تكشفُ للرو حِ معانى اخضرارِها وشذاها

وغناءُ الرُعاة تنقلُهُ الرِّيـ ـحُ بعيداً إلى قنانِ الجبالَ
ونشيدُ تُديرهُ شَفَتا طفـ ـلٍ يغنّى على تلالِ الرِّمالِ

إنّ فى هـذه المجـالـى كـؤوسـاً هى رىُّ المُنى ورىُّ الـشـفـاه
إنّ فـيـهـا نبـعـاً يفىء إليـه الـ ـمُتْـعَبُونَ العطاشُ بعـد المَتَاه

وهنا تمنحُ الطبـيـعـةُ دفـئـاً وسكونـاً عـذْباً وينبـوعَ ضَـوْءِ
ويداهـا تَمَسُّ فى روحـنا جُـرْ حَ الـرَّدَى والـذبـولِ والـلاشـىء

إنّ هذا الجـمـالَ أقـوى من المو ت فـفـيـه عُـمْقٌ وفـيـه خُلودُ
هل خَلَتْ هذه المجـالـى من الأغـ ـنامِ يومـاً؟ وهل تلاشَى النشـيـدُ؟

وزهـورٌ تـذوى وتـولـدُ آلا فُ سـواها سـحـريّةَ الألوانِ
تمنحُ العطْرِ والجـمـالَ غـذاءَ للـنسـيـمِ المعطّرِ النعـسـانِ

وطيـورٌ تَسقـى الوجودَ كـؤوسـاً من أناشـيـدها العـذَابِ النقـيّة
لا صـداها يمـوتُ، لا نـبْـعُـهـا يَنْـ ـضَبُ فى مَسْمَعِ الرَّوابى الشـذيّه

ومجىءُ المسـاءِ- عند نضـوبِ الـ ـضوءِ فى حافـةِ الفضاءِ البعيـدِ
أولا ينشُـرُ النجـومَ الكـحـيـلا تِ على جـبـهـةِ المسـاءِ الـوليـدِ؟

ها هـنا يولَـدُ الخلودُ كـمـا يو لَـدُ قَـطـرُ الـنَدى وعـطـرُ الـرِّيـاحِ
مـثلمـا يَنْبُتُ الضـيـاءُ أثيـريّـ ـاً ظَهُـورَ الأهدابِ كلَّ صَبَـاحِ

ويموتُ الفناء، يضحكُ من فكـ ـرته الظلُّ والنّدَى والوَرْدُ
ونجومُ المساءِ تُبصرُ فى الآ فاقِ ما لا يُرَى وما لا يُحَدُّ

إنّهُ الريِّفُ من ثَرَاهُ العبيرىِّ المنَدّى تُسْتنبتُ الأشعارُ
موطنُ الحبِّ والأغانى وأرضُ غلّفتْ رملَها الندِى أسرارُ

سرتُ فيه فجراً وسرتُ مساءً وعَرَفتُ الظهيرةَ العنبريّة
وارتوتْ من شَذَى النخيل وعِطْرِ الـ ـقمحِ روحى الطليقةُ الفَجْريه

سرْتُ فيه وحدى، سعادةُ قلبى غمرتنى وحدى، وغنّيتُ وحدى
إن هذا الفردوسَ يَنَقُصُهُ الإنـ ـسانُ: يُضْحى ضياءهُ ويُندِّى

تلك أكواخهم حصيرٌ وأحجا رٌ وبؤسٌ مخيم لا يزاحُ
تخجَلُ الشمسُ أن تمرّ عليها ويَحيدُ الضُحَى ويكبو الصَبَاحُ

غُرَفٌ رثّةُ المداخلِ والجدْ رانِ سودٌ تجولُ فيها الرِّياحُ
فى دجاها يعيشُ قومٌ جياعُ نَضَبتْ فى أيديهمُ الأقداحُ

ويغنى القُمْرىُّ تجرى السواقى ويلاقى الضياءُ تلةَ زنبقْ
ويُراق الجمالُ فى الفجر أكوا بأً ولا قلب فى القُرَى يتذوّقْ

شَغَلَتهم أحزانُهم عن معانى الـ ـظلِّ والضوءِ والنّدَى الألآقِ
عن مذاق الجمالِ فى وردة خجـ ـلَى على شطِّ جدولٍ رَقْراقِ

كيف يَرْقى الجياعُ فى عالم الرّو حِ وهم فى حبالة الجسْم أسْرَى
يعصرون الصخورَ بحثاً ولا قطـ ـرةَ ماءٍ تَبلُّ والروح حَرَّى

يحرثون المياهَ، يستنبتون الـ ـنارَ والموتَ يعزلون الرِّياحا
يا ضياعَ الإنسانِ يخدعه التيـ ـهُ ويسرى ولا يُلاقى صباحا

هؤلاء الجياعُ فى عُزْلةِ الحِرْ مانِ تمتدُّ حولهم أسوارُ
لفَّ أرواحهم حجاب كثيف وانطوت فى عيونهم أسرارُ

خلف باب الكوخ الكئيبة قمر ىٌّ يغنى ألحانَهُ ومُنَاهُ
لا هُم يسمعونَهُ لا ولا القُمْـ ـرىُّ يدرى ذهولَهُم عن غناهُ

ليس يدرى القمرىُّ ما يفعل الجو عُ بأهل الأكواخ كل شتاء
حينما تغمر الثلوجُ ثرى المر ج وتطويه عن عيونِ الضياء

حينما يجمدُ القطيعُ من البر د على المرج فى شتاء حزينِ
حينما تُذْبل العواصفُ زهر الـ ـلوز والبرتقال والياسمين

حينمـــا تدفنُ الثلوجُ حــقـولَ الــ ـقــمح والرزّ تحـت ســوط الرياحِ
وجـــيـاع فى ظـلمـة الـكوخ لم تَدْ ـرِ بأحــزانهم عــيــونُ الصـبــاحِ

ليس يدرى القـمرىُّ لا ليس يدرى مــا وراء الأكـــواخ من حــرمـــانِ
يا دياراً سكّـانُها الجــوع والحـــمّـ ـى خـــــواءٌ مـن النـدى والحنـانِ

أيّهـــا الصـــادحُ المغنّـى على قـــمـ ـــة هـذا الـدوح الـنـدىّ الـبـلـيـل
دعْ أســـاهُ يا طيــرُ لى، لمســيــرى فى لـيـــــاليـــــه، إنّ قلبـى دليـلـى

ضــاع فى هذه القُـرَى حلمىَ المضـ ـفــور بالضــوء والندَى والـبـرودة
عطش اللحنُ فى شفاهى إلى الرىّ إلى جـنّة الـرؤى المفـــــقـــــوده

حـــمـلتنى الأوهـامُ أوهامىَ العـطـ ـشى بعــيـداً ولم أجــد لى ارتواء
ســقط الريشُ عن جنـاح خـيــالى وفـقـدتُ الرؤى فـقـدتُ الضـيـاءَ

يا سفينى ارحلـى، دعى شاطئ القر يةِ إنّ المـرْسى ضنين بـعـــيـــدُ
وغصــونُ الصفـصاف عاريـة السيـ ـقــانِ والليلُ فـى الحـقــول أبيــدُ

أقلعـى أقلعى بـنا قــد ســئـمـنا صـرَخـات الجـيـاع فى كلّ شعْبِ
قـــد رأينا الدمـــوعَ فى كل جـفنٍ ولمسـنا الـعــــويلَ فـى كلٍّ قـلب

ووداعـــاً يـا زيفُ جـــئناك مملو ئـيـن رؤيـا فـلـم تَـطُـلْ رؤيـانـا
إنّ فـى الأُفْق لمحــــــةً من ديـارٍ هى أحـنى عـلى جـــراح مُـنانـا

أنشودة الرياح

-٥-

حُلُمٌ وانطوى في الفضاء المديدْ
كلَّما أخفقتْ في رجاء فريد
شيَّدت في الذُرَى حُلْمَها من جديدْ
لا تبالى اللظى لا تبالى الجليدُ

خيّبتها القُرَى ودجاها الحزينْ
إنّ في أرضها بشَراً جائعين
لم تجد عندهم غير دمعٍ سخينْ
وَمضَتْ في السُّرى لا تنى لا تلين

ثم أرستْ هنا عند أهل اللحونْ
شعراءُ مَشَوْا في ظلال الغصون
علَّ في نايهم بعض لحنٍ حنونْ
ليس فيه أسىً ليس فيه مَنُونْ

حـــــــــــدّقـى هــا هـنــا   يا فـــتـــاة القـــصـــيـــدْ
إنّ فــى كـــــــــــونـهــم   رْجـعَ لحنٍ ســـعـــيـــد
انـظــرى تـلـمـــــــــسـى   فـــى الـــظـــلام المـــديـــد
نـشـــــــــــوةً غـلّـفــت   قـلـبَ هذا الـنـشـــيـــدْ

فى عالم الشعراء

إنّه شـاطئ القـصـائـد والألـ ـحـان يمتـدّ غـامضَ الكثـبانِ
فـى حـنـايـاه كـلُّ ذرّةِ رمـلٍ رعـشـةٌ وانبـثـاقـةٌ وأغـانِ

علّنا واجـدون فـيـه الرحـيقَ الـ ـمُشْتَهَى علّ فى ثناياهُ نجـمـا
نحن سـرنا مـرنّـحين من الجـهـ ـدِ وكـان المسِـيـرُ صَلْداً أصَـمـا

فى ضبـاب الآفـاق نسـأل مـاذا؟ أسَـرَابٌ مـا حـولنا أم تلالُ
عبـثاً نلمس المدى فـالمدى مُسـ ـتـغلقُ السـرِّ مـبـهـم لا يُنالُ

وتجلّى الدجى ولاح لنا فـجـ ـرٌ طرىٌّ لَدْن النسـيم بـليـلُ
مُرْهَـفُ الضوء لامَسَـتْ شفتـاه الـ ـمرجَ فاستيقـظتْ قُرَىً وسـهولُ

إنهـا رعـشـةُ الحـيـاة ومـيـلا دُ الأغـانى المُغَـروْرقـات الشـجيّـه
إنهـا العـالـم الذى ظلّلَ الشـا عـرَ حـتى الصخـورُ فـيـه نديّه

عـالـم كله انـفـعـالٌ وحسٌّ شـاسع الغـور لا يُمَسُّ مـداهُ
واحـتشـادُ الشـعـورِ بحرٌ سـحيقٌ غـاصَ فى لا نـهـايةِ شـاطئـاه

عـالم الشـاعر الثـرىِّ الرؤى العَـذْ ... بِ الأغـــانـى المرقـــرَق الألوانِ
كل نـبضٍ فـى قلبـــه لحنُ حبٍ ... للـمـــدى للوجـــود لـلإنســانِ

عـــالمُ صـيغَ مـن شـعــور رهيف ... وأحـــاســـيسَ طَـلْقــة لا تـنامُ
والأغـــــاريدُ مـنبعُ لأســــاهُ ... فـــهى فى صـــمتِ روحِـــه آلامُ

تلك مـــأســـاته يبـيت الليـــالى ... ســاهد اللحن راثـيـاً للـحيــارَى
كلّمـــا أنَّ فى الدياجـيــرِ مـظلو ... مُ بكـى الشــاعـــر الرهيـف وثارا

أبـداً يـرْقـب المَدَى ويُـنَـاجـى الـ ... ـليلَ روحـــاً وجبـــهـــةً وشـفــاها
فى حـــيــاةٍ يرى الخَلىُّ ضُحَـــاها ... ويعــــيشُ الفنّان تحتَ دجـــاها

يرقـب الأشـقـــيـــاء أنّاتُهـم تجـ ... ـرح إحـــســـاسَـهُ تـعـزُّ عليــهِ
دمـعـــــةُ فى جـفــونِـه وصــلاةُ ... من حنـانٍ تذوبُ فى شــفــتـيــهِ

يَسـهـرُ الليلَ يـقـبعُ الحـارسَ المكـ ... ـدودَ فــى خطوه الـرتيـبِ الكليـلِ
وَقْعُ أقـدامـهِ على شــاطئ الصــمـ ... ـتِ أسى الشــاعـرِ الحنونِ النبـيلِ

أطفئ الضــوء أيّهـا الشـاعـــر المتـ ... ـعبُ وارحــم فـؤادك الموجـوعــا
كـاد يخـبـو ضــوءُ السـراج وتأتى ... ظُلُمـاتُ الـدُجَى عليـهِ جمــيعـا

أنا قـد جئتُ كـونَكَ العابق الضـو ... ئىَّ بحـثـاً عن حـلمىَ المفـقـودِ
علَّ فى كـأسِكَ الرحـيـقـيـةِ الولـ ... ـهَى شُـعَـاعـاً من الضـيـاءِ البـرودِ

قلتُ، دنـيـاهُ فـرحـهُ وضـيـاءُ ... وعـطاءُ خَـصْبُ وروحُ ولـونُ
وصـلاةُ سـحـرِّيـةُ الرجع ينثـا ... لُ عليـهـا عـطرُ وضـوءُ لَدْنُ

إنه الـشـاعـر الطـليقُ الذى يَـغْـ ... ـزلُ هـمـسَ الـريـاحِ لحـناً ثـريّا
إنه دفــقــة القــصـائـد والأنـ ... ـغـامِ مـا زال روُحـهُ ضـوئيـا

فلـمـاذا أراهُ كـالـطيـف ذبلا ... نَ طـوته انـطـفـاءةٌ وسكـونُ
مـقـلتـاهُ مَـأوَى الكآبة فى أهـ ... ـدابهـا يكمـنُ الضـيـاءُ الحـزينُ

إنّه كـالـضـيـاء فى طهـره يُطْـ ... ـفـئـه الشـرُّ والمعـانى الدنيـئـه
أولا تـذبـل الـورودُ إذا مـا ... لامـسـتْـهـا يدُ الجـفـاف البطيـئـه

قلبُـهُ للجـمـال كـرَّس نجـوا ... هُ وللّـون والشـذى والنـقـاء
لا يـطـيق الأذى ويـحـلـم بالـكـو ... نِ طَهـوراً مـضـوَّأَ الأنداءِ

هو والخـيـر يبقـيـان صـديقـيـ ... ـنِ مـحـبـيّنِ ليسَ يفـتـرقـانِ
وهـو الحـبُّ لحنُـهُ الأبـدىُّ الـطـ ... ـلقُ يَـنْدَى مـن رقّـةٍ وحنـانِ

فـإذا مـــا رأى الشــرور وقــد كـبـ ـلت الأرض ذاب روحـــاً وقــلبــاً
وذوى حُـلـمُـــــهُ الإلهـيُّ وانثـــا لتْ على روحـــه الكآبةُ سُـحــبــا

ويَرَى الـزهرَ ذابلاً بـعـــد أن كـــا نَ يُـذيع الـشـــذى ظـلالاً ندّيـه
فــيـرى قــصّــةَ الـذبولِ وتذوى فـــى مـنـــاه أســطــورةُ الأبـدّيـــه

(١٩٦٥)

عاشقة الليل

الطبعة الأولى ١٩٤٧

"أعــبِّــر عـــمّــا تحس حــيــاتى
وأرسم إحــســاس روحى الغــريب
فــأبـكى إذا صــدمـــتنى السـنين
بـخنـجـــرهـا الأبدى الـرهـيـب
وأضــحـك مما قــضــاه الـزمــان
على الهــيكل الآدمـى العـجـيـب
وأغـضـب حــين يداس الشــعـور
ويُســخــر من فــوران الـلهــيب

نازك

ذكريات ممحوّة

وجهُكَ أخفاهُ ضَبابُ السنينْ
وضمَّهُ الماضى إلى صدرهِ
ألقَى عليه من شبابى الحزينْ
أحزانَ قلبٍ تاه فى ذُعْرهِ

وصوتُكَ الخافىْ خبا لحنُهُ
وأوحشَتْ سَمْعىَ أصداؤه
فلستُ أدرى الآنَ ما لونُهُ،
ما رجعُهُ الصافى، وإيحاؤه

ولونُ عينيكَ، وأسرارُها،
وَشَعْرُكَ الداجى، وأمواجُهُ
غابتْ جميعاً، أينَ تَذْكارُها
فى ليلِ قلبٍ طال إدلاجُهُ؟

كم، فى سكونِ الليلِ، تحتَ الظلامْ
رَجَعْتُ للماضى وأيَّامه
أبحثُ عن حبّىَ بين الرُّكامْ
فلم تَصِدْنى غيرُ آلامِهِ

لم يَبْقَ شىءٌ غيرُ حُزْنى المريرْ
بقيَّةٌ من حبّىَ الذاهبِ
وذكرياتٍ من صِباىَ الغريرْ
ساخرةٍ من وجهىَ الشاحبِ

وأصبحتْ ذكراكَ وهْماً يلوح
يشتاقُهُ قلبى الكئيبُ الغريرْ
يا جَسَداً، كالقبر، ما فيه روحْ
سمَّيتُهُ قلباً، فيا لَلْغُرور!

٥

وأىُّ قلبٍ جامدٍ باردِ
أىُّ حياةٍ تحتَ ظلِّ الخُمودْ
لولا صُراخُ الزَّمَن الحاقدِ
لضِقْتُ بالعيش وعِفْتُ الوجودْ

لم يَعُدِ الحُبُّ أسىً مُحْرقا
يُشْعِلُ أيَّامي بأحزانه
ولم يَعُدْ جَفْنَي مُغْرورقًا
يخرِقُه الدمْعُ بنيرانِه

لم يَبْقَ إلا ثورةٌ واحتقارْ
ملءَ حياتي المُرَّةِ الحالمه
النارُ ذابتْ وتبقَّى الشرارْ
تشربُهُ أحلاميَ الواهمه

وطيفُكَ الخابي هوَى نجمُهُ
وغابَ في الماضي الرّهيب الأبيدْ
ووجهُكَ القاسي ذَوَى رسمُهُ
في مُقْلتي فهو خيالٌ بعيدْ

مَضَى زمانٌ كنتُ فيه الّتي
تفتنُها أنغامُكَ الصافيه
وروحُ أشعارِكَ في وحْدتي
وحبِّي الإلهيُّ وأشعارِيَه

مَــــضَى وأبقى لى فـــؤاداً يرَى
فــيكَ جــمـــاداً مـن تراب وطينْ
أسكنتُــــهُ يومــــاً أعـــالى الذُّرَى
وأرجــعَــتْــهُ للحــضــيضِ السنينْ

لـم يَبْـقَ منكَ الآنَ شىءُ جـــمـــيـلْ
غـــيـــر اســمِكَ الـعـــذْبِ وأصـــدائه
ذكـــرىً لقلـبٍ كـــان يـومـــاً نبـــيلْ
فـــبــــات فى حَــمْـــأة أهوائـه

مـــلامـحُ الهــيكلِ عـندى آمـــحتْ
الوجـــهُ، والبَـــسْـــمـــةُ، والمُقْلتــانْ
لـم يَـبْـقَ إلا اسمٌ، وروحٌ خَـــــوتْ
وذكـــريـاتُ قـــد مَـــحَـــاها الـزمـــانْ

مَـــــدَدْت كـــفِّى إلى جـــوِّهـا
باحـــثـــة عـن ســـحْـــرها الســابقِ
فـلم أجـــدْ ثَمَّ ســــوى شِلْوها
يَسْـــخَـــرُ من مـــدمـــعىَ الـدافقِ

وعـــــاد قلـبي لـلأسـى والعـــــذابْ
مـــسـتـوحـــشــاً حـــتّى مـن الذّكـــرياتْ
من يُـرْجِعُ الماضـى إذا مـــا الضَـــبـــابْ
ألقـى دُجــــاهُ فـــوقَ لـيلِ الحـــيـــاةْ؟

ومـــــا مَـــــحَـــــاهُ الـزَّمنُ الـقَـــادرُ
أيُّ يـد تكـتُــــبـــــهُ من جـــــديـدْ؟
فـــيمَ إذنْ يـلتـــفـتُ الشـــاعـــرُ
إلـى دُجى المـاضى الـرهـيبِ الأبـــــدْ؟

٢٠-٨-١٩٤٦

ذكرى مولدى

مهداة إلى «كاملة» صديقة طفولتى التى
لم أعد أعرف عنها إلا اسمها.

جئتِ يا ذكرياتُ شاحبةَ الوجـ ـهِ حَيَارى فى موكب الأيّامِ
جئتنى والشبابُ باكٍ بعينىَّ وحولى جنازةُ الأحلامِ
رَغَباتى دفنتُها فى ثَرىَ الما ضى وقلبى ما عادَ غيرَ حُطَامِ
ودموعى رمزٌ لما لقيته الر وحُ فى غيْهب الوجودِ الدامى

جئتِ يا ذكرياتُ ما أفظعَ الذكـ ـرى وما أروعَ الرجاءَ الفقيدا
ليتَ قلبى قد كان صخْراً أصمّا كلَّ يوم يبنى رجاءً جديدا
ليتَهُ كان جامدَ الحسِّ كالطيـ ـنِ يعيشُ الحياةَ جَذْلاً سعيدا
ليتَهُ لم يكنْ ويا ليتنى أعـ ـتاضُ عنه حجارةً أو حديدا

والتقينا مع الصباحِ فيا خَيْـ ـبةَ نفسى أىُّ التقاءِ مريرِ
وجهُك الشاحبُ المروِّعُ يُبْكيـ ـنى ويُحْيى ذكرى صِباىَ الغريرِ
وبعينيك قطرةٌ من دموعى وعلى فيك آهةٌ من زفيرى
أسفاً قد حفِظتِ أحزان قلبى وتجاهلتِ نَشْوتى وحُبُورى

شَهِدَ الفجرُ كيف يا ذكرياتى   كان هذا اللقاءُ أشجَى لقاءِ
عانقتْنى أشباحُك الباكيات الـ   ـخُرْسُ باليأسِ والشَّجا والبكاءِ
ووقفنا تحت الصباحِ تماثيـ   ـلَ حيَارَى كأنفسِ الشُعَراءِ
وانحنتْ فوقنا الشُجَيراتُ حزناً   تتباكى بأدمعٍ خَرْساءِ

أسفاً ضاعت الطفولةُ فى الما   ضى وغابتْ أفراحُها عن جفونى
وهى لو تعلمينَ أجملُ ما يمـ   ـلكُ قلبى وما رأتْهُ عيونى
حينما كنتُ طفلةً أجهلُ السرَّ   وأحيا فى غفلةٍ من شجونى
كالعصافيرِ أملأ الدارَ لهواً   وغناءً وأستحبُّ جنونى

ماتَ أمسى الضحوكُ واعتَضْتُ عنه   بشبابٍ مُرٍّ ودمعٍ ويأسِ
وَخبَتْ ذكرياتُهُ البيضُ فى بحـ   ـرِ شعورى وليل قلبى ونفسى
أين تلك الوجوهُ؟ كيف نَسِيتُ الآ   نَ؟ من ذا يُعيدُ لى فجر أمسى؟
كلُّ وجهٍ عفّاهُ مَرُّ الليالى   فهو طيفٌ وراءَ وعيى وحسّى

أعبُرُ العُمْرَ كلَّهُ نحو أمسى   ويعودُ الشعورُ بى للتلالِ
مجلسى فوق تلّىَ الحُلْوِ وحدى   أو شُرودى بين الشَّذَى والظلالِ
ومعى الطفلةُ الصديقةُ نبنى   فوقَ وجهِ الرَّمالِ عرْشَ الخيالِ
عُمْرُنا قصّةٌ ولحنٌ نغنّيـ   ـهِ وقلبانِ فى نَقَاءِ الرِّمالِ

أين أصبحتِ يا رفيقةَ أمسي؟ ما الذي قد شهدت فوقَ الوجود؟
أترى تذكرينَ مثلي أيّا مَ صبانا وحُلْمَنا المفقودا؟
أم ترى قد نَسيتني ونَسيتِ الأ مسَ في فَرْحة الشَّبابِ الرَّغيدِ؟
أبداً لَسْتُ لستُ أنسى وإن كنـ ـتِ تهاويتِ في الزَّمانِ البعيدِ

أترى أبصرتْ عيونُكِ في الأر ضِ كما أبصرتْ عُيونيَ شقاها؟
أرأيتِ الأحزان في كلّ قلب ورأيتِ النفوسَ في بلواها؟
أسمعتِ الصُراخَ يُرْسلُهُ الأحـ ـياءُ والأرضُ أغرقتْها دماها؟
حدثيني صديقةَ الأمسِ هاتي عن لياليك بشْرَها وأساها

ربّما كنت يا رفيقةُ مثلي زورقاً في البحار عادَ حُطَاما
الرّفيقاتُ غبْنَ عنك وآثـ ـرنَ عليك الشرورَ والآثاما
فكتمت الشعورَ في قلبك الصَّا في وُصنْتِ الأحزانَ والآلاما
وقضيْتِ الحياةَ في الوحدةِ الخر ساء تَسْتلهمينها الأحلاما؟

أنصتي من مكانك الغامضِ المجـ ـهول أصغي الى نشيدي الصافي
أوَ تدرين ما الذي صنَعَتْهُ سنواتُ العُمْرِ الرهيب الحافي؟
إنّه يومُ مولدي، يومُ أحزا ني وذكرى الرُسُوِّ عندَ الضفاف
حينما أوقفتْ سفينتيَ الأقـ ـدارُ بين الأمواجِ، تحت السَّوافي

إنَّه يومُ مــــولدى أين أفـــرا ح شبـــابى أعــيـدُهـا للسِّنينا

كيف مرّ العامُ الحزينُ بقلبى الـ ـجَهْمِ؟ أينَ الثلاثُ والعشرونا؟

كيفَ مرّتْ هذى السنينُ ولم أدْ رِ؟ ومالى ذوّبتُ عمرى أنينا؟

لم أنلْ من ظلامـــه المرِّ إلاّ أمـــلاً ذاهبــاً وروحــاً حزينـاً

إنّه يومُ مــولـدى ولقــد مَــرَّ بعُــمْــرى الداجى كظلّ شقىٍّ

عشتُهُ فى قصائدى ودموعى بين جُدْران معبدى الشاعرىِّ

لا فؤادٌ معى يُشاركُنى حُزْ نى ويبكى على شبابى الدجىِّ

لا رفيقٌ فى غُربتى ووجومى غيرَ قلبى الشجىْ ودَمعى النقىِّ

٢٣-٨-١٩٤٦

الحياة المحترقة

«كتبت الشاعرة هذه القصيدة عندما
ألقت بمذكراتها إلى النار».

هذه يا نـارُ أفـراحي وشـوقي وشـجـوني
جئتُ ألقيها إلى فكّيكِ في فجري الحزينِ
كلُّ ما مرَّ بقلبي من شَقَاء وحنين
إلْقَفيه الآنَ لا تُبقي ولا تَسْتَمهليني

هذه الأسطُرُ قد ضمّتْ بقايا سنواتي
منذُ أن ألقتْ بيَ الأقدارُ في تيهِ الحياةِ
طفلةً ترنو الى الشاطئ عَبْرَ النَظَراتِ
وتَرَى العالَم بحراً مُغْرَقاً في الظُلُماتِ

سَنَواتي كلُّها يا نارُ في هذي السُّطورِ
أغاريدي، وأشواقُ حياتي، وحُبوري
وبقايا من حنيني، وشظايا من شُعوري
وأباديدُ من الأحلامِ والحُزْنِ المرير

إنّهـــا أيتُـهـــا النارُ، أزاهيـــرُ شـبـــابى
صُـغْتُـهـا ذكـرىً لأحزانى، ورمـزاً لعـذابى
ومـحـا أسـطُرَها دمـعى وأبلاها اكـتـئـابى
خُـذيـهـا، وأعـيـديهـا رُكـامـاً من تُرابِ

أحْـرقيـهـا، لم أعُـدْ أعبـأ، لن أبكىْ شَـذاها
إنّهـــا، يـا نارُ، ذكــرىً لليـــال لـن أراها
دَفن الماضى خَـفـاياها الحَـوالى ومَــحَـاها
وطوتهـا لُـجّةٌ النسيـانِ فى عُـمْقِ دُجَـاها

ذهبتْ تلك الـليـالى وطوى الدّهرُ صـبـايا
أىُّ نَفْـعٍ بعْـــدُ يا نارُ لـدْمـــعى وأســـايا؟
أىُّ مـــعنىً لادّكـــاراتى، وشـــوقى ومُـنايا؟
لن يعـــودَ الأمسُ، لن تَلْقَى سَناهُ مُـقْلتــايا

أيّهـا الحاضـرُ لا تُسـرعْ إلى الماضى البـعيـدِ
ولتَـقفْ مـركَـبَـةُ الشمـس على الأفق المديدِ
ليكُـنْ بعـــد صـبـــانـا تحت أفـيـــاءِ الخُلُودِ
آهِ وليَـمَّحِ لفظُ الأمـس، من سِـفْرِ الوجـودِ

أو أَبِدْ مــا تَرَكَ الماضــي من الأحــزانِ فــينا
وامـسحِ الذكـرى ولا تُبْقِ لنـا الشـوقَ الدفـينا
حـسـبُنا الحـاضـرُ آلامـاً ودمـعـاً وشُـجُـونا
رحــمــةً فلْتَــمْـسَـحِ الماضى وآثارَ السنـينا

فـيمَ تبـقى ذكـرياتى حـيَّـةً بعـدى وأنْسَى؟
كلَّ يومٍ أســرعُ الخَطْو عن العــالـم يأســا
وهى مـازالتْ شبـاباً ناضراً، جِسْمـاً وَنفْسـا
آه مـا أعنفَ أحـقـادى على الذكـرى، وأقْـسَى!

أيُّهـا النـارُ الهَـبى فى المَوقِــد الذاوى الرهيبِ
وخــذى مـن فـتنةِ الذكــرى غـذاء للَّهــيبِ
إثأرى منـهــا، أعــيــديهــا رَمــاداً، وأذيبى
ودعـيـنى مـرّةً أضـحـكُ من قلبى الكئــيبِ

١٩٤٦-٦-٧

في وادي العبيد

ضاع عُمْري في دياجير الحياة
وَخبَتْ أحلامُ قلبي المُغْرَقَ
ها أنا وحدي على شطِّ المماتَ
والأعاصيرُ تُنادي زورقي
ليس في عينيّ غيرُ العَبَراتَ
الظلالُ السودُ تحمي مفرقي
ليس في سَمْعيَ غيرُ الصَرَخاتَ
أسفاً للعُمْرِ، ماذا قد بقي؟

سَنَواتُ العُمْر مرّت بي سراعا
وتوارتْ في دُجَى الماضي البعيدْ
وتبقَّيتُ على البحْر شراعا
مُغرَقاً في الدمْع والحَزنِ المُبيدْ
وحدتي تقتلُني والعُمْرُ ضاعا
والأسى لم يبقِ لي حُلماً جديدْ
وظلامُ العيْش لم يبق شُعاعا
الشبابُ الغَضُّ يَذْوى ويَبِيدْ

أيُّ مــأســاة حــيــاتي وصــبــايا
أيّ نـارٍ خلـفَ صَــمْــتي وشَكاتـي
كــتــمتْ روحي وباحتْ مُــقْلتــايا
ليــتــهــا ضنّتْ بأســرار حــيــاتي
ولمـن أشكـو عــــذابي وأســـايا؟
ولمـن أرْسـلُ هـذي الأغـنيــــات؟
وحــــواليَّ عــــبــيــدٌ وضــحــايا
ووجــودٌ مُــغْــرَقٌ في الظُّـلُمــاتِ

أيُّ مــعنىَ لـطُمــوحي ورجـــائي
شَــهِــدَ الموتُ بضَــعْــفي البَــشــريِّ
ليـس في الأرض لحُــزْني من عـــزاء
فــاحــتــدامُ الشــرِّ طبْعُ الآدميِّ
مُــثُلي العُــلْيــا وحلْمي وسَــمــائي
كـلُّهـــا أوهامُ قـلـبِ شــاعــريِّ
هكذا قــالوا... فــمــا مَـعْنى بقــائي؟
رحــمــةَ الأقــدارِ بـالقلب الشــقيِّ

لا أريدُ العيشَ فى وادى العبيد
بين أموات... وإن لم يُدْفَنوا...
جُثثٌ ترسفُ فى أسْرِ القُيود
وتماثيلُ اجتوتْها الأعيُنُ
آدميّونَ ولكنْ كالقُرود
وضِباعٌ شَرِسةٌ لا تُؤمَنُ
أبداً أسْمعُهم عذْبَ نشيدى
وهُمُ نومُ عميقٌ مُحْزنُ

قلبىَ الحُرُّ الذى لم يفْهموهُ
سوف يلْقَى فى أغانيه العَزاءَ
لا يَظُنّوا أنَّهم قد سحقوهُ
فهو ما زالَ جَمالاً ونَقاءَ
سوف تمضى فى التسابيح سِنوهُ
وهُم فى الشرِّ فجراً ومساءَ
فى حَضيضٍ من أذاهُم ألفوهُ
مُظلمٍ لا حُسْنَ فيه، لا ضياءَ

إن أكنْ عـــاشـــقـــةَ الـليـلِ فكـأسى
مُـــشْـــرقُ بالضــــوء والحُبِّ الـوَريقِ
وجـــمَـــالُ الليـلِ قــد طـهّـــرَ نفــسى
بالدُجَـى والهــمس والصـمْتِ العـمـيقِ
أبـداً يـمـلـؤ أوهــامـى وحـــــــسِّـى
بمعـــانى الـرّوحِ والشــعْـــرِ الرقـــيقِ
فـــدعـــوا لـى ليـلَ أحـــلامى ويـأسى
ولكـم أنتـم تبـــاشـــيـــرُ الـشُـــروقِ

٨/ ٨/ ١٩٤٦

ثورة على الشمس

هدية إلى المتمردين

وَقَفتُ أمام الشمس صارخةً بها
يا شمسُ، مثلُك قلبيَ المتمرِّدُ
قلبي الذي جَرَفَ الحياةَ شبابُهُ
وَسقَى النجومَ ضياؤه المتجدِّدُ
مهلاً، ولا يخدعْك حُزْنٌ حائرٌ
في مقلتيَّ، ودمعةٌ تتنَهدُ
فالحزنُ صورةُ ثورتي وتمرُّدي
تحت الليالي؛ والألوهةُ تَشْهدُ

مَهْلاً ولا يخدعْك حزنُ ملامحي
وشُحوبُ لوني وارتعاشُ عواطفي
وإذا لمحت على جبيني حَيْرتي
وسُطُورَ حزني الشاعريِّ الجارفِ
فهو الشعورُ يُثيرُ في نفسي الأسى
والدمْعَ في هول الحياة العاصف
وهي النبوَّةُ لم تطرْ فتمرَّدَتْ
الحُزْنِ، في وجه الحياة الكاسفِ

شَفَتَايَ مُطْبَقَتَان فوق أساهما
عيناىَ ظامئتانِ للأنداء
تَرَكَ المساءُ على جبينى ظلَّهُ
وقضى الصباحُ على جديدِ رجائى
فأتيتُ أسكُبُ فى الطبيعة حَيْرَتى
بين الشَّذَى والوردِ والأفياء
فسَخِرْتِ من حُزنى العميقِ وأدمُعى
وَضحِكْتِ فوق مرارتى وَشقَائى

يا شمسُ حتى أنتِ؟ يا لَكآبتى!
وأنت التى ترنو لها أحلامى
أنتِ التى غنّى شَبَابى باسمها
وشَدَا بفيض ضيائها البسَّامِ
أنتِ التى قدّستُها وتَخِذْتُها
صَنَماً ألوذُ به مَن الآلامِ
يا خيبةَ الأحلام، ما أبقَيْتِ لى
إلا ظلالَ كآبتى وظلامى

ســأحطِّمُ الصنَمَ الذى شـيّدتُهُ
لك من هَوَاىَ لـكلِّ ضـوء ساطع
وأديرُ عـينى عن سَنَاك مُـشـيحـةً
مـا أنت إلاّ طيفُ ضـوء خـادع
وأصـوغُ من أحـلام قـلبى جنّةً
تُـغْنى حـيـاتى عن سَنَاكِ اللامع
نحنُ، الخـيـاليّـين، فى أرواحـنا
ســرُّ الألوهـةِ والخلودِ الضـائع

.

لا تَنْشُـرى الأضـواءَ فـوق خـمـيلتى
إن تُشـرقى، فلغـيـرِ قلبى الشـاعـرِ
مـا عـاد ضـوؤك يسـتـثيـرُ خـوالجى
حَـسْبى نجـومُ الـليلِ تُلْـهِمُ خـاطرى
هنّ الصـديقـاتُ الـسـواهرُ فى الدُجى
يفـهـمن روحى وانفـجـارَ مـشـاعـرى
ويُرقِّـن فى جَـفْنى خُـيـوطَ أشـعَّـة
فـضـيَّـة، تحتَ المسـاءِ الـسـاحـرِ

اللـيلُ ألحـــانُ الحــيـــاة وشِــعْـــرُها
وَمطَـافُ آلهـــةِ الجَـــمـــالِ المُلْهِـمِ
تهـفـو عـليـه الـنفسُ غـيـر حـبـيـسـة
وتحـلّـق الأرواحُ فـــــــوقَ الأنجُـمِ
كم سِـــرْتُ تحتَ ظَـلامـــه ونجـــومـــه
نســـيتُ أحـــزانَ الوجـــودِ المُظْـلمِ
وعـلى فـــمى نَغَمٌ إلـهىٌّ الـصَـــدَى
تُلْـقـيــهِ قـــافلةُ النـجـومِ عـلى فـــمى

كـم رُحـتُ أرقـبُ كـلَّ نجـمٍ عـــــابـرِ
وأصـــوغُ فى غَـــسَـق الظلامِ مـــلاحـنى
أو أرقبُ الـقَـــمَـــرَ المودِّعَ فى الـدُجى
وأهيـمُ فى وادى الخـــيـــال الفـــاتنِ
الصــمـتُ يبـعَثُ فى فــؤادى رعـشـةً
تحـت المســـاء المُدْلهـم الســـاكـنِ
والضــوءُ يرقُصُ فـى جـفـونى راسـمـاً
فى عُـــمْـــقِـــهـــا أحـــلامَ قلـبٍ آمنِ

يا شـمسُ، أمـا أنـت.. مـاذا؟ مـا الذى
تلـقـاهُ فـيكِ عـواطـفى وخـواطرى؟
لا تَعْـجَـبى إن كـنتُ عـاشـقـةَ الدُجى
يـا ربَّـةَ الـلّهَـب المـذيـب الـصـاهـر
يا مـن تُمَـزِّقُ كلَّ حُـلْمٍ مُـشْـرِقِ
للـحـالمـينَ وكلَّ طـيفِ سـاحـرِ
يا مـن تُهـدِّمُ مـا يشـيِّـدُهُ الـدُجى
والصـمْتُ فـى أعـمـاق قـلب الشـاعـرِ

أضـواؤك المتـراقـصـاتُ جـمـيـعُـهـا
يا شـمسُ أضـعفُ من لـهـيـب تمردى
وجنـونُ ناركِ لـن يمـزِّقَ نغـمـتى
مـادام قـيـثـارى المغـرِّدُ فـى يدى
فـإذا غَـمَـرْتِ الأرضَ فَلْتَـتَـذكَّـرى
أنى سـأخلـى من ضـيـائك مَـعْـبـدى
وسـأدفـنُ المـاضـىْ الذى جَـلَّلْـتـه
لـيـخـيِّمَ الـليلُ الجـمـيلُ علـى غَـدى

١٩٤٦-٧-٨

بين فكّي الموت

«كانت الشاعرة مصابة بحمى شديدة فنظمت هذه القصيدة الحزينة تودع الحياة وتستقبل العالم المظلم».

يا مساءَ الصَّيف الحزينِ خَبَا حُبِّـ ... ـي لما فيكَ من أسىً وخُشُوعِ
وتبـرَّمتُ بالسكون وبالأشـ ... ـباحِ واعتَضْتُ عنْهما بدموعي
لم يَعُدْ في قلبي هوىً لدَيَاجيـ ... ـكَ فيا رحمةً بقلبي الوجيع
رحمةً يا ظلامُ يا صَمْتُ يا أسـ ... ـرارُ بالخافقِ الشقيِّ المرُوعِ

ها أنا تحتَ دُجيةِ الليلِ روحُ ... مُستطارٌ في هيكلٍ موهونِ
صَرَخاتُ الحُمَّى تحطِّمُ أحلا ... مي وأحلامَ قلبيَ المحزونِ
يا عيونَ النجومِ لا ترمُقيني ... لم يَعُدْ في سَنَاك أيُّ فتونِ
وامدُدي يا رياحُ كفَّيْكِ لُطفاً ... وحناناً على فمي وجبيني

ها أنا بين فكي الموت قلباً ... لم يزَلْ راعشاً بحُبِّ الحياة
وعيوناً ظمأى إلى مُتَعِ الكو ... نِ تُناجي مفاتنَ الأُمْسياتِ
لم أزَلْ بُرْعماً على غُصُنِ الدهـ ... ـرِ جديدَ الأحلامِ والأمنياتِ
فحرامٌ أن تَدْفِنَ الآنَ يا مو ... تُ شبابي في عالم الأمواتِ

هـا أنـا عـنـدَ هُـوَّةِ الـزَّمـنِ الُمظْـ ـلمِ بين الأمـــواتِ والأحـــيـــاء
منْ ورائى صِـبـــاىَ بين الأناشــيـ ـدِ ولـهـــو الطُّفُـــولة الحـــسناء
وأمـــامـى وادى المنايـا قـــبـــورٌ فى ظـلال المنّيـــة الخـــرســـاء
أُفـقٌ راعبٌ رهـيبُ المعــــــانـى ضمَّ أرجـــاءَهُ الدُجى اللانهـــائى

أيهـــا الموتُ وقـــفـــةً قـبـلَ أن تُغْـ ـرى بجـسْـــمى سكونَكَ الأبديّا
آه دَعنى أمـــلأ عـــيــونـى من الأنـ ـوارِ وارحمْ فـؤادىَ الشـــاعـــرّيا
آه دَعنـى أودِّعِ العـــــودَ يـا مـــو تُ فـقـد كانَ لى الصـديقَ الوفـيًّـا
وأرنِّمْ لحـنَ الـودَاعِ لـدنيــــــــا ىَ لأمـضىْ للمـوتِ قـلبـاً شـقـيّـا

رحـمـةً بى، يا أيّهـا الموتُ، وأرفق بفــــؤاد نـالتْ هَوَاهُ الحـــيـــاةُ
أَعْــفنى الآنَ من مـفـــارقـــة الدنـ ـيـــا ودَعْنى إلى غـــد يا مَـمَـــاتُ
لا أحبُّ الـظلامَ فـليَـكُ مـــوتى ى غــد حـينَ تغـرُبُ الظُلُمـــاتُ
حـينمـا تضحكُ الـطبيعـةُ فى الوا دى الأغنُّ الحـالى وتـشـدو الرُّعـاةُ

يا سكـونَ الليلِ العـمـيقِ وداعًـا إنهـــــا يـا سكـونُ آخـــرُ ليـله
لم يَعُدْ فى الجسْمِ الوَهونِ سوى بُقْـ ـيـا حيـــاة ونَسْمـة مُضْـمـحلّه
لم يَعُـدْ فى السِّـراج إلاّ ومـيضٌ شـــاحـبٌ مـدَّ حـولهُ المـوتُ ظلَّهْ
وانتَــهى يا ظلامُ نحــتَكَ تَجْــوا لى وشِــعْـــرى وأغنيـــاتى الُمملّه

وستمحو الأيامُ ذكْرَ فتاة شَغَفَتْها إلهةُ الشعرِ حُبَّا
فقَضَتْ أمسياتها تتبعُ الأطـ ـياف والعاصفات شَرْقاً وغربا
يا جَنَاحَ الخيال لم يَبْقَ ريشٌ يا ظلامَ الفَنَاءِ لم تُبْقِ قَلْبا
ليس إلاّ جسْم تُضَعْضِعُهُ الحمـ ـى وطرف يَطْوى الدَيَاجيرَ رُعْبا

أيها الليلُ، أيّها العالمُ الغا مضُ قد أسْدلَ الستارُ المخيفُ
فارحم الآنَ تحتَ دُجيتك السَّو داء قلباً غامتْ عليه الحتُوفُ
لَهْفتا يا ظلامُ لن يَطْلعَ الفجـ ـرُ ولن يبسمَ الفؤادُ اللهيفُ
لهفتا يا ظلامُ لهفةَ روحٍ لم يُمَتَّعْ شبابهُ المشغوفُ

يا فؤاديْ الشَريدَ ودِّعْ أمانيـ ـكَ فلن نلمحَ الصباحَ الجميلا
أنتَ يا من قضَيْتَ عُمْرَكَ مفتو ناً تُناجى الرُّبى وتشدو الحقولا
واسترحْ أيها الخفوقُ كفَى حُزْ ناً كفانا تضرُّعاً وذُهولا
لا يَرُعْكَ الرَّدى وحَسْبُكَ أنْ تُدْ ركَ يا قلبُ سرَّهُ المجهولا

فيمَ تبكى على مُفارقة الدُّنـ ـيا وقد عشْتَ فى حماها غريباً؟
إنّها أيها المعذَّبُ مأسا ةٌ تُثيرُ الأسى وتبكى القلوبا
تخدعُ الجاهلينَ أوهامُها السو دُ ولا تخدعُ الذكىَّ الأريبا
فاحتقرها وسِرْ إلى عالم الأمـ ـوات يا قلبىَ الرقيقَ طَرُوبا

يا عيونَ النجومِ يا وَرَقَ الصَّفْـ ـصافِ يا فتنةَ السكونِ وَدَاعا!
لن أغنّيكِ بعد ليلى هذا الآنَ أن ينشُرَ الزّمانُ الشّراعا
عبثاً يا حياةُ دفعي للموج فلن أستطيعَ بعدُ دفاعا
وغداً سوف يطمُرُ اللُّجُّ أشلائي وتمضي بها الرّياحُ سِراعا

يا بحارَ الفناءِ في العالم المجـ ـهول رفقاً بزورقي المكدود
واحشدي حولَهُ عرائسَكِ الحو رَ لعلّي أسلو جمالَ الوجود
فأنا يا بحارُ شاعرةُ الأحـ ـلامِ ضمَّخْتُ بالفتون نشيدي
وتغنّيتُ بالحياةِ ولكنْ لم تَبَرَّ الحياةُ لِيْ بالوعود

أيُّها الليلُ آنَ أن يُطفئَ المو تُ شُعَاعَ الطُموحِ في مقلتيَّا
لن تنالَ الآهاتُ من خافقِ المو تِ ولن تُصْغيَ الحياةُ إليّا
فوَدَاعاً من قلبِ عاشقةِ الليـ ـلِ وَدَاعاً وأنتَ يا موتُ هيّا
هكذا تذبُلُ الحياةُ ويخبو لحنُ أحزانِها على شفتيّا

١٥-٦-١٩٤٥

السفر

أنا وحدى فوقَ صدْر البحر يا زورقُ فارجعْ
عـبـثـاً أنتظرُ الآن فـنجـمى ليس يطلعْ
هبّتِ الريحُ على البـحـر الجُنونىِّ المُرَوِّعْ
لَتَعُدْ للشاطئ الساجى بقلبى المُتَضَرِّعْ

عُدْ إلى الشاطئ، عدْ ما عاد يحلو لى البقاء
ذهبَ البحرُ بأصحابى إلى حيثُ الضياء
أنا وحـدى، أيهـا الملاّحُ، حُـزْنٌ وبُكاءُ
يَرْجِعُ الزورقُ بى وحدى إذا جاءَ المَسَاءُ

ذهبوا للشاطئِ المسحورِ إذ عُدْتُ لوحدى
ذهبوا إلا أنـا، عُدتُ بأحزانى وسُهْدى
لم أصبْ فى رحلتى إلاَّ صَبَاباتى وجُهْدى
فليكنْ، يا بحرُ، هذا، بالمُنى، آخرَ عهدى

كـيف يا بحـرُ توارى الركْبُ خلفَ الجـزُرِ؟
كيف يَذْوى فى فؤادى الصّـبِّ حُلْمُ السَّفَرِ؟
عــزَّ يا بـحْــرُ على مــوجكَ بُـرْءُ الصَّــدَرِ
فــلأُعــدْ، لا رحــمةَ الآنَ بـقلب القَــدَرِ

فـلأُعـدْ للسـاحلِ المظلـم قلبـاً مُسْـتَطارا
أدْفِنُ الحلْمَ وأحـيـا زهرةً وسْطَ الصَّـحَـارى
أبداً أروى أناشــيـدى بأحــزان الحـيَـارى
أبداً أحْلُـمُ بالفَــجْــرِ فــلا ألقى الـنّهــارا

أيهــا الزَّوْرَقُ عـد بى، لم يَـعُـدْ ثَمَّــةَ حُلْمُ
قد مَـضى الرَّكْبُ ولن يُشرقَ فى أفـقى نَجْمُ
مـا الذى أرجـو ومن حـولى المَسَـاءُ المُدلهِمُّ
والأعاصـيرُ، وأشـباحُ الدّيَاجى، والخِـضَمُّ؟

أيُّهــا الشّــاطئُ، يا مَنْبَعَ أحــلامى، وداعــا
سئمَ المِجـدافُ فى كــفّىَّ دَفْـعـاً وصــراعـا
كـيف ألقـاكَ وقـد مَـزَّقـتِ الريحُ الشِّـراعـا
ورجـائى فـيكَ بين المَوْج يا شـاطئُ ضـاعـا

فـلأُعـدْ، لا سَفَـرَ اليـومَ إلى الأفقِ الجـميلِ
لن أرى الشـاطئَ، لن أحلُمَ فى ظلِّ النخـيلِ
وغـداً رحلتىَ الكبـرى إلى وادى الأفـولِ
آه فـلأرحلْ إليـه، فلقـد حـان رحـيلى

فـوَدَاعـاً أيهـا الركبُ وَدَاعـاً يا حـيـاة
آنَ أنْ يُطْفـئَ أفـراحى وأحـزانى المـماتُ
آنَ أن تهـجُـرَ قـيثـارى وعـودى النَغَـمـاتُ
فـسـلامٌ أيهـا المـوتُ، سـلامٌ يا رُفَـاتُ

١٩٤٥-٧-٣٠

مرثية غريق

أيّهــا النَهْــرُ لقــد جــاء المســاءُ
وَمــشَى الـصـمْتُ على الموجِ الوديعْ
وخــبــا فى الأُفقِ الحــالى الضــيــاءُ
وتَلاشى وقْعُ أقـــدامِ القطيعْ

سكن الكونُ ســوى الموجِ المُدَوّى
أســاطيرِ العُـصـورِ الخــاليــاتْ
لم يَزَلْ يشكو المقــاديرَ ويَرْوى
أبداً للكونِ أســرارَ الحــيــاةْ

إيه يا ضِــفَّــةُ مــا ذاكَ الخــيــالُ؟
فــوق صــدْرِ الموجِ، تحت الظُلُمــاتِ
أ إلهٌ قـــد تصــبَّـــاه الجــمــالُ؟
أم غــريقٌ عــزَّهُ حَبْلُ النجــاةِ؟

حدّثيني، ما أرَى خلفَ السِّياجِ؟
فهو يا ضِفّةُ فى الليلِ مريبُ
ما الذى ألمح فى هذى الدياجى؟
ما تراهْ ذلكَ الشىءُ الغريبُ؟

هيكلٌ يغطُسُ حيناً ثمَّ يطفو
تائهاً تحتَ دُجى الليلِ الحزينْ
بَشَرٌ هذا ترى؟ أم هو طيفُ؟
ليتَ شِعْرى، يا دياجى، ما يكونْ؟

آه يا شاعرتى، هذا غريق
فاحزنى للجَسَد البالى المُمزَّق
راقداً، تحتَ الدياجى، لا يُفيقُ
والسَّنا من حَوْلِه جَفْنُ مؤرَّقْ

يا لَمَيْتٍ لم يودِّعْهُ قريبُ
فهوَ فى النَهْر وحيدٌ مُتعَبُ
ما بكَى مَصْرَعَهُ إلاّ غريبُ
هو قلبى، ذلكَ المكتئبُ

يا رياحَ الليلِ رِفْقاً بالرُّفاتِ
واهدئى، لا تُقْلِقى جسْمَ الغريقِ
حسْبُهُ ما مزّقتْ أيدى الحياةِ
فليكُنْ منكِ له قلبُ صديقِ

ولْتكنْ، يا نهرُ، أمواجُكَ حضنا
يتلقّاهُ وقلباً مُشْفقا
ولْتكنْ، يا نجمُ، أضواءُك عَيْنا
تسكُبُ الدْمعَ على من غَرِقا

آه يا قيثارتى، أىُّ المآسى!
قد كرِهْتُ الليلَ أضواءً وظلاّ
أيها الصيَّادُ، قفْ! ألقِ المراسى
إنّ تحتَ الليلِ جسْماً مُضْمَحِلاّ

هوذا، يا أيها الصيّادُ، جسْما
خامدَ الأنفاسِ فى حضْنِ المياهْ
وعُيوناً مُلئتْ رُعْباً وهَمّا
لم يزَلْ يملؤها حُبُّ الحياهْ

أيّها الصيّاد، قفْ بالزورقِ
وانتَشلْ هذا الغريقَ البائسا
خُذْهُ للشاطئ وادفنْ ما بَقِي
منه في القَرْيةِ وارجِعْ يائسا

ما الذي تصطادُ في بحْرِ الزَمَنْ
وغداً يصطادُكَ الدهرُ العتيٌّ
نحن يا صيّادُ أبناءُ الشَجَنْ
حفَّ مَحْيانا الشَقَاءُ الأبديُّ

كلَّ يومٍ بينَ أيدينا غريقُ
وغداً نحنُ جميعاً مُغْرَقونا
عالَمٌ حفَّ به الموتُ المُحيقُ
وتَباكَى في حِمَاهُ البائسونا

ضاقَ يا صيّادُ في عَيْني الوجودُ
يا لَكَوْنٍ سِرُّهُ لا يَنْجلي
كلُّ ما فيه الى القَبْرِ يقودُ
ما الذي يَبْقَى لنا من أملِ؟

١٠-٧-١٩٤٥

على حافة الهوّة

جــــئـــــتُكِ، يـا هوّةُ، تحتَ الدُّجَى
لـعلّـنى ألـقـى لَـدْيـكِ الخَـــــــــلاصْ
لـم يبْـقَ لـى فى الأرضِ مـــــا يُـرتَجـى
ولم يَـعُـــــدْ لى مـن رحـــيلـى مَنـاصْ

جـــئـــتُكِ حَـــيْـــرَى فى ظلاّمِ الـدُّجَى
يـدفـعُ أقــــــــدامى جُـنـونُ الألَـمْ
جـــــئتُ وروحـى فَـــزَعٌ صــــارخٌ
باســمِ إله الـصـــــمْتِ، بـاسم الـعَـــدَمْ

إليـكِ جـــسْـــمى، كـــفّـنى بالـشَـــذَى
أشـــلاءَهُ الغــــضَّـــةَ واســــقـيــــهِ
ألـقـى عـلـيـــــه بـاقـــــةً حُـلْـوةً
من زَهْـرِ أكـــتــوبَـر، ضُـــمّـــيـــهِ

وإن يكنْ تحتَ الدُّجى بلبلٌ
فاستحلفيه أن يَصوغَ الرِّثاءْ
وإن تَسَاقَى الزّهرُ عطرَ النَدَى
فقطرةٌ منه لجسمي ارتواء

الليلُ يدرى، ها أنا لم أزَلْ
بين جُنونينِ، ونفسى انفجارْ
أريد ان أحْيَا... ولكنّنى
أحِسُّ بالثورة والإحتقارْ

هيّا إلى الموت، إلى صَمْته
فيمَ أخافُ الآن؟ فيمَ الألمْ!
عمّا قليلٍ تنتهى قَسْوتى
على حياتى، ويضجُّ النَدَمْ

عمّا قليلٍ يتصَبّى الدُجى
قلبى، بما فى صَمْتِه من حياةْ
عمّا قليل يَحْتوينى الأسى
على وَدَاعِ الحبِّ والذِكرياتْ

ها أنا في جُبْنِيَ، في موقفي
يخفقُ قلبي بالشَّذَى باللَّهبْ
تَرَدُّدِي يصرُخُ بي ارجعي
للشِّعْرِ، للأحلامِ، فيمَ الْهرَبْ؟

وخَلْفَ نفسي هَمْسَةُ كالصَّدَى
يكادُ يُفْنِيها النِّداءُ الجديدْ
تهتُفُ بي: هيَّا فكفُّ الرَّدَى
أحنَى على جُرحِ الحياةِ المُبيدْ

وبين صَوْتَيْ قلبيَ المُزْدَرِي
وروحيَ العاشقِ ضاعَ القَرارْ
ومرّتِ الساعاتُ ثم انطوتْ
ولم أزلْ في حَيْرةٍ وانتظارْ

وعُدْتُ للمَعْبد، لا جُثَّةً
محمولةً بل جَسَداً ماشيا
أسخَرُ من نفسيَ مما جَرَى
وأزدري إحساسيَ الباقيا

١٩٤٥-٧-٣٠

سياط وأصداء

«كان على أرض الشارع المبللة جسد حصان، وكانت السياط ترتفع ثم تهوى فلا تسقط إلا على جرح».

ما زلتُ أذكُرُ كلَّ شيء من صباحى الضائعِ
الراقدُ الدامى المجرَّحُ فوق أرضِ الشارعِ
وَصدَى السياطِ المرهقاتِ على الجبين الضارعِ

يا ثورةَ الإحساس فى نفسى علامَ تَمَزُّقى
ألمى على الجسد الممزَّق بعضُ ضَعْفى الأحمقِ
وغداً سأدفنُ ما تبَقَّى من حنانى المرهقِ

يا ليتنى عمياءُ لا أدرى بما تَجْنىْ الشُرورْ
صمَّاءُ لا أصغى إلى وقْع السياط على الظهورْ
يا ليتَ قلبى كانَ صخْراً لا يعذِّبهُ الشعورْ

يا ليتنى، ماذا تُفيدُك، يا حياتى، ليتنى؟
أحلامُك النَضراتُ باتت فى قُنوط مُحْزنِ
لن يسمَعَ القَدَرُ المدَمِّرُ فأصرُخى أو أذْعنى

يا نارَ عاطـفتى الرقيـقة، يا غـريبةُ فى البَـشَرْ
وَقْعُ السياطِ على الظهورِ أشدُّ من وقْعِ القَدَرْ
والحسُّ فى هذا الوجـودِ جـريمـةٌ لا تُغْتَـفَـرْ

لن تقتلى الشيطانَ فى الإنسان أو تُحيْى الملاكْ
وغداً ستطويك الليـالى فى دياجيـرِ الهلاكْ
وغدا سيأسُرُكِ التـرابُ فلا شعورَ ولا حَرَاكْ

ما كان أثقلَ عبء أحلامى وآلامى وأقسَى!
فـامـشى بنا نحـو الفَنَاء لعلَّنا نَـنْسَى ونُنْسَى
وليُسْـدَلِ السترُ المقدّسُ، حَسْبُنا غمـاً ويأسا

٢٤-١٠-١٩٤٦

نغمات مرتعشة

عُـــدْ، لـم يزَلْ قلـبى نشــيـــداً حـــالما
يشـــدو بحـــبِّكَ لحنُهُ المفـــتـــونُ
عُـــدْ فـــالكـآبةُ أغـــرقَتْ بـظلامـــهـــا
روحـى، فلـيلـى أدمُعُ وشُـــجـــونُ
عُـــدْ، لا تَدَعْ نفـــسى يعـــذبهـــا الأسى
ويَعَـضُ فـيـــهـــا خـــافقٌ مـــحـــزونُ
عُـــدْ فـــالحـيـــاةُ- إذا رجـعْتَ- أشـعّـةٌ
ومـــشـــاعـــرٌ سِـــخْـــريّـةٌ وفُـــتُـــونُ

خطـواتُكَ اللاّتى تـبـاعَـــدَ رَجْـــعُـــهـــا
فى مـــســـمـــعى، تحتَ الظلامِ الـشـاحبَ
كلـمـــاتُك اللاتـى تلاشى وَقْـــعُـــهـــا
وخَـــبَتْ بعـــيـــداً، فـى السُكون الـراعبَ
بَسَـــمـــاتُكَ الـلاتى خَـبَت ومَـضَـاتُهـا
فـى مُـــقْـلتـىَّ، مع الـنهــــار الذاهـب
ذابت جـــمـــيـعـــاً، والســتـائرُ أَسْـدلتْ
فى مَـــسْـــرَحِ الأملِ الجـــمـــيـلِ الغـــاربِ

ذهبَ النهارُ بشاعرى، بنشيدهِ
وبَقيتُ فى غَسقِ الظلامِ القاتمِ
أرنو ولا شيءٌ يروقُ لناظرى
وأصيخُ، أين مَلاحنى ومَلاحمى؟
عُدْ، عدْ إلى روحى الغريبِ، فأدمعى
عصفت بأفراحى وقلبى الساهمِ
عُدْ يا نشيدى الشاعرىَّ لمسمعى
ماذا يعوِّضُ عن صداكَ الحالمِ؟

حبِّى الإلهىُّ النقىُّ ظلمتَه
ووفاءُ روحى الشاعرىِّ العابدِ
قلبى الرقيقُ أسأتَ فهْمَ حنينهِ
ونشيدُ أحلامى وروحُ قصائدى
لم أدْرِ ماذا كان، إلا رعْشَةُ
فى روحىَ الولْهى وقلبى الشاردِ
وخلا المكانُ وعُدْتُ أسألُ وحشتى
عن طَيْفكَ الناسى وحُبِّى الخالدِ

مــا زلتُ مــنذُ ذَهَبْتَ حَــيْــرَى فــى الدُجى
شـــــهِـــــدَ الأســى أنّى لزمــتُ مكــانيــــا
مــا زال روحى راعـــشــاً مــتــمـــزقــاً
يســـتنطقُ الســرَّ الغـــريبَ الخــافــيــا
وهمــى يصـــوِّرُ لى خُطَاك ووْقــعَـــهـــا
فــإذا أصَــخْتُ صَــحَــوْتُ من أحــلامــيــا
لا شىءَ غــيــرُ الرّيــحِ تَعْــصِــفُ فى الدُجى
لا شىءَ غــــيــــر تَنَهُّــــدى وبــكائيـــا
٥
١٩٤٦-١١-١

المقبرة الغريقة

«من ذكريات الفيضان المخيف الذى ألم ببغداد سنة١٩٤٦، هذه القصيدة تسجل فيها الشاعرة أثر سماعها بقصة مقبرة غمرتها مياه النهر المتوحش فى ماء عاصف».

فى ظُلمة الليلِ المُخيفِ الرهيبْ
وتحتَ هولِ العاصفِ الأهوجِ
قَبْرٌ على التلِّ وحيدٌ غريبْ
رانتْ عليه ظُلَّةُ العَوْسجِ

قبرٌ وحيدٌ لم تَنَلْهُ المياهْ
مُعْتصمٌ بالقمَّة الساخرهْ
كأنَّه يرمُقُ أفْقَ الحياةْ
مُسْتهزئاً باللُجَّة الدائرةْ

بالأمسِ قد كان هُنا عالَمٌ
يغمرُهُ الموتُ بأستاره
يهفو عليه العَدَمُ القاتمُ
فى وَجْمةِ الصَمْتِ وأسراره

مقبرةٌ أودعها البائسونْ
أشلاءَ أمواتِهِمُ الفانيه
يا جُثثاً ما كفَّنتْها المَنُونْ
بغيرِ أطباقِ الثَّرى العاريه

هذى الوجوهُ الشاحباتُ الجباهْ
وهذه الأشلاءُ والأعينُ
طَفَتْ حَيارَى فوقَ وجهِ المياهْ
وعضَّ فيها العَدَمُ المخْزَنُ

يا نهْرُ لا تَقْسُ على الميّتينْ
حسبُكَ ما سبّبتَهُ من شقاءْ
حسبُكَ ما شرّدتَ من بائسينْ
وارفَقْ بسُكّانِ الثَّرَى الأبرياءْ

روّعْتَ صمْتَ الأنفُسِ الراقدة
فى وَجْمةِ الموت وصَمت القبورْ
يا رحمةً بالجُثَثِ البارِدة
ولَيكُ فى موجِكَ بعضُ الشعورْ

فـى كلِّ رُكْـنٍ من دُجَـى المقْــــبــــره
تَسْـــبَــحُ أجْـــســــادٌ وتطفــــو عـظامْ
والرّيـحُ فى صَــــيْــحــــاتهـــا المُنْكَره
والـلـيـلُ مـــــــا زالَ رهـيـبَ الـظـلامْ

يا لَـلْمـــســـاكـــينِ، أحـــتّـى المـــاتْ
تَـلْحَـــــقُـــــهـم لَـعْـنـةُ أيّامـــــهـمْ؟
مــاذا جَنَـوْا من مُـبْـهـجــات الحـيـــاه
تـرَى ومــــا ألـوانُ أحـــــلامـــــهـمْ؟

حـــــتّى الـرُقَـــــادُ الـهــــادئُ الآمـنُ
يــأبــاهُــم إيّــاهُ قَـلْـبُ الــســنـيـنْ
يـشــــــهَــــدُ هـذا المنظَـرُ الســـــاكـنُ
أىُّ سُـــــهــــادٍ، أىُّ لـيلٍ حـــــزيـنْ

يا ضَـــــجَّـــــةَ الإعــــصــــارِ لا تملئى
آفــــاقَ هذا الـعــــالَـمِ المُشْـــتكـى
وأنـت يـا أمـــــواجُ لا تـهْـــــزئـى
بـذلـكَ الـطـافـى عـلـى وَجْــــــهـكِ

لم يُبْقِ منه الدودُ شيئاً يُرَى
ولم يَذَرْ منه الرَدَى باقيا
هذا الرُفَاتُ الكالحُ المُزْدَرى
قد كان بالأمس فتًى لاهيا

يَنْسجُ تحتَ الليلِ ثوبَ الضياءْ
وينثُرُ الحبَّ على العالَمِ
جذلانَ لا يعرفُ معنى الفناءْ
مُسْتغرقاً فى نشوةِ الحالمِ

أهكذا تَفْنَى أغاريدُنا
ويهزأ الموتُ بأزهارها
وتملأُ الدنيا أناشيدُنا
يوماً، ونَنْثوى تحت أحجارها

ما أفظَعَ المبدأ والمُنْتَهَى
ما أعمقَ الحزنَ الذى نحملُ
ترفعُنا الأحلامُ فوقَ السُّهَا
وتهدمُ الأيّامُ ما نأملُ

وهذه المقبرةُ المُظلمة
نهايةُ المَسْعَى، فيا لَلْشقاءْ
أبعد هذى الجنّة المُلْهمة
نسقطُ، فوقَ الشوكِ، صَرْعى الفناءْ

بكيتُ للأمواتِ طولَ المساءْ
وُصغْتُ من دمعى النَشيدَ الحزينْ
وفى غدٍ أرقُدْ تحتَ السَمَاءْ
قبراً سَيبكى عندَهُ العابرونْ

قبرٌ، على التلِّ، وحيدُ غريبْ
رانتْ عليه ظُلَّةُ العَوْسجِ
فى ظُلمة الليلِ العميقِ الرهيبْ
وتحت هولِ العاصفِ الأهوجِ

١٣-٥-١٩٤٦

عودة الغريب

قلبيَ الذابلُ الحـزينُ الذى مـا ... تَ وذابتْ أفـراحُـهُ ومناهُ
قلبيَ الشـاردُ المعـذّبُ بـالأحـ ... ـلامِ مـا بيـن دمعـه وأسـاهُ
مـالَهُ الآن خـافـقاً بـندى الحبِّ ... يـغنّى تحتَ النجـوم هَـوَاهُ
ويصـوغُ المُنَى ويَـرْجعُ للشـا ... طئ جـذلانَ مُـرْسـلاً نجـواهُ

فى غِمـار الماضى دفنتُ دموعى ... وتبـسّمتُ للغَـدِ المـراحِ
ظَمَـأى لم يَعُـدْ يعـذِّبُ روحى ... وشـرودى تحت الدُجَى والـرِّياحِ
ذهبَ البـحـر لم يَعُـدْ مـاؤه المِلْـ ... ـحُ يُدَوِّى على مَسيلِ جـراحى
ها أنـا عندَ منبعٍ شـاعـرىِّ الـ ... ـسَمـاءِ صـافٍ هامتْ به أقـداحى

ها أنـا الآنَ زورقٌ حـالمُ المجـ ... ـدافِ يَرْسـو على رمـالِ الضفـافِ
قلبيَ الشـاعـرىُّ مـلاّحُـهُ البـا ... سمُ يشـدو سـرَّ الوجـود الخـافى
شَـدَّ مـا عـذّبتْ أغـانيَـهُ الغُـرْ ... بةُ واشـتـاقَ فتنـةَ الصَـفْـصـافِ
أبداً فـى عُـرْضِ الميـاهِ ينـادى الـ ... ـبحْـرَ يا بحـرُ طالَ فـيكَ طوافى

أيُّها الطائفُ الغريبُ لقد عُدْ ... تُ وهذى مفاتنُ الآجامِ
هى ذى الضَفّةُ الحبيبةُ يا ملاّ ... حُ هذى شواهقُ الآكامِ
إنّها جنّةُ الحياة تلاقتْ ... عندَها الذكرياتُ بالأحلامِ
فاهبط الآن وانسَ أشباحَكَ السُّو ... دَ وذكرى الماضى الحزينِ الدامى

يا غريبَ الأحلام إمْسَح بقايا الأ ... مسِ والذكرياتِ والأحزانِ
أصبح الأمسُ صَرْخةً فى حِمَى الما ... ضى طَوَتْها ستائرُ النسيانِ
كلُّ أحزانه العميقات عادتْ ... لفظةً ضمَّها سكونُ الزَّمانِ
أطفأتْها الأيّامُ فهى ظلامُ ... ولهيبٌ خابٍ وطيفٌ فانِ

لا تُثِرْهُ دعْهُ يَنَمْ أبدَ الدهـ ... ـرِ وعش أنتَ ضاحك الأهواءِ
أيّها الميّتُ الذى نبضَت فيـ ... ـه معانى الحياة بعد الفناءِ
أيُّها الظامئُ الذى أبصَرَ النبـ ... ـعَ قريباً بعدَ الصَدَى والشقاءِ
املأ الكأسَ آن للظمأِ المُحْـ ... ـرِقِ أن يرتوىْ بشهدِ الرجاءِ

ذلك الماردُ الحقيرُ ثَوَى فى ... ظُلُمات الأمسِ البعيدِ وغارا
لن تَرَاهُ الأمواجُ فى البحْر بعدَ الآ ... نَ لن يملأَ النجومَ احتقارا
لن يُحيلَ الأحلامَ فيكَ دموعاً ... ويعيدَ الأنغامَ هولا ونارا
إنّه الآنَ مُغرَقٌ فى حمى المو ... جِ فلا تَخْشَ حِقْدَهُ الجبّارا

والحـــيـــاةُ الـتى تلقّـــتْكَ بالـزهــ ـــرِ تَـرنَّمْ بهـــا تلالأ وعُـــشْـــبـــا
هَبْ لهـــا يا مـــلاّحُ قلـبـاً مـن النو رِ وروحـاً كـالشـعـر والحبِّ عَـذْبا
هَبْ لهـا ما ملكـتَ شوقـاً وأشعـا راً وعشْ للجـــمـال روحـاً وقـلـبـا
صُغْ لهـــا البـحْـــرَ كلَّهُ فى نشـــيـدٍ أرضـعـتْـهُ الـنـجـومُ ضَـوءاً وحُـبّـا

عـادَ ذاكَ الغـريبُ يا مـعـبـدَ الحبِّ فـــمُـــدَّ الجناحَ فـــوقَ أســـاهُ
إن يكنْ ضلَّ قلـبُـهُ أمس فى البـحــ ـــرِ فـقــد كـفّـرتْ دمـوعُ صِـبـاهْ
علَّمـتْـهُ عـواصفُ الليل حبَّ الـ ـفـــجـــر فلْتلمحِ السَّنا عـيـناهُ
ولتضعْ فى الماضـى البعيـدِ المجاذيـ ـــفُ وتلـك الريـاحُ والأمـــــواهُ

أنســه حـــبَّـــهُ الذى مـــاتَ وامنح قلبـهُ الشـاعـرىَّ حُلْمـاً جــديدا
حسـبُهُ مـا أشـقـيـتَـهُ أمسِ بالذكـ ـــرى فـهْـبـهُ الحـيـاةَ ظلاً رغـــيـدا
بمعـــانيكَ قــرِّب النـجم والسُّـحْـ ـــبَ لعَـــيْـنيــه والصِّـــبـــا والخلودا
يا شبـابَ الحيـاةِ يـا فـرحـةَ الدنـ ـــيـــا ويا بابَ نُبْـلهـــا المفـــقـــودا

١٤-١١-١٩٤٦

الغروب

هبط الليلُ وما زالَ مكانى
عند شطٍّ النهْرِ، فى الصمْتِ العميقِ
شردتْ روحى، وغابتْ عن عيَانى
صُوَرُ الحاضرِ والماضى السحيقِ
وامّحَى فى خاطرى ذكْرُ الزَمانَ
وتلاَشتْ ذكَرُ الدَهْرِ المُحيقِ
ليسَ إلا الحُزْنُ يمشى فى كيانى
وأنا فى ظُلْمةَ الليلِ الصديقِ

غَرقَ الضوءُ وراء الأفقَ
وخلا العالَمُ من لون الضياءْ
ليس الاّ رَمَق فى الشَفَق
حائلُ قد كاد يمحوهُ الفَنَاءْ
وأنا تمْثالُ حُزْن مُحْرق
وشَقَاءُ مُطْبِقُ فوقَ شَقَاءْ
أرُمقُ الأفقَ بطَرْف مُغْرَق
تائه يَطْوى دياجيرَ الفَضاءْ

رفَّ حــولـى الليلُ والصـــمْتُ الكئـــيبُ
وتمشَّتْ فى كـــيـــانى الرَعَـــشـــاتُ
أىُّ مـــعنىً هـاجَ فى نفـــسى الغُـــروبُ؟
أجـــفلتْ فـى جَـسَـــدى منه الحـيـــاةُ
وَســـرَى فى مـســـمـــعى هَمْسٌ غـــريبُ
كـــلُّـــه هـــولُ ورُعْـــبُ وشَـــكَـــاة
واعـــتـــرانى خـــاطـرُ مُـــشْجٍ رهـيبُ
وتَـجَلَّى لخـــيـــالاتى المـمـــاتُ

ها أنـا وحـــدى تُنَـاجـــينى هُـمـــومى
وكـــآبـاتـى وأشـــبـــاحُ الـفَنـاءِ
كلُّ مـــا حــولى مُــشـيـــرُ للوُجـــومِ
مَـــصْـــرَعُ الـشـــمسِ وأحـــزانُ المســـاءِ
عــبـــثـــاً أطردُ عن نفـــسى همـــومى
عـــبـــثـــاً أرجـــو شُــعـــاعـــاً من رَجَـاءِ
غَـــرِقَـتْ أحـــلامُ قلبـى فى الغـــيـــومِ
وتلاشـت مـــثل أحـــلامِ الضـــيـــاءِ

أقْــفَــرَ العــالَمُ حــولى لا نشــيــدُ
من صـــبىٍّ أو هُـتَــافُ أو حـــفــيفْ
وخـــلا شـــاطئَ الســـاجى المديدُ
ومَـــشَتْ فى الجـــوِّ أحـــزانُ الخـــريفْ
أنا والأمـــواجُ واليـــأسُ الشـــديدُ
وانحــــــدارُ الشطِّ والظلُّ الوريفْ
وحــــــوالىَّ ظـلامٌ وركــــــودُ
ألقَــيــا الُحــزْنَ على حِــسِّى الرهيفْ

من بعــيــد أبْصــرُ الراعى الحـــزينْ
يُرْجِع الأغنامَ فى صــمْت الغـــروبِ
مُطْرِقـــاً أتعَـــبــهُ ركْبُ السنينْ
فــقــضــاها فى نحــولٍ وشُحــوبِ
هو والأغنامُ حُــــــزنٌ وسكونْ
وخُطىً فى مَـــســـمعِ الليلِ الرهيبِ
وأنا أرمُـــقُـــهمْ غَـــرْقَى الُجـــفُـــونْ
تحتَ أحـــلامِ شـــبـــابى وكـــروبى

وبعيداً في الفَضاءِ المدْلهمِّ
خَفْقَةٌ من جُنْحِ طَيْرٍ عابرِ
فاجأته ظُلْمةُ الليلِ المُلِمِّ
وجبالٌ من سحاب ماطر
فسرى بين دجاجير وغيم
كخيال في فؤاد الشاعرِ
لحظةً، ثم توارَى في الخِضَمِّ
بين أمواجِ الظلامِ الغامرِ

آه ما أرهَبهُ الآنَ سكونا
لا أعي فيه سوى دقّات قلبي
صَمَتَ الكونُ ونام المتْعَبونا
وهْوَ ما زال صَدَى حُزنٍ وحُبِّ
نَظَراتي لم تَزَلْ حُلْماً حزينا
وخيالاتُ مسائي لم تَعُدْ بي
طفقت تصعَدُ بي أفقَ السنينا
وترودُ الكونَ من شَرْقٍ لغَرْبِ

ونُبَـاحُ الكلـبِ فى الحـقْلِ البـعـيـدْ
رفّ فى سَـمْـعى ضـئـيـلاً مُجْـهَـدا
مُـوحـشـاً فى ظُلْـمـة الليـلِ الوليـدْ
غـامضَ الوَقْعِ، غـريبـاً كـالصَـدَى
كلُّ صَـوْتٍ فى الدُجَـى رُعْبُ جـديدْ
عنـدَ مَنْ قـدْ كـان مـثلى مُـفْـرَدا
ذا فـؤاد مُـرْهَـف الحسِّ شـريـدْ
دَفَـنَ الأمـسَ ولـم يَـرْجُ الـغـدا

ومـيـاهُ النَهـر تجرى فى شُـحـوبْ
تحتَ أكـداسِ الغُـيـومِ الجـاثمـاتْ
وصَـدَى طاحـونة القَـمْـحِ الغـريبْ
يُكْئب النـفسَ بأشـجَى النَغَـمـاتْ
هـكذا مـرَّ علـى روحـى الغُـروبْ
غـامضَ الـظلِّ حـزيـنَ الخطُوات
فـوَدَاعـاً أيُّهـا الجـرْفُ الكئـيبُ
وَوَداعًـا يـا غِـمـارَ الـظُلُـمـاتْ

١-١٢-١٩٤٦

عاشقة الليل

يا ظَلامَ الليلِ يا طاويَ أحــــزان القلوبِ
انْظُرِ الآنَ فــهـذا شَـبَحٌ بادي الشُّـحـوبِ
جاء يَسْعَى، تحت أستاركَ، كالطيف الغريبِ
حـامــلاً فى كـفِّـه العــودَ يُغنّى للغُـيـوبِ
ليس يَعْنيهِ سُكونُ الـليلِ فى الوادى الكئيبِ

هو، يا ليـلُ، فـتــاةٌ شَـهِــدَ الوادى سُــرَاها
أقـبـلَ الليلُ عليــهـا فــأفـاقـتْ مُـقْلتــاها
ومَـضَتْ تسـتـقـبل الوادىْ بألحـان أسـاها
ليتَ آفــاقَكَ تـدرى مــا تُغنّى شَــفَــتــاها
آه يا لـيلُ ويـا ليـــتَكَ تـدرى مــــا مُنَـاها

جَنَّهـا الليـلُ فـأغـرتهـا الدَّيَـاجى والسكونُ
وَتصبَّـاها جمالُ الصَـمْت، والصَمْتُ فُتُونُ
فنَضَتْ بُرْدَ نهـــارٍ لفّ مَــسْـراهُ الحنـينُ
وسَـرَتْ طيــفـاً حـزيناً فـإذا الـكونُ حـزينُ
فـــمن الـعـــودِ نشـــيجٌ ومن الـليلِ أنـينُ

إيهِ يـا عـــاشـــقـــةَ الـليلِ ووادِيـه الأغنِّ
هوذا اللـيلُ صَـدَى وحيٍ ورؤيا مُـتَـمنِّي
تَضْـحكُ الدنُيـا ومـا أنتِ سـوى آهة حُـزْنِ
فـخُذى العـودَ عن العُـشْبِ وضُـمِّيـه وغنِّي
وصِـفى ما فـى المساءِ الحلْوِ مـن سِحْـرٍ وفنِّ

مـا الذى، شاعـرةَ الحيْرةِ، يُـغْرى بالمسـاء؟ .
أهى أحـلامُ الصَّبـايا أم خَـيـالُ الشـعـراء؟
أم هو الإغـرامُ بالمجـهـولِ أم ليلُ الشـقـاء؟
أم ترى الآفاقُ تَسْـتهويكِ أم سِحْرُ الـضياء؟
عـجـبـاً شـاعـرةَ الصـمْتِ وقـيـثـارَ المسـاء

طيفُكِ السـارى شحوبٌ وجلالٌ وغـموضُ
لم يَزَلْ يَسْـرى خـيـالاً لَفَّـه الليلُ العـريضُ
فـهـو يا عـــاشـقـةَ الظُلْمـة أسـرارٌ تفـيضُ
آه يا شـــاعـــرتى لن يُرْحَمَ الـقلبُ المهـيضُ
فارجعِى لا تَسْألى البَرْق فما يدرى الوميضُ

عَـجَباً، شـاعـرةَ الحـيْرةِ، مـا سـرُّ الذُهُول؟
مـا الذى ساقك طيـفـاً حالماً تحتَ النخـيلِ؟
مُـسْنَدَ الرأسِ إلى الكفّـينِ فى الـظلِّ الظليلِ
مُغْرَقاً فى الفكر والأحزانِ والصمتِ الطويلِ
ذاهلاً عن فـتنةِ الظُلْمـةِ فى الحـقلِ الجـمـيلِ

أنصتى هذا صُراخُ الرعْـد، هذى العاصفاتُ
فـارجـعـى لن تُدْركى سـرّاً طوتْهُ الـكائناتُ
قـد جَـهِلْناهُ وضنّتْ بـخـفـاياهُ الحـيـاةُ
ليس يَدْرى العـاصفُ المجنونُ شـيـئـاً يا فتـاةُ
فـارحمى قـلبَك، لن تَنْطق هذى الظُلُمـاتُ

١٩٤٥-٤-٤

في وادي الحياة

عُدْ بي يا زورقي الكليلا | فلن نرى الشاطئَ الجميلا
عُدْ بي إلى مَعْبدي فإنّي | سئمتُ يا زورقي الرحيلا
وضِقْتُ بالموج أيَّ ضيقٍ | وما شَفَى البحرُ لي غليلا
إلامَ يا زورقي المُعَنّى | نرجو إلى الشاطئ الوصولا؟
والموجُ من حَوْلنا جبالٌ | سدت على خطونا السبيلا
والأفق من حولنا غيوم | لا نجمَ فيه لنا دليلا
كم زورقٍ قبلَنا تولّى | ولم يَزَلْ سادراً جَهُولا
فعد إلى معبدي بقلبي | وحسْبُ أيامنا ذُهولا

حسبُكَ يا زورقي مَسيراً | لن يُخْدَعَ القلبُ بالسَّرابِ
وارجعْ، كما جئتَ، غيرَ دارٍ | قد حَلَّك الجوُّ بالسَحابِ
وملَّ مجْدافُكَ المُعَنّى | تقلُّبَ الموجِ والعُبَابِ
ولم يَزَلْ معبدي بعيداً | خلفَ الدياجيرِ والضَبابِ
يَشُوقُني الصمْتُ في حِمَاهُ | وفتنةُ الأيكِ والروابي
عُدْ بيَ يا زورقي إليه | قد حانَ، يا زورقي، إيابي
ما كفكف البحرُ من دموعي | ولا جَلاَ عنّيَ اكتئابي
ففيمَ في موجِه اضطرابي | وأينَ، يا زورقي، رِغَابي؟

تائهةٌ، والحياةُ بحرٌ ... شاطئُهُ مُبْعدُ سحيق
تائهةٌ والظلامُ داجٍ ... والصمْتُ تحت الدُجَى عميق
يا زورقي آهِ لو رَجَعْنا ... من قبلِ أن يخبوَ البريقُ
انظُرْ حواليْكَ، أيُّ نَوْءِ ... تجمَّدُ من هوله العروقُ
البحرُ، يا زورقي جُنونٌ ... وموجُهُ ثائرٌ دفوقُ
وكلَّ يومٍ له صريعُ ... في هَجْعةِ الموت لا يُفيقُ
وأنتَ في الموج والدياجي ... يا زورقي في غدٍ غريقُ
فعُدْ إلى الأمس، عُدْ إليه ... قد شاقني أمسيَ الوريقُ

ماذا وراء الحياة؟ ماذا؟ ... أيُّ غُموض؟ وأيُّ سِرٍّ؟
وفيمَ جئنا؟ وكيف نمضي؟ ... يا زورقي، بل، لأيٍّ بحرِ؟
يدفعُكَ الموجُ كلَّ يومٍ ... أينَ ترى آخرُ المقَرِّ؟
يا زورقي طال بي ذهولي ... وأغرقَ الوهمُ جوَّ عُمْري
أسْرى كما ترسمُ المقاديرُ ... لي إلى حيثُ لستُ أدري
شريدةٌ في دُجى حياتي ... سادرةٌ في غُموضِ دَهْري
فخافقٌ شاعرٌ، وروحُ ... قال لها الدَهْر لا تَقَرِّي
وناطَها بالذُرَى تُغنّي ... وتنظِمُ الكونَ بيتَ شِعْرِ

١٢-٦-١٩٤٥

أشواق وأحزان

أين منّى حـرارةُ الأمسِ، والحـا ضِرُ يمشى بين الأسَى والخمودِ؟
أسفاً للمـاضى الإلهىِّ هل مـا تتْ أغانيه فى فؤادى الوحيد؟
آهِ يا شـاعـرى لماذا تهاويْـ ـتَ بعيداً وراءَ أمسى البعيدِ؟
وأنا لم أزلْ صلاةً لعينَيْـ ـكَ وإعصار لهفةٍ وشُرودِ

آهِ هل غابَ عن ظلام حياتى كلُّ ما كان لهفةً وفُتونا؟
كيف ضاع الحبُّ الإلهىُّ يا طا ئرىَ الحرَّ فانفجرتَ ظُنونا؟
وأنا لم أزَلْ فؤاداً على الشو قِ يدارى غـرامَهُ المدفونا
ليتنى كنتُ بُحْتُ يا حُلُمَ الرو حِ وأعلنتُ حبِّى المكنونا

كيف مرّت أيّامُنا كيف مرّت بين فكِّ الأشواقِ والأحزانِ؟
ملء قلبى وقلبكُ الحبُّ والشّوْ قُ ولكن نلوذ بالكتمانِ
كلّما حدّثتْكَ عيناى بالحبِّ أعاقبْ عينىَّ بالحِرْمانِ
كيفَ يا شاعرى كتمنا ولم يَعْـ ـصِ كيوبيدَ قبلَنا عاشقانِ؟

كيف ضاعتْ عواطفى؟ كيف أنْسَوْ ... كَ غــرامى وحَــيْــرتى ووفــائى؟
ملئـــوا قلبَكَ النبـــيلَ أباطيـ ... ـلَ وصــاغــوا كــواذبَ الأنبــاء
وقــضَــيْتُ الأيام أذرف إحــســا ... سى دمــوعــاً وأســتلذُّ شَــقــائى
لا لقــاءُ غــيــر الظُنونِ ولا فــر ... حــةَ غــيــر الخــيــالِ والأصــداءِ

أنتَ أنتَ الذى احتــفظتُ بذكــرا ... هُ فلــم يَنْسَــهــا فــؤادى الــوفىُّ
كــيف غــابتْ عن ذكــرياتك أحــلا ... مى وشـــوقى وحُــبّىَ الــروحىُّ
شَــهِدَ العــودُ كــيف علّمتُــهُ حُبَّ ... ـكَ مــثلى فــهــو المحبُّ الشــقىُّ
شـــهِد المعــبــدُ الكئــيبُ لحبّى ... أنّ حُــــبّى مــــخــلّدُ أبَــدىُّ

يا نشيــدى متى ستــأتيكَ ألحــا ... نى فتُصْغى إلى هُتافــاتِ حبّى؟
فــيمَ أقــضى الأيّامَ أكــتُمُ أشــوا ... قى وقــد ضــاقَ بالعــواطفِ قلبى؟
أبداً نلتــقى فــأعــرضُ حَيْــرى ... ولقلبى الكئــيب أشـــواقُ صبٍّ
إنّهـــا الكبـــرياءُ تمتلــكُ الرو ... حَ فــيــبــدو المُحبُّ غــيرَ مــحبٍّ

ضاعَ عُمْرى الحزينُ فـى معبد الُحزْ ... نِ وأذوتْهُ لــهـــفــتــى وشكــاتى
لم يزلْ حبّىَ العــميقُ عــمــيــقــاً ... لم تــزدْهُ السنيــنُ غــيـــرَ ثَبــاتِ
لم أزلْ تضــحَكُ النجــومُ وتــبكى ... وتــغنّــى عــلى صَـــــدَى آهاتــى
لم أزَلْ فى الحيــاةِ ورقــاءَكَ الحيْـ ... ـرى ومــا زلتَ أنتَ حُــلْم حيــاتى

١٥-٣-١٩٤٥

مدينة الحب

فى عُمْق صحراء الحياة، هناك فوق لَظَى الرمالْ
حيثُ الرياحُ الداويات، مدينةٌ بين التلالْ

فى قلبها نهرٌ تُحيط به المفاوزُ والصخورْ
وشواطئٌ لا ظلَّ فيها، لا خمائلَ، لا عطورْ

الماءُ يبدو وادعاً ووراءَ الألمُ العميقْ
أمواجُهُ السُّمُّ الزُعَافُ وإن بدا حُلْوَ البريقْ

كم زورق خدعته جنّياتُهُ ورسومُهُ
كم حالمٍ أودتْ به أمواجُهُ وسُمومُهُ

والشاطئُ الثانى يلوِّحُ بالجمال وبالفتون
حتى إذا قاربتَهُ أبصرتَ إعصارَ المَنُون

لا شيءَ غيرُ الشوكِ والأشلاء فوق صُخوره
لا صوتَ يُسْمَعُ غيرُ ضجَّةِ دودهِ ونسورهِ

اللیلُ فیه مخاوفٌ ووساسٌ لا تَخْمَدُ
أبداً یزلزلُهُ صُراخٌ غامضٌ وتنهُّدُ

یا طارقَ البابِ المروِّعِ عُدْ ولا تهبِطْ هُنا
هذا الجمالُ سیستحیلُ دماً وماءً آسنا

هذی الشواطئُ، کلُّ ما فیها أسیً وتحسُّرُ
فحذارِ منها فالسُّمومُ مُعَدّةٌ والخنْجَرُ

عیناكَ لا تسكُبْ بریقَهما على ظُلُماتِها
وصِباكَ لا تدفِنْ مُناهُ فی شقاءِ حیاتِها

وفؤادُكَ الخفّاقُ صُنْهُ من قَذَی آثامِها
ماذا رأیتَ من الحیاةِ لتحتمی بظلامِها؟

عُدْ، عدْ إلى لَهَب الصحاری وانجُ من حَمم المدینة
لا تُلْقِ قلبَكَ فی اللظَی وأصِخْ لشاعرةٍ حزینه

١٩-٧-١٩٤٦

إلى عينى الحزينتين

عـــينىَّ، أىُّ أسىً يـرينُ عـليكمـــــا
ويُثـيـــرُ فى غَـــسَقِ الدُّجَى دمـــعـيكمـــا؟

إنى أرى خـلفَ الجـــفُــونِ ضـــراعــةً
تســـتنطقُ الـكونَ العـريـضَ المبْـــهــمـــا

أفـــقـــانِ تحت الـليلِ ألمحُ فـيـــهــمـــا
قَطَـراتِ ضَـــوءٍ يرتـشـــفنَ الأنجـــمـــا

الكـونُ مــبـــتـــسمُ فـــأيّةُ لوعـــةٍ
يا مـــقــلتىَّ تـلوحُ فـى جَـــفْنيكمـــا؟

مـــسكـينتـــانِ، رأيتُـــمـــا مـــا لا يَرَى
جـــيلٌ أقـــام على الـضـلال وحَـــومًــا

جَـــهِلَ الحــقـــائقَ فى الحـيــاة، فلـم يُطِقْ
عن زيفـــهـــا هَـرَباً وعـــاش مـــهـــوِّمـــا

مسكينتان كتمتُما حُمَم الأسى
فأبى تأوّهُ خافقى أنْ تكتما

فإذا الدموعُ غشاوةٌ رفّتْ على
جَفْنيكما، سيلاً سخيناً مُفْعَما

ورأيتما، خَلَلَ الدُموعِ، مفاتنَ الـ
ـماضى وطاف الشوقُ فى أفقيكما

عبثاً تصوغان التوسّلَ فى الدُجَى،
قلبُ القضاء قَضَى بألا تَنْعَما

عبثاً، فيا عينىَّ لا تتضرَّعا،
لا شىءَ يَرْجِعُ بالجمالِ إليكما

حسبى وحسبُكما الرُضوخُ لما قَضَى
قلبُ الليالى فارضخا واستسلِما

كم حالمٍ من قَبْلِنا فَقَدَ المنَى
فَقَضى الحياةَ لوحدِهِ متجهّما

يرَعى الليــالى مــانحًــا ظُلُمــاتهــا
روحــاً مــجنحــةً وقلبــاً مُلْهَــمــا

عــينىَّ، يا سرَّ الطبـيـعــة، حَــدِّثا
مــاذا وراءَ الكـائنات رأيتُـــمـــا؟

رفــعتْ ديـاجيـرُ الحــيـاة ستُـورَها
لكمـــا وأبدتْ سـرَّها المُشْتَــبْـهـمـا

هـاتا حـــديثَ الموت، هاتا ســـرَّهُ
قـــد آن، يـا عـــينىّ، أن تتكلمـــا

مــا شـــاطئُ الأعــراف؟ مـــا ألـوانُهُ؟
مـا سـرُّهُ الخـافى؟ صِـفـاهُ وتَرْجِـمـا

فى صــدرىَ الخـــفّــاق قلـبٌ راعشُ
مـا زالَ صَـبّـاً بالمفــاتن مُـغْـرَمـا

لولاهُ، يـا عـيـنىَّ، مـــا غنّيـتُـمـــا
بهَـوَى الحـيـاةِ ولا أصـابكـمـا الظَمـا

عُـــذراً إذا حُــمّـلتُـــمــــا حُــزْنَ الـدُنا
لولایَ، يـا عـــينیَّ، مــا حُــمّـلتُـــمــــا

وكــفى فــؤادى، فـى الحـيــاة، شَـقــاوةً
أنّى جنيتُ، مـع الحـــيـــاةِ، عليكمـــا

٢٥-٦-١٩٤٥

خواطر مسائية

إذا زَحفَ الليلُ فوق السُهُوبْ
ومرّتْ على الأفق كفُّ الغيومْ
ولم يَبْقَ غيرُ السكون الرهيبْ
ونام الدُجَى تحت جُنْح الوجومْ

ولم يبقَ إلا نُواحُ اليمامْ
وهمسُ السواقى وأنّاتُها
ووقْعُ خُطَى عابرٍ فى الظلامْ
تمرُّ وتخفتُ أصواتُها

جلستُ أناجى سكونَ المَسَاءْ
وأرمُقُ لونَ الظلامِ الحزينْ
وأرسلُ أغنيتى فى الفضاءْ
وأبكى على كلِّ قلبٍ غبينْ

أصيخُ إلى هَمَسات اليمامْ
وأسمعُ فى الليلِ وقْعَ المطَرْ
وأنّات قُمْريّة فى الظلامْ
تُغنّى علَى البُعْدِ بينَ الشَجَرْ

وآهات طاحونة، من بعيدْ
تنوحُ المساءَ وتشكو الكَلالْ
تمرُّ على مسمعى بالنشيدْ
وتفتأ تصدَحُ خلفَ التلالْ

أصيخُ ولا صوتَ غيرُ الأنينْ
وأرنو ولا لونَ غيرُ الدُجَى
غيومٌ وصمْتُ وليلُ حزينْ
فلا عَجَبُ أن أحِسَّ الشَجَا

رأيتُ الحياةَ كهذا المساءْ
ظلامٌ ووحشةُ جوٍّ كئيبْ
ويحلُمُ أبناؤها بالضياءْ
وهمْ تحت ليل عميقِ رهيبْ

طبيعتُها أبداً باكية
فصمتُ الدُجى وأنينُ الرياحْ
وتنهيدةُ النَسَمِ السارية
ودمعُ النَدَى فى عيُونِ الصباحْ

وأبصرتُ عند ضفاف الشقاءْ
جموعَ الحزَانى وركْبَ الجياعْ
تُشرّدُهم صَرَخَاتُ القضَاءْ
وما أرسلوا هَمَساتِ الودَاعْ

وأصغيتُ لكن سمعتُ النشيجُ
يُدوّى صَدَاهُ على مَسمعى
وراءَ القصورِ وفوقَ المروجْ
فمن يا ترى يتغَنّى معى؟

سأحملُ قيثارتى فى غدِ
وأبكى على شَجَنِ العالمِ
وأرثى لطالعه الأنكدِ
على مسمع الزمَن الظالمِ

١٩٤٥-١١-٢٤

التماثيل

«هدية إلى قائمة الأسماء الغامضة المنطفئة التى
جاءت فى سفر التكوين من كتاب العهد القديم».

قد سئمتُ التفكير يا ليلى السا ... جى وألقيتُ بالكتابِ الحبيبِ
لم تَعُدْ هذه الصحائفُ توحى ... لى بغيرِ الحزنِ العميقِ المذيبِ
فهى صوتُ الآبادِ يحملُهُ الما ... ضى الى قلبىَ الشَجى المشبوب
فيُدوِّى فى عمق نفسىَ صوتُ الـ ... ـعَدَمِ المرِّ والفَناءِ الكئيبِ

أسفاً يا حياةُ ما هذه الأسـ ... ـماءُ؟ ماذا قد كانَ من أهليها؟
كيف مرَّتْ أيّامهم ليتَ شعرى؟ ... أترى أدركوا السَعَادةَ فيها؟
أم ترى لم يكنْ لهم من جَنَاها ... غيرَ كأسٍ من سُمِّها رَشَفوها؟
وطوَوْا لُجَّةَ الحياة سراعاً ... ثمّ ألقَوْا أعباءها ونَسُوها

أسلموا للترابِ والموتِ والظُلْـ ... ـمة تلكَ القلوبَ دونَ رجاءِ
وطَوتْهم يدُ الزمانِ ولم تَسْـ ... ـتبقِ منهم شيئاً سوى الأسماءِ
آه يا موتُ يا مقادرُ يا تا ... ريخُ رفقاً بأنفُسِ الأحياءِ
أكذا يُسْدَلُ السِّتارُ على الأعـ ... ـمارِ؟ يا للأحزانِ يا للشّقاءِ

لَيتَ كفٌّ النسيانِ قد مَحَت الأسـ ـماءَ من قبلُ ليتَـهـا لم تَصُنْهـا
ليتـها لم تَدَعْ عـلى صَفَـحـات الـ ـكُتْـب ظلاً منهـا يحـدِّثُ عنهـا
تركـتْـهـا سُـخْرِيَّةً فـى فم الدهـ ـرِ وهُـزْءاً من الحـيـاة ومنهـا
يا حـيـاةً هِمْنا بـهـا وهْيَ لـيل يأْمـرُ الموتُ فى دُجَاهُ ويَنْهى

أَيُّهـذى الأسـمـاءُ يا من تـبقَّـيـْ ـت تماثيلَ ليسَ فـيـهـا حـيـاةُ
أنت يا مَنْ بالأمسِ كنت شُـعـوراً وقلوبـاً تَشُـوقُـهـا النَغَـمـاتُ
كلُّ لـفظ وراءَ أحـرفـه مَـعْـ ـنى حـيـاة أتى عليـهـا المماتُ
كلُّ لفظٍ قلبٌ مَشَى تحتَ ضوء الـ ـشـمسِ يومـاً ومـلؤهُ الرَغَـبـاتُ

واسـتحـالت تلـك القلوبُ رَمَاداً واسـتـحـالتْ أعـمـارُها ألحـانا
كلّ حيٍّ مَـشَى به الأهـلُ والأصـ ـحـابُ للقبـرِ يائسين حَـزَانَى
وتصـدَّى للذكـريات الحـزينات فـتـىً شـاعـرٌ يذوبُ حنانا
فـشَـداها أغنيّـةً ظنّهـا تُبْـ ـقى حـيـاةَ الموْتـى وتعـدو الزمـانا

آه يا للـمخـدوعِ قـد بقى اللحـ ـنُ ولـكنْ أينَ الـذين شـداهم؟
أينَ ألحـانُهـم؟ وأين أمـاني عـمْرهـم؟ أو حقـولُهُم وقُـرَاهم؟
أينَ مـا حـدَّثوا بـه الليلَ والفـجـ ـرَ؟ وأينَ ابتـهـاجُـهـم وأساهم؟
أسفـاً شـاعـرى! لقـد بـادَ مَوتْنا كَ وأبقَـيْتَ فى الورَى ذكـراهم

مـا تُفيـدُ الذكـرى وقد خَبَت الألـ ـحانُ واستسلمتْ لأيدى السكونِ؟
واستحال الأحـياءُ فى الكُتْبِ أسما ءً تُثـيـرُ الأسَى لـقلبى الحـزينِ
لستُ أدرى مـاذا حـوَى كلُّ لفظ من مـعـان غـابتْ وراءَ السنينِ
لسـت أدرى إلا أسـاىَ وحُـزْنى لضـحـايا المَاضـى وصرْعَى المنونِ

وأنا يا حـيـاةُ مـاذا سـألـقَى؟ هل سـأغدو لفظاً جَـفَـتْهُ المعـانى؟
هل سـتطويـنىَ الليـالى وتُلـقى فـوق عُـمْـرى دياجـرَ النسيـانِ؟
وغـداً يـطفىءُ الزَّمـانُ سـراجى ويُضـيعُ الرَّدى صَـدَى ألحـانى؟
ثم أغـدو بينَ التـمـاثيلِ تمـثـا لاً؟ وأُمْـحَى من الوجـودِ الفـانى؟

آه لا لا أُريـدُ فلتـرحمِ الأيّا مُ دمـعى وشَقْـوتـى واكـتـئـابى
وليكنْ من لحنى الحزينِ صـدىً با قٍ بسَـمْـعِ السنيـنِ والأحـقـابِ
رحـمـةً لا تكنْ دمـوعى الدَفُـوقـا تُ رثاءً مـبـكِّراً لـشـبـابى
وليُسَـجَّلْ على ضـريحىَ مـا يُبـ ـقى شبـابـى وإن أكن فى التـرابِ

هكذا ينتـهى شـعـورى بحـرمـا نى وأنسَى مـأسـاةَ عُمْـرى الخـادعْ
وأعـزِّى بأنّ فى الـكون من قـلـ ـبى بقـايا مـن الأسَى والمدامعْ
ويقـولونَ: ذلكَ اسـمُ فـتـاة طـالما غـنّت الـنجـومَ الـلوامـعْ
فـسـلامُ علـى أسـاها وذكـراً ها سـلامُ على صِبَـاها الضـائعْ

٣-٦-١٩٤٦

ذات مساء

ثورة مـن ألـمٍ، مـن ذكــــــــــرياتِ
خلفَ نـفــسى، ملء إحـســاسى العـنيفِ
وجُـــمـــــوحٌ فى دمـى، فى خَلَـجَـــاتى
فى ابـتـــســامـــاتـىَ، فى قلبـى اللهـــيفِ

إن أكنْ أبـسِمُ كـــالطـفلِ الســـعـــيـــدِ
فـــابتــســامـــاتـىَ وهْمٌ وخِـــداعْ
إن أكــنْ هـــادئـــةً، بـــيـــن الـــورودِ
فـــفـــؤادى فى جُنونٍ وصِـــراعْ

أيُّ مـــأســاةٍ تَـراها مُـــقْلتـــايا!
أيُّ حُــــزْنٍ عـــاصـــرٍ فـى نَظَـراتى!
جَـمَـدَتْ فـوق شـقـائى شَـفَـتـــايا
وانحـنتْ كـــفَّـــاىَ تحت الـرَعَــشَـــاتِ

لا تَسلْني عن خيالاتي وحني
فالدجى الآنَ بغيضٌ في عيوني
أينَ ألقى بَصَري الباكي وحُزْني
إن أنا حولّتُ عن كفّي عُيوني؟

أينَ أرنو؟ كلَّما حولّتُ عيني
طالعتْني صورةُ الوجه اللهيفِ
ذلكَ الوجْهُ الذي ألهبَ فنّي
بمعاني الشِعْر والحبِّ العنيفِ

أيّها الغادرُ، لا تنظرْ إليّا
قد سئمتُ الأمل المُرَّ الكَذُوبا
حسْبُ أقداري ما تَجْنى عليّا
وكَفَى عُمْري حُزْناً ولهيبا

فيم أبقى الآن حَيْرَى في مكاني؟
آه لو أرجعِ، لو أنسَى شقائي
أدفنُ الأحزانَ في صَدْر الأغاني
وأناجي بالأسى صمْتَ المَسَاءِ

ليــــتنا لا نلتـــقى، ليتَ شَــــقَـــائى
ظلَّ نــاراً، ظلَّ شـــوقـــاً وسُــــهَــــادْ
يـا دُمـــــوعى، أىُّ مــــعنىً للّـقــــاء
إن ذَوِى الحبِّ وأبلاهُ البــــعـــــادْ

أيّهــــا الأقــــدارُ، مــــا تبــــغــــينَ منّا؟
فــــيمَ قــــد جــــئتِ بنا هـذا المكـانا؟
آه لـو لـم نكُ يـا أقــــدارُ جــــئـنــا
ها هُـنا، لـو لم تَـقُــــدْنا قَــــدَمــــانا

مــــا الـذى أبقــــيتِ فى قـلبى الجــــريحِ
لـيس إلا الألـمَ المرَّ الشــــــــديـدا
لم يَعُــــدْ فى جــــســمىَ الـذاوى وروحى
مــــوضعُ يحــــتــمـلُ الجـــرْحَ الجـــديدا

أكــــــذا تنطفئُ الـذكـــــرى؟ ويَـفْنـى
حــــبّنا؟ والأمَـلُ الشــــعــــرىُّ يخــــبــــو
أكــــــذا تذبـلُ آمـــــــالىَ حُــــزْنـا
وهــى أشــــعــــارُ وأنغــــامُ وحــبُّ؟

خَــدَّرَ الحـــزنُ حـــيــاتى وطـواها
لـم تَعُــدْ تَـعنينىَ الآنَ الحـــيـــاةُ
أبـداً ينـطـقُ بـاليـــأسِ دُجَـــاهـا
وتُغـنّى فى فَــضَــاها العــاصــفــاتُ

لم يَـعُــدْ مـن حُلُمـى غــيـــرُ ظلالِ
مـن أسىً مـــرَّ علـى وجـــهـى المريـرِ
آه لا كـــان بُـكائـى وخَـــيــــالـى
أيّهـــا الليلُ، ولا كـــانَ شـــعـــورى

والتـــقـــينا، لا فـــؤادُ يـتـــغـنّـى
لا ابتـــســـامُ رســـمـتْـهُ الـشَـفَـتـــانِ
لم يَـعُــدْ إحـســاسُنا شــعــراً وفـنّاً
ليــتـنا ضــعْنا ومـــاتَ الخــافــقــانِ

لم يـعــســدْ فى نـفـــســىَ الولْـهى مـكانُ
لأسـىً أو فـــرحـــة أو ذكـــريـات
أىّ مـــعنـىً للـمُـنى؟ فـــاتَ الأوانُ
وذَوَتْ عـــينـاىَ، تحتَ الـعَــبَـــرَاتِ

والتـــقـــينـا فى الدُجَـى، كـــالغـــرَباء
تحتُ جُنح الصـــمت يطـويـنا الـوجـــومُ
كلُ شـىءٍ ضـــاحـك تحتَ الـســمـــاء
وأنا وحـــدىَ تـذوينـى الهـــمـــومُ

هكـذا يا لـيلُ صـــوّرتُ شـــقـــائى
فى نـشـــيـــد من كـــآبـاتى وحـــزنى
قـــصّـــةٌ قـــدْ وقـــعَتْ ذاتَ مـــســـاء
وَحـــوَتْ روحـى وأحـــزانـى ولحنـىَ

١٩٤٦-٥-٢

جزيرة الوحى

خُذْنى إلى العالم البعيدِ
يا زورقَ السِحْر والخلودِ

وسِرْ بقلبى إلى ضِفافٍ
توحى إلى القلبِ بالقصيدِ

جزيرةُ الوَحْى، من بعيد،
تلوحُ كالمأملِ البعيدِ

الرملُ فى شطِّها نَدىٌّ
يرشَفُ من دجلةَ البَرُودِ

والقَمَرُ الحُلوُ، فى سَماها،
أمنيّةُ الشاعرِ الوحيدِ

فلْتَسْرِ يا زورقى بروحى
قد آنَ أن يستفيقَ عودى

وآنَ للشعر أن يُغنِّى
بالحُلم الضَاحكِ الشَرُودِ

حُلمى، وقد صغْتُه نشيداً
يهشُّ، من سِحْرِهِ، وجودى

شاعرتى، حدِّقى، فهذى
جزيرةُ الشِعْرِ والنشيدِ

لاحتْ، على البعْد، ضَفَّتاها
أمنيّةَ العالَمِ الجديدِ

إن لَهَتِ المقلتانِ عنها
صاحت بها الأمنياتُ: عودى

فَلْتبسمى، يا ابنةَ الأغانى
للشاطئِ الساحرِ المديدِ

ولْتُوقفى الزورقَ المُعَنَّى
تحت شُعَاعِ السَنَا البديدِ

العـــودُ والـشِـــعْـــرُ والأمـــانى،
شـــاعـــرتى، فـــاصْـــدَحى وزيدى

قـــد ضَـــحكَ الـعُـــمُـــر واســتـنامتْ
عـــــواصَفُ اليـــــأسِ والنـكـودِ

وانـقـلبَ الـيـــــأسُ بـشْـــــريـات
وأمـنيــــاتٍ، فـــأىُّ عـــيـــــدًا!

١٩٤٤-٩-٥

على وقع المطر

أمطري، لا ترحمي طيفيَ في عُمْقِ الظَلامْ
أمطري صُبِّي على السيلَ، يا روحَ الغَمَامْ
لا تُبَالي أن تُعيديني على الأرضِ حُطَامْ
وأحيليني، إذا شئتِ، جليداً أو رُخَامْ

اتْركي ريحَ المساءِ المُمطرِ الداجي تُجَنُّ
ودعي الأطيارَ، تحت المطر القاسي، تئنُّ
أغرقي الأشجارَ بالماءِ ولا يُحْزِنكِ غصْنُ
زَمْجري، دَوِّي، فلن أشكوَ، لن يأتيْكِ لحنُ

أمْطري فوقي، كما شئتِ، على وجهي الحزينِ
لا تُبالي جَسَدي الراعشِ، في كفِّ الدُجونِ
أمطري، سيلي على وجهيَ، أو غَشِّي عيوني
بلِّلي ما شئتِ كَفيَّ وشَعْري وجبيني

أغْـرقى، فى ظُلْمـة اللـيلِ، القُـبـورَ البـاليـه
والطمى، مـا شئت أبوابَ الـقُصـور العاليـه
أمْطرى، فى الجـبَل النائى، وفـوقَ الـهـاويه
أطْفـئى الـنيـرانَ، لا تُبْــقى لحىٍّ باقــيــه

آه مــا أرهَـبَك الآنَ، وقــد ســاد الـسكونْ
غيرَ صوت الرِّيح، فى الأعماقِ، تدوى فى جُنون
لم تَزَلْ تَهْمى، من الأمطارِ، فى الأرض، عُيونْ
لم يَزَلْ قلبى حـزيناً، تحت أمـواجِ الدُجـون

أيُّهــا الأمطارُ، قــد ناداك قلبى الـبَـشَــرىُّ
ذلك المُغْـرَقُ فى الأشـواق، ذاك الشـاعـرىُّ
اغْــسليــه، أم ترى الحــزْنُ حـمَــاهُ الأبدىُّ
إنّـه، مــــثلَـك يا أمـطـارُ، دفّـــــاقٌ نقـىُّ

أبداً يـســمـعُ، تحت الليلِ، وقْعَ القَـطَراتِ
ســاهمـاً يـحلمُ بالماضى وألْـغـاز الممــاتِ
يسـألُ الأمطارَ: مـا أنت؟ ومـا سرُّ الحـيـاة؟
وأنا، فـيمَ وجـودى؟ فـيمَ دمـعى وشكَاتى؟

أيهـا الأمطارُ ما مـاضيك؟ من أين نبـعت؟
ابنةُ البـحـرِ أم الـسُـحْبِ أم الأجـواء أنت؟
أم تُرَى من أدمُعِ الموْتَى الحزَانى قد عصرْت؟
أم دموعى أنتِ يا أمطارُ فى شَدْوى وصَمْتى؟

مـا أنا؟ ما أنت يا أمـطارُ؟ ما ذاك الخـضَمُّ؟
أهُوَ الواقعُ مـا أسـمَعُ؟ أمْ صـوتُك حُلْمُ؟
أىُّ شىء حـولنا؟ ليـلٌ وإعـصـارٌ وغـيـمُ
ورعـــودٌ وبـروقٌ وفـــضــــاءُ مُـــدْلـهِمٌّ

أسفـاً لستُ سوى حُلْمٍ على الأرضِ قصـيرِ
تَدْفنُ الأحـزانُ أيَّامى ويـلهـو بى شُـعـورى
لسـتُ إلا ذرةً فى لُجَّـــة الدهـرِ المُغـــيـــرِ
وغـداً يجرفُنى التـيَّـارُ، والصمْتُ مـصيـرى

وغـداً تدفـعُنى الأرضُ سَحَـاباً للـفـضـاء
ويُذيـبُ المَطَرُ الدفَّـــاقُ دمـــعى ودمـــائى
مـــا أنا إلا بقـــايا مطرٍ، مـلءَ السـمـــاء
تَرجِعُ الـريحُ إلى الأرضِ به، ذاتَ مـســاء

أمْطرى، دوِّى، اغلبى ضجَّةَ أحزانى ويأسى
أغرقينى، فلقد أغرقتُ فى الآلام نفسى
إملئى كأسىَ أمطاراً فقد أفرغتُ كأسى
واحْجُبى عنى دُجَى أمسى فقد أبغضتُ أمسى

٩-١٢-١٩٤٦

شجرة الذكرى

مــــررتُ بهـــا فـى المســـاء الـدَّجِيّ
فـــألقـــيتُ رَحْلىَ فـى ظلّـهـــا
وحـــدّقتُ فى خُـضْــرِ أوراقــهـــا،
وروحى الـكئـــيـبـــةُ فى لـيلـهـــا
فـــهـــاجـتْ لقلبى دُجى الذكـــريات
وأتـرعـتُ لحـنـىَ مـن ويـلـهـــــا
وصـيَّـــرتُ مُـتَّـكَأى ســاقَـهـــا
وطافـتْ شـجـونى من حـولهـــا

تـذكـــرتُ، والقـلـبُ فى حُـــزْنِـهِ
وقـــوفـىَ، فى ظـلِّهـــا الســاحــرِ
كـــأنْ لـم تمرَّ الـليـــالـى الطِـوالْ
عـلى أمـــسـى المبـــعَـــدِ الدابـرِ
وقـفـتُ أكـفـكـفُ دمـعى الـسخـين
وأصــرُخُ مـن ألمى الآســـرِ
أقـصُّ على ظلِّهـــا قِـصَّـتى
وقـصَّـــةَ شــاعــرىَ الغــادرِ

قصصتُ عليها الحديثَ الكئيب
وفى يدَى الشوكةُ القاطعه
أمُرُّ بها، والأسَى غالبى،
على ساقها البرَّةِ الوادعه
فيا ليَدى جَرَحتْ ساقَها
وجذّتْ أزاهيرَها اللامعه
كأنى بذاك جرحتُ الحياه
وعاقبتُ أقدارَها الخادعه

ومرَّتْ علىَّ السنينُ الطوال
وطالَعَنى يومىَ الخالدُ
فأبصرتُ فيه أساىَ البعيد
يُحِسُّ به قلبىَ الواجدُ
فقلتُ لقلبىَ: هيا نَطفْ
بها، ولْيَثُرْ حزُنكَ الهامدُ
سنسألُها اليومَ عن جرْحها
ألم يَشفِهِ الزَمَنُ الآبد

وعُــــدْتُ إليــــهــــا، كـــأنْ لـم تمرَّ
علـــىَّ الـسنـيـن وأقــــــــــدارُهـا
فــــؤادىَ مـــا زال مــــســــتـأســــراً
وروحـىَ مــــــا أطـفــــــئت نـارُهـا
يُفَـــــيِّــــئُنى ظـلُّهـــــا من جـــــديد
وتحـنـــو عــلـــى الـقـلـب أزهـــارُهـــا
فـــيـــا نُبْلَهـــا، صَــفَـــحَتْ عـن يدى
ومــــــــــا زال عـنـد يـدى ثـــارُهـا

ودُرْتُ أســـــائلُ عن جُــــرْحـــهـــــا
أمـــــا دملتْـــــــهُ أكـفُّ القَــــدَرْ؟
فلـم أرَ إلاّ اخـــضــــرارَ الحـــيـــــاة
فـليس عـليــــهـــــا لجُـــرْحٍ أثَـرْ
وأمـــــا جِـــراحُ فــــؤادى الحـــزينْ
فــمــــا زلـنَ يشـكونَ طولَ الـصَــدَرَ
فـــيــــا عَـــجَــبــاً لـلزمــان المسىء
مــــتى عـن إســـاءتـه يعــــتـــذرْ؟

١٤-٦-١٩٤٤

الخيال والواقع

رحـــمــــةً، لا تُنزلـينى من سَـــمَـــائى
واتركـــينى فى خـــيـــالِ الشُــعَـــراءِ

اتركـــينى، لا تُعـسـيـــدى لى الـظُنونا
ودعـــينى أمـــلأ الدنيـــا لُحـــونا
وأصُغْ عُـــمْـــرى جَـــمَـــالاً وفُـــتـــونا
أبـداً أصْـــدَحُ حـــبّـــاً وَحـنـينا
لحـــبـــيـــبى وأنا تحتَ سَـــمَـــائى
وخـــيـــالى، من خَـــيـــالِ الشُــعَـــراء

اتـركـــيـنـي، أنا قـــد نُحْـتُ طويـلا
ودعـــينى أبصـــرِ الكـونَ جـــمـــيـــلا
شَـــبِـعَ القـلـبُ دمـــوعـــاً وذُهـولا
فـــدعـــيـــه يقطعِ الـعُـــمْـــرَ جَـــهُـــولا
ويَعـشْ، مـــثـلىَ فى ظـلِّ الســـمـــاء
ويُشـــاركنى خـــيـــال الـشـــعَـــراء

رحـــمـــةً بـي، رحـــمـــةً، لا تُحـــزنيـنى
ودعـــينى فـى خـــيـــالاتـى، دعـــيـنى
قـــصـّـــةُ الإثـم وأنبـــاءُ المُجـــونِ
لا تَقُـــصّـــيـــهـــا على قلبى الحـــزينِ
ودعـــيـــه، فى تـعـــاليـل السَـــمـــاء
ممعنـاً فى نَشَـــواتِ الشُـــعَـــراءِ

إنْ يـكن قـلبىَ ظمـــآنَ وفـــيّـــا
لا يَرَى فـى شـــاعـــرى إلا نـبـــيّـــا
أو يكـنْ يكـتُمُ حُـــبّـــاً شـــاعـــرياً
فـــهـــو مـــا زال بأوهـامى يـحـــيـــا
أبـداً يرسُمُ أحـــلامَ السَـــمـــاءِ
ويـغنّى أغنيـــاتِ الشُـــعـــراءِ

قـــد ســئـــمتُ الـواقعَ المرّ الممـــلا
ولقـد عُـدْتُ خَـــيـــالاً مـضـمـحـــلا
فـــاتـركـــينى بخـــيـــالى أتسلّى،
آه كـــاد اليـــأسُ يـعـــرونىَ، لـولا
أنّنى لُـذْتُ بأحـــلام الســـمـــاءِ
وتخـــيّـــرتُ خـــيـــالَ الشُـــعَـراءِ

صــوّرى مـا شـئت لى الأمسَ وسـحـرَهْ
يـومَ كــــان الحبُّ فى كـــــفّى زهـره
ارسُـــمى للـقلـب أحـــلامَ المَسَـــرّه
ودعـــــينى أذق الأفــــراحَ مــــرّه
عـلّنـى أهبطُ مـن بَرْجِ الســـمــــاء
ويجـــافــينى اكـتـئـــابُ الشُـعَــراءِ

لا تُثـــيـــرى ألمى، حــــسـبُك أنّى
لم أزلْ فـى مـــعـــبَـــد الحبِّ أغنّى
لـم يَزَلْ حُـلْمىَ رؤيا مُــــتَــــمَـن
كـلَّ يوم يَـهْـــدمُ اليـــــأسُ وأبنـى
ولقــد شـيّـدتُ لى بُـرْجَ السَــمـــاء
وخـــــيـــالاتـى ووهْمَ الـشـــعـــراءِ

لم يـكن حــبّى ســوى حُلْمٍ غــريبِ
مـــدَّهُ الـوهْمُ عـلى قـلـبى الـكـئــيـبِ
أسـفــاً، لم يَبْقَ لـى غـيـرُ شُـحـوبى
وأغـــــاريـدىَ آلـتْ لـلـغــــروبِ
لم يَعُــدْ لى غــيـرُ أحــلامِ السمـــاء
وخـــــيـــالاتـى ووهْمِ الـشُـــعـــراءِ

١٩٤٥-٨-٣١

السفينة التائهة

فى لُجَّةِ البحرِ الرهيبِ سفينةٌ تحت السماءْ
ألقتْ بها الأقدارُ فى لُجَجِ المنايا والشَقاءْ
الريحُ تصرخُ حولَها وتضجُّ فى ظُلَم الفضاءْ
والموجُ يضربُها ويُلقيها على شَفَةِ الفَنَاءْ

سارتْ ولا رّبانَ يَهْديها إلى الشطّ السحيقْ
حَيْرَى يُخَادعها الظلامُ فلا شُعَاعَ ولا بريقْ
من فوقها هولُ الرعود وتحتها اللُجُّ العميقْ
سارتْ وما تدرى إلى أينَ المصيرُ وما الطريقْ

الريحُ مزّقتِ الشراعَ فأينَ يضربُ زورقى؟
والموجُ أطفأ ضوءَ مصباحى فماذا قد بقى؟
وغداً سينسكبُ الدُجى فى جَفْنَى المغْرورقِ
وتسيرُ أمواجُ البحور على شبابى المُغْرَقِ

لا شيءَ يمسحُ أدمعي، لا حلْمَ تَلمحهُ عيوني
لا شاطئُ ترنو إليه سفينتي، تحتَ الدُجونِ
كتبتْ لي الأقدارُ أن أمشي على شوكِ السنينِ
جسماً تعذّبهُ كآبةُ خافقٍ جمِّ الحنينِ

رحماكِ يا أيدي الكآبة ما الذي قد كان منّي؟
ماذا جنَيْتُ لتَعْصُري قلبي وأحلامي ولَحْني؟
أبداً تمُدّين الجَناحَ على خيالاتي وفنّي
وتلوّنينَ مشاعري بسَوادِ آهاتي وحُزني

ويروحُ يصرُخُ تحتَ عبئكِ قلبيَ المتمرِّدُ
قلبي الذي ضاقَ الوجودُ به وعذّبَهُ الغَدُ
قلبي الكئيبُ المُستَطارُ الشاعرُ المتنهِّدُ
يحيا على ظَمأ الحياةِ فأينَ أينَ الموردُ؟

كم شاعرٍ عَبَدَ الحياةَ وعاشَ يشدو بالجَمالْ
أبداً يغرِّدُ للطبيعةِ والكآبة والخيالْ
حتى إذا طَلَع الصباحُ على الصحاري والتلالْ
عثرَ الضياءُ على فتىً مُسْجىً على كُثُبِ الرمالْ

نمّتْ عليه كـآبةٌ، لم يَمْحُـهـا الموتُ الرهيبْ
ووشت به عينانِ رانَ عـليهمـا اليأس المُذيبْ
وإلى يمـين رُفَاتـه قيـثارُهُ السـاجي الكئـيبْ
حَفِظَ الوفاء لمن خَبَتْ ألحانُهُ وذَوَى اللهيبْ

يا ليلُ، ما نَفْعُ الأسى؟ يا بحرُ، ما معنى الدموعْ؟
النَوْءُ يصـخَبُ داوياً، والمـوجُ يهـزأ بالقُلوعْ
أنَّى تسيرُ سفـينتى الحيْرَى إذن؟ أنَّى الرُجوعْ؟
فلنمضِ للمجـهولِ، ذلك وحدَهُ مـا نستطيعْ

١٩٤٦-٧-٧

قلب ميت

نعم، مـــاتَ قلبى، أينَ أحــزانُ حــبِّــه؟
وأين أمــــانيـــه؟ وأيـنَ أغـــانيـــه؟
حــرارتُهُ أضــحــتْ رَمــاداً مــهــشَّــمــاً
وأحــلامُــهُ ذابتْ على صــدر مــاضــيــه
هــو الآن ثـلجىُّ الـعـــــواطـف، بـاردٌ
يُقـــضِّى مع الأشـــبـــاحِ غُــرَّ لـيـاليـــه
ويَرْعَـــبُـــهُ ذكـــرُ الممـــات وليـله
فــيــدفِنُ نيـــرانَ الأسى فى قـــوافـــيـــه

وكـــانَ له من قـــبـلُ هيكلُ مَــعْــبَــد
يُغـنّيــــه فى أحـــــلامــــه وصَـــــلاته
مــن الحُبِّ والأحـــلامِ صـــــاغَ رُوَاءَه
وألقـى عليـــه أمنيـــات حــــيـــاته
على صَــدْره الـشِــعْـرىّ تمثـالُ شــاعــرٍ
تـذوبُ مــــعــــانى الـروح فى نـظراتـه
يَرىَ فــيــه إحـســاسى حــيــاة نقــيــةً
أطلَّتْ خـــفـــاياها عـلى ظُـلُمـــاته

وكـان صبـــاحٌ... واسـتـفـقـتُ فلم أجـدْ
من المعـــبـد الشـــعـــريِّ إلا رســـومَـــهُ
تَحَـطَّم تمثـــالي الجـــمـــيلُ على الثـــرى
وألقـى علـى قلبى النـقـىِّ همــــومَــــهُ
ورُحْـتُ إلى حــــبّـى أمــــزِّق زهـرَهُ
وأنثُـــرُ أحـــلامَ الـصـــبـــا ونجـــومَـــهُ
ويَنْـضَبُ في قـلبى جـــمـــالُ شـــبـــابه
وينفُـثُ ليلُ الحـــزنِ فـيــه سُـمــومَـهُ

وها أنا ذى عُـــمْـرى احـــتـــقـــارٌ وأدمعُ
وفـى نـفـــــسـىَ الـولـهـى لَظَـىً وتمـرّدُ
أحنُّ إلـى حـبّـى الجـــمـــيلِ وإن يـكنْ
أشـاحَ عن التـمــثـال جَـفْنى المسـهَّـدُ
ومـــاذا تـبـــقَّى الآنَ؟ شـلْوُ حـــجـــارة
تضـيقُ بهـــا نفـــسى، وصَــخْـــرُ ممدَّدُ
تَـعَلَّـقَ قـلبـى بـالـنجـــومِ وقـلـبُــــهُ
تمرَّغَ فـى الأوحـــالِ، والطـينُ يشــهَـــدُ

هنـالكَ، في الأمـس البـــعـــيــــد، وليـله
ســـأدفنُ تمْـــثـــالي وحُـــبّي وأدمـــعي
أشـــيِّـــدُ قـــبـــراً من تمـرُّدِ خـــافــقي
وأســـقـيـــه من بُـغْـضي له وتَرَفّــعي
أغنّيـــه ألحـــانَ احــتـــقـــاري وثـورتي
وتهـــزأ أضـــواءُ الـنجـــومِ به مـــعي
وأزرعُ فـــيـــه الشـــوكَ والـسُمَّ واللَـظَى
وأتـركُـــهُ شِـلْـواً كـــقـلبي المروَّعِ

١٩٤٦-٧-٢٨

بعد عام

مرَّ عــامٌ يا شــاعـري مُنْذُ أَبْـصَـرْ / تُكَ في ذلـك الصــبــاحِ الكئـيـبِ
مرَّ عـامُ لم تكتـحلْ عـينـى الظمـ / ـأى برؤيـاكَ لـم يخـف قُـطُوبـى
الليـــالى تمرُّ تـتـبــعُــهـــا الأيّـ / ـامُ فـى بُطْئــهـــا المُملِّ الرتـيب
وأنا لـهـــفـــةٌ وشـــوقـى يزدا / دُ وروحى فى عـاصف مـن لهيبِ
ظَمَــأ للحـيـــاة يملؤ إحْـسَــا / سى ونـارُ فى دمــــعىَ المسكوبِ
وشظـايا كـــآبـةٍ رســـمتْ فـــو / ق جـبـينى غُـــلالَةً من شـحـوبِ

مرَّ عـامُ من قـال؟ هـل أنا فى حُلْـ / ـمٍ بَـنَاهُ تـخــيُّـلى المصـــدومُ؟
أهْوَ وهـمُ مـــا خلـتُــهُ سنـةً أطـ / ـفـأ أضـــواءها الزمـــانُ اللئـيمُ؟
مـــرَّ عـــامٌ ولـم أقــابـلْك، مـــاذا؟ / كيفَ أبقتْ علـى حياتىِ الهـمومُ؟
كـيف طـابتْ لى الحـيـاةُ عـلى بُعْـ / ـدك عنّى؟ ولـم يُـمـتْنى الوجـومُ؟
الشــهـيقُ الحــزينُ فى هدأة اللـيـ / ـل، ألـم يُلْقِــه إليكَ الـنســيمُ؟
والشـــرودُ الذى أمـــاتَ أحـاســيـ / ـسى، أمـا حـدّثتْكَ عنه الـنجـومُ؟

لم أزلْ أذكــرُ الصَبَـاحَ الـذى مـرَّ / نَدَىً فـــوقَ قـلبىَ المكســـورِ
منذ عامٍ فى الشـارع الصاخبِ الممـ / ـتـدِّ والشـمـسُ فى صفـاءِ الأثيـرِ
جـمـعـتْنا هنالك الصُــدْفـةُ الحلْـ / ـوةُ فـى غَـــفْلةٍ من المقـــدورِ

والتـقـينـا لـم نبـتـسـمْ لـم أحـدّثـ ـكَ بمـا فى فـؤادى المـعـصـورِ
لحظـةً ثم أجــهــز الزَمـنُ القــا سى على قـلبِ حُلْمىَ المسـحـورِ
سرتُ يمنى وسـرتَ يُسْرى ولم يَبْـ ـقَ سـوى ثورتى ونارِ شُـعـورى

ومَـضـى العــامُ كلُّهُ، كـلَّ يوم أتلـقَّى الصـبــاحَ بـالأحـلامِ
كلَّ يـوم أقــولُ: يـا قلبى الظـمـ ـآن للصـَّحْـوِ لا تـضقْ بالغَـمَـامِ
ربّما أشفـقتْ بنا الصُـدَفُ العـمـ ـيـاءُ هذا الصـبـاحَ بعـد الظلامِ
لن يضْــرَّ الأقــدارُ فى ليـلهــا أن تتلقّــاكَ مــرّةً بابتـســامِ
فـتـــدبَّ الحــيـــاةُ ثانيـةً فــيـ ـكَ وتصـحـو خـوامـدُ الأنغـامِ
ويُجَنَّ الشـعـورُ فى عُـمْقِ أعـمـا قكَ حــيّـــاً حــراً من الآلامِ

مــرَّ عـامُ ودقّتْ السـاعـةُ الـحـمـ ـقـاءُ عشْراً واستيـقظتْ أحـزانى
الثــلاثـاءُ لـم يُعــدْك إلـى أشـ ـواق روحى المـمـزَّقِ اللهــفــانِ
مــرَّ عــامُ كــأنـه حُلُمُ مــرَّ علـى جَـفْن شــاعــرِ وسـنانِ
مـرَّ عـامُ لـم يبقَ منْهُ سـوى لحـ ـنِ حـزيـنِ مُـغْـرورقِ الألحــانِ
ليس إلاّ ابـتـســامـتى المرّةُ الظَمْـ ـأى ودقّــاتُ قـلبىَ الحـــيـرانِ
ليس إلاّ ظلُّ مـن الصـمـتِ واللهـ ـفـةِ يبـدو فى جـفـنىَ الظمـآنِ

١٩٤٥-٦-٢٦

العـودة إلـى المعبـد

معبدى، عادت بى الأحزانُ فـارأفْ بعذابى
عـدتُ يا ليـتكَ تَـدْرى بعضَ آلامى ومـا بى
عـدتُ والـقلبُ شـريدُ تـائهُ بين الضَـبَـابِ
يتلـوَّىَ فى إســارِ من حنينى واكــتـئــابى

ذهبَ الأمـسُ بأوهامِ فــؤادى ومــحـــاها
فـــإذا قلبىَ عـــبــدٌ ولقــد كــان إلهــا
آه فـــارأفْ بفـــتـــاةٍ حطَّمَ الـدَهْرُ مُنـاها
وأفـــاقتْ لِيَــهُـدَّ الحــزْنُ واليــأسُ قُــواها

مَعْـبدى، افتَحْ لقلبى البابَ، قـد طالَ وقوفى
أنا من مـاتَ ربيـعى فى أعـاصيـرِ الخريفِ
جـئتُ ألقى بين كـفَّـيْكَ أسى قلبى اللهـيفِ
علَّنـى أحْظَى بِظـلٍّ فى مــجــاليكَ وريفِ

عُدْتُ، يا معبدُ، للصَمْت، فلن أشدوْ بحبّي
لم يَعُدْ قلبيَ يهفو فلقد ودّعتُ قلبي
حسبيَ الآنَ وجومي وكآباتيَ حَسْبي
حسْبُ روحي نارُ إحساسي وآهاتي ورُعْبي

أسَفاً، كيف ذَوَى حُبّي ولحني ورجائي؟
ليتني كنتُ تناسيتُ، فلم أرْعَ وَفَائي
ليتَ حبّي لم يُعلّمني أغاريدَ السماء
ليتَهُ خلّفَني في الأرضِ بينَ الأشقياء

رحمةً، ماذا تراني أفعلُ الآنَ بفنّي؟
هي ذي آلهةُ الشعْر فهل تمسَحُ حُزْني؟
هو ذا العودُ فهل يُسْعدُ روحي أن أغنّي؟
رحمةً بي، ما الذي قد أبقتِ الأحزانُ منّي؟

أين أمسي، وهو أحلامُ وألحانُ ولَهْوُ؟
أينَ أيّاميَ إذ قلبي من الأشواق خِلْوُ؟
ما الذي أبقى ليَ الحبُّ؟ أجِسْمي، وهو نَضْوُ؟
وفؤادي، وهو أوصالٌ؟ وروحي، وهو شِلوُ؟

ادفنِ الأحـلامَ، يا قلـبى الخـيـالىَّ المُـحَطَّمْ
واسـتـفِقْ مـن قـبلِ أن ينطفئَ الحُلْـمُ فـتندمْ
ما الذى أغراكَ بالحب؟ ومن أوحى وألهَمْ؟
عَـجَـباً، كيـف ترى الشـرَّ بعـينيك وتحلم؟

استفقْ من حُلْمكَ الشـعرىِّ واىأسْ يا كئيبُ
ذبلـتْ أغنـيـــةُ الحـبِّ ووراها المـغـــيبُ
وستـبقَى، أيّهـا المحزونُ، فى الشـوقِ تذوبُ
أبداً ترجــو رجــوعــاً لهـوى لـيس يؤوبُ

ثم مـــاذا؟ أىُّ حُلْمٍ ترتجى يـا ابنَ السـمـــاءِ
أنتَ فى الأرضِ، فـلا تحلُمْ بلُقْـيـا الأوفيـاءِ
لا تَلُمْ شـــاعـرَكَ الغـــادرَ وابسم للشـــقـاءِ
والتـجئْ للعـودِ تَسْـعَدْ يـا حزينَ الشُّـعَـراءِ

مـعبـدى، إفتح لقلـبى البابَ، لا تَقْسُ عليـهِ
ليـــجـــدْ عـندَكَ سَلْـواهُ لينـسى أملَـيـــهِ
يا لَمـــحـــزون شــقىّ مـــزّقَ الشــوكُ يدَيهِ
ملءُ دنيـــاهُ عُبُــوسٌ، فـابـتـسِمْ أنتَ إليـــهِ

١٩٤٤-٨-٩

عيد الإنسانية

«٨/ ٥/ ١٩٤٥ يوم الهدنة»

فـى دمى لحـنٌ من الـشــوقِ جــديـدُ
والمجـــالـىّ حَــوَالـىَّ نشَــيـــدُ
ليـلتـى هذى ابتــســامٌ وسُــعــودُ
طـافَ بالأفْـقِ فــغـنّـاهُ الـوجـــودُ
هى يـا قــيــثــارتى لحـنٌ سـعــيــدُ
هى شِــعْــرٌ، هـى وَحْىُ، هـى عــودُ
هـذه اَللـيـلـةُ لـلعـــالَـم عـــيـــدُ
وهى، يا قــيــثــارتـى، الحُلْمُ الوحــيــدُ

أين أوتـارُكَ يا عــودى الحــبــيـــبــا
شُـدَّها واصـدَحْ ولا تَبْقَ كـئــيـبـــا
لم تَـعُـدْ دُنيـــاكَ جَـمْــراً ولهــيـبـــا
أنتَ يـا مَنْ عــشْتَ فى الـكون غـــريبــا
نَـغَمُ الـسلْـم سَــرَى فـــاحْىَ طَروبـا
وامــــلأَ الـدنيـــا لُحــونـاً وطُيـــوبا
وانسَ أمَـــســـاً مــلأَ الكـونَ خُطـوبا
آنَ لـلأفــــراحِ أن تمحــــو الـكُروبـا

فــــرحـــةُ الـهــدْنـة، يا بُشــــرَى لفنّى
أأنــــا أحـــلُــمُ؟ أم تـــكـــذبُ أذْنـــى؟
أم هىَ الـفـــرحـــةُ قـــد لاحتْ لعـينى؟
حُلُمَ الـصـــــادى ورؤيـا المتَـــــمنَّى
يا إلـهَ الشِـــعْــــرِ نَحٍّ الـصَـــمْتَ عنِّى
آنَ أن أنسى ضـــــراعــــاتى وحُـــــزْنى
آن أن أحـــــيىْ الأمـــــانىْ وأغـنّـى
ومـــعـى قلبى وأشـــعــــارى ولحنى

أنا مَـن غَنَّـتْ دمــوعَ الأشـــقـيـــــاء
وبـكـتْ أشـــــعــــــارُهـا للأبـريـاء
كم صــــريعٍ قــبــرُهُ ثـلجُ الشـــتـــاءِ
ويتـــيـمٍ مـــهــــدُهُ شــوكُ العَـــراءِ
وصـــبــايـا كــرَعَتْ سُمَّ الـقَـــضـــاءِ
قـــبـلَ أن تَرشُـفَ كـــأســـاً من هـنـاءِ
صُـــغْـتُ أحـــزانى وحُـــبى ووفـــائى
هـو أحـــــزانـى وحـــبُى ووفــــائى

ولقـــد صـــوّرتُ أحـــلامى سنينا
وهـى مـــا زالتْ سَـــراباً. وظُنونا
وإذا الـرحـــمـــةُ تُنْجى الحـــالمينا
بـالسَـــلامِ الحلْوِ، حُلْم المنشـــدينا
وصَـــدَى الوحى ولحنِ الشـــاعـرينا
لـم يَعُـــدْ قـلبُ المقـــاديرِ ضنينا
فـــابسِمى، شـــاعـرتى، فى البـــاسـمينا
واملـئى المـعـــبـــدَ زَهْواً وفـــتـــونا

آه يـا شـــاعـــرتى، غـنّى الأمـــانى
واســـمـعى، هـذا هُتَـــافُ المهْـرجـــان
فـــالنواقـــيسُ، على البُـــعْـــد، أغـــان
بَشَّـــرَتْ بـالفـــجـــر أحـــزانَ الزمـــان
وصَـــدَى السلْمِ عـلى كـلِّ لســـان
فـــاتنَ الـنغـــمـــة عُـلْوىَّ المـعـــانى
إنهـــا الـفـــرحـــةُ، يـدرى المَشْـرقـــان
أقـــبلـتْ تأســـو جـــراحَ الحـــدَثان

١٩٤٥-٥-٨

ليلة ممطرة

ألآن يا نجمي تغيبُ ولم يَحِنْ وقتُ الأفولْ؟
ألآنَ والليلُ الجميلُ يُريقُ ضوءك في الحقولْ؟
والزَهْرُ، تحت الليلِ، نشوانٌ بمَشْرِقكَ الجميلْ؟
والنهرُ، والشطآنُ تضحكُ تحت أشجارِ النخيلْ

ألآنَ تغرُبُ؟ يا لَمأساة الجمال الذابلِ
يا نجميَ المأسورَ في كفِّ الضَباب الشاملِ
يا فيلسوفَ الليلِ، يا سرَّ الوجودِ الذاهلِ
عَبَثاً أناشيدي إلى أضواءِ نجمٍ آفلِ

عبثاً سَهِرتُ الليلَ أرنو والتفجّعُ غالبي
أتزوّدُ النَظَرَ الأخيرَ إلى ضياكَ الشاحبِ
وأصوغُ ألحانَ الرثاءِ على صِباكَ الذاهبِ
وأحوكُ من دمعي الضياءَ لكلّ نجمٍ غاربِ

رحمـاكَ يا نجمى الجـميلَ متى نهـايةُ ليلتى؟
ومـتى ستنقـشعُ الغـيومُ وتسـتريحُ كـآبتى؟
قد شاقَ قلبى أن أحسَّ الصمتَ تحتَ خميلتى
وتجـوبُ عيناىَ الفـضاءَ وفى يدى قـيثـارتى

مازلتُ أنتظرُ السكونَ وليس غيرُ صدَى المطَرْ
والريحُ فى سَـمْعِ المساء تئنُّ مـا بين الشَجَـرْ
لا طيرَ يمرَحُ فـى الحقولِ ولا أريجَ ولا زَهَرْ
لا شىء غير صراخِ رعـدٍ هاتفٍ بأسى البَشَرْ

ومن الظلامِ تصاعدَتْ آهاتُ قُمْرِىٍّ الغصونْ
ذهبتْ بمـكمنه الرِّيـاحُ وعـزَّهُ المـأوى الحنُونْ
حيرانُ، مرتعشُ الجناح، مجرَّحُ تحتَ الدُجونْ
رحماكَ يا ربَّ العواصفِ، حسبُنا المطَرُ الهتُونْ

أينَ الفضاءُ الحلوُ؟ أين الصَـحْوُ؟ أينَ سَنَا النجومْ؟
من جمع المطر الكئيب، وبث فى الليل الغيوم؟
يا ريحُ رفْـقاً بى ورفـقاً بالعـرائش والكرومْ
رفـقاً بقُـمْرِىٍّ المروج فـقد أمـضَّـهُ الهُمـومْ

قد كان في قلبي أمانٍ يا رياحُ فخنتها
قد كان في هذا المساء مفاتنٌ فمحوتها
قد كان في المرجِ الجميل عرائشُ أذبلتها
قد كان في ثَبَجِ السَمَاءِ كواكبُ أطفأتها

وبقيت، في الليلِ الكئيب، أصيخْ للمطر الكئيبْ
وعلى فمي اللحنُ الغريبُ، يصوغُهُ قلبي الغريبْ
وتلوحُ لي خَلَلَ النوافذ ظلمةُ الليلِ الرهيبْ
عبثاً أغذي موقدي فالآنَ ينطفئْ اللهيبْ

قد حطَّمَ الإعصارُ نافذتيَّ وانطفأ الضياءْ
والآنَ لا أضواءَ حولي غير إبراق السماءْ
يا ضجَّةَ الإعصار في الآفاق، يا مَطَرَ المساءْ
الآنَ ألتمسُ الرُقَادَ إلى غدٍ فإلى اللقاءْ

١٩٤٦-١١-٦

أنشـودة الأبـديّـة

«إلى القيثارة الإلهيّة التى منحتْ الإنسانية أروع الألحان، إلى تشايكوفسكى الموسيقىّ الروسى، ذكرى لمرور أربع وخمسين سنة على وفاته».

سـأحبُّ الحـيـاةَ من أجلِ ألحـا ... نكَ يـا بلبلى الحـزيـنَ وأحـيـا
سـأرى فى النجـومِ من نورِ أحـلا ... مِـكَ ظـلاً مُـخَـلَّـداً أبـديّـا

سأناجى فى الليـل جُنْحاً من الأحـ ... ـزانِ يـومـاً ألقـى علـيكَ ظـلالَهْ
سأحـيّى فى الكرمِ فيـضاً من الأسـ ... ـرارِ أضـفـى يومـاً عليكَ جـمـالَهْ

وإذا ثارتِ الـعـواصـفُ فى اللـيـ ... ـلِ وراءَ الحـقـلِ الرهيبِ الـدجى
لمستْ روحـىَ المشُـوقـةُ فـيـهـا ... ذكـريـاتٍ من روحِـكَ النـارىِّ

آهِ يـا أيّـهـا المـلاكُ إلـى رو ... حكَ، فى الموت، حنَّ روحى الحزينُ
أنا تلـك التى حـيـاتـى على الأر ... ضِ اكـتـئـابُ ووحـشـة وحنين

آه لو كنـتُ عـشتُ مـثلـكَ فى الما ... ضى وأبصـرتُ وجـهَكَ العُـلْوّيا
لولا رأيتُ الإلـهـامَ يـمـلأ عـينَيْـ ... ـكَ ضـيـاءً ووجـهَكَ الشـاعـريّا

آهِ لو بعتُ كلَّ عمرى بيومٍ   شاعرىّ يراكَ فيه وجودى
من بعيدٍ أرنو إلى الهيكل السا   مى وأصغى إليكَ يا معبودى

وأرى كيف يُغْرقُ الحزنُ مرآ   كَ وتبدو أسراره فى عيونكْ
وأحسُّ أرتعاشَ قلبك للحُسْـ   ـنِ وظلَّ الشُّرودِ فوقَ جبينكْ

وأرى كيفَ تُرْجفُ الوترَ المسْـ   ـحورَ كفّاكَ يا ملاكى النبيلا
كيفَ ترنو إلى الحياة وما فيـ   ـها وتَسْتلهمُ الوجودَ الجميلا

وأرى كيفَ يغسلُ الدمعُ عينَيـ   ـكَ وتبكى فى وحشة الإنفرادِ
وأرى كيفَ يرقُصُ الألمُ الطا   هرُ فى مقلتيكَ قبلَ الرُّقادِ

كيف يأتى الدُجَى عليك فترنو   فى ذهول إلى ظلال الماضى
بينَ فكْ الذكرى يعذّبُكَ الشو   قُ وتبقى فى رَعْشةٍ وانتفاضِ

كيفَ تحتَ الدُجَى تهيمُ على وجـ   ـهكَ بحثاً عن لحظة من هدوءِ
هارباً من صراخِ نفسك من دنّـ   ـياكَ من عالم الورَى الموبوءِ

هارباً هارباً تحـــدّقُ فى الـنهــ ـــر وما فــوق مــائه مـن جليـدِ
تتـــمنّى أن يـدْفِنَ الـثلـجُ بلـوا كَ بعـيـداً عن اضطراب الـوجـودِ

آه يا بلبلى وقـــد جــاءكَ المو تُ أخـيـراً وغـبتَ عـن دنيـانا
أخـمـدَ الصـمتُ والفَنَاءُ أغـانيـ ـكَ ولم يَبْقَ غـيـرُ رَجْعِ أسَـانا

رَقـــدَ الحـــالمُ الإلهىُّ تحـتَ الـ ـفَجْـر جسماً مَيْتاً وروحاً أصمّا
كلُّ أنغـامـهِ الـسـمـاويةِ الـظَمْـ ـأى وأحـلام روحـه عـدْنَ حُلْما

وعــلا ذلـكَ الجـبـينَ الأثـيـرىَّ شـحـوبُ الموتِ المريـرِ القـاسى
وهوى ذلـك الإلهُ الـسَــمــاوىُّ على الأرضِ خـامـدَ الأنفـاسِ

عَـبَـثـاً قـبّلتْـهُ آلهـةُ الـفـجـ ـرِ وغـنّتْــهُ أعــذبَ الأنغـامِ
عــبـثــاً ذكّـرتْهُ ربّةُ مـوسـيـ ـقـاهُ بـالذكـرياتِ والأحــلام

أيّهـــا الموتُ أيّـهـــا الماردُ الشـرِّ يرُ يـا لعـنةَ الـزّمـــان الـعنيـــدِ
كـيـفَ ترضى يداكَ أن تقـتلَ الإلـ ـهـامَ؟ مـاذا تـركـتَـهُ للوجـودِ؟

سـوف تفنى يـداكَ أنتَ ويبْـقَى ظلُّ ذاكَ الطيـرِ الجـميـلِ الوديعِ
سـوف تبقى نجـواه تخفقُ فـوقَ الأ رضِ بالحبِّ والجـمـال الرفـيع

أيُّهـا الحـاقـدُ التـرابيُّ أمّـا أنتَ فاحـقدْ وعشْ على الأضـغانِ
إنَّهُ الآنَ فـوقَ حـِقْـدكَ فـوقَ الأ رضِ، فـوقَ الـفناءِ والنسـيـانِ

١٩٤٧-٦-٣

علـى الجسـر

يا نَهْـرُ لا تحفظْ دمـوعى أو أسى قلبى المرُوعِ
اكتمْ- حنانكَ- ما تساقطَ فى مياهكَ من دموعى

ذهبَ المساءُ بكلِّ ما أبصرتَ من حزْنى العميقْ
ومحا الدُجَى من عُمرِ يأسى ليلةً لن تستفيقْ

انْسَ الذى أبصـــرتهُ بالأمـس من أحـزانيـه
واكـتُمْ أساىَ وأدمـعى تحتَ النُجـومِ الحانيـة

انسَ الخطَى المُتـعَـثّراتِ وصـوتىَ المتـهدِّجـا
والدمعَ، يخنُقُ كلَّ ألـفاظى بكفٍ مـن شجـا

رحـماكَ أنتَ الكاتمُ الحـانى على المتـأوِّهينْ
وحنان مـوجِكَ كم طوَى قلباً يعـذّبُهُ الحنينْ

أنتَ الذى شَهـدَتْ ميـاهكَ أدمعى وتردّدى
أنتَ الذى سـمعت ضـفافُكَ آهتى وتنهّـدى

وَمَشَيْتُ فوقَ الجسر أبكى أمنياتى فى سكون
وأديرُ وجهى، نحو موجكَ، عن عُيونِ العابرينْ

أحزانُ حبىّ كلها، فى شاطئيكَ، نَفَضْتُها
أسرارُ روحى كلُّها، تحت الظلامِ، نَثَرْتُها

لم أستطعْ، يا نهرُ، كتمانَ العواطفِ والشُعورْ
مَنْ يمنَعُ السيلَ القوىَّ من التدَفقِ والمسيرْ؟

وإذا طَغَى الحزنُ العميقُ فمن يرد هديرَهُ؟
وإذا ذوى الأمل الجميلُ فمن يُعيدُ عبيرَهُ؟

عَبَثاً أقاومُ نارَ أحزانى فلن يخبوْ اللهيبْ
أبداً تُذكّرنى الحياةُ بروعةِ الماضى الحبيبْ

حُلُمُ إلهى الجمال رسمتُهُ تحت النُجومْ
وبنيتُهُ قصراً من الزَهْر المنضَّرِ فى الغيومْ

وصبَبْتُ فيه، من حَيَاتى، صفوَهَا ونَقَاءَها
ونثرت فيه، من زُهورى، عِطرَها ورُواءها

وهُرِعتُ، كالطفلِ النقيِّ، إلى رجائى الأوحدِ
فـرأيتُ قـصرى الحلو أطـلالاً تثيـر تنهّـدى

لا شيء يمحو ذكْـرياتِ الأمسِ من قلبى الكئيبْ
لا نورَ ينفـذُ فى ظلامـى، لا انطفـاءُ للّهـيبْ

فى عُـمْقِ أعـماقـى أعاصيـرٌ يُجَنُّ جُنونُهـا
وعلى جـفـونى رَسْمُ أحـلامٍ يَضِـجُّ حنينُهـا

أيّانَ أنجـو من ظلال الأمسِ، أينَ ترى المَفَـرْ،
والليلُ يعكسُ ذكرياتى، والأغانى والشَجَرْ؟

يا نهْـرُ فلْـتَـدفنْ شكَاياتى ومُـرَّ شُـجـونهـا
الآدميّـةُ إن بكَـتْ فلِضَـعْـفـهـا وجـنونهـا

١٩٤٦-٩-٢٥

إلى الشاعر كيتس

الإشارات إلى قصيدته

"Ode to a Nightingale"

حـــيـــاتـى وآلامُ روحى الحـــزيـنْ
وأحــــــلامــىَ المُــرَّةُ الـذاويـة
ومــــوكـبُ أيّـامىَ الـذاهـبـــات
وأطيــــافُ أيَّـامـىَ الآتـيـــــه
تَجَـــمَّـــعْنَ فى باقــة مـن عـبـيــر
ثَوَتْ خـلفـــهـــا روحِىَ الفـــانيـــه
وأهديتُـــهـــا نَـغَـــمـــاً حـــالما
إلى روحـكَ الحُـــرّةِ البـــاقـيـــة

حــيــاتىَ، يا شـــاعـــرى، كلهـــا
حـــيـــاة فـــتـــاة مـن الحـــالمينْ
إلـهـَّــيـــةُ الروحِ لـكـنَّهــــا
عـلى الأرضِ حــــفْنَةُ مـــاء وطيـنْ
تُعـــذِّبُهـــا صَـــرَخـــاتُ الأسى
وتُرْعِــشُــهـــا صَـدَمـــاتُ السنينْ
ولولاكَ مـــا وجـــدتْ فـى الثـــرَى
عـــزاءً، ولـم يَجْـــتـــذِبْـهـــا الحنينْ

أناشيدُكَ الخالداتُ العِذاب
نشيدي وأغنيتي الهاتفه
فكم ليلة من ليالي الشتاء
دفعتُ بُهّا ضَجَّةَ العاصفه
وأسمعتُها النارَ في مَوْقدي
وغنّيتُها الظُلَّةَ الوارفه
وأيقظتُ في ظلّها فِتْنتي
ونارَ عواطفيَ الجارفه

وكم في ليالي الخريف الكئيب
وقفتُ أحدّقُ عند النَهَرْ
أصيخُ إلى صوت قُمْريَّةً
سَجَتْ فوقَ بعضِ غُصون الشَجَرْ
أفتشُ في صَوْتِها عن شَجَاكَ
وشكواكَ بين الأسى والفكَرْ
وأسألها عن شبابٍ ذَوَى
وظلٍّ صِبا راقدٍ في الحُفَرْ

أقـــولُ لهـــا: صَـــوِّرى من جـــديد
ظلام المســاء الكئـــيبِ البـــعـــيـدْ
ومـــا كـــانَ من شــاعـــرى فى دُجَــاه
وآهـاتِـه وأســــــاهُ المُبـــــيـــــدْ
صِــــفى حُـــزْنَـهُ عنـد رأسِ المريـض
ووحــــشــــتَــهُ والـرَجَــاءَ البَــديدْ
صــــفى ذلـك الجـــسَـــدَ الآدمـىَّ
ومــــا قـــــالَ عنـد وَدَاعِ الوُجـــودْ

صِــفى شــاعـرى كـيف أمـضى المسـاء
علــى قَــــــــدَمــىْ ذلـكَ المـيـتِ
يُصـــيخُ إلى النَغَـــمـــات الحـنون
ويُطــرقُ إطـراقـــــــــةَ المُنْـصِـتِ
صــفــيــه، كـمـا أرعـشـتْـهُ الحـيـاة
أسـىً، تحتَ ســـيـف الـردى المُصْلَت
على كـــفِّـــه رأسُـــهُ الشـــاعـــرىُّ
وحـــيـــداً، إلى جـــانب الجـــثَّـــةِ

وكـــيـف تولّى المســـاءُ الحـــزيـن
على شُــعْلة الشَـمْـعـة الشـاحـبـة؟
وهـل صَـــــرَخَتْ فـى الـظلام الريـاح
كـمـا صَرَخَتْ نفـسُهُ الصـاخـبـة؟
«هنـالكَ حـيـثُ يمـوتُ الشـبـاب
وتَـذْوى أشـــعـــتُـــهُ الغـــاربـة»
هـنالـكَ حـيثُ الـذهـولُ الغـــريـب
يـودِّعُ روحَ المُـنى الــذاهـبـــــــة

وتَمْـــضـى الليـــالى إلـى قَـــبْــرِها
وتَـمْـــشـى الحـــيـــاةُ مـع الموكـبِ
أسـيـــرُ أنـا فى شـــعـــاب الـوجــود
أفـــتِّشُ عن حُـلُـمى المُتْـــعَـب
تُـخَـــادعُنى كـلُّ قـــمْـــريّة
وتـعـــبَثُ كـلُّ الأغـــاريد بى
ومـــا زالَ طـيـــفُـكَ طىَّ الخَـــفَـــاء
تُحَـــجّـــبُـــهُ ظُلْـمـــةُ المغْـــرِبِ

١٩٤٧-٢-٦

-١-

"صوت التشاؤم"

هي ذي يا ظلامُ عاشقةُ الليـ ـلِ تُطيلُ التحديقَ تحت الدَّياجي
وقفتْ عند شاطئ النَهْرِ تُصْغي لأنينِ الرِّياحِ والأمواجِ
وتَرَى الليلَ غيهباً راعبَ الظلِّ على رائعٍ من الأثباجِ
وتُحسُّ الحُزْنَ العميقَ لحقلٍ أغرَقَتْهُ المياهُ خلفَ السِّياجِ

وقفتْ في الدُجى تُحسُّ الأسى المرَّ وتبكي في مَسْمع الظُلُماتِ
وتَرَى بالخيالِ ما حلَّ بالقَرْ يةِ والبائسين من ويَلاتِ
فَجَأتْهم، تحت الدجى، لجةُ المو جِ فباتوا صَرْعى القَضاء العاتي
ومَضَوا يضربونَ في ظُلمةِ الليـ ـلِ وما من منجى من المأساةِ

وتعالى تحت الظلام صُراخُ رددَّتْهُ الريَّاح للأشجارِ
هو صوتُ الأحياء، في لجّةِ المو تِ وَصرْعى الأمواج والأقدارِ
عبثاً تضرعينَ، عاشقةَ الليـ ـلِ لقلبِ الظَّلامِ والأسرارِ
عبثاً فالحياةُ سنَّتُها الحز نُ وحكْمُ الآهاتِ والدمعِ جارِ

-٢-

«صوت الأمل»

سِرْ بنا سِرْ يا زورقَ الأملِ العذْ ... بِ وإن أُسْدلتْ ستورُ الظلامِ
وتَعَالى الدوىُّ فى النَهَرِ البا ... كى على مَسْمعِ القلوبِ الدّوامى
سِرْ بنا لن نخافَ من ضجّةِ المو ... جِ ولن نرهَبَ العُبَابَ الطامى
نحنُ فى الموجِ دَفّةُ طالما لا ... قتْ رياحَ الأقدارِ والأيّامِ

سِرْ بنا حيثُما يُريدُ لنا المجـ ... ـهولُ سِرْ فى هذا الوجودِ الحزينِ
لن تنالَ الحياةُ منّا فقد ذُقْـ ... ـنا أسَاها فى عُمْرنا المغبونِ
ورمتْنا أحزانُها فصَبَرنا ... وغداً مغْرِبُ الأسى والشُّجونِ
وغداً تنضَبُ الدموعُ وتَفْنَى ... ضجّةُ الموج فى عميقِ السكونِ

سوف تصفو الأمواجُ فى لجّة النَهْـ ... ـرِ ويخبو الإعصارُ خلفَ التلالِ
وتعودُ النخيلُ تضحكُ للشطِّ ... كما كنَّ فى الليالى الخوَالى
ويعودُ الملاّحُ يخرُجُ بالزو ... رقِ نشوانَ ضاحكَ الآمالِ
هكذا يرجِعُ الصفاءُ إلى الوا ... دى ويغفو على جَمَالِ الليالى

-٣-

«صوت الشاعر»

مُغــرَقٌ فى خيــاله شاردُ العَيْـ ـنَيْنِ مُــسـتــسـلمُ إلى الأحــلامِ
يذرعُ الضــفّــةَ الجمــيلة مــفــتو نأ بصـــوت الأمــواج والأنــسامِ
ويَرَى اللُّجّــةَ الرهيــبــةَ ســحْــراً ويــنابيعَ فـــضْــنَ بالإلــهـــامِ
وعلى البُعْدِ منظرُ النَخْل فى النهـ ـرِ ومَـــرْأى التـــلالِ والآكــامِ

هكذا الشــاعرُ الخيــالىُّ يقضى يومَـــهُ فى الأوهامِ والألحـــانِ
ويَرَى فى طُغيــان مــائكَ يا نهـ ـرُ جَــمَالَ الطبيــعة الفتّــانِ
فهــو ذاكَ الطيــرُ المغرِّدُ بالشــعـ ــرِ نبىُّ الخــيـــالِ والألــوانِ
تتــصبّاهُ مــوجةٌ تَغْسِلُ الشطَّ ونــهـــــرٌ داوٍ ولُجٌّ قـــانِ

كلُّ مـا فى الطبيعة الحلوة المُـ ـتـــانِ يُوحى لقلبـــه بالغناءِ
كــيف لا وهْوَ ذلكَ الشــاعرُ المُرْ هف وابنُ الخــيـــال والإيحـــاءِ
عاشقُ الصَحْو والغيومِ الحزينا تِ وشــادى الضــيــاءِ والظلمــاءِ
ورســولُ السمــاء للعــالم البــا كى وصوتُ الأمواتِ والأحيــاءِ

(١٩٤٦)

الخطوة الأخيرة

اشـــهـدى أيـتُـهـــا الأشـــجـــارُ، أنى
لــن أرى ثـانــيــــــــةً تحـــتَ الـظـلال
ها أنـا أمـــضـى فـــلا تبـكى لحُـــزْنى
لا يُعـــذّبْك اكـــتــئــابى وابتـــهــالى

خُطُواتـى، فى الدُجَى لا تحـــســبـيــهـا
إنّـهـــا آخِـــــرُ مـــا أخـطـو هنا
إنّهـــا رجْـعُ أغـــانٍ لن تَعِــيــهـــا
ســـوف تَذْوى مـــثـلَـمـــا أذوى أنا

خُـطُـواتى، أىُّ رجْـعٍ مُـــخْـــزنِ
آهِ لو لـم أسـمعِ الـصـوتَ الـكئـيـبـا
لـيـتـنى أفـقِـــدُ حـــسّى، لـيـتـنى
لم أشـــاهدْ ذلـكَ الحُلْمَ الـغـريـبـا

أيُّ حُلمٍ ذابلٍ فوقَ الرمالِ
صُغتُ فيه كلَّ موسيقى حياتى
كلَّ أحلام شبابى وخيالى
كلَّ ما فى خافقى من نَغَمَاتِ

ها أنا أرحلُ، يا أشجارُ، عنكِ
تحتَ عبءٍ من شُرودى وخشوعى
ليتنى أجرؤ أن ألقى عليكِ
نظرةً ثانيةً، دون دموعِ

لن تُحسِّى، فى غدٍ، وقْعَ خُطايا
فأنا، يا أخواتى، لن أعودا
كلُّ أحلامى وأضغاثِ رؤايا
عُدْنَ يأساً صارخاً، عدن شرودا

سوف ألقى العودَ فى الظلِّ وأمضى
أى معنى، بَعْدُ، للعود الرقيق؟
سوف أحيا، يا سمائى، فوقَ أرضى
سوف أطوى النورَ فى قلبى العميقِ

وَوداعـــاً، أنتَ يـا حُلـمَ شــبـــابى
أنتَ يـا من صـــغـــتُـــهُ خـــمسَ سنـينْ
هـا أنـا أدفـن، فى الأرض، رغـــابـى
وأوارى أمـلـى المُـرَّ الحــــــــزيـنْ

المـمـــرّاتُ الجــمـــيـــلاتُ ســتـبكى
فـــوق ذكـــراىَ ولكـن لن أعـــودا
حـسْبُ روحى، أيُّهـا الأشــجــار، منك
أنّ ذكـــرى رَغـــبـــاتى، لن تَبـِــيـــدا

وأنا؟ لا تجــــزعى، حــــســـبك منّى
أنّ ذكـــراك بقـلبـى ســـوف تحـــيـــا
كلُّ جَـــذْرٍ منك فـى أعــــمـــاق فـنّى
ســـوف يبـــقـى شـــاعـــريّاً أبـديّاً

آه يا أشــــجـــارُ، لا، لا تذكـــرينى
فــــأنـا تمثـــالُ يأس بَـشَـــرىٍّ
لـيس عـندى غـــيـــرُ آثـارِ حنـينـى
وبـقـــايـا من شـــقـــائى الأبَـدىّ

كنت يوماً خافقاً، بينَ الغيومِ،
أسكُب الأحلامَ في عُمق حياتي
تصعَدُ الآمالُ بي فوق النجومِ
ويصوغُ الشعْرُ أحلى رَغَباتي

أيُّها العودُ، وَدَاعاً من حياتي
هبطَ الليلُ وقد حان رحيلي
امْحُ ما قد كان، إمسَحْ نَغَماتي
انْسَ أنغامَ شَقَائي وذُهولي

لن تعيْ، في الغد، أنغامَ أسايا
وترانيمَ سروري وشَقائي
فانسَني، ها قد نَأى رجعُ خُطايا
ها أنا أغرقُ، في قلبِ المساءِ

١٩٤٦

البحـــر

للشاعر الإنـكليزى جورج غوردن بايرون من قـصيدته الطويلة: Childe Harold pigrimage

أيهــا البـحـــر أيُهــا الأزرقُ الدا كنْ إهدرْ مــا شـئتَ فى الظـلمـاء
ســاخــرَ الموج من قُـوَى الآدمــيـيّـ ـنَ عــمــيـقــاً مُــدَوِّىَ الأنواء
مَخَـرتْ فى العُباب مـنكَ الأساطيـ ـلُ وتاهتْ فى مـوجـكَ اللانهـائى
وبَقِــيتَ المجـهــول يرهُـبكَ الإنـ ـسانُ وهو الطـاغى على الأشـيـاء

كل مـــا عنـده من القـــوّة الهَـــوْ جــاء يا بحـــرُ عند شطّكَ يـعـيَــا
فهو يَطْغَى فى الأرض بالشرِّ والتخـ ـريـبِ لكن تَظَـلُّ أنتَ عـــتـيّـــا
وتَظَلُّ الأمــواجُ منـكَ كـمــا كــا نتْ حـمىً زاخـراً وسـطحـاً سـويّا
مـا علـيـهـا ظلٌّ لـطُغـيـانِ مــخلو قٍ سـيبـقى علـى الزمـانِ صَبْـيّـا

ذلك الحـىُّ ليـس يُتــــرُكُ مـن ظلٍ ســـــوى ظلِّـه علـى الأمــــواجِ
عندمــا تحـتـويه أمــواجُكَ الهُـــو جُ فـــيَــهْــوى فى لُجّـة الأثبــاجِ
صــارخــاً هابطاً إلى عُـمْقِ أعـــمــا قكَ مَـيْـتـاً تحتَ الفـضـاء السَّاجى
دونَ قـــبــــر يضُـمُّ أشــلاءَهُ أو كَــفَنٍ غـيــرَ رائعــاتِ الـدّياجى

كلُّ مـا فـوقَ موجك الخـالد الجبّـ ـارِ مـــا إن يـــقْى بقـــايا خُـطَاهُ
ومسـافـاتُكَ البـعـيدات ليسَتْ أيّهـــا الــبـــحـــر مـــا تنـالُ يَداهُ
أيُّهـــا المزدرى بـطُغْـيـــانه المكـ ـذوبِ يـا ســاخــراً بكُنْه قـــواهُ
إنَّه ذلـكَ الضـــعـــيفُ إذا جـــا ءَكَ يومــــاً وأبصـــرتْ عـــيناهُ

تلقّـــاهُ مـــوجـــةٌ بعـــدَ أخـــرى منـكَ يا بحـــرُ في ظـلام المســـاءِ
ثم تـرمى به الريـاحُ المُخـــيـفـــا تُ رُفـــاتاً مَـيْـتـــاً إلى الأجــواءِ
فـإذا مـــا خَبَـا جُنونُ الأعـــاصيـ ـرِ ومـاتتْ أصـداؤها فى الفـضـاء
عادَ شِلْـواً إلى حِمى الشاطئ السا جى وجـسـمـاً عـلى حـفَـاف الماءِ

أيّهـــا الـبـــحـــرُ آه مـــا هذه الأسـ ـوارُ تحـت الحـــديد والنـيـــران؟
أىُّ شىء هذى الـقـلاعُ الرهـيـبـــا تُ؟ ومــا ســرُّ ذلكَ الطُغْـيـــان؟
لقّـــبوا ســادةَ البـحـارِ ومـــا هُمْ غـــيرُ طـيفٍ من الغُـــرورِ الفـــانى
تـلـقّـــاهُم قـــوَى مـــوجـكَ الرا ئـعِ بالموتِ والأذَى والـهـــــوانِ

كلُّ شىءٍ فى السَّاحـل الشاسع النا ئى يُطيعُ الموتَ البطىءَ الـعـتـيّـا
كلُّ شـىءٍ يَبْلَى وتلبـث جـبـّـــا راً كـمـــا كنتَ ســاخـــراً أبديّا
أين آشـــورُ؟ أينَ رومـــا وقـــرطا جـةُ مـــا عـادَ ذكـــرُها قَطُّ يحـيـا
ذهبتْ كـلُّهـــا ومـــاتـتْ ومـــا زلـ ـتَ كـمـا كنتَ أيها البـحـرُ حـيـا

كل تلـك السـواحـلِ الحلوة الغـنّـ ـاء عـادت تحتَ الزَّمـان صَحَـارى

يتـمـشَّى فـيـهـا الغـريبُ وكـانت أمسِ دنـيـا تفـيض نـورا ونارا

وتبـقَّـيْتَ أنت مـثلَكَ بـالأمـ ـسِ عـمـيـقـاً مـدويّاً جـبّـارا

لم يغـضِّنْ جـبـينَكَ الـزَمَنُ المـا ضى ومـا زلـت جـارياً قـهَّـارا

منذ أن شـبَّت الخـلـيـقـةُ أنتَ الـ ـبـحـرُ تحت الضـيـاء والظُلُمـاتِ

كلُّ شيء كـمـا أرى الـبَـشَـرُ الفـا نـونَ باقٍ وأنـتَ أنتَ الـعـاتـى

أبـداً أنتَ ذلـكَ الـلانـهـائـيُّ المُدَوِّى فى مَـسْـمع الداجيـات

أبداً أنـتَ سـرمـديٌّ خـفـيٌّ فى السكونِ الساجى أو العاصفاتِ

وأنا أيّـهـا المُحـيـطُ المدوّى عـاشقُ الموجِ والحـصَى والرمـال

طالما سرتُ، فى صبـاىَ، على الضفّـ ـة مُـسْـتَـغـرقـاً بوادى الخـيـال

طالما سـرتُ شـارداً مـثلَ أمـوا جكَ نشـوانَ ضـاحكـاً للمـجـالى

كلّ حُلْمى أن يحتوىْ زورقى مـو جُك يـومـاً فـتـرتوى آمـالى

كـيفَ يا بحرُ كـيفَ تَنْسى مَرَاحى عندَ أمـواجكَ الجـمـيلاتِ أمسِ؟

عندمـا فى طـفـولتى كنتُ ألهـو فى شـواطيكَ بين بِشْـرى وأنْسى

طالما مـن أمـواجـك البـاردات الـ ـبـيضِ أترعـتُ فى الأمسِّ كـأسى

ليتَ شـعـرى فـهل نَسيت أغـاريـ ـدى وحبىّ الطاغى وفـورةَ نفسى؟

١٨-٦-١٩٤٦

مرثية في مقبرة ريفية

«ترجمة للقصيدة المشهورة: An Elegy Written in a Country Churchyard للشاعر الإنكليزي توماس غري»

في المساء الكئيب والجرسُ المحـ ـزونُ ينعَى النهارَ للأجواء
والقطيعُ المكدودُ ينسابُ في المر ج بطيءَ الخُطَى كئيبَ الثُغَاء
والفتى الحارسُ المؤودُ إلى المأ وى يجرُّ الخُطَى من الإعياء
تاركاً هذه المجالي الحزينا تِ لقلبي أنا وللظَلْماء

سوفَ يخبو النورُ الملألئ في الأفـ ـق بعيداً على امتداد السهوبِ
والفضاءُ الممتدُّ يغمرُهُ الليـ ـلُ فلا شيءَ غير صمت رهيبِ
ليس إلا حفيفُ أجنحة الأطـ ـيارِ في جوِّها الدجيِّ الكئيبِ
ودويُّ الأجراسِ ينشُرُ فوق الـ مَرْجِ وهْمَ الكَرى وصمتَ الغيوبِ

ليسَ إلاّ قمريّةٌ يُرسِلُ الشكـ ـوَى الى البدْر قلبُها المغبونُ
عُشُّها قنّةٌ تسلّقَها الزهْـ ـرُ وأخفتْهُ في الظلال الغصونُ
تتشكّى الذينَ مرُّوا بدنيا ها فلم تدْرِ ما عَسَى سيكونُ
عكّروا العُزْلةَ القديمةَ والصمـ ـتَ فدوّى هُتافُها المحزونُ

ها هنا فى الظلالِ مِن شَجَرِ السَّرْ ... و وبينَ الأغصانِ والأشجارِ
حيثُ تعلو الرمالُ والعُشْبُ ينمو ... بينَ هذى الكُثْبانِ والأغوارِ
رَقَدَ الراحلونَ من ساكنى القَرْ ... يةِ بين الرمالِ والأحجارِ
أسلمتْهم أيدى المنونِ إلى ضِيـ ... ـقِ قبورٍ تحت الثَرَى المُنهارِ

رقدوا فابتسامةُ الفجرِ لا تو ... قظُ دنياهمُ على الأنسامِ
ومراحُ الطيورِ فى أسقُفِ الأكـ ... ـواخِ ما إن يُصْحيهُم من منامِ
رقدوا الرقدةَ الأخيرةَ فى الوا ... دى الدجىِّ الحزينِ وادى الحِمامِ
ليسَ تُغْريهمُ هُتافاتُ بوقٍ ... كيف تُغْرَى هياكلُ من عظامٍ؟

رقدوا فى العَرَاءِ تحتَ الثلوجِ الـ ... ـبيضِ لا موقدٌ ولا نيرانُ
ومضَوْا فالبيوتُ خاويةٌ منـ ... ـهُمْ وفى قلبِ أهلِها أحزانُ
لا صغارٌ تخفُّ جَذْلَى مَساءً ... تتلقّاهُمُ ولا أحضانُ
يا لتنهيدةِ اليَتامَى فما يرْ ... جِعُ آباؤهم إلى ما كانوا

كم تعرَّتْ سنابلُ القمحِ فى أيـ ... ـديهمُ كم ترنّموا فى السهولِ
ولكم شَقّتِ الحقولَ محاريـ ... ـثُهمُ فازدهتْ زهورُ الحقولِ
وبأىِّ الأفراحِ ساقوا إلى المأ ... وَى قطيعَ الأغنامِ عند الأصيلِ
ولكم أخضَعوا من الشَجَرِ الصلـ ... ـدِ وألقَوْا بساقهِ فى الوحولِ

ليسَ للهازئينَ أن يَحْقروا جُهْـ ـدَهُم أو طُموحَهُمْ فى الحياةِ
أو مَسرّاتِهم وذكرَهُم المغْـ ـمورَ بالفقر والشّقاءِ العاتى
رحمةً لا تكنْ دموعُ الحزانى بَسَماتٍ فى الأعينِ الساخراتِ
ليسَ للأغنياءِ أن يحقروا عُمْـ ـرَ فقيرٍ مَحْياهُ للآهاتِ

أو ليستْ هذى الحياةُ سَرَاباً؟ أوَ ليسَ الفَنَاءُ عُقْبَى سَنَاها؟
أو تُنْجى الألقابُ أو مِنَحُ المجـ ـدِ إذا ما الحِمامُ أَحْنَى الجِباها؟
يا لَوَهْمِ الأحياء كم من حضارا تٍ أطافَ البِلَى بها فمحاها
كلُّ ما فى الحياةِ يُنْهى إلى القبـ ـرِ فما مجدُها؟ وما جَدْواها؟

لا تَلُمْهم يا أيّها الكائن المغْـ ـرورُ إن لم يَرُقْ هَوَاكَ الثّوىُّ
لا تَلُمْهم إن لم يَشِدْ فوقَهُ المجـ ـدُ التماثيلَ أيُها البَشَرىُّ
ها هُنا لا قُبَابَ لا قوسَ نَصْرٍ ليسَ إلاّ سرٌّ الرَّدَى الأبدىُّ
وهُوَ المرقدُ الأبيدُ لقومٍ لم يُرنِّمْ مديحَهُمْ آدمىُّ

ليتَ شِعْرى ماذا تقولُ التماثيـ ـلُ لَميْت؟ وما غنَى الأقواسِ؟
ألها أن تَرُدَّ للكائنِ الحىِّ إذا ماتَ خامدَ الأنفاسِ؟
وهُتَافُ المديحِ هل هوَ يوماً بالغٌ مَسْمَعَ الحِمامِ القاسى؟
ونفاقُ الأحياءِ هل يمنَحُ الأجـ ـداثَ والموتَ رعشةَ الإحساسِ؟

لستَ تدرىَ منْ حلَّ فى هذه البُقْـ   ـعــة تحتَ التــراب والأشــواكِ
علَّهُ كـان شــاعــراً طاهــرَ الرُّو   حِ حَبَـتْـهُ السمـاءُ قلـبَ مَـلاكِ
علَّهُ الـعــبـقــرىُّ لو أمــهَلَ المو   تُ لقــاد الـدنْيــا إلى الأفــلاكِ
عـلَّهُ المـلـهَمُ الـذى يـوقـظُ الـنـا   ىَ فــيـــفــتـــرُّ كلُّ قلبٍ باكِ

عــبــقــريّاتُهُــم زَوّتْهــا المــآسى   مَــحَتْ ضــوءها يدُ الأقــدارِ
فـهُمُ الجـاهلونَ مـا رفـرفَ العلْـ   ـمُ عـليــهم بـجُنحِــه الـطيَّــارِ
وهُم البــائســونَ أطفـأ بـردُ الـ   ـفَـقْـر فـيـهم نبعَ اللهيبِ الوارى
فــإذا عـبـقـريّـةُ الروحِ مَـجْـرىً   جـامـدُ السَّيلِ راسبُ التـيّـارِ

يا لَظُلْمِ الأقـدارِ كم مـاسـة حَسْـ   ـناءَ ظلَّتْ فى ظُلْمـة الأعـمـاقِ
أخـفـت اللُجَّةُ العـمـيـقـةُ لألا   ها فـيـا ضـيـعـة السَّنا الألآقِ
كم زهورٍ زَجَّى بـهـا القَـدَرُ القـا   سى بعـيـداً عن أعـيُنِ العُـشَّـاقِ
تبـعـثُ العِطرَ والفُـتـونَ إلى جـوِّ   الصَـحَــارى ودُجـيـةِ الآفـاقِ

ربّما كـان تحتَ هـذا الثَّـرَى العـا   رى قلوبٌ شـواعـرٌ وعُـقـولُ
ربّما كـان تحـتـهـا (هامـدنُ) ثا   ن زَوَاهُ مـقـرُّهُ المجـهـولُ
أو فـتىً مـثلَ (ملتن) الشـاعـر الملْـ   ـهَم أخـفـاهُ صمـتُـهُ والذهولُ
ربّما كـان تحـتـهـا (كـرومـولُ) آ   خَـرُ لم يُضْـبِـهِ الدمُ المطلولُ

حَرَمتْهم أيدى القَضَاءِ نعيمَ الـ ـعيشِ واستعبدتْهُمُ الآلامُ
فهُمُ حيثُ لا مجالسَ لا تصـ ـفيقَ حيث اَلمحْيا هُدىً وسلامُ
وهُمُ حيثُ ليسَ يُهْزَا بآلا مِ الحزانَى وتُحْقَرُ الأيتامُ
وهمُ البائسونَ أرْضهُمُ قَفْـ ـرٌ وأيّامُهُمْ طَوًى وسَقَامُ

غيرَ أنَّ الشقاءَ أحمدُ فى دنـ ـياهُمُ الإثمَ والأذَى والغرورا
فإذا هُمْ ولا جرائمَ تُدْمِى الأ رضَ من حولهم ولا تَدْميرا
لم يخوضوا الحروبَ سَعْياً إلى المجـ ـدِ ولم يَعْرفوا الدمَ المهدورا
والليالى مَدَّتْ لهم سُبُلَ الرحـ ـمةِ فاستعذبوا الشعورَ الطَهورا

وُهوَ الفَقْرُ ردَّ أنفُسَهم بيـ ـضاً من الشرِّ والأذَى والحقودِ
فإذا طافَ باطلٌ بحِماهُمْ احمرارُ الحياءِ لونُ الخدودِ
ليسَ فيهم من سَخَّرَ الشعرَ والفنَّ عبيداً للمَطْمعِ المحدودِ
ليس فيهم من داسَ آلهةَ الفنِّ على مَذْبحِ الغِنَى المنشودِ

ولقد أمضَوا الحياةَ بعيديـ ـنَ عن النَّار واحتدامِ الصراعِ
ملأتْهم ألوانُ أحلامِهم نُبْـ ـلاً فلم تُغْرِهم رؤى الأطماعِ
عبروا وادىَ الحياةِ سُكوتاً مُغْرَقى العُمْرِ فى صفاءِ الطباعِ
لهو هم مُنْبَعٍ يفيضُ على الأر ضِ وناىٌ نشوانُ فى فم راعِ

رقــدوا والقـبــور عــارية إلاَّ | من الصـمـت والهـدوء الحـزينِ
وعلى البُـعْـد تلمحُ العـينُ تمثا | لاً ضـئـيـلاً يبكي لصَـرْعَى المنون
كُـتـبـتْ تحتـهُ قـواف وأشـعـا | رٌ تـغـنّـى لمـن ثَـووْا فـى الـطـين
يسـألُ العـابرينَ آهـةَ حُـزْنٍ | لقـبـورٍ تحتَ الـدُجَى والدُجـونِ

القـبـورُ التى حَنتْ ريشـةُ الـشـعـ | ـرِ عليـهـا بلحنِ حُـزْنٍ حـائرْ
فـإذا اللحـنُ لحنُ شـاد مـقلٍّ | ليس فـيـه إلاّ تـفـجُّعُ شـاعـرْ
القـبـورُ التى عـلى صَخْـرها الحـ | ـنُ رثـاء يُثـيـرُ دمعَ العـابرْ
ويُنادى الأحـيـاءَ أنّ حـيـاةَ الـ | ـمـرءِ حُلْمٌ عُـقْبـاهُ صـمتُ المقـابرْ

أيُّ نفس تَرَى يهـونُ عليـهـا | أن تُوارَى فـى لجّـة النسـيـان؟
ولتـكن هذه الحـيـاةُ شـقـاءً | من تَـراهُ يرتـاحُ للأكـفـان؟
أيُّ قلـب يَرْضَى مـغـادرةَ الأر | ضِ بلا حَـسْـرَةَ ولا أحـزان
وهْى أفْقٌ الأضواءِ والسحْر والأشـ | ـعـارِ والقـبـرُ عـالـمُ الديدانِ؟

وهى الروحُ حـينَ ترحَلُ تـهـفـو | لفـؤاد حـان وصـدر خَـفُـوق
والعـيـونُ المودِّعـاتُ يُعَـزِّيـ | ـهـا أسَـى مُشْـفق ودمعُ صـديق
ومن الـقـبـرِ ذلك المظـلمُ البـا | ردُ يعلو صـوتُ الـزَّمـان العـميق
آه حـتّى فى شلْـوِ أجـسـادنـا الميْـ | ـتـة تبـقـى آثارُ ذاكَ البـريقِ

آه يا شـــاعــرى وأنتَ؟ وقــد خَلَّـ ـدتَ ذكـرى الأمـواتِ والبـائسـينا
أنتَ يا من قَـصَصْتَ أنباءهـم شعْـ ـراً وذوّبتَ قـلبَـكَ المحـــــزونـا
علَّ روحـــاً تقــودُهُ الوحـدةُ الخـر ســاءُ يومـــا إلى حـــمَــاكَ حنينا
علّـهُ ســـائلٌ غـــداً عن أغـــانيـ ـكَ ومـا قـد جرَتْ عـليك السنونا

أيّهـــا الشـــاعــرُ الوفـيُّ وقــد يَهْـ ـتُفُ قـلبٌ ثان يُجـيبُ السـؤالا:
طالمـا قــــبّلتْ خُطـاهُ ثَرَى الـوا دى صـبـاحـاً وجـابـتِ الأدغـالا
طالما ســارَ مُسْـرعـاً تـنفضُ الأنـ ـداءَ أقـــدامُــهُ وتطوى التـــلالا
ليُلاقى إشـراقةَ الشـمس فـوقَ الـ ـقِـمَمِ الخُضْـرِ فـتنةً وجـمـــالا

ها هُنَا فى الظـلالِ من شَـجَـرِ البلـ ـوطِ بيـن الأغـصـــانِ والأفــيـــاءِ
طالما مــدَّ جـسـمَــهُ الخـــائرَ المكـ ـدودَ مُـسْـتَسْـلماً لأيدى القـضـاءِ
سـابحاً فى الخـيالِ مـغرورقَ العيـ ـنيـنِ نَهْبَ اكـتـئـابةٍ خَـرسْـاءِ
أبداً يـرقُبُ الســواقـىَ حـيـــرا نَ ويُصْـــغـى إلى خَــريرِ الماءِ

كم رأيـناهُ شـــارداً فى المجــــالى وعلى ثغــرِه ابتــســامــةُ ســاخــرْ
كم لمحنـاهُ حــالمَ القَلْـبِ يحـتثُّ خُطَـاهُ بيـنَ الروابـى النـواضـــرْ
تارةً ضــــاحـكاً وآناً حــــزيـنا شاحبَ الوجْـه مُغْرقـاً فى الخواطرْ
قــوّستْ ظهـرَهُ همـومُ الليـــالى قــضَـتْ بالأسى عليـهِ المقـــادرْ

طالما سارَ شاردَ الخطوِ مكدو ... دأ كسارٍ ضلَّتْ به قَدَماهُ
أو كمن أخلصَ الغرامَ فلم يَلْـ ... ـقَ سوى البُغْضِ والجفاء هواهُ
أو كمن وشَّحَ الشقاءُ لياليْـ ... ـه وماتتْ أحلامُهُ ورؤاهُ
أو كمن عاشَ حالمَ الروحِ بالنو ... رِ فلم يرحمِ الظلامُ مُناهُ

وأتى الفجرُ ذاتَ يومٍ فلم أعـ ... ـثرْ على الشاعرِ الشريد النبيلِ
لم أجِدْهُ على التلال الحبيبا ... تِ إلى قلبه ولا في السُّهولِ
ومَضى اليومُ ثمَّ أقبلَ ثانٍ ... والفتى في مَقَرِّه المجهولِ
لا إلى جانب الجداولِ ألفيـ ... ـه ولا في الرُّبَى ولا في الحقولِ

وأتاني الصَباحُ بالنبأ المجـ ... ـهولِ فالشاعرُ الحزينُ صريعُ
حملوهُ على الأكُفِّ وألحا ... نُ المراثي تفجُّعٌ وخُشوعُ
آهِ يا عابرَ السبيلِ اقترب واقـ ... ـرأ رثاهُ فذاكَ ما تستطيعُ
كتبوهُ على حجارةِ قبرٍ ... ما بكتْهُ غيرَ الدجونِ دُموعُ

"الكلمات المكتوبة على القبر"

ها هنا فى التراب فى ظُلَّةَ الشو ك وسادٌ لشاعرٍ محزونِ
جهلتْهُ الحظوظُ والمجدُ والشهـ ـرةُ فى ظُلمة الزمانِ الضنينِ
لم يَنَلْ من مناهلِ العلم والفنِّ سوى كأسِ ظامئٍ مغبونِ
والليالى صاغتْ صِبَاهُ من الحزْ نِ وهزّتْ حياتَهُ بالشجونِ

وَسِعَ الكونَ كلُّهُ قلبُهُ الخفّـ ـاقُ بالودِّ والحنان الدفُوقِ
ولقد كافأتْهُ آلهةُ الشعـ ـر على قلبه النبيل الرقيقِ
مَنَح البائسينَ أثمن ما يمـ لكُهُ: عَبْرةَ انفعال عميقِ
فَحَبَتْهُ السماءُ أنبلَ ما تمـ ـنحُهُ للأحياء: قلبَ صديقِ

آهِ يا عابرَ السبيلِ دعِ الشا عرَ فى مَرْقَدِ الردَى مُطمئنّا
لا تحاولْ كشفَ الستار عن الخيـ ـرِ ودعْ مقلةَ المَساوئِ وَسْنَى
فوراءَ الترابِ قلبٌ له فى رحمة الله مأملٌ ليس يَفْنَى
مأمَلُ الخافقِ الذى ضمَّهُ اللـ ـهُ إلى عَدله فأغمضَ عَيْنا

أيار ١٩٤٥

شظايا ورمَاد

الطبعة الأولى ١٩٤٩

مقدمة

في الشعر، كمـا في الحياة، يصح تطبيق عبارة بـرنارد شو: «اللاقاعدة هي القاعدة الذهبـية»، لسبب هام، هو أن الشعر وليد أحـداث الحياة، وليس للحياة قـاعدة معينة تتبـعها في ترتيب أحداثها، ولانمـاذج معينة للألوان التي تتلون بها أشياؤها وأحاسيسـها، ولاتناقض بين هذا الرأي وما يقسم إليه النقاد الشعـر من مدارس ومذاهب حين يقـولون «كلاسيكي، رومانتـيكي، واقعي، رمزي، سريالي. . .» فهذه كلها ليست قواعد، وإنما هي أحكام.

وقد يرى كثيرون معي أن الشعر العربي، لم يقف بعد على قدميه، بعد الرقدة الطويلة التي جثـمت على صدره طيلة القرون المنصرمـة الماضية، فنحن عموماً ما زلنا أسرى، تسيّرنا القواعـد التي وضعها أسلافنا في الجاهلية وصدر الإسلام، مـا زلنا نلهث في قصـائدنا ونجر عـواطفنا المقيـدة بسلاسل الأوزان القديمة، وقرقـعة الألفاظ الميتة، وسدى يحاول أفـراد منا أن يخالفوا فإذ ذاك يتصدى لهم ألف غيور على اللغة، وألف حـريص على التقاليد الشعرية التي ابتكرها واحد قـديم أدرك ما يناسب زمانه، فـجمّدنا نحن مـا ابتكر واتخذناه سنّة، كأن سلامـة اللغة لاتتم إلا إن هي جمدت على ما كـانت عليه منذ ألف عام، وكأن الشعـر لايستطيع أن يكون شعراً إن خرجت تفعـيلاته على طريقة الخليل.

ويقولون: ما لطريقة الخليل؟ وما للغة التي استعملها آباؤنا منذ عشرات القرون؟ والجـواب أوسع من أن يمكن بسطه في مـقدمـة قصيـرة لديوان، ما لطريقة الخليل؟ . . . ألم تصـدأ لطول ما لامسـتها الأقلام والشـفاه منذ سنين وسنين؟ ألم تألفها أسماعنا، وترددها شفاهنا، وتعلـكها أقلامنا، حتى مجتها منذ قرون ونحن نصف انفعالاتنا بهذا الأسلوب حتى لم يعد له طعم ولا لون

لقد سارت الحياة، وتقلبت عليها الصور والألوان والأحاسيس ومع ذلك ما زال شعرنا صورة لقفا نبك، وبانت سعاد، الأوزان هى هى، والقوافى هى هى. . وتكاد المعانى تكون هى هى؟

ويقولون: ما للغة؟ وأية ضرورة إلى منحها آفاقاً جديدة؟ فينسون أن اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت، والواقع أن اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الإيحاء، التى تستطيع بها مواجهة أعاصير القلق والتحرق التى تملأ أنفسنا اليوم، إنها قد كانت يوماً لغة موحية، تتحرك وتضحك وتبكى وتعصف، ثم ابتليت بأجيال من الذين يجيدون التحنيط وصنع التماثيل، فصنعوا من ألفاظها «نسخاً» جاهزة، ووزعوها على كتابهم وشعرائهم، دون أن يدركوا أن شاعراً واحداً قد يصنع للغة ما لايصنعه ألف نحوى ولغوى مجتمعين، ذلك أن الشاعر بإحساسه المرهف وسمعه اللغوى الدقيق، يمد للألفاظ معانى جديدة لم تكن لها، وقد يخرق قاعدة مدفوعاً بحسه الفنى، فلا يسئ إلى اللغة، وإنما يشدها إلى الأمام، الشاعر أو الأديب إذن هو الذى تتطور على يديه اللغة أما النحوى واللغوى فلا شأن لهما بها، النحوى واللغوى عليهما واجب واحد هام، واجب الملاحظة واستخلاص قواعد عامة من كلام «المرهفين» من الكتّاب والشعراء.

على أن الأديب الذى سنتفق على تسميته «مرهفاً»، لابد أن يملك ثقافة عميقة تمتد جذورها فى صميم الأدب المحلى، قديمه وحديثه، مع اطلاع واسع على أدب أمة أجنبية واحدة على الأقل، بحيث يتهيأ له حس لغوى قوى، لايستطيع معه إن هو خلق، إلا أن يكون ما خلق جمالاً وسموا، فإذا خرق قاعدة، أو أضاف لوناً إلى لفظة، أو صنع تعبيراً جديداً، أحسسنا أنه أحسن صنعاً، وأمكن لنا أن نعد ما أبدع وخرق قاعدةً ذهبية.

ولن تقف وظيفة الأديب المرهف، عند خرق قاعدة هنا، وإضافة معنى هناك، وإنما سيكون عليه واجب أدق من هذا تفرضه عليه طبيعة التطور فى

اللغات الإنسانية الحية، سيكون عليه أن يُدخل تغييراً جوهرياً على القاموس اللفظى المستعمَل فى أدب عصره، فيترك استعمال طائفة كبيرة من الألفاظ التى كانت مستعملة فى القرن المنصرم ويُدخل مكانها ألفاظاً جديدة لم تكن مستعمَلة. ذلك لأن الألفاظ تخلق كما يخلق كل شىء يمر عليه إصبع الاستعمال فى هذه الحياة المتغيرة، وهى تكتسب بمرور السنين، جموداً يسبغه عليها التكرار، فتفقد معانيها الفرعية شيئاً فشيئاً، ويصبح لها معنى واحد محدود، يشلّ عاطفة الأديب، ويحول دون حرية التعبير.

ثم إن هنالك سبباً آخر هاماً يستدعى هذا الاستبعاد للألفاظ التى كثر استعمالها، هو أن الأذن البشرية تمل الصور المألوفة والأصوات التى تتكرر، وتستطيع أن تجردها من كثير من معانيها وحياتها، وخير مثال لهذا أننا ننفر الآن بطبيعتنا من استعمال ألفاظ كهذه: «عمبر، كافور، غصن بان، قد، هلال، صدغ، عود، نرجس، لؤلؤ» وهى ألفاظ كانت فى بعض العصور السالفة تبدو رقيقة شعرية، وربما كانت يوماً مما لايستعمله إلا المجددون من الشعراء.

وقد لاحظت خلال دراستى للآداب المعاصرة، هذه الملاحظة الطريفة: لاحظت أننا فى هذا العصر، قد أصبحنا ننسى المدلول الخاص لكلمة «البدر» فنهملها إهمالاً يكاد يكون كلياً، ونؤثر عليها لفظ «القمر» وقلَّ فى الشعراء المعاصرين مَن يرضى استعمال كلمة «بدر» إلا فى الحالات النادرة، وأنا أعترف،أننى أكلف نفسى أحياناً متاعب كثيرة، لكى لاأستعملها، والتعليل السايكولوجى لهذا يسير، فأنا وسواى نتذكر بلا شك تلك العشرات من الأبيات الصماء النافرة التى تركها شعراء العصر المنطفىء الماضى، واستعملوا فيها كلمة «بدر» حتى جردوها من جمال معناها، وأطفأوها، وأبقوا منها ظلالهم هم عليها.

ربما كان هذا كله من عمل ما يسميه علماء النفس الاقتران Association وربما كان لـه عندهم تعليل آخر، سـوى أن هذا كله يتعلق بالسـبب لا بواقع الأمر، فالمهم أن الألفاظ تصدأ وتحول، وتحتـاج إلى استبدال بين حين وحين، وقد رأينا أن هذا الاسـتبدال وظيـفة الأديب يقـوم بها وهو «نصف واع» لأن الوعى التام قلما ينتج شيئاً ذا قيمة.

* * *

لنعد إلى حديث الأوزان..

فى هذا الديوان لون بسيط من «الخروج» على القـواعد المألوفة، يلاحظ فى قصائد مثل «جـامعة الظلال» و«لنكن أصدقاء» و«مرثيـة يوم تافه» و«أغنية الهاوية» وسواها، وقـد يحسن بى أن أؤكد للقارئ أننى لا أعـدُّ نفسى واحدة من المرهفين الذين تحدثت عنهم فى الصفحـات السابقة، سوى أننى أحسست أن هذا الأسلوب الجديد فى ترتيب تفاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من ألف قيد، وسأحاول فيما يلى أن أبسط خاصية هذا الأسلوب، ووجه أفضليته على أسلوب الخليل، الأبيات التالية تنتمى إلى البـحر الذى سماه الخليل «المتقارب» وهو يرتكز إلى تفعيلة واحدة هى «فعولن»:

يداك للمس النجوم

ونسج الغيوم

يداك لجمع الظلال

وتشييد يوتوبيا فى الرمال

أتراني لو كنت اسـتعملت أسـلوب الخليل، كنت استطيع التـعبـير عن المعنى بهذا الإيجـاز وهذه السهولة؟ ألف لا، فـأنا إذ ذاك مضطرة إلى أن أتم

بيتاً له شطران، فـأتكلف معانى أخرى غير هذه، أمـلأ بها المكان، وربما جاء البيت الأول بعد ذلك كما يلى:

يداك للمس النجوم الوضاء ونسج الغمائم ملء السماء

وهى صـورة جنى عليهـا نظام الشطرين جناية كـبيـرة، ألم نلصق لفظ «الوضاء» بالنجوم دونما حاجـة يقتضيها المعنى إتماماً للشطر بتـفعيلاته الأربع؟ ألم تنقلب اللفظة الحساسـة «الغيوم» إلى مرادفتها الثـقيلة «الغمائم» وهى على كل حال لاتؤدى معناهـا بدقة؟ ثم هنالك هذه العبارة الطائشـة «ملء السماء» التى رقعنا بها المعنى، وقد أردنا له الوقوف فخلقنا له عكازات؟

هذا كله إذا نحن اخـترنا الوزن «المتـقارب»و أمـا إذا اختـرنا «الطويل» مثـلاً، فالبلية أعـمق وأمر، إذ ذاك تطول العكازات وتتـسع الرقع، وينكمش المعنى انكماشاً مهيناً، فنقول مثلاً:

يداك للمس النجوم أو نسج غيمة يسيرها الإعصار فى كل مشرق

ليلاحظ القـارئ بلادة التعـبير، وتقـلص المعنى، وأين هذا من تعبـيرنا الأول:

يداك للمس النجوم
ونسج الغيوم

وينبغى ألا ننسى أن هذا الأسلوب الجديد، ليس «خـروجاً» على طريقة الخليل، وإنما هو تعديل لهـا، يتطلبه تطور المعانى والأساليب خـلال العصور التى تفصلنا عن الخليل، فالخليل قد جعل وزن البحر «الكامل» كما يلى:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن
كفاى ترتعشان أين سكينتى؟
متفاعلن متفاعلن متفاعلن

شفتاى تصطخبان أين هدوئى؟

مرتكزاً إلى «مـتفاعلن» التى اعتـاد العرب أن يضعـوا ثلاثاً منها فى كل شطر؟ وكل ما سنصنع نحن الآن، أن نتلاعب بـعدد التفاعيل وترتيبـها فتجئ القصيدة من هذا البحر أحياناً كقصيدة «جدران وظلال» وهذا مقطع منها:

وهناك فى الأعماق شىء جامد

حجزت بلادته المساء عن النهار

شىء رهيب بارد

خلف الستار

يدعى جدار

أواه لو هدم الجدار

ولو قطعناه لجاءت تفعيلاته كما يلى:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلان

متفاعلن متفاعلن

متفاعلان

متفاعلان

متفاعلن متفاعلان

ومزية هذه الطريقة أنهـا تحرر الشاعر من طغيـان الشطرين، فالبيت ذو التـفاعيل الـست الثابتـة، يضطر الشاعـر إلى أن يختم الكلام عند الـتفعـيلة السادسـة، وإن كان المعنى الذى يريده قـد انتهى عند التفـعيلة الرابعـة، بينما يمكنه الأسلوب الجديد من الوقوف حيث يشاء.

* * *

ثم نتحدث عن القافية، ذلك الحجر الذى تلقمه الطريقة القديمة كل بيت، قالوا إن العربية لغة واسعة غنية، وأن ذلك يبرر كونها اللغة الوحيدة التى اتخذت القافية الموحدة سنة فى قصائدها، ونسوا أن أية لغة مهما اتسعت وغنيت، لاتستطيع أن تمد «ملحمة» بقافية موحدة، أياً كانت، ولم ينتهوا إلى أن ذلك كان واحداً من الأسباب التى حالت دون وجود الملحمة فى الأدب العربى، مع أنها وجدت فى آداب الأمم المجاورة، كالفرس واليونان.

وليس هذا مكان الحديث عن الخسائر الفادحة التى أنزلتها القافية الموحدة بالشعر العربى طيلة العصور الماضية، وإنما المهم أن نلاحظ أن هذه القافية تضفى على القصيدة لوناً رتيباً يمل السامع فضلاً عما يثير فى نفسه من شعور بتكلف الشاعر وتصيده للقافية، ومن المؤكد أن القافية الموحدة قد خنقت أحاسيس كثيرة، ووأدت معانى لاحصر لها فى صدور شعراء أخلصوا لها، ذلك لأن الشعر الكامل «الغنائى منه خاصة، والشعر العربى غنائى كله تقريباً» لايستطيع أن يكون إلا وليد الفورة الأولى من الإحساس فى صدر الشاعر، وهذه الفورة قابلة للخمود لدى أول عائق يعترض سبيل اندفاعها، فهى أشبه بحلم سرعان ما يفيق منه النائم، والقافية الموحدة قد كانت دائماً هى «العائق»، فما يكاد الشاعر ينفعل، وتعتريه الحالة الشعرية ويمسك بالقلم فيكتب بضعة أبيات، حتى يبدأ محصوله من القوافى يتقلص، فيروح يوزع ذهنه بين التعبير عن انفعاله، والتفكير فى القافية، وسرعان ما تغيض الحالة الشعرية وتهمد فورتها، ويمضى الشاعر يصف الكلمات ويرص القوافى دونما حس، ولذلك، قلما نجد فى أدبنا القديم قصائد موحدة الفكرة، يسيطر عليها جو تعبيرى واحد منذ مطلعها إلى ختامها، فالشاعر يضطر إلى مصانعة القافية، وأنا أعرف شعراء يختارون القافية، ثم يكتبون البيت وفقاً لها، وهذا أبرز دليل على مدى طغيان هذه الإلهة المغرورة.

إلا أن من حسن الحظ، أن شعراءنا المعاصرين قد استخفوا بسلطان القافية، وخرجوا عليه فاستعملوا نظام الرباعية وأشباهها، ويكاد هذا يصبح الآن أمراً مقبولاً، لايبقى على قوافى هذا الديوان اعتراضاً، إلا أننى أعترف مع ذلك بأننى أخضعت القافية أحيانا، لأكثر مما فعل سواى، فنظمتها فى قصيدة «مسامير» هكذا: «أ ب أ، ب ج ب، ج د ج، د هـ د، هـ و هـ. إلخ.»(١) وفى «رماد» التى استعملت فيها نظام الرباعية كما يلى: «أ ب ب أ» وفى «غرباء» التى استعملت فيها نظام «المقطوعة Stanza» وكانت القافية فى كل مقطوعة تجرى هكذا «أأب ب أب»، أما قصيدة «الكوليرا» فقد كانت المقطوعة فيها أطول مما «ينبغى» قليلاً وقد جرت على هذا النسق «أب ب ج ج ب د د ب هـ هـ هـ هـ هـ» على أننى حررت القافية تحريراً تاماً فى قصائد مثل «مر القطار» و«نهاية السلم» و«خرافات» و«جدران وظلال» وسواها، فتركتها تتكرر كما يشاء السياق دون تقيد بنظام معين، ولعل هذه هى الخطوة الوحيدة التى تسبق الشعر المرسل Blank Verse، وإن كان لابد من إشارة إلى قصيدة «الجرح الغاضب» فلأقرر أن الأسلوب الطريف فى تقفيتها مقتبس مباشرة عن الشاعر الأمريكى «أدجار آلان بو» فى قصيدته البديعة «Ulalume».

* * *

قلت إن اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الإيحاء؛ لأن كتابها وشعراءها لم يعتادوا استغلال القوى الكامنة وراء الألفاظ استغلالا تاماً، إلا حديثاً، فقد بقيت الألفاظ طيلة قرون الفترة الراكدة «المظلمة» تستعمل بمعانيها الشائعة وحدها، وربما كان ذلك هو السبب فى جنوح الجمهور العربى جنوحاً شديداً إلى استنكار المدارس الشعرية التى تعتمد على القوة الإيحائية للألفاظ، كالرمزية، والسريالية، على اعتبار أن هذه المدارس تحمِّل اللغة أثقالاً من

الرموز والأحلام الباطنية والخلجات الغامضة، واتجاهات اللاشعور، ومثل ذلك مما لاتنهض به إلا لغة بلغت قمة نضجها.

والواقع أن القارئ العربى يتهرب من الشعر الرمزى، لأن اللغة تجابه التعبير عن مثل هذه الأحاسيس المبهمة أول مرة، فليس غريباً أن تتلكأ قليلاً، وتتوتر، أما تعليل الأمر بأن ذاتية العربى تنفر بطبعها من الرموز ولاتجد جمالاً فى الدهاليز التى تتلوى وراء الحس، والعوالم الخفية التى يعسر إدراكها، فأمر لا أعتقد به أنا على الأقل..

ذلك لأن النفس البشرية عموماً، ليست واضحة، وإنما هى مغلقة بألف ستر، وقد يحدث كثيراً أن تعبر الذات عن نفسها بأساليب ملتوية، تثيرها آلاف الذكريات المنطمسة الراكدة فى أعماق العقل الباطن منذ سنوات وسنوات، ومئات الصور العابرة التى تمر فيحدق فيها العقل الواعى ببرود وينساها نسياناً كلياً، فيتلقفها العقل الباطن ويكنزها مع ملايين الصور التافهة، ويغلق عليها الباب، حتى إذا آنس غفلة من العقل الواعى، أطلقها صوراً غامضةً لا لون لها ولا شكل.

وليست مثل هذه الأحاسيس الغريبة وقفا على إنسان دون إنسان، سوى أن التعبير عنها يختلف، فالإنسان العادى يراها فى أحلامه، أما الفنان فيعبر عنها بفنه وأحلامه معاً، وما دمنا لانستغرب حين نستيقظ أحياناً فى أعماق الليل وقد حلمنا أننا نركض حفاة، فى قبو قديم، كان جزءاً من دار خربة كنا نسكنها منذ ثمانى عشرة سنة كاملة، لم نعد إليها خلالها مطلقاً، ومع ذلك لاحظنا فى الحلم أدق الأشياء المنطمسة التافهة التى شاهدناها فى السنين الغابرة، ذلك المسمار القديم المعوج على الجدار، وقد تدلى منه الحبل الباهت القديم نفسه، ثم هناك، على ارتفاع أمتار، أنبوب المياه الذى كنا فى طفولتنا نتسلقه أحياناً، أقول: ما دمنا لانستغرب ذلك فى حلم فلماذا لا نتقبله حين

يصفه شاعر فى قصيدة؟ إن الشاعر الذاتى الذى يراقب نفسه، كما لو كان يراقب بحراً زخراً لا شطآن له ولا قرار، لايستطيع أن يتهرب من مثل هذه الصور الباهتة الممحوة، فهى تلاحقه أبداً، ولابد له من وصفها فى شعره، والإبهام جزء أساسى من حياة النفس البشرية، لا مفر لنا من مواجهته إن نحن أردنا فناً يصف النفس، ويلمس حياتها لمساً دقيقا.

ومع ذلك فالإبهام ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو صورة من صور الحياة، ولذلك يندر أن نجد شاعراً، كل شعره معقد ملتو، أما الذين يتعمدون تعقيد شعرهم، فقد يكون (ألدس هكسلى) التمس لهم بعض العذر حين قال إن المعاصرين يهربون إلى الإبهام خوفاً من الوضوح الذى هو الصفة الأساسية فى الأدب الشعبى.

وليس قصدى من هذا التعليل للتعبير الرمزى والسريالى، أن أقول إن طائفة من قصائد هذه المجموعة تنتمى إلى هذه المدرسة أو تلك، وإنما أود أن أمهد لطائفة من القصائد التى عالجت فيها حالات تتعلق بالذات الباطنية أحياناً، وباللاشعور أحياناً، وهى حالات لم يقف عندها الشعر العربى إلا نادراً، فهو قد وقف نفسه على معالجة السلوك الخارجي للإنسان.

ففى «الخيط المشدود فى شجرة السرو» حاولت رسم صورة شعرية للانفعالات والخواطر التى اعترت شاباً فوجئ بنبأ موت حبيبته، وسيلاحظ أن القصة العاطفية فى هذه القصيدة ثانوية الأهمية بالنسبة للخيط المشدود فى الشجرة وما كان له من صلة وثيقة بشرود الشاب المصدوم، وفى حالة الهذيان الداخلى التى اعترته، فعقدة القصيدة تعتمد على الحالة التى تعترى إنساناً يتلقى نبأ مثيراً فاجعاً لايتوقعه؛ فهو إذ ذاك يصاب بشرود كبير عميق، ويبدو أنه لم يسمع النبأ، ويتلفت حوله فتعلق عيناه بأول شيء تافه تصادفانه، فيغرق فى التفكير فيه، وقد كان الشيء التافه فى هذه القصيدة هو الخيط، كان

مشدودا فى شجرة سرو تقوم عند الباب فانشغل العقل المصدوم بالتفكير فيه، وبقى منشغلاً حتى عاد إليه وعيه وأدرك فداحة المأساة التى نزلت به.

ولن يعثر القارئ على شيء مثير فى قصيدة «مر القطار» إن هو توقع أن يجد فيها وصفاً للقطار أو لرحلة فى القطار، فقد كان غرضى الأساسى من كتابتها أن أعبر عن الشعور الغامض الذى يحسه المسافر ليلاً بالدرجة الثالثة من القطار، فهناك حالة التعب الكلى التى يجد فيها المرء نفسه مشوبة بلون من الكسل والارتخاء، وهناك صوت عجلات القطار الرتيب الذى لايتغير، ولون الغبار المتراكم على كل شيء على الحقائب، وعلى الوجوه والثياب، ثم هناك منظر المسافرين الغرباء وقد جمعتهم عربة القطار صفوفاً، والقطار يصفر بين حين وحين فيثير إحساساً غريباً فى النفس، كل ذلك والسكوت يغمر العربة، التى نام أغلبية الموجودين فيها وهم جالسون على مقاعدهم، وبين فترة وأخرى، يصدف أن يتثاءب مسافر غريب لا نعرفه، ويهتف بملل ويرود «كم الساعة الآن؟» أو «متى نصل؟» أو «أين نحن؟» أو مثل ذلك من العبارات، فإذا أحس قارئ «مر القطار» ببعض هذا الجو كان ذلك حسبى.

أما قصيدة «الأفعوان» فقد عبرت فيها عن الإحساس الخفى الذى يعترينا أحيانا بأن قوة مجهولة جبارة، تطاردنا مطاردة نفسية ملحة، وكثيراً ما تكون هذه القوة، مجموعة من الذكريات المحزنة، أو هى الندم، أو عادة نمقتها فى سلوكنا الخارجى، أو صورة مخيفة قابلناها فلم نعد نستطيع نسيانها، أو هى النفس بما لها من رغبات وما فيها من ضعف وشرود، أو أى شيء آخر . . . فالأمر متوقف على ذاتية القارئ، وليس يعنيه أن أعين «افعوانى» أنا، فذلك أمر ثانوى، وإنما المهم، أن هذا الأفعوان يطاردنا باستمرار وسدى نتهرب منه، حتى إذا لذنا باللابرنث Labyrinth «وهو تيه معقد المسالك يدخله المرء فلا يملك مغادرته لالتواء طرقه وكثرة أبوابه»، حتى إذا استعملنا طريقة الإيحاء الذاتى كما صنعت أنا فى القصيدة:

إنه لن يجيء
لن يجيء وإن عبر المستحيل
أبداً لن يجيء

فالنتيجة الحتمية، أنه يجيء أخيراً، وسرعان ما نصرخ «إنه جاء!» وفي قصيدة «خرافات» يجد القارئ لوناً من الشعور أحسه، ويحسه كثيرون، كلما ساد السكون مكانا، فإذ ذاك نسمع بأذن الروح ألف قصة تقصها الأشياء الراكدة حولنا، فالسياج يتكلم ويعيد ما كانت عنده من ذكريات انطمست وماتت، و«قصائص الورق الممزق في الخرائب» تحكي أقاصيص مثيرة عن حوادث بعيدة منسية، و«الغبار» يقص قصة النسيان الذي تذره العصور على كل شيء، و«مقاعد الغرف القديمة» تتحدث عن جيل من الناس مر بها يوماً ثم انتقل إلى أفق بعيد مجهول، وهكذا... حتى يكاد الإنسان الحساس لايرى شيئاً إلا ويحسه يغمغم ويهمس ويطارده بالكلام.

* * *

والذي أعتقده أن الشعر العربي، يقف اليوم على حافة تطور جارف عاصف لن يبقى من الأساليب القديمة شيئاً، فالأوزان والقوافي والأساليب والمذاهب ستتزعزع قواعدها جميعاً، والألفاظ ستتسع حتى تشمل آفاقاً جديدة واسعة من قوة التعبير، والتجارب الشعرية «الموضوعات» ستتجه اتجاهاً سريعاً إلى داخل النفس، بعد أن بقيت تحوم حولها من بعيد، أقول هذا اعتماداً على دراسة بطيئة لشعرنا المعاصر واتجاهاته وأقوله لأنه النتيجة المنطقية لإقبالنا على قراءة الآداب الأوروبية ودراسة أحدث النظريات في الفلسفة والفن وعلم النفس، والواقع أن الذين يريدون الجمع بين الثقافة الحديثة وتقاليد الشعر القديمة، أشبه بمن يعيش اليوم بملابس القرن الأول للهجرة، ونحن بين اثنين: إما أن نتعلم النظريات ونتأثر بها ونطبقها، أو ألا نتعلمها إطلاقاً.

وقد يفيدنا أن نتذكر دائماً أن التطور الذى يحدث فى الفنون والآداب فى عصر ما، أكثر ما يكون ناشئاً عن التقاء أمتين أو أكثر، فقد يحدث أن أمة معينة، تخمد قابلياتها وتركد قروناً كاملة بتأثير عوامل خاصة، ثم يأتى عليها زمن متوثّب يوقظها فتتململ وتتحرك، وترنو إلى ما حولها، وتبدأ باستيعاب ما فاتها من ثقافات، فتستفيد من تجارب أمة مجاورة بقيت نشيطة فأضافت إلى الفكر الإنسانى فصولاً لامعة، فما يمضى نصف قرن حتى تنتهى الأمة التى كانت راكدة من مرحلة الاستيعاب، وتبدأ حيث وقفت الأمة المجاورة تبدأ بالإضافة، وهذا هو الأسلوب الذى يتبعه خط التطور فى تاريخ الأمم، بحيث لانستطيع أن نعثر على مذهب، أو اختراع، أو نظرية، توصلت إليها أمة بعينها، دون أن تستفيد من تجارب الأمم الأخرى.

* * *

آخر ما أود أن أقوله فى هذه المقدمة، إننى أؤمن بمستقبل الشعر العربى إيماناً حاراً عميقاً، أؤمن أنه مندفع بكل ما فى صدور شعرائه من قوى ومواهب وإمكانيات، ليتبوأ مكاناً رفيعاً فى أدب العالم.

وألفُ تحيةٍ لشعراء الغد.

١٩٤٩/٢/٣

نازك الملائكة

كبرياء

لا تَسَلني عن سرّ أدمعيَ الحرّ ... ىَ فبعضُ الأسرار يأبى الوضوحا
بعضُها يؤثِرُ الحياةَ وراءَ الـ ... ـحسّ لُغْزًا وإن يكنْ مجروحا

بعضُها إن كشفتهُ يَستحِلْ حُبّـ ... ـاً مُهاناً يموتُ موتاً حزينا
بعضُها بعضُها تكبَّر أن يكـ ... ـشفَ عما وراءَهُ أو يُبينا

ومئاتُ الأسرار تكمنُ في دمـ ... ـعة حُزْنٍ تلوح في مقلتينِ
ومئاتُ الألغاز في سكتة تهـ ... ـتزُّ خلفَ انطباقة الشفتينِ

وعيونٌ وراءَ أهدابها أشـ ... ـباحُ يأسٍ في حَيرة وانكسارِ
تؤثِرُ الظلَّ والظلامَ ارتياعاً ... من ضياءٍ يبوحُ بالأسرارِ

وقلوبٌ تضُمُّ أشلاءها فو ... قَ جراحٍ وأدمعٍ وذهولِ
تؤثِرُ الموتَ كبرياءً ولا تنطـ ... ـقُ بالسرِّ بالرجاءِ الخجولِ

وشفاهٌ تموتُ ظمأىَ ولا تسْـ ... ـأل أينَ الرحيقُ؟ أين الكأسُ؟
ونفوسٌ تحسُّ أعمقَ إحسا ... سٍ وتبدو كأنّها لا تُحِسُّ

وأكفٌّ تودُّ لو مَـزّقتْ لو   قَتَلَتْ لو تمرّدتْ فى جُنونِ
لو رأتها الحياةُ قالتْ: هدوءٌ   وادعٌ فى براءةٍ وسكونِ

لو رأتْها ماذا تَرَى؟ كلُّ شيءٍ   مُغْرَقٍ خلفَ داكنات السُّتورِ
ألفُ سترٍ وألفُ ظلٍّ من الكبـ   ـتِ عميقٍ وألفُ قيدٍ ونيرِ

لا تَسَلنى لاتجرحِ السرَّ فى نفـ   ـسى ولا تَمْحُ كبرياءَ سكوتى
لو تكلمتُ كانَ فى كل لفظٍ   قبرُ حُلمٍ وفجرُ جُرْحٍ مُميت

لو تكلمتُ كيفَ ترتعشُ الأشـ   ـعارُ حُزناً وترتمى فى عَيَاء
لو كشفتُ السرَّ العميق فماذا   يتبقَى منى سوى الأشلاءِ؟

لو تكلمتُ رعشةٌ فى حياتى   وكيانى تُلحُّ أن أتكلّمْ
وسكوتى العميق يكتم أنفا   سى وقلبى يكادُ أن يتحطّمْ

لو تكلمت لو سكتُّ نداءا   ن عميقان كالحياة استعارا
تتلاقىَ عليهما كلُّ أسرا   رى فأبقىَ شِعراً وحبّاً وناراً

وتظَلُّ الحياةُ تخلُقُ من وجـ   ـهى قناعاً صَلْداً يفيضُ رياءا
جامداً بارداً أصمّاً ويُخْفى   بعضَ شيءٍ سمّيتُه كبرياءَ

(١٩٤٨)

يوتوبيا الضائعة

صدىً ضائعٌ كسراب بعيد　　يجاذب روحي صباحَ مساءْ
أنامُ على رَجْعِهِ الأبديّ　　ويوقظني برقيقِ الغناءْ
صدىً لم يشابهْه قطّ صَدَىً　　تغنّيه قيثارةٌ في الخفاءْ
إذا سمعتْهُ حياتي ارتمت　　حنينًا ونادته ألفَ نداءْ
يموت على رجعه كلُّ جُرْح　　بقلبي ويُشرقُ كلُّ رجاءْ
ويمضي شعوري في نشوةٍ　　يخدّرُهُ حُلْم يوتوبيا

ويوتوبيا حُلُمٌ في دمي　　أموتِ وأحيا على ذكرهِ
تخيَّلته بلداً من عبير　　على أفق حِرْتُ في سرِّهِ
هنالك عبر فضاءٍ بعيد　　تذوب الكواكب في سحرِهِ
يموت الضياء ولايتحقق　　ما لونه ما شذى زهرِهِ
هنالك حيث تذوب القيود　　وينطلق الفكر من أسرِهِ
وحيث تنام عيون الحياة　　هنالك تمتدُّ يوتوبيا

ويوتوبيا حيث يبقى الضياء ولاتغرب الشمسُ أو تَغْلسُ
وحيث يظلُّ عبيرُ البنفسجِ حيّاً ولايذبل النرجسُ
وحيث تفيضُ الحياةُ رحيقاً نميراً ولاتفرُغُ الأكؤسُ
وحيث تضيعُ حدودُ الزمان وحيثُ الكواكبُ لاتنعسُ
هناك الحياة امتداد الشباب تفور بنشوتهِ الأنفسُ
هناك يظلُّ الربيعُ ربيعاً يظلّلُ سكان يوتوبيا

هنالكَ حيث وعتْ شهرزاد أقاصيصَ غنّتْ بها ألفَ ليلهْ
وحيثُ ديانا تسوقُ الضياء ونارسيسُ يعبُدُ في الشمسِ ظلَّهْ
هنالك يوتوبيا في الضباب على شفق لم تَرَ العين مثلهْ
يحفُّ بها أبدٌ من عطور ويمنحُها ألفَ لحنٍ وقُبْلهْ
وترقدُ في سَكْرةٍ لا تُحَدُّ على رجع أغنيةٍ مضمحلَّهْ
على شاطئٍ كضياء النجوم أسمّيه شاطئَ يوتوبيا

هنالك طوَّفتُ ذات مساء وكان معى هيكلٌ كالسرابْ
أُحسُّ خطاهُ على الرمْل لكن أرى غيرَ شيءٍ وبعض سحابْ
وكنتُ أحسُّ بجسمى حياةً تطيرُ بروحيَ فوق الترابْ
وكان أمامى ممرٌ غريبٌ تغلّفُهُ دفقات الضبابْ
ويمتدُّ عن جانبيه خليجٌ وبعضُ جزائرَ بعضُ هضابْ
وفى حلُمى صحتُ: أين أسير فردَّ صدىً: قربَ يوتوبيا!

أحسستُ في قعرِ روحي جنوناً ... وشوقاً عميقاً كبحرٍ عميقْ
أريدُ انتهاءَ الطريقِ الغريب ... إلى البلدِ المتمنَّى السحيقْ
لي ذلكَ الأفقِ الأزليّ ... وحيث يعيشُ أبولو الرقيقْ
أسيرُ أسيرُ ولا شيءَ يبدو ... أمامي غيرَ امتدادِ الطريقْ
على ظمأ لوجودٍ عجيب ... يذوبُ عليه الندَى والبريقْ
على ظَمأ صارخٍ وأخيراً ... صحوتُ ولم أرَ يوتوبيا

وفي حُلُمٍ آخرٍ كنتُ أمشي ... على شاطئٍ من حصىً ورمالْ
غريبٍ غريبٍ بلونِ الأثير ... يحفُّ به أفُقٌ كالخيالْ
تناهى بأقدامي المُتْعبَات ... إلى صخرةٍ رسخَتْ كالمحالْ
تسلَّقُها أملٌ مضمحلٌّ ... فقد تتزحلقُ حتى الظلالْ
وقفتُ على قدَميْها أنوحُ ... على حُلُمٍ بائسٍ لن يُنالْ
وساءلتُ ماذا ترى خلفَها؟ ... فقال لي الرملُ: يوتوبيا!

وفي حُلمٍ ثالثٍ خلتُ نفسي ... على بابها المرمريِّ الكبيرْ
أحدّقُ في نشوةٍ لا تحدُّ ... أكادُ أُجَنُّ.. أكادُ أطيرْ
أحقا أرى البابَ؟ ألواحُهُ ... تلوحُ مبطّنةً بالحريرْ
تقدمتُ واجفةً في خُشوعٍ ... وفي مقلتي ومْضُ حُلْمٍ قريرْ
أدقُّ على البابِ في نَشْوةٍ ... ولا ردَّ غيرَ السكونِ المريرْ
فصحتُ بصوتٍ حبيسٍ: دعوني ... أموتُ على بابِ يوتوبيا

ومـرتْ حـياتيَ مـرّت سـديً ولا شـيءَ يطفئ نـار الحنيـنْ
سديً قد عبـرتُ صحاري الوجود سُـديً قـد جـررتُ قـيـود السنينْ
ومـا زلتُ أذرعُ صـمـتَ القـفـار وأســألُ عن سـرِّهـا العـابـرينْ
يـطـولُ عـلى قـلـبيَ الانـتـظـار وأغـرقُ فـى بحـر يأسٍ حــزينْ
أحــاولُ أن أتـعـــزى بشـىء بـغــــاب، بـواد، بظـلـة تـيـنْ
دقـائـقَ... ثم أخـيـبُ وأهـتُفً: لا شيءَ يُشـبـهُ يـوتوبـيـا

سـأبقـى تجـاذبنى الأمـنيـات إلى الأفق السـرمـديِّ البـعـيـدْ
وأحلُمُ أحلُمُ لا أسـتـفـيـ ـقُ إلا لأحـلُمَ حُـلُـمـاً جـديدْ
أقـبّلُ جـدرانهـا فى الخـيـال وأسـألُ عنهـا الـفـضـاءَ المديدْ
وأسـألُ عنـهـا انسكابَ العطور وقَطرَ الندى وركـامَ الجليـدْ
وأسـألْ حـتى يمـوتَ السـؤال على شـفـتيً ويـخـبـو النشيـدْ
وحـين أمـوتُ... أموتُ وقـلبى علـى مـوعـدٍ مع يوتـوبـيـا

١٩٤٨

تواريخ قديمة وجديدة

لنَسِــرْ كــان أمسٌ ومــاتْ
مَســحتْ ذكــرَهُ السنوات

منذُ بضع مـئـات السنينْ
وطوتهُ مع الميِّــتــين

وبحــثْنا زمــاناً طويلْ
واستــعــرنا يدَ المســتحيلْ

عن كــواكبه الآفــلاتْ
لنُعــيــدَ إليــه الحــيــاةْ

وأهبْنا بركب العُــصــورْ
علّنا نستــعيــدُ الشــعورْ

أن يعــــودَ علــى بَدْء
فَــرَجــعْنا بلا شيء

كم شــقــقنا هناكَ الظلامْ
ونبــشنا رُكَــامَ العظامْ

وعــبــرْنا سكونَ الركــودْ
لم نجدْ شــيــئَنا المفــقودْ

ورأينا هناك جــبــاهْ
وعــيــوناً طوتْها الحــيــاهْ

لا ترى فــهــى عــمــيــاءُ
صــمــتتْ فهى خرســاءُ

ورأينا رفــاتَ قلوبْ
وســدىً حــاولتْ أن تؤوبْ

حنّطتْــهــا يدُ الذكــريات
مــعنا فــهْى.. فــهى رُفــاتْ

ورأينا شفاهاً خوتْ
وأكفّاً ذوتْ وانطوتْ
لم تَعُد تشتكى أو تجوعْ
لم يعد لأساها دموعْ

وسألنا عن الأمسِ
وهناكَ على الرمْسِ
فعشرنا على تابوتْ
يجثمُ الزمنُ المبهوتْ

ورَجعنا إلى التقويمْ
فسمعنا صُراخَ الهشيمْ
علَّنا نخدعُ الأيامْ
خلفَ سخرية الأرقامْ

ورأينا الغدَ المنتظرْ
ساحباً نصفَهُ المُحتَقَرْ
ساحباً نصفَهُ المشلولْ
نصفَهُ الجامدَ المملولْ

وهناكَ انطوى سفْرُ
وغداً ينبُتُ العُمْرُ
واختتمْنا النشيدَ القديمْ
فوقَ جُرحِ الزمانِ الأليم

ويتيهُ صدى الأمسِ
ونُحِسُّ على الكأسِ
فى مدار الزمانِ العميقْ
فورةَ الحُلمُ المستفيقْ

١٩٤٨

صــراع

أحبُّ.. أحــبُّ.. فـــقلبي جُنون وســـورةُ حبٍّ عـــمـــيق المَدَى
أحبُّ فـــروحيَ حسٌّ غـــريبُ يضــيع لـديه جـمـودي سُـدَى
حــيـاتيَ فـي العـالـم الشاعـريّ لهــيبٌ من الحبّ لـن يَخْـمَـدا
وجـسـمي قَلبٌ خَفُـوقٌ خفـوق ســيلبثُ ملتــهـبـاً مــوقَـدا

وأكـــرهُ أكـــرهُ قـلبي لهـــيبٌ وسَورةُ مَـقْت كـبيـر كـبيـرْ
وروحيَ مــســتـعرُ الاحــتـقــار يرى الكونَ أفْـقـاً وضيـعـاً حـقيـر
حــيـاتي تحسّ وجـيبَ الحُـقُـود على عــالم مــغـرَق في الشُـرُور
ونـفـــسيَ في ثورة لا تَـقَـــرُّ تحقِّرُ مـا حـولهـا من صـخـور

أُحبُّ وأكـرهُ.. حبّي شقـاءْ
أحبّ وأكـــره.. كُـرْهي ألَمْ
فـفيمَ أعيشُ؟ سئمتُ البـقـاءْ
وشـاقَ حيـاتـيَ صـمْتُ العَـدَمْ

وأبكي.. وأبكي.. فـدمعي لهيب يـحـطّمُ روحــي ويُـذْوي المنـى
تعـذُبني حَيـرتـي في الوجـود وأصـــــــرُخُ مـن ألمي: مـن أنـا
مُنحتُ عـيــوناً تحبُّ الدمــوع وقلبـــاً يـحـــبِّـــذُ أن يُطعَنا
وروحــاً تعــثّـر فـيـمــا يريد فـــمجَّ الظلامَ وعـــاف السَنا

وأضحكُ من كلّ ما في الوجود وفي ضَحكي مَرَحٌ ساخرُ
فقلبيَ سخريّةٌ واحتقارٌ يثيرهما العالمُ العاثرُ
أحدّقُ من قِمّتي في الثَرَى فيُضْحكني دودُهُ الناخرُ
وأضحكُ ضِحْكةَ ربٍّ كئيب تمرّدَ مخلوقُهُ الكافرُ

وأبكي واضحكُ.. دمعي دماءُ
وأبكي واضحكُ.. ضحْكي نَدَمْ
ففيمَ أُمرِّغُ تحت الضياءْ
فؤاداً سيرقُدُ تحت الظُلَمْ

أريدُ وأجهلُ ماذا أريد أريد وعاطفتي لا تُريدْ
أحبُّ السماءَ ولونَ النجوم وامقتُها كلَّ فجرٍ جديدْ
أريدُ وأشعُرُ أني أحسُّ ويسخَرُ مما أحسُّ الوجودْ
وأرغبُ في حُلمٍ غامضٍ فليس له هيكلٌ أو حدودْ

وأنفرُ من كلِّ ما في الوجود وأهرُبُ من كلّ شيءٍ أراهْ
ففي عُمْق نفسيَ صوتٌ غريب يعلّمُ قلبي ازدراءَ الحياهْ
ويصرُخُ بي: اهربي اهربي ويُتْعب احساسَ روحي صَداه
فاهتفُ يا عالمي: لا أريد! وتصرخُ بي ذكرياتي: النجاه!

أريدُ وأنفـرُ تحت السـمـاءْ
فـأرسِمُ كلَّ صـراعى نَغَمْ
ومن أجلِ لحنى سأرضى البقاءْ
وعـارَ الحـيـاةِ وذُلَّ الألمْ

أحـبُّ وأكـره مـاذا أحـبُّ — وأكـرهُ؟ أيُّ شعـورٍ عـجـيبْ؟
وأبكى وأضحك مـاذا ترى — يثيرُ بكائى وضحكِى الغريبْ؟
أريدُ وأنفـرُ، أيُّ جنون — حـيـاتىَ؟ أيُّ صـراعٍ رهيبْ؟
لماذا أغنّى؟ لماذا أعـيشُ؟ — ومنذا أصارعُهُ، من يُجيبْ؟

١٩٤٧

عندما انبعث الماضى

أمسُ فى الليل وكانت صور الأسرار شتّى
تتَصبّى حاضرى الغافى وكان الأمسُ مَيْتا
خلْتُنى كفنّته ذات مساءِ
وتحصنتُ بدعوى كبريائى
سمعتْ روحىَ فى إغفاءةِ الظلمة صوتا
لم يكن حلماً خُرَافىَّ الستورِ
بعثتهُ رغبةٌ خلف شعورى
كان شيئاً، كان فى صمت الدُجَى صوتك أنتا
ذلك الصوتُ الذى يعرفهُ سمعى مليّا
صوت ماضىَّ الذى ماتَ وما خَلّفَ شيّا
غيرَ أشتات احتقارٍ باهتِ
رسبتْ فى قعْر قلبى الصامتِ
غيرَ أشتاتِ ادّكارات لحبٍّ كان حيّا
منذ أعوامٍ.. وقد فاتَ ومرّا
منذُ أعوامٍ.. وصار الآن ذكرا
لفّها الماضى وواراها الترابَ الأبديا

ذلك الصوتُ الذى مرّ على سمعىَ أمس
كانِ يوماً رغبة تجهش فى أعماقِ نفسى
كان حُلماً ذائباً فى عبراتى
كان حُباً تائهاً فى أمنياتى
ثم حطّمتُ على ذكراهُ قيثارى وكأسى
عندما ضيعتهُ تحت الضبابِ
وتعثرتُ بأشلاء شبابى
وتهاويتُ على جثة أحلامى وأُنسى

ومضى عامان ممطوطان مرّا فى شُحُوبِ
كان عمرى خربةً يصبغها لون الغروبِ
تذرعُ الأشباحُ فى الصمت دُجاها
ويعيش البوم فى ظلِّ أساها
كلما جالت بى الحيرة فى القبو الغريبِ
مدتْ الذكرى ذراعيها إليَّا
لونُها يخلقُ من رُعبىَ دنيا
ويثيرُ الوترَ الميِّتَ فى قلبى الكئيبِ

وانقضى عامان ملعونانِ من أعوامِ حبى
مزّقتْ روحيَ أظفارُهما، روحى وقلبى
لم تَدعْ حتى شِراعاً من رجاءِ
أبداً لم تُبْقِ إلا كبريائى
وأباديدَ ادّكاراتٍ لها قسوةُ ذئبِ
عرفتْ روحيَ فيها لونَ أمسى
أمسيَ الراسبُ فى أعماقِ حسّى
عرفتْ فيها صدى الصوت الذى غمغم قربى

إنه الأمسُ إذنْ عاد ليحيا من جديدِ
إنه عاد إذن يطرقُ أبوابَ شُرودى
أسفاً يا شبحى عُدْ للترابِ
لم تعُدْ تملك أن تطرقَ بابى
لم يعد يربطنا إلا ركامٌ من حدودِ
هُوةٌ أعمقُ من ذنبكَ! ماذا؟
قد تبقّى لك عندى غيرُ هذا؟
غير ذكرى عبرتْ يوماً ومرّتْ بوجودى؟

مر القطار

اللَيلُ ممتدٌّ السكونِ إلى المدَى
لاشيءَ يقطعُهُ سوى صوت بليدْ
لحمامةٍ حَيْرى وكلب ينبَحُ النجمَ البعيدْ،
والساعةَ البلهاءُ تلتهمُ الغدا
وهناك في بعض الجهاتْ
مر القطارْ
عجلاته غزلت رجاءً بتُّ أنتظر النهارْ
من أجلهِ.. مرَّ القطارْ
وخبا بعيداً في السكونْ
خلفَ التلال النائياتْ
لم يبقَ في نفسي سوى رجْعٍ وَهُونْ
وأنا أحدّقُ في النجومِ الحالماتْ
أتخيلُ العرباتِ والصفَّ الطويلْ
من ساهرينَ ومتعبينْ
أتخيلُ الليلَ الثقيلْ
في أعينٍ سئمتْ وجوهَ الراكبينْ
في ضوءِ مصباحِ القطارِ الباهتِ

سَئمتْ مراقبةَ الظلامِ الصامتِ
أتصوّرُ الضجرَ المريرْ
فى أنفسٍ ملّت وأتعبها الصفيرْ
هى والحقّائبُ فى انتظارْ
هى والحقائبُ تحت أكداسِ الغبارْ
تغفو دقائقَ ثم يوقظُها القطارْ
ويُطِلُّ بعضُ الراكبينْ
متثائبًا، نعسانَ، فى كسلٍ يحدّق فى القفارْ
ويعودُ ينظُرُ فى وجوه الآخرينْ
فى أوجه الغُربَاء يجمعُهم قطارْ
ويكادُ يغفو ثم يسمَعُ فى شُرُودْ
صوتاً يغمغمُ فى بُرُودْ
«هذى العقاربُ لاتسيرْ!
كم مرَّ من هذا المساء؟ متى الوصولْ؟»
وتدقُّ ساعتُهُ ثلاثاً فى ذُهُولْ
وهنا يقاطعُهُ الصفيرْ
ويلوحُ مصباحُ الخفيرْ
ويلوحُ ضوءُ محطة عبرَ المساءْ
إذ ذاك يتئدُ القطارُ المُجْهَدُ
... وفتىً هنالكَ فى انطواءْ

يأبَى الرقادَ ولم يزلْ يتنهدُ
سهرانَ يرتقبُ النجومْ
في مقلتيه برودةٌ خطَّ الوجومْ
أطرافَهَا.. في وجهه لونٌ غريبْ
ألقتْ عليه حرارةُ الأَحَلام آثارَ احمرارْ
شَفَتاهُ في شبه افترارْ
عن شِبْهِ حُلْمٍ يفرُشُ الليلَ الجديبْ
بحفيفِ أجنحةِ خفيّاتِ اللُحونْ
عيناهُ في شِبْهِ انطباقْ
وكأنّها تخشَى فرارَ أشعة خلف الجفونْ
أو أن ترى شيئاً مقيتاً لا يُطَاقْ
هذا الفتى الضَجِرُ الحزينْ
عبثاً يحاول أن يرى في الآخرينْ
شيئاً سوى اللُغْزِ القديمْ
والقصّةِ الكبرى التي سئمَ الوجودْ
أبطالها وفصولهَا ومضَى يراقبُ في برودْ
تَكْرارهَا البالي السقيمْ
هذا الفتى.....
وتمرُّ أقدامُ الخفيرْ
ويُطِلُّ وجهٌ عابسٌ خلفَ الزُجاجْ،

وجهُ الخفير!
ويهزُّ في يده السراجْ
فيرى الوجوهَ المتعَبه
والنائمينَ وهُمْ جلوسٌ في القطارْ
والأعينَ المترقبه
في كلِّ جفْنٍ صرخةٌ باسمِ النهارْ،
وتضيعُ أقدامُ الخفير الساهدِ
خلفَ الظلامِ الراكدِ

مرَّ القطارُ وضاع في قلبِ القفارْ
وبقيت وحدي أسألُ الليلَ الشرودْ
عن شاعري ومتى يعودْ؟
ومتى يجيءُ به القطارْ؟
أتراهُ مرَّ به الخفيرْ
ورآه لم يعبأ به.. كالآخرينْ
ومضى يسيرْ
هو والسراجُ ويفحصان الراكبينْ
وأنا هنا ما زلتُ أرقُبُ في انتظارْ
وأوَدُّ لو جاءَ القطارْ....

١٩٤٨

عروق خامدة

يا حُبُّ لم تَبْقَ لنا ذكرى		لم يطوها الموتُ
كان لنا ماضٍ وقد مرّاً		ولفّهُ الصمْتُ

نحن هنَا وهمانِ، لا لونا		لا صوتَ لا شكلا
سرابُ لاشيئينِ، لا معنى		لا لفظَ لا ظلاّ

تدفعنا الآهاتُ والأحزانْ		وما لنا مأوى
يا ليتنا نظفرُ بالنسيانْ		أو نُمنحُ السلوى

نبكي فلا تحنو علينا يدُ		بربتةٍ من حنانْ
نحن هنا اللا أمسُ واللا غَدُ		نحن هنا اللاكيانْ

أعيننا أفقٌ بلا لونِ		لايعكس الأشياءْ
شفاهنا لحمٌ بلا لحنِ		وروحنا أشلاءْ

ونلتقي فتسكُتُ النجوى		وتكتم الأنفاسْ
وضحكةٌ تبدو بلا جدوى		ينقصُها الإحساسْ

وتلتــقى الكفّــان أيــنَ الرغــابْ ورغـــــشــــــة الأشـــــواقْ؟
أصــابـعٌ مـيّـتـةُ الأعــصــاب ليس لـهـــــا أعــــمـــــاقْ

وأعــينٌ فــــارغـــةُ الأحــداقْ لـيـسَ لـهــــــــــــا قــلـبُ
الشَـرْقُ فـيـهـا أسـودُ الآفـاق ويـلـهَـثُ الـغــــــــــــربُ

وأذرعٌ صـمّـاءُ كـالأحـجـارْ فــــارقــــهـــــا الشـــوقُ
جـامـدة لو لامـســتـهـا النارْ لـم يســــتــــفـقْ عِــرْقْ

ونـلتـــقى ينقـــصـنا شـيءُ شــــــيءٌ وراءَ الــــــروحْ
شـــفـــاهنا يُنْكرهـا الضــوءُ ولـيلُنَا مــــــجــــروحْ

ونـلتـــــقى تفْـــصِلُنـا آلامْ وأدمــعٌ خُــــــــــــرْسُ
يعـــزُّ أنْ تجـــمـــعِنا الأيامْ وبــــيــــنـــــا الأمـــسُ

وبـيـننـا هاويـة الـذكــــرى تـقـــــذفُ بالأشـــــبــــاحْ
سُــدَىً أريدُ الـضَّـفَّـة الأخـرى قـــــد غــــــرقَ الملاّحْ

١٩٤٨

الجرح الغاضب

أغضبُ أغضبُ لن أحتمل الجُرْحَ الساخرْ
جُرْحٌ قد مرَّ مساء الأمس على قلبى
جُرْحٌ يجثم كـالليل المُعْتِم فى قلبى
يجـثم أسود كـالنِقْمـة فى فكرٍ ثائرْ
جرحٌ لم يعرف إنسانٌ من قبلى مثلَهُ
لن يشكو قلبٌ بشـرىٌّ بعدى مـثلَهْ

الظلمـة فى أمسى المطوىِّ أحـسّتْـهُ
ومضت تهمس فى صمت الليل: من الجانى
حـتى الأبديةُ والآفـاق أحـسَّتْـهُ
وتناَسى، لم يعـبأ، لم ينتبـهِ الجانى.

أغضبُ، تغضبُ لى هَمَساتُ الليلِ الصامتْ
وتُحيلُ الجـوَّ الواجمَ صرخةَ جـبّارِ
وتقـولُ الأنجمُ: هذى نقـمـةُ جبّـارِ
ويثـورُ بقلبِ الأبديَّةِ جُرْحٌ سـاكتْ
أغضبُ، يرتعشُ الموجُ معى تحت القَمَرِ
ويضُجُّ وتبلُـغُ ثورتُهُ سـمْعَ القَـمَـرِ

ويُجَنُّ الغـيمُ الأسودُ فى عَـرْض الأُفُقِ
ويلُفُّ الشاطئَ ثوبُ حِـداد كجنازه
يتحوَّلُ صمتى ناراً تصرُخُ فى الأُفُقِ
وأغنى رقّـةَ إحـسـاسى لحنَ جنازه

أمسى، فى أمسى قد دُفِنتْ أشلاءُ غدى
كانتْ، لم يَـدْرِ بها أحدٌ، شـبهُ جـريمه
الجُرْحُ النديانُ سيشـهد، أيُّ جريمه

كيفَ على الأرض تسـاقطَ حُلْمى بين يدى
كيف المقدورُ مضى نَزقاً يقتُل قلبا؟
وتبـقّتْ بضعـةُ أشـلاءِ كانتْ قلبـا

وتبـقّتْ ذكرىً مُطْفَـأةٌ كانتْ أمـسا
جُـدرانٌ عـاريةٌ كانـتْ يوماً أمـسـا
وتبـقّت أنّاتٌ حَـيْـرَى كـانتْ لحنا
أصـداءٌ فى غـارٍ خـاوٍ كـانتْ لحنا

ومن الأعماق تصاعَدَ صوتٌ مخنوقُ
يهتُفُ فى حُزْنٍ، فى جَزَعٍ: كيف أبوحُ؟
ليتَ الجُرْحَ المظـلومَ إلى الليلِ يبوحُ

قـد يـثـأرُ لى مطرٌ ورعــودٌ وبروقُ
ورأيتُ على الأُفق المخـضوب بفـيضِ دمى
شبَـحاً تفترُّ على فـمِهِ قَطَراتُ دمى

عــيناهُ الزرقــاوانِ مــســاءا أهوالِ
شـبَحٌ مجنونٌ أيقظَ عـاصفَ أهوالِ
ويداهُ السـوداوانِ ذراعــا عـفـريتِ
وأحالَ دياجـيرى أُحجـيّةَ عـفريتِ

أغضبُ للجُرحِ المختلج الشاكى أغضبْ		سيُجَنُّ معى الصبر المذبوحُ المرتعشُ
ستُجَنُّ معى اللعنةُ والحقْدُ المرتعشُ
ستثورُ معى الذكـرى ستثورُ ولا مَهْربْ		لا مهربَ من جُـرحٍ قد مرَّ على قلبى
جرحٌ يصرُخُ كالجوع البائسِ فى قلبى

الظلمـةُ فى صمْت الآفـاق أحسـّتْهُ		ومضتْ تسـألُ فى قلبِ الليلِ: من الجانى؟
حتـى القُمـريّةُ والأشجـارُ أحسـّته		وتضاحكَ، لم يشعرْ، لم ينتبهِ الجانى

١٩٤٨

الباحثة عن الغد

غـداً نـلتـقى» نَـبَـأٌ فى الـزمـانْ   رَوَتْـهُ الحـبـاهْ
تلاَشـى ولم تَروِهِ شَـفَـتـانْ   تـلاشـى وتـاهْ

وجـاءَ غـدٌ ثم ولّى ومـاتْ   وعـادَ ضَـبَـابـا
فـأينَ «غـداً نلتـقى» يا حـيـاةْ   أعـادتْ تـرابـا؟

«غـداً نلتـقى» ثم مـاتَ الزمـانْ   وضـاعَ المـكـانْ
وهل يلـتـقى أبـداً عـاشـقـانْ   عـلى لا كـيـانْ؟

وكـان لنا مـوعـدٌ فـانـطوَى   صـداهُ ومـاتْ
وكم كـوكبٍ فى الديـاجى هَوَى   عـادَ رفُـاتْ

وكـانت لنا قـصّـةٌ كـالبَـشَـرْ   نسـيجُ الـسـنـينْ
فـأسـفَـر آخِـرُها عن قَـدَرْ   وذابَ الـرنـيـنْ

وكنّـا نمرُّ فـتـرنـو الحـيـاةْ   وتـومـى إلـيـنـا
وها نحـنُ تخـتـصـم الذكـرياتْ   عـلى شَـفَـتَـيْنـا

ويطردُنا الأمسُ من كلّ ما ملكناهُ يوما
سوى حاضرٍ مُغرَقٍ في الدما ويقطُرُ سُمّا

ونسمَعُ بعضاً وراءَ المساءْ من المَشْرِقِ
صدى لفظتينِ يجوسُ الفضاءْ «غداً نلتقي»

ويأتي غَدٌ في أسىً وشُرُودْ بصَمْتٍ طويلْ
بألفِ صدىً ساخرٍ في برودْ وراءَ النخيلْ

«غداً نلتقي» ويسود السكون سكون الخريفْ
وأسمع تحت السماء الحنون صراخاً عنيف

وقهقهةً، فظةً، بارده كجوّ القبور
ترددها شفةٌ حاقده وراء العصور

«غداً نلتقي» وتمطّ النغم وتسخر مني
ويبقى غدى تائهاً في الظلم يفتّش عني

١٩٤٨

الأفعوان

أين أمشى؟ مللتُ الدروبْ
وسئمت المروجْ
والعدوّ الخفى اللجوج
لم يزل يقتفى خطواتى، فأين الهروب؟
الممرات والطرق الذاهباتْ
بالأغانى إلى كل أفق غريبْ
ودروب الحياة
والدهاليز فى ظلمات الدجى الحالكات
وزوايا النهار الجديب
جبتها كلها، وعدوّى الخفىّ العنيدْ
صامدٌ كجبال الجليد
فى الشمال البعيد
صامدٌ كصُمُود النُجُومْ
فى عُيون جَفَاها الرُقادْ
ورمتْها أكُفُّ الهمُومْ
بجراحِ السُهادْ
صامدٌ كصُمودِ الزَمنْ

ساعةَ الانتظارْ
كلَّما أمعنتْ فى الفرارْ
خُطُواتى تَخطّى القُنَنْ
وأتانى بما حطّمتْهُ جُهودُ النهارْ
من قيودِ التذكّرِ... لن أنشُدَ الانفلاتْ
من قيودى، وأىُّ انفلاتْ
وعدوّى المخيفْ
مقلتاهُ تمجُّ الخريفْ
فوقَ روحٍ تُريدُ الربيعْ
ووراءَ الضَّبابِ الشفيفْ
ذلك الأفعوانُ الفظيعْ
ذلك الغولُ أى انعتاقْ
من ظلال يَدَيْه على جَبْهتى البارده
أين أنجو وأهدابُهُ الحاقده
فى طريقى تَصُبُّ غداً مَيتاً لايُطاقْ؟

أين أمشى؟ وأىُّ انحناءْ
يُغْلقُ البابَ دونَ عدوّى المُريبْ
إنه يتحدَّى الرجاءْ

ويقهقهُ سخريّةً من وجومى الرهيبْ
إنه لايُحسّ البكاءْ
أينَ.. أينَ أغيبْ
هَرَبى المستمرُّ الرتيبْ
لم يَعُدْ يستجيبْ
لنداءِ ارتياعى وفيم صراخُ النداءْ؟
هل هناك ملاذٌ قريبْ
أو بعيدٌ.. سأمضى وإن كانَ خلفَ السماءْ
أو وراءَ حُدود الرجاءْ
ثم ذاتَ مساءْ
أسمع الصَوْتَ:
«سيرى فهذا طريقٌ عميقْ
يتخطّى حدودَ المكانْ
لن تعى فيه صوتاً لغمغمةِ الأفعوانْ
إنه «لا بَرِنْثٌ» سحيقْ
ربما شيّدَتْهُ يدٌ فى قديمِ الزمانْ
لأميرٍ غريبِ الطباعْ
ثم ماتَ الأميرُ.. وأبقى الطريقْ
لأكُفِّ الضياع»
أسمعُ الصوتَ ملءَ البقاعْ

فأسيرُ لعلّي أفيقْ
من دياجير كابوسىَ الأبدىِّ الصفيقْ
ربما سيَضلُّ عدوّى الطريقْ
ما أحبَّ المسيَر وليس ورائى خطىً مائته
تتمطّى بأصدائها الباهته
فى محانى طريقى الطويلْ
إنه لن يجىءْ
لن يجىءَ وإن عَبَرَ المستحيلْ
أبداً لن يجىءْ
لن يراهُ فؤادى البرىءْ
من جديد يثيرُ الرياحْ
لتسُدَّ علىَّ السبيلْ
فى هدوءِ الصباحْ
أبداً لن يجىءْ
لن يجىءَ!
وأسمعُ قهقهةً حاقده
إنه جاء، يا لضياعِ رجائى الكسيرْ
فى دُجَى اللاَبرنْث الضريرْ
وأُحسُّ اليدَ المارده
تضغَطُ البردَ والرُعْبَ فوق هدوئى الغريرْ

بأصابعها الجامده
إنه جاءَ.. فيم المسيرْ؟
سأودّعُ حُلمى القصيرْ
وأعودُ بجثّتهِ البارده

وتمرُّ تمرُّ الحياة
وعدوّى الخفىُّ العنيدْ
خلف كلِّ طريقٍ جديدْ
فى ليالى الأسى الحالكات
خلفَ كلِّ سحَرْ
وأراهُ يُطلُّ علىّ مع المنتظَرْ
مع أمسى البعيدْ
مع ضوءِ القمرْ
فى الفضاءِ المديدْ
أينَ أينَ المفرْ
من عدوّى العنيدْ
وهو مثْلُ القَدَرْ
سرمدىٌّ، خفىٌّ، أبيدْ.
سرمدىٌّ، أبيدْ.

١٩٤٨

خرافات

«هدية إلى صديقتى ديزى الأمير تحية لذكرى مساء فلسفنا فيه كل شئ حتى الكراسى والمناضد والستائر».

قالوا الحياة

هى لونُ عينَى ميّتِ
هى وقعُ خَطو القاتلِ المتلفّتِ
أيامُها المتجعداتْ
كالمعطفِ المسمومِ ينضَحُ بالمماتْ
أحلامُها بَسَماتُ سَعْلاةٍ مخدِّرةِ العيونْ
ووراءَ بسمتِها المَنُونْ

قالوا الأملْ

هو حَسرةُ الظمآنِ حينَ يرى الكؤوسْ
فى صورةٍ فوق الجدارْ
هو ذلكَ اللونُ العَبُوسْ
فى وجهِ عُصفورٍ تَحَطَّمَ عُشُّهُ فبكى وطارْ
وأقام ينتظرُ الصباحَ لعلَّ معجزةً تُعيدْ
أنقاضَ مأواهُ المخرَّبِ من جديدْ.

قالوا النعيمْ

وبحثتُ عنه فى العيونِ الغائراتْ

فى قصّةِ البؤسِ التى كُتبتْ على بعض الوجوهْ

فى الدهْرِ تأكلُهُ سنوه

فى الزهرِ يرصدُهُ عطرَهُ شَبَحُ الذبولْ

فى نجمةٍ حسناءَ يرصُدُها الأفولْ

قالوا النعيم ولم أجدْهُ فهل طَوى غدَهُ وماتْ؟

قالوا السكونْ

أسطورةٌ حمقاءُ جاء بها جَمَادْ

يُصغى بأذنيه ويتركُ روحَه تحت الرمَادْ

لم يسمعِ الصَرَخات يُرْسلُها السياجْ،

وقصائصُ الورقِ الممزَّق فى الخرائب، والغبارْ،

ومقاعدُ الغُرَفِ القديمة، والزُجَاجْ،

غطّاهُ نَسْجُ العنكبوت، ومعطفٌ فوق الجدارْ.

قالوا الشباب

وسألتُ عنه فحدثونى عن سنينْ

تأتى فينقشعُ الضَبَابْ

وتحدثوا عن جنّة خلف السَّرَابْ
وتحدثوا عن واحةٍ للمتعَبينْ
وبلغتُها فوجدتُ أحلامَ الغَدِ
مصلوبةً عند الرتاجِ الموصَدِ

قالوا الخلودْ
ووجدتُهُ ظلاً تمطَّى فى بُرُودْ
فوق المدافنِ حيثُ تنكمشُ الحياهْ
ووجدتُهُ لفظاً على بعض الشفاهْ
غنّته وهى تنوحُ ماضيْها وتُنزلُهُ اللحودْ
غنّتْهُ وهى تموتُ.. يا لَلإزدراء!
قالوا الخلودُ، ولم أجدْ إلا الفناءْ.

قالوا القلوبْ
ووجدتُ أبواباً تؤدى فى اختناقْ
لمقابرٍ دُفِن الشعورُ بها وماتَ غدُ الخيالْ
جُدرانُها اللزجاتُ تبتلعُ الجَمَالْ
وتمجُّ قبحاً لا يُطَاقْ
وهربتُ شاحبةً أتلك إذنْ قلوبْ؟
يا خيبةَ الأحلامِ، إنى لن أؤوبْ.

قالوا العيونْ

ووجدتُ أجفاناً وليس لها بَصَرْ
وعَرَفْتُ أهداباً شُددْن إلى حَجَرْ
وخبرتُ أقباءً ملفّعةً بأستار الظنونْ
عمياءَ عن غير الشُرور وإن تكن تُدعى عيونْ
وعرفتُ آلافاً وأعينُهم صفائحُ من زجاجْ
زرقاءُ في لون السماء، وخلف زرقتها دياجْ

قالوا وقالوا

ألفاظُهم لاكت تَرَدُّدَها الرياحْ
في عالمٍ أصواتُهُ الجوفاءُ يرصُدُها الفناءْ
المتعبونَ بلا ارتياحْ
الضائعونَ بلا انتهاءْ
قالوا وقلتُ وليس يبقى ما يُقالْ
يا لَلخرافةِ! يا لَسُخريةِ الخيالْ!

١٩٤٨

جحود

فى سُكونِ المساءْ   فى ظلامِ الوجودْ
حينَ نامَ الضياءْ   واعترانى جُمودْ

خِلْتُ نفسى أسيرْ   فى مكانٍ بعيدْ
فوق قلبى أثيرْ   تحت رجلىً قُيودْ

فى كيانى فُتورْ   فى دمى نَتوءْ
لقّبوه الشعورْ   وهو لا شىءُ

فى إسار الألمْ   روحىَ المبهمْ
يا معانى العَدَمْ   آهِ لو أفهمْ

فى ضَبَابِ الوجودْ   أنا كالسرٍّ
وغداً سأعود   دون أن أدرى

جَسَدى فى الألمْ   خاطرى فى القيودْ
بين هَمْس العَدَمْ   وصُراَخ الوجودْ

وسكونى حياةْ   وظلامى بريقْ
النجاةُ النجاةْ   من شعورى العميقْ

أأنا حُلمٌ   وشعورٌ طَهورْ
أم أنا جسمٌ   مُغْرَقٌ فى الشرورْ

بل أنا آفاقْ   من شعورٍ عنيفْ
وأنا أعماقْ   من خِضمٍّ مخيفْ

المقاييسُ   ليس تَعْنينى
الأحاسيسُ   هى قانونى

أنا لا أهوىَ   ما يُحبُّ الناسْ
فإذا دوَّى ·   فى دمى إحساسْ

سرتُ لا أُلوى   سرتُ خلف الصوت
فغداً يَطْوى   فجرَ عُمْرى الموتْ

فى دمى إعصارْ   عاصفٌ بالجمودْ
وشظايا نارْ   تتحدَّى الركودْ

كلٌّ قلبي شكْ في معاني الخيرْ
فكرةٌ تُضحِكْ أنا أهوى الشر

إن يكُ الجسْمُ من تراب حقيرْ
فأنا إثمُ... أنا لستُ أثيرْ

إن يكُ العقلُ يمقتُ الانفجارْ
فأنا حِلٌّ منه.. يا للعارْ!

إنْ يكُ الإيمانْ هو هذا الجُمُودْ
فأنا نُكرانْ أنا كلّى جُحُودْ

١٩٤٧

مرثية يوم تافه

لاحتِ الظلمةُ فى الأفْق السحيقِ
وانتهى اليومُ الغريبُ
ومضت أصداؤه نحو كهوفِ الذكرياتِ
وغداً تمضى كما كانت حياتى
شفةٌ ظمأى وكوبُ
عكست أعماقُهُ لونَ الرحيقِ
وإذا ما لمستْهُ شفتايا
لم تجدْ من لذّةِ الذكرى بقايا
لم تجد حتى بقايا

انتهى اليومُ الغريبُ
انتهى وانتحبتْ حتى الذنوبُ
وبكتْ حتى حماقاتى التى سمّيتُها
ذكرياتى
انتهى لم يبقَ فى كفّيّ منه
غيرُ ذكرى نَغَمٍ يصرخُ فى أعماق ذاتى
راثياً كفّى التى أفرغتُها

من حياتى، وادّكاراتى، ويومٍ من شبابى
ضاعَ فى وادى السرابِ
فى الضبابِ.

كان يوماً من حياتى
ضائعاً ألقيتُهُ دون اضطرابِ
فوق أشلاء شبابى
عند تلٍّ الذكرياتِ
فوق آلافٍ من الساعاتِ تاهت فى الضَبابِ
فى مَتاهاتِ الليالى الغابراتِ.

كان يوماً تافهاً، كان غريبا
أن تَدُقَّ الساعةُ الكَسْلى وتُحصى لَحظاتى
إنه لم يكُ يوماً من حياتى
إنه قد كان تحقيقاً رهيبا
لبقايا لعنة الذكرى التى مزقتُها
هى والكأسُ التى حطّمتها
عند قبرِ الأمل الميِّتِ، خلفَ السنواتِ،
خلف ذاتى

كان يوماً تافهاً.. حتى المساءِ
مرت الساعاتُ فى شِبْهِ بكاءِ
كلُّها حتى المساءِ
عندما أيقظَ سمعى صوتُهُ
صوتُهُ الحُلوُ الذى ضيّعتُه
عندما أحدقتِ الظلمةُ بالأفْقِ الرهيبِ
وامّحتْ حتى بقايا ألمى، حتى ذنوبى
وامّحى صوتُ حبيبى
حملت أصداءه كفُّ الغروبِ
لمكانٍ غابَ عن أعينِ قلبى
غابَ لم تبقَ سوى الذكرى وحبّى
وصدى يومٍ غريبِ
كشحوبى
عبثاً أضرَعُ أن يُرجعْ لى صوتَ حبيبى.

١٩٤٨

ألغاز

دَعْنى فى صمتى فى إحساسى المكبوتِ
لا تسألْ عن ألغازِ غُمُوضي وسكوتي

دعني فى لُغزى لا تبحث عن أغوارى
اقنع من فَهْم أحاسيسى بالأسرارِ

لا تسألْ إنى أحياناً لُغْزٌ مُبْهمْ
أبقَى فى الغيْبِ مع الأسرارِ ولا أُفهمْ

روحي لاتَعْشَقُ أن تحيا مثلَ الناسِ
أنا أحياناً أنسى بَشريّة إحساسي

حتى حبُّكَ.. حتى آفاقُكَ تؤذيني
فأنا روحٌ أسبحُ كالطيفِ المفتونِ

قلبي المجهولُ يُحسُّ شعوراً عُلْويّا
لا حساً يُشْبهه لا وعياً بَشَريّا

إذ ذاكَ أحسُّكَ شيئاً بَشَرياً قلقا
قِمّةُ أحلامي تَرْفضُه مهما ائتلقا

إذذاكَ يحسُّكَ روحي بعضَ الأمواتِ
ما سُمّيَ «أنتَ» هَوىً، لم تبقَ سوى ذاتي

فى وجهكَ أنظُرُ لكنّي لا أبصرهُ
فى روحيَ أبحثُ عن شيءٍ أتذكرهُ

أتذكّرُ، لا أدرى ماذا، ماذا كانا؟
شيءُ لا شَكْلَ يحدّدُه.. لا ألوانا

المبهَمُ فى روحي يبقَى فى إبهامِهْ
دعْهُ لا تسألني عنه، عن أنغامِهْ

دعني فى ألغازي العُلْيا، فى أسراري
فى صمتي، فى روحي، فى مهمهِ أفكاري

في نفسي جزْءٌ أبديٌّ لا تفهمهُ
في قلبي حُلمٌ عُلويٌّ لاتعلمهُ

دعْهُ، ماذا يَعنيك لتسألَ فى إصرارْ؟
الحبُّ يموتُ إذا لم تحجُبْه أسرارْ

إني كالليلِ: سكونٌ، عمقٌ، آفاقُ
إني كالنجمِ: غموضٌ، بُعدٌ، إبراقُ

فافهمني إن فُهم الليلُ، افهم حِسِّي
والْمسني إن لُمِسَ النجمُ، المس نفسي

١٩٤٧

جامعة الظلال

أخيراً لمستُ الحياهْ
وأدركتُ ما هى أىُّ فراغٍ ثَقيلْ
أخيراً تبيّنتْ سرَّ الفقاقيعِ واخيبتاهْ
وأدركتُ أنى أضعتُ زماناً طويلْ
ألمُّ الظلالَ وأخبطُ فى عَتْمة المستحيلْ
ألمُّ الظلالَ ولا شىءَ غيرِ الظلالْ
ومرَّتْ علىَّ الليالْ
وها أنا أُدْركُ أنى لمستُ الحياهْ
وإن كنت أصرخُ واخيبتاهْ!

ومرَّ علىَّ زمانٌ بطىءُ العُبورْ
دقائقُهْ تتمطّى مَلالاً كأنَّ العُصورْ
هنالكَ تغفو وتنسى مواكبُها أن تدورْ
زمانٌ شديدُ السواد، ولونُ النجومْ
يذكّرُنى بعيونِ الذئابْ
وضوءٌ صغيرٌ يلوحُ وراءَ الغُيومْ
عرفتُ به فى النهايةِ لونَ السَرابْ

ووهمَ الحياهْ
فواخيبتاهْ

أهذا إذن هو ما لقّبوهُ الحياهْ؟
خُطوطٌ نظَلُّ نخطِّطُها فوقَ وجه المياهْ
وأصداءُ أغنيةٍ فظّةٍ لا تَمَسُّ الشفاهْ
وهذا إذنْ هو سرُّ الوجودْ؟
ليالٍ ممزّقةٌ لاتعودْ
وآثارُ أقدامنا فى طريقِ الزمان الأصَمْ
تمرُّ عليها يدُ العاصفه
فتمسحُها دونما عاطفه
وتُسْلمُها للعَدَمْ
ونحنُ ضحايا هنا
تجوعُ وتعطشُ أرواحُنا الحائره
ونحسَبُ أن المنى
ستملأ يوماً مشاعرنَا العاصره
ونجهلُ أنَّا ندورْ
مع الوَهمْ فى حلَقاتْ
نجزِّئُ أيامَنا الآفلاتْ

إلى ذكرياتْ
وننتظرُ الغَدَ خلفَ العُصورْ
ونجهلُ أَن القبورْ
تمدُّ إلينا بأذرعها البارده
ونجهلُ أَنّ الستائرَ تُخفي يداً مارده

عرفتُ الحياةَ، وضقتُ بجمع الظلالْ
وأضجرَني أن نجوبَ التلالْ
نحدّقُ في حَسرةٍ خلفَ رَكبِ الليالْ
تسيرُ بنا القافله
نجوسُ الشوارعَ في وَحْدةٍ قاتله
إلامَ يُخادعُنا المبهَمُ؟
وكيفَ النهايةُ؟ لا أحدٌ يعلم

سنبقى نسيرْ
وأبقى أنا في ذهُولي الغريرْ
ألمُّ الظلالَ كما كنتُ دونَ اهتمامْ
عيونٌ ولا لونَ، لا شيءَ إلا الظلامْ
شفاهٌ تريدُ ولا شيءَ يقرَبُ مما تريدْ

وأيد تُريدُ احتضانَ الفضاء المديدْ
وقلبٌ يريدُ النجومْ
فيصفعهُ في الدياجيرِ صوتُ القَدُومْ
يُهيلُ الترابَ على آخر الميّتينْ
وأقصوصةٌ من يَرَاع السنينْ
تضجُّ بسمعي فأصرخُ: آه!
أخيراً عرفتُ الحياه
فواخيبتاه!

١٩٤٨

أجراس سوداء

لنَمُتْ فالحـيـاة جفَّت وهذى الأ	كـؤسُ الـفـارغـاتُ تَسـخَـرُ منا
وغـيـومُ الـذهول فى أعـين الأيـ	ـامِ عـادت أجلى وأعـمقَ لـونا
وسكونُ الحـيـاة فـى جَسَـد الأحـ	ـلامِ لم يُـبقِ قَطُّ للعـيـش مـعنى
وفـــــراغُ الآهاتِ أثـبـتَ أنّـا	قـد فـرِغنا من دورنـا وانتـهـينا

وعـمـيـقـاً فى الليل نسـمعُ أقـدا	مَ الليـالى فـى رهبـةٍ ووجـومِ
ودوىٌّ الأجــراس يُـنـذرنا أنّــ	ـا انـتـهـينا من دورنـا المحـمـومِ
أن مـا فى الكؤوس يُوشـكُ أن ينـ	ـضبَ إلا مـن حـفنةٍ مـن همـومِ
أنَّ ما فى العـيونِ من عَطش الأحــ	ـلامِ أمــسـى رمـادَ حبٍّ قـديم

ء

وبعـيـداً فـى الجـوّ تُنْـذرنا الأصـ	ـواتُ أنَّ الحـيـاةَ عـادتْ جُـنونا
أنَّ لونَ الخـيـالِ قـد حـالَ وارتدَّ	شُـحـوبـاً وواقـعـاً مـحـزونا
أن «قَـبْلَ» الرجـاء أصـبح لا «بَعـ	ـدَ» لـه فـهـو فكـرةٌ لن تكـونا
أن شـيـئـاً فى عُـمق أنفـسنا يجـ	ـذُبنا لـلمـمـات، شـيـئـاً مكينا

ولماذا نبـقى هنا؟ أوَلم نشـ ـبعْ ونضجرْ ونروَ دونَ انتهاءِ؟
أوَلم نُدركِ النعيمَ وخمر النـ ـصر والحبَّ نابضاً بالرجاءِ؟
أوَلم نعرفِ الأسى العاصرَ والنومَ بعد طول البكاءِ؟
أولم نُشبعِ الوجودَ ومن فيـ ـهِ احتقاراً وغمضِ باستهزاءِ؟

ولماذا نبقى هنا؟ أسمعُ المو تَ ينادي بنا فلمَ لا نُجيبُ؟
لنَمُتْ فالرياحُ تجرح وجهَيـ ـنا ولونُ الدُجى عميقٌ رهيبُ
وهنا نحنُ مُتعبانِ غريبا نِ تعايى بنا الشبابُ الكئيبُ
وهنا نحن ميّتان وإن كا نَ لعِرق الحياة فينا وجيبُ

«الغريبان» هكذا يهمسُ الليـ ـلُ وأجراسهُ تلفُّ الوجودا
أيها الليلُ لن يعيشَ الغريبا نِ ولن يَلمُسا مساءً جديدا
خُذهما ارخِ جُنحكَ الأسودَ الها دئَ حوليهما وحلِّقْ بعيدا
خُذهما عزَّ أن يقولوا «غريبا نِ» وكانت أقصوصةً لن تعودا

١٩٤٨

نهاية السلم

مرّتْ أيامٌ منطفئاتْ
لم نلتقِ لم يجمعْنا حتى طيفُ سَرَابْ
وأنا وحدى، أقتاتُ بوقْع خُطى الظُلُماتْ
خلف زُجاجِ النافذةِ الفظّة، خلفَ البابْ
وأنا وحدى...
مرتْ أيامْ
باردةٌ تزحفُ ساحبةً ضَجَرى المرتابْ
وأنا أُصغى وأعدُّ دقائقَها القلقاتْ
هل مرَّ بنا زمنٌ؟ أم خُضنا اللازمنا؟
مرَّتْ أيامْ
أيامٌ تُثقلُها أشواقى، أينَ أنا؟
ما زلتُ أحدِّقُ فى السُلّمْ
والسلّمُ يبدأُ لكنْ أينَ نهايتهُ؟
يبدأُ فى قلبى حيثُ التيهُ وظلمتُهُ
يبدأُ، أين البابُ المبهَمْ؟
بابُ السُلّمْ؟

مرّتْ أيامْ
لم نلتقِ، أنتَ هناك وراءَ مَدَى الأحلامْ
فى أفْقٍ حفَّ به المجهولْ
وأنا أمشى، وأرى، وأنامْ
أستنفدُ أيامى وأجرُّ غدى المعسولْ
فيفرُّ إلى الماضى المفقودْ
أيامى تأكلُها الآهات متى ستعودْ؟
مرّتْ أيامٌ لم تتذكرْ أنَّ هناكْ
فى زاويةٍ من قلبكَ حُباً مهجورا
عضَّتّ فى قدَميه الأشواكْ
حباً يتضرّعُ مذعورا
هَبه النورا

عُدْ، بعض لقاءْ
يمنحُنا أجنحةً نجتازُ الليلَ بها
فهناكَ فضاءْ
خلفَ الغابات الملتفّات، هناك بحورْ
لاحدَّ لها تُرْغَى وتَمورْ
أمواجٌ من زَبَد الأحلامِ تقلِّبُها
أيدٍ من نورْ

عدْ، أم سيموتْ،
صوتي في سمعكَ خلف المُنعَرجِ الممقوتْ
وأظلُّ أنا شاردةً في قلب النسيانْ
لاشيءَ سوى الصمتِ الممدودْ
فوقَ الأحزانْ
لاشيءَ سوى رجْعٍ نعسانْ
يهمِسُ في سمعي ليس يعودْ
لا ليس يعودْ

١٩٤٨

أنـــا

اللـيـلُ يسألُ من أنا
أنا سرّهُ القلقُ العميقُ الأسودُ
أنا صمتهُ المتمرِّدُ
قنّعتُ كنهى بالسكونْ
ولففتُ قلبى بالظنونْ
وبقيتُ ساهمةً هنا
أرنو وتسألنى القرونْ
أنا من أكون؟

والريحُ تسأل من أنا
أنا روحُها الحيرانُ أنكرنى الزمانْ
أنا مثلها فى لا مكان
نبقى نسيرُ ولا انتهاءْ
نبقى نمرُّ ولا بقاءْ
فإذا بلغنا المُنْحَنَى
خِلْناهُ خاتمةَ الشقاءْ
فإذا فضاءْ!

والدهر يسأل من أنا
أنا مثلهُ جبّارةٌ أطوى عُصورْ
وأعودُ أمنحهُا النشورْ
أنا أخلقُ الماضى البعيدْ
من فتنة الأمل الرغيدْ
وأعودُ أَدفنُهُ أنا
لأصوغَ لى أمساً جديدْ
غَدُهُ جليد

والذاتُ تسألُ من أنا
أنا مثلها حيرَى أحدّقُ فى ظلام
لاشىءَ يمنحُنى السلامْ
أبقى أسائلُ والجوابْ
سيظَل يحجُبُه سراب
وأظلّ أحسبُهُ دنا
فإذا وصلتُ إليه ذابْ
وخبا وغابْ

١٩٤٨

غـــرباء

أطفئ الشمعةَ واتركنا غريبين هنا
نحن جُزءانِ من الليلِ فما معنى السنا؟
يسقطُ الضوءُ على وهمينِ في جَفنِ المساءْ
يسقُطُ الضوءُ على بعضِ شظايا من رجاءْ
سُمّيتْ نحنُ وأدعوها أنا:
مللاً، نحن هنا مثلُ الضياءْ
غُرَبَاءْ

اللقاء الباهتُ الباردُ كاليومِ المطيرِ
كان قتلاً لأناشيدي وقبراً لشعوري
دقّت الساعةُ في الظلمة تسعاً ثم عشرا
وأنا من ألمي أُصغي وأُحصي، كنت حَيرى
أسألُ الساعةَ ما جَدْوى حبوري
إن نكن نقضي الأماسي، أنتَ أَدْرى
غرباءْ

مرّت الساعاتُ كالماضي يُغشّيها الذبُولُ
كالغدِ المجهول لا أدري أفجرٌ أم أصيلُ
مرّتِ الساعاتُ والصمتُ كأجواءِ الشتاءِ

خلتهُ يخفق أنفاسى ويَطغى فى دمائى
خلتهُ يَنبسُ فى نفسى يقولُ
أنتما تحت أعاصيرِ المساءِ

غرباءْ

أطفئ الشمعةَ فالروحانِ فى ليلٍ كثيفِ
يسقطُ النورُ على وجهينِ فى لونِ الخريف
أولا تُبصرُ؟ عينانا ذبولٌ وبرودٌ
أوَلا تسمعُ؟ قلبانا انطفاءٌ وخمودُ
صمتنا أصداءُ إنذار مخيفِ
ساخرٌ من أننا سوفَ نعودُ

غرباءْ

نحن من جاء بنا اليومَ؟ ومن أين بدأنا؟
لم يكنْ يَعرفُنا الأمسُ رفيقين.. فدَعنا
نطفرُ الذكرى كأن لم تكُ يوماً من صِبانا
بعضُ حبٍّ نزقٍ طافَ بنا ثم سلانا
آه لو نحنُ رَجَعنا حيثُ كنا
قبلَ أن نَفنَى وما زلنا كلانا

غُرباءْ

١٩٤٨

أغنية الهاوية

مججتُ الزوايا التى تلتوى
وراءَ النفوسْ
وراءَ بريقِ العُيُونْ
وأبغضتُ حتى السُكونْ
وتلكَ المعانى التى تنطوى
عليها الكؤوسْ
معانى الصَدَى والجُنونْ
معانى الخطايا التى تُبرقُ
بريقَ النجومْ
وفى لمسها اللهبُ المُحرقُ
ولونُ الهمومْ
كرهتُ الجفونَ التى تأسرُ
وخلفَ سماء ابتساماتها
لهيب الحقود
كرهتُ الأكفً التى تعصرُ
وخلفَ حرارة رَعْشاتها
جمودٌ كذُلٍّ الحياه

على جُثة تحت بعض اللحودْ
تعيثُ بهَا دودةٌ فى برودْ
كرهتُ ارتعاشَ الشفاهْ
برجَعِ الصلاه
ففى كلٍّ لفظ خطيئه
تجيشُ بها رَغَباتٌ دنيئه
وعفتُ طُموحى وبحثى الطويلْ
عن الخير، والحبِّ، والمُثُلِ العاليه
وحقّرتُ سعيى إلى عالمٍ مستحيلْ
فخلفَ انخداعىَ تنتظرُ الهاويه
وعفتُ جنونى القديمَ وعفتُ الجديدْ
وأودعتهُ فى مكان بعيدْ
دفنتُ به رَغَباتِ البشرْ
وسمّيتهُ جنة الواهمين
ستمضى السنينْ
لماذا أُحسُّ الأسى والضَّجَرْ،
وكفُّ المطَرْ
تلفُّ على عنقى المختنقْ
حبالَ الفكرْ؟

وأينَ أسيرُ وقلبى النزقْ
هنالكَ ما زالَ، لا يبردُ
ولايحترقْ
كقلب أبى الهول، أين الغدُ؟
أحسُّ حياتى تذوبْ
ففى لحظةٍ واحِده
ولاتَسحبى يَدكِ البارده
فأغنيةُ الهاويه
تُهيبُ بأقدامىَ الشارده
وتلَوى الدروبْ
ففى لحظةٍ يا حبالَ الحياه
ولا تتركينى هنا
معلقةً بالفراغِ الرهيبْ
فأمسى القريبْ
تلاشى على آخرِ المنحنى
وظلُّ غدى
تَلثَّمَ أواهُ لو أهتدى
ففى لحظةٍ واحده
ولا تَسحبى يَدَكِ البارده

فأغنيةُ الهاوية
تردّدها الأنفسُ الجانيه
تكرّرُها فى جُنونْ
على سمعىَ المُجهَد
تكرّرُها لم يَعُدْ لى سَكونْ
أكادُ أسيرُ إلى الهاويه
مع السائرينْ
وأدفِنُ آخرَ أحلاميه
وأنسى غدى

١٩٤٨

في جبال الشمال

عُدْ بنا يا قطارْ
فالظلام رهيبٌ هنا والسكونُ ثقيلْ
عُدْ بنا فالمدَى شاسعٌ والطريقُ طويل
والليالى قِصارْ
عدْ بنا فالرياحْ تنوحُ وراءَ الظلالْ
وعُواءُ الذئابِ وراءَ الجبال
كصراخِ الأسى فى قلوبِ البشرْ
عُدْ بنا فعلى المنحدَرْ
شَبحٌ مكفهرٌّ حزينْ
تركتْ قَدَماهُ على كلِّ فجرٍ أثرْ
كلّ فجرٍ تقضّى هنا بالأسى والحنين
شَبحُ الغربةِ القاتله
فى جبال الشمالِ الحزينْ
شبحُ الوَحدةِ القاتله
فى الشمالِ الحزينْ
عد بنا قد سئمنا الطَّوَافْ
فى سُفُوحِ الجبال وعُدْنا نخافْ

أن تطولَ ليالى الغيابْ
ويغطى عُوَاءُ الذئاب
صوتنا ويعزُّ علينا الإيابْ
عُدْ بنا للجنوب
فهناكَ وراءَ الجبالِ قلوبْ
عدْ بنا للذينَ تركناهمُ فى الضباب
كلُّ كفٍّ تلوِّحُ فى لهفةٍ واكتئابْ
كل كفٍّ فؤاد
عدْ بنا يا قطارُ، سئمنا الطَّوَافَ وطالَ البعادْ
وهنالكَ همسٌ عميقْ
لاثغٌ خلفَ كلِّ طريق
فى شعابِ الجبالِ الضخامْ
ووراءَ الغمامْ
فى ارتعاش الصنُوبرِ، فى القريةِ الشاحبه،
فى عُوَاءِ ابن آوى، وفى الأنجمِ الغاربه،
فى المراعى هنالكَ صوتٌ شَرُودْ
هامسٌ أن نعودْ
فهناكَ بيوتٌ أُخَر
ومراعٍ أخرْ

وقلوبٌ أخرْ
وهناكَ عيونٌ أبت أن تنامْ
وأكفٌّ تضمُّ الدُّجَى فى اضطرام
وشفاهٌ تردّدُ أسماءنا فى الظلامْ
وقلوبٌ تُصيخُ لأقدامنا فى وُجومْ
وتنادى النجومْ
فى أسىً وسكونْ:
«ومتى يا نجومُ سيذكرنا الهاربونْ؟»
«ومتى يَرْجعونْ؟»

لحظةً، سنعودْ
لن يرانا الدُجَى هاهنا، سنعودْ
سنعودُ، سنطوى الجبالْ
ورُكامَ التلالْ
لن ترانا ليالى الشمالْ
ها هنا من جديدْ
لن يحسَّ الفضاءُ المديد
نارَ آهاتنا فى المساءِ الرهيبْ
فى سكونِ المساءِ الرهيبْ

عُدْ بنا يا قطارَ الشمالْ
فهناكَ وراءَ الجبالْ
الوجوهُ الرقاقُ التى حجَبَتها الليالْ
عُدْ بنا، عُد إلى الأذرُعِ الحانيه
فى ظلال النخيلْ
حيثُ أيامُنا الماضيه
فى انتظار طويلْ
وقفتْ فى انتظار
تتحرى رجوعَ القطارْ
لتسير مع السائرينْ
حيثُ أيامُنا تسألُ العابرينْ
واحداً، واحداً، فى حنينْ
«ومتى عودةُ الهاربينْ؟»

لنعُدْ فهناكَ نشيدٌ قديمْ
حولَنا هامسٌ بالرُجوعْ
ما أحبَّ الرجوعْ
بعد هذا الطوَاف الأليمْ
فى جديبِ الشعابْ
حيث تَعْوى الذئابْ

لنعدْ، فالدُجَى باردٌ كالجليدْ
وهنالكَ خلفَ الفضاءِ البعيدْ
أذرعٌ دافئه
لنعدْ فالجبالُ تكشِّرُ عن ليلها المظلمِ
وهنالكَ خلفَ الدُجَى المبهَمِ
صوتُ أحبابنا، فى الظلامِ السحيقْ
نابضاً بالحنينِ العميقْ
صوتُهم مُثقلاً بالعتابْ
صوتُهم ردّدته الشعابْ
صوتُهُم فى سكونِ المكانْ
دائرٌ كالزمانْ
لنعُدْ قبلَ أن يقضىَ الأفعوانْ
بفراقٍ طويلٍ، طويلْ
عن ظِلال النخيلْ
عن أعزّائنا خلفَ صمتِ القفارْ
عدْ بنا يا قطارْ
فالليالى قصار
وهنالكَ أحبابُنا فى أسىً وانتظارْ

سرسنك ١٩٤٨

إلى عمتي الراحلة

أنا لـم أزل في الـفَـجـر رايةً
للأفـق في صـمـت وإعـيـاء
تتـدافعُ الـذكـرى عـلى شـفـتي
بعـضَ ارتعـاشـاتٍ وأصـداء
الجُـرحُ نديـانٌ تعـيشُ بـه
أصـداءُ مـاضٍ مَـيت ناء
أيامـهُ عـادتْ صَـدَى حلمٍ
لم تَبْقَ منه غـيـرُ أشـلاء
غـيـرُ ابتـسـامـاتٍ ممزّقـةٍ
أودتْ بـهـنّ مـرارةُ الـداء

تتـدافعُ الذكـرى وتمـلأني
أشـبـاحـهـا قلقـاً وأشـجـانا
ألأمسُ مـا زالتْ كـآبتـه
حـرّى تـذكـرني بما كـانا
بالـليلِ كـيفَ سـهـرته ألماً
بالفـجـر كـيفَ أطلّ ظمـآنا
بدمـوعيَ العطشى وحـرقـتـهـا
بتـدفق الإحـسـاس أحـزانا
باليـأسِ كـيـف طغت مـرارته
وتمرّدت حُـرقَـاً ونيـرانا

الأمـس هل فـي الأمس مـن حُلـمٍ
هل فـيـه مـا ينجي من الحـرق؟
هل فـيـه بعضُ صـدىً يناغـمني
ذكـرى؟ رجـاءٌ غـيرُ محـتـرق
لفـظٌ يمـرُّ؟ وبـسـمـةٌ؟ ويدٌ
مـرّت بـرقـتـهـا على قَـلقي؟
أوّاهُ، بـعـض خـطى ألـوذ بهـا
من حـزنيَ القـاسي ومـن أرقي
بعض ابـتـسـامـتك التي غـربت
في الصمت واحـترقت على الأفق

الـدمـع أذرفـــــــهُ ويـذرفـنـى قلبــاً يجنُّ أسـىً ويُحــتــضــرُ
قــــطــراتــهُ نــارٌ تمـــزّقــنـــى مـــا زال منهـــا فى دمـى أثر
عـــينـاىَ تحـــتـــرقـــان مـن ألمٍ تدْمى وتقـطرُ فـيــهــمـا الصــور
جـــرحـانِ لاجـــفنان أين غـــدى؟ أين الطبــيـعـة والهـوى الـنضرُ؟
مـــا للحــيـاةِ هَوَت أشــعَّــتُهــا ليـــلاً وعـكَّر جـــوَّهـا القـــدر؟

أين الـتـــفـتُّ تصــــدُّنى صـــوَرٌ وحـــشـــيـــةٌ، وشـــتـــيتُ آلام
ذكـــــرىً مـن الماضـى تحطـمنـىُ وتظل تـصـــهـــرُ جـفنى الدامى
أوّاهُ، كــيفَ ســقطت مــيــتــةً وأنـا أعــــــيشُ وتـلـك أوهامـى
وأنـا أعــــــيشُ رؤىً ممـزّقـــــةً وأحـــــوكُ أهـوائى وأحــــــلامى
تـتـلـفتُ الـذكـــــرى إلـيكِ وبـى ظمَـــــأٌ يعـــــتِّـمُ جـــــوَّ أيـامى

وأريدُ أن أنـسـى فــــتـــــخـنقُـنى رَعَــشـــاتُ حُــزنٍ ســاهـدٍ مُــرِّ
أبقــيتِ جُــرحــاً حــافــراً قلقــاً فى قلـبِ أحــلامى وفـى شـعــرى
كفُّ الحنـانِ نســيتُ ملمــسَــهــا وفـقـدت مـعـبـرهَا على شَـعـرى
لم يبقَ منهـــا غـــيـــرُ أغـنيـــةٍ جـفّت مـــرارتُهـــا على ثَغـرى
وســـهـــرتُ أُنشـــدهـا وأنشـــدهاَ فى لـيلةٍ مـــأســـورةِ الفَـــجـــرِ

أواهُ من حُـــزنى ومـن ظمَـــأى هل عُـــدت طيـــفـــاً مطْـفـــأ المُقَلِ
القـــبـــرُ ضـــمَّك فـى برودته بـعـــد ارتعـــاشـــة قلبىَ الخَـــضلِ
لا طيـــرَ يوقـظُ فـــيكِ عـــرْقَ هوىً لاشـيءَ يبـــعـثُ خـــامـــدَ الأملِ
الظـلُّ مـــرَّ وأنتِ ســـاهيـــةٌ عـن رَقْـصـــه وشُـــعـــاعـــه الثـــملِ
والنـجمُ لاحَ وأنـتِ هامـــدةٌ لا تـعـــبـــأين بضـــوئه اَلخَـــجلِ

وتمرُّ أصـــداءُ الحـيـــاة ضُـــحىً بوســـادكِ المحـزونِ وا أســـفـــا
صـوتُ المؤذِّنِ كم ســهـرت له مـا بالُـهُ فى مـسـمـعيك غَـفـا؟
مـــا بالُ رعـــشـــتـــه تمرُّ عـلى قلـبٍ تناسى كـيـف أمس هَفـــا
مـــا بالُهـــا لاذتْ بغُـــربْتـهـــا ومـضتْ تُبـاكى حولك (النـجفـا)
تبكى وتـرسمُ فى انتـفـاضتِـهـا صـــوتاً يبـيـتُ الليلَ مُـرتجـفـا

أوحـيـــدةٌ فى القَـبْـرِ هـامـدةٌ وأنا أَمَـسُّ ســـريـرَكِ الخـــاوى؟
خُـصُـلاتُ شـعـركِ فـوقـهُ حـــرَقٌ فى عُـمْقِ يأسى الـصـــارخِ الداوى
ومكـانُ رأسك فى الـوســـادةِ فى قلـبى بـقـــايا كـــوكـبٍ هاو
وقـمـيـصُكِ البـاكى أما بقـيتْ فـيـه حـرارةُ جسـمك الذاوى؟
كـــيـف انطـويتِ وأنـتِ خـــالـدةٌ فى أدمـــعى؟ شُـلَّتْ يـدُ الطـاوى

أصْــغي وهل تُصْــغــين؟ هـل بلَغتْ مــشـواكَ أصــداءُ ارتعــاشــاتي
كـــيف انتـــفــضتُ وأنـتِ هامــــدةٌ في مـــخلَبَيْ ألمي وآهـاتي؟

تتـعـثَّـرُ النغَـمـاتُ في شـفـتي بصُـــراخِ أحـــزاني وأنّاتـي
مـــزّقـتُ أيامـي الـتي سَـلفَتْ ودفنـتُ فـيكِ بشــاشــةَ الآتي
وأضـــعتُ أفـراحـي ومن عَـبَثٍ شِـبْــهُ ابتــســامــاتي وضُــحكـاتي

١٩٤٨

الكوليرا

سكَن الليلُ
اصغِ إلى وَقْع صَدَى الأنَّاتْ
في عُمْق الظلمة، تحتَ الصمتِ، على الأمواتْ
صَرَخاتٌ تعلو، تضطربُ
حزنٌ يتدفقُ، يلتهبُ
يتعثَّر فيه صَدَى الآهاتْ
في كل فؤادٍ غليانُ
في الكوخِ الساكنِ أحزانُ
في كل مكانٍ روحٌ تصرخُ في الظُلُماتْ
في كلِّ مكانٍ يبكى صوتْ
هذا ما قد مَزَّقَهُ الموتْ
الموتُ، الموتُ، الموتْ
يا حُزْنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتْ

طَلَع الفجرُ
اصغِ إلى وَقْع خُطَى الماشينْ
في صمتِ الفجْر، اصغِ، انظُرْ ركبَ الباكين

عشرةُ أموات، عشرونا
لا تُحْصِ اصِخْ للباكينا
اسمعْ صوتَ الطفْل المسكين
مَوْتَى، مَوْتَى، ضاعَ العددُ
مَوْتَى، موتَى، لم يَبْقَ غَدُ
فى كلٍّ مكان جَسَدٌ يندُبهُ محزونْ
لا لحظَةَ إخلاد لا صَمْتْ
هذا ما فعلتْ كَفُّ الموتْ
الموتْ، الموتُ، الموتْ
تشكو البشريّةُ تشكو ما يرتكبُ الموتْ

الكوليرا
فى كَهْفِ الرُعْب مع الأشلاءْ
فى صمْت الأبدِ القاسى حيثُ الموتُ دواءْ
استيقظَ داءُ الكوليرا
حقْداً يتدفّقُ موتورا
هبطَ الوادىْ المرِحَ الوُضّاء
يصرخُ مضطرباً مجنونا
لا يسمَعَ صوتَ الباكينا
فى كلٍّ مكانٍ خلَّفَ مخلبُهُ أصداءْ

في كوخ الفلاّحة في البيتْ
لا شيءَ سوى صرخَات الموتْ
الموتْ، الموتُ، الموتْ
في شخص الكوليرا القاسي ينتقمُ الموتْ

الصمتُ مريرْ
لا شيءَ سوى رجْعِ التكبيرْ
حتّى حَفّارُ القبر ثوَى لم يبقَ نَصِيرْ
الجامعُ ماتَ مؤذّنُهُ
الميّتُ من سيؤبّنُهُ
لم يبقَ سوى نوْحٍ وزفيْر
الطفلُ بلا أمٍّ وأبِ
يبكي من قلبٍ ملتهبِ
وغداً لاشكَّ سيلقفُهُ الداءُ الشرّيرْ

يا شبَحَ الهيْضة ما أبقيتْ
لا شيءَ سوى أحزانِ الموتْ
الموتُ، الموتُ، الموتْ
يا مصرُ شعوري مزّقَهُ ما فعلَ الموتْ

١٩٤٧

لنكن أصدقاء

لنكنْ أصدقاءْ
فى متَاهات هذا الوجود الكئيبْ
حيثُ يمشى الدَمارُ ويَحْيا الفَناءْ
فى زوايا الليالى البطاءْ
حيثُ صوتُ الضَحايا الرهيبْ
هازئاً بالرجاءْ
لنكنْ أصدقاءْ
فعيونُ القَضَاءْ
جامداتُ الحَدَقْ
ترمُقُ البَشَرَ المُتْعَبينْ
فى دروبِ الأسى والأنينْ
تحتَ سوطِ الزمان النَزِقْ
لنكنْ أصدقاءْ،
الأكفُّ التى عرَفَتْ كيف تَجْبى الدماءْ
وتحُزُّ رقابَ الخليّين والأبرياءْ
ستحسُّ اختلاجَ الشعورْ
كلَّما لامستْ إصبْعاً أو يدا

والعيونُ التى طالما حدّقتْ فى غرورْ
ترمُقُ الموكبَ الأسودا
موكبَ الرازحينَ العبيدْ
هذه الأعينُ الفارغاتْ
ستُحسُّ الحياةْ
ويعودُ الجُمُودُ البليدْ
خلفَها ألفَ عرْقٍ جديدْ
والقلوبُ التى سَمِعَتْ فى انتعاشْ
صرَخاتِ الجياعِ العطاشْ
ستذوبُ بكاءً على الجائعينْ
ستذوبُ لتسقى صدَى الظامئين
كأسةً ولتكنْ ملئتْ بالأنينْ

لنكنْ أصدقاءْ
نحنُ والحائرون
نحنُ والعزَّل المتعبونْ
والذينَ يُقال لهم «مجرمونْ»
نحنُ والأشقياءْ
نحنُ والثملونَ بخمرِ الرجاءْ

والذينَ ينامونَ في القفر تحت السماءْ
نحن والتائهون بلا مأوى
نحن والصارخونَ بلا جدوى
نحن والأسَرى
نحن والأممُ الأخرى
في بحارِ الثلوجْ
في بلادِ الزُّنوجْ
في الصحارى وفي كلّ أرضٍ تضمُّ البشر
كلِّ أرضٍ أصاختْ لآلامنا
كلِّ أرضٍ تلقتْ توابيتَ أحلامنا
ووعتْ صرخَاتِ الضَجَرْ
من ضحايا القدَرْ

لنكنْ أصدقاءْ
إن صوتاً وراءَ الدماءْ
في عروقِ الذين تساقَوْا كؤوسَ العدَاءْ
في عُروقِ الذينَ يظلَّون كالثملين
يطعَنونَ الإخاءْ
يطعنونَ أعزَّاءَهم باسمينْ

فى عُروقِ المحبّينَ... والهاربينْ
من أحبّائهم، من نداء الحنينْ
فى جميعِ العُرُوقْ
إنَّ صوتاً وراءَ جميعِ العُرُوقْ
هامساً فى قرارةِ كلِّ فؤادٍ خَفُوقْ
يجمعُ الأخوةَ النافرينْ
ويشُدُّ قلوبَ الشقيّينَ والضاحكينْ
ذلكَ الصوتُ، صوتُ الإخاءْ
فلنكنْ أصدقاءْ

فى بعيدِ الديارْ
ووراءَ البحارْ
فى الصحارى، وفى القُطْب، فى المدُنِ الآمنه
فى القُرَى الساكنه
أصدقاءٌ بَشَرْ
أصدقاءٌ ينادونَ أينَ المَفَرْ؟
ويصيحونَ فى نَبْرة ذابله
ويموتونَ فى وَحْدَة قاتله
أصدقاءٌ جياعٌ، حُفَاةٌ، عُراه

لفظتْهم شفاهُ الحياهْ
إنهم أشقياءْ
فلنكنْ أصدقاءْ

من بعيدْ
صوتُ عَصْف الرياحِ الشديدْ
ناقلاً ألفَ صوت مديدْ
من صُرَاخ الضَحَّايا وراءَ الحُدُود
فى بقاعِ الوجودْ
الضحايا، ضحايا العراكْ
وضحايا القيُودْ
وصدَى «هيَاواثا» هناك
مُثقلا بأنينِ الجياعْ
بأسَى المصطلينَ لَظى الحُمَّى
بالذينَ يموتون دونَ وَدَاعْ
دون أن يَعرفوا أُمًّا
دونما آباءْ
دونما أصدقاءْ

١٩٤٨

جنازة المرح

سأغلق نافذتى فالضياء
يعكّر ظلمتىَ البارده

سأسدل هذا الستار السميك
على صفحةِ القصةِ البائده

وأطرُدُ صوتَ الرياح البليد
وإشعاعةَ الأنجمِ الحاقده

وأُسندُ رأسى إلى الذكريات
وأغمس عينىَّ فى دمعتينْ

وأُرسلُ حبى يلفُّ القتيل
ويُدْفئُ جبهتهُ الهامده

لعلى أردُّ إليه الحياة
وأمسحُ من زُرقه الشفتينْ

سأغلقُ نافذتى فالقتيل
يحبُ الظلامَ العميقَ العميق

وأكرَهُ أن يتمطى الضياء
على جسمه الشاعرىِّ الرقيق

على جبهة زرعتها النجوم
ولونَّها ضوؤها بالبريقْ

وكانت تُشعُّ الحياةَ فعادت
تمجُّ الأسى والردَّى والعذابْ

تخطُّ عليها ذراعُ الممات
أساطيرَ عهدِ سحيقِ سحيق

أمرُّ عليها بكفى فأصرُ
خُ رعباً وأسقط فوق الترابْ

سأغلقُ نافذتي فالظهيـر ... ةُ لا ينتهي حِقدُها الراعبُ
تصبُّ سكينتها في برودٍ ... ويسخرُ بي وجهُها الغاضبُ
يطاردُني صمتها السرمديُّ ... ويكئبني لونها الراسبُ
وأينَ المفرُّ؟ تكاد الستائر ... تدخلها غرفتي المظلمه
وأين المفرُّ؟ وهذا القتيلُ ... يروِّعني وجهه الشاحبُ
أمامي القتيل وخلفي الظهيـر ... ةُ يا للمطاردةِ المؤلمه

سأصبرُ حتى يجيءَ الدُّجى ... ويغرب خلف الوجود الضياءْ
فأحملُ هذا القتيلَ البريء ... إلى هوَّةٍ من كهوف المساءْ
أسيرُ بأشلائه موكباً ... بطيءَ الخطى كليالي الشتاءْ
وتتبعني شَهقَاتُ التذكـ ... ـرِ مهمومةً في أسىً وشرود
وفي آخـر الموكب المترنحِ ... وجهٌ يشيِّعُهُ في ازدراءْ
وفي آخِرِ الموكبِ المترنح ... وجهٌ يشيعهُ في برُودْ

عَرفتُ الجبينَ عرفت الشفاه		وهذى العيون الغلاظ الأديمْ
عرفتُ بها وجه حزنى الدفين		وقد عاد يَحملُ جرحى القديم
وفى يَده مُديةٌ لم يَزَلْ		على حدّها دمُ أمسى الأليم
عرفتُ العدوَّ اللجوج هَناك		يسيرُ على أثر الموكبِ
يُحدِّقُ مستهزئاً بالقتيل		ويضحك ضحكةَ فظٍّ أثيم
نعم هوَ.. أعرفهُ جيدا		فكم مرةٍ قبلُ قد مرَّ بى

وأبصرتُ فى أثرى ألف طيفٍ		حزينٍ تلفّعَ بالعبراتْ
عرفتُ بها البسماتِ التى		لَقيتُ بها لَطَماتِ الحياةْ
عرفت بها الضحكات التى		سكبتُ نداها على الذكرياتْ
أهذى إذنْ بسماتى؟ حناناً		أعدنْ عبوساً ورجع أنين؟
أهذى إذن ضحكاتى أهذي		نهايةُ ما صُغتُ من بسمات؟
وهذا القتيلُ أحقاً فقدتُ		به مرحى المضمحلِّ الدفين؟

١٩٤٨

يوتوبيا فى الجبال

«مهداة إلى اختى إحسان التى شهدت معى مولدها عند عين الماء الثلجية المتحدرة بين صخور سرسنك الملونة».

تفجَّرى يا عيُونْ
بالماء، بالأشعَّة الذائبه
تفجَّرى بالضوء، بالألوان، فوقَ القرْية الشاحبه
فى ذلكَ الوادى المُغَشَّى بالدُجَى والسكونْ
تفجَّرى باللحونْ
فوقَ انبساط السفْحِ بين التلالْ
فى المُنحَنَى حيثُ تَموجُ الظلالْ
تحتَ امتداد الغُصُونْ
تفجَّرى بالجمالْ
وشيِّدى يوتوبيا فى الجبالْ
يوتوبيا من شَجَرات القِمَمْ
ومن خريرِ المياهْ
يوتوبيا من نَغَمْ
نابضةً بالحياه

تفجَّرى، سيلى على مُنْحَدَراتِ الصُخُور
حيث يطيرُ الفَرَاشْ
فى نشوةِ وارتعاشْ
تفجَّرى حيثُ تنامُ الطيورْ
فى جنَّةٍ من عُطورْ
حيثُ يغطِّى السَفْحَ غابٌ كثيفْ
صنوبرىٌّ الحفيفْ
تفجَّرى نقيَّةً فوق حَصَى المُنْحدَرْ
فى عطفةِ الوادى العميقِ المخيفْ
فى ظُلَلِ الجَوزْ الرقيقِ الوريفْ
تحتَ انبساطِ الشجرْ
تفجَّرى فى الصباحْ
تفجَّرى جارفةً كالرياحْ
تفجَّرى فى الغروب
وشيدى يوتوبيا من قلوب
من كل قلبٍ لم تَطأْهُ الحقودْ
ولم تدنسهُ أكُفُّ الركودْ
من كلِّ قلبٍ شاعرىٍّ عميقْ
لم يتمرَّغْ بخطايا الوجودْ

من كلٍّ قلبٍ رقيقْ
مستغرقٍ فى حُلمه لايُفيقْ
إلا على حُلمٍ بعيدِ المدى
ليسَ له من حدودْ
حُلمٌ تحدى الغدا
من كلٍّ قلبٍ لا يُطيقُ الجُمودْ
ولا صريرَ القيودْ
تفجّرى بيضاءَ فوق الصَخَرْ
لوناً وضوءاً يتحدى كل رجس البشرْ
تفجَّرى لن يسأم المنحدر
سيلى على النائمينْ
وأغرقى تهويمةَ الظالمين
فيضى على الميِّتينْ
على قُلوبٍ لا تحسُّ الحنينْ
على عيونٍ لم تُطهرْها أكفُّ البكاءْ
على نفوسٍ لاتحسُّ السماءْ
على أكفٍ تجهل الكبرياءْ
سيلى بعيداً فى القرى الجائعه
حيثُ الحُفاةُ العُراه

وحيث لايبلُغُ سمعَ الحياه
إلا صُراخُ الأنفس الضارعه
إلا عُواءُ الذئابْ
فى عَطفة الوادى الشقىِّ الحزينْ
فى شاهقات الهضابْ
وحيثُ لاتُبْصرُ عَينُ السنينْ
إلا أسى المتعَبينْ
قوافلٌ يحدو بها أشقياءْ
فى جنَّة من رخَاءْ
قوافلُ الجائعينْ
فى ذلك الوادى الخصيبِ التُرابْ
قوافلُ الظامئينْ
يلتمسونَ السَرابْ
والماءُ يجتاحُ انزلاقَ السنينْ
قوافلٌ للملالْ
يحرمُها الكدُّ نقاءَ الجبالْ
قوافلٌ مَجَّتْ رنينَ الفؤوسْ
وغيرُها للكؤوسْ
للنومِ والأحلامِ تحتَ الظلالْ
أنصافُ موتى لاتُحسّ الجمالْ

تفجَّرى يا مياهْ
تفجَّرى فوقَ قُبور البَشَرْ
تفجَّرى فى الصَخَرْ
وسجِّلى مأساةَ هذى الحياهْ
فوقَ جبينِ القَدَرْ
ما زالت القريةُ منذُ القدَمْ
أُقصوصةً ممزوجةً بالألمْ
قصّت أساها الرياحْ
على شُحوبِ الصباح
تفجرى، سيلى وغطّى القمم
ألقِى على القصّة سترَ العَدَمْ
لا تذكرى هذا النشيدَ الحزينْ
ما كانَ إلا رجعَ صَوتٍ وهونْ
أصغتْ إليه السنينْ
فى لحظةٍ، ثم مَضتْ فى سُكون

سرسنك ١٩٤٨

وجوه ومرايا

يا كـؤوسَ الأحلامِ يا من تخيّلْـ ـتُكِ أفـقـاً تضـمُّـهُ الأضـواءُ
آه لو تُـدْركـين كـيف أحسُّ الـ ـكونَ صحـراءَ خلفَها صَحْـراءُ
والرحـيقُ الذى حَلُمْتُ بـه كـيـ ـفَ طوتْهُ المرارةُ الخـرسـاءُ
كيفَ حينَ استلمتُ كـأسيَ أرسلْـ ـتُ دمـوعى ولم يُفِـدْنى ارتواءُ

ارتوائـى؟ أوّاهُ من حُـرَقِ الرُّو حِ لماذا تظَلُّ روحيَ ظمـأى؟
ارتوائى؟ هـذا السَّرابُ الـذى ير كـضُ قـلبـى وراءَهُ وهْوَ ينـأى
ارتوائى حَسِبْتُـهُ شفـقـاً حُلْـ ـواً فلمّـا دنوتُ لم أرَ شيـئـا
ليس إلا اللاشىءُ يصدِمُ شـوقى ويُذيبُ الأحـلامَ جُـزْءاً فـجـزءا

الفـراغُ الفـراغُ يقـتلُنى أوّ اهُ لو كـان للوجـود وجـودُ
آه لو لـم تَحُلْ مـواقـعُ أقـدا مى امـتـداداً حـدودُهُ اللاحـدودُ
السكـوتُ السكوتُ يَفْـغَـرُ فـاهُ وغـداً يـغـرُبُ الهـوَى والنشـيـدُ
والظلامُ الظلامُ يُطفئُ عـيـنىَّ فـمـاذا أحسُّ؟ مـاذا أريدُ؟

أيّها الليلُ ليلَ روحيْ أما من ... ملجأ من بُرُودة الظلماء؟
ظمأ صارخٌ بأعماق نفسي ... لشُعَاعٍ مُسَلْسلٍ من ضياء
آه لو لم يَحُلْ رجائي الإلهيُّ ... سَراباً ضَحْلاً وبعضَ عزاء
آهِ لو كانتِ السعادةُ شيئاً ... غيرَ هذي الفُقَاعةِ السوداء

لقّبوها الحياةُ وهي اضطرابٌ ... أبديٌ ولهفةٌ لاتَقَرُّ
وامتدادٌ للاّنهايةِ لايبـ ... ـدأ لاينتهي فأينَ المفرُّ؟
لقّبوني «أنا» ولم يفْهموني ... ما أنا ما وجودىَ المكفهرُّ
أنا ماذا؟ تحرُّقٌ ليس يرتا ... حُ وظلٌ سُرعانَ ما سيمرُّ...

في صفاء المرآة حدّقتُ في طيـ ... ـفي طويلاً والشكُّ في مقلتيّا
كائنٌ شاحبٌ يحدّقُ في وجـ ... ـهيَ مثلي محيَّراً مطويّا
هذه هذه أنا ليس من شكٍّ ... فلم لا أمَسُّها بيديّا؟
لم لا أستطيعُ أن ألمسَ الذا ... تَ؟ وأمحو تحرُّقي الأبديّا؟

ثم ماذا! أمُدُّ كفّيَ في شو ... قٍ عميق فلا أعانقُ ذاتي
صدمةٌ صدمةٌ تمزّقُ روحي ... ليس إلا بُرودةُ المرآة
الزجاجُ الجبّارُ شَفَّ ولكن ... عن مثال مشوَّه للحياة
عن كيانٍ رسمتُهُ أنا وحدي ... فإذا غبتُ غابَ في الظُلُمات

الكيــانُ الممســوخُ ها أنا أمــحـو ... ـهُ كَـــفــــاهُ هُـزْءاً بنار أســــايا

ضـــــربةٌ مـن يدى تحـطّمـتِ المر ... آةُ فــوق الثَـرَى وعــادت شـظايا

ليتَنى كنــتُ صُنْتُـها عـادَ وجـهى ... ألفَ وجــه تُطلُّ منهـا الضَـحــايا

ليــتنى كنتُ صـنتُـهــا ليــتنى أعـ ... ـلمُ كــيفَ المرآةُ عــادتْ مَـــرَايا

١٩٤٧

قبر ينفجر

ناديتُ أكداسَ الرمالِ: تفجَّرى
لن تَدْفنِى جَسدى النقىَّ الثائرا

وهتفتُ يا روحَ المماتِ: تمزَّقى
لن تحبِسى قلبى الجرىءَ الساخرا

وصرختُ بالأرضِ الدنيئة: ارفعى
من قلبِ هذا الطين روحى الشاعرا

هذا فؤادى نابضاً، هذا دمى
متفجّراً تحتَ الترابِ مشاعرا

بالأمسِ فى هذا الظلامِ دفنتنى
تحتَ الثرىَ ولففتنِى بصخُورِه

لم تَسمعى دقّاتِ قلبى فى الدُجى
وأشحتِ عن إحساسه وشعُورِه

لم تَفهمى روحى وخلتِ سكونَهُ
موتاً ولم يبلُغْكِ رَجْعُ هديرِه

ووهمتِ أيتُها الحياةُ فلم تَرَى
فى أدمعى غيرَ الردَى وفتورِه

ما نَفْعُ أكداسِ التراب جميعها؟
الآنَ ينفجر التُرَابُ الغاصبُ

الجُثة الظَمأى التى أودعتها
بالأمس والوجهُ الكئيبُ الشاحبُ

الآنَ يَنْفجرانِ ناراً حيَّةً
ويسابقُ الإعصارَ روحى الصاخبُ

والآن ينبثقانِ من قلبِ الثرى
ويعودُ لى الأملُ الجميلُ الذاهبُ

مـا خلتـه صَـخْـراً إليك وجيبـهُ ... مـا خلتــه صَـمْـتـاً إليك نـشـيـدهُ

القـبرُ ضَجَّ وضـاق تحتَ عـواطفي ... والطيـنُ حَـولـي لن أُطيقَ رُكــودَهُ

هذا الرَمــادُ حـذار من أعــمـاقـه ... فــوراءَهُ جـمْــرٌ نسـيـتِ رعــودَهُ

يا من حَـسبْتِ النـارَ طيناً خـامـداً ... ونسـيتِ إعـصـارَ الصـبـا وخُلودَهُ

هذى العـيـونُ حـذار مـنهـا، إنهـا ... خلفَ الجـفـون عـميـقـةٌ أغـوارُها

هذى العـروقُ حَـذار من فَـوَرانهـا ... فغـداً سيصرُخُ في المدى إعـصارُها

هذى الشـفـاهُ حـذارِ من سكَناتهـا ... فـغـداً ستجـتـاحُ المدى أشـعـارُها

هذا الفــؤادُ حَــذارِ من غَــفَــواته ... فــوراءَ رقــدته الحــيـــاةُ ونارُها

ناديتُ أكـداسَ الرمـال: تفـجَّـرى ... وهتــفتُ يا روحَ المـمــات، تمزّقى

وصرختُ بــالأرض الدنيئـة ارفعى ... أسْـرَ التـراب عن الشـبـاب المرهَقِ

فـإذا الحيـاةُ مُشـيحـةٌ عن صرختـى ... لم يأتِـهــا نَغَمُ اللهـــيب المُحــرق

وأنا عـلى صَــدْرِ التُــرابِ تمرّدٌ ... حُـــــرٌ ونارٌ تـوثّبٍ وتحَـــرّقِ

لم يـبقَ إلا أن يحطِّمَ ســاعـــدى ... هذى القـيـودَ وها أنا، هذى يدى!

سـأفجّـرُ القـبرَ الـصغـيـرَ حجـارةً ... وأطيرُ من أمسى القريبِ إلى غدى

وسأصـرعُ الموتَ الضعـيفَ وأنثنى ... بمخــاوفى وســعـــادتى وتنهّــدى

وسأنثرُ الألحانَ فى صـمتِ الدجى ... يا أنجمَ الليلِ المـضيـئـةَ فـاشـهـدى

ناديتُ أكداسَ الرمال تفجَّرى فتفجَّرتْ تحتَ المساءِ المُظلِمِ

وجمعتُ أحلامى ومزَّقتُ الثرى بصفائها ووقفتُ تحتَ الأنجمِ

وفتحتُ صدرى للضياءِ وسحره وصرختُ بالكون الجميل الملهمِ

أنا حيّةٌ يا أرضُ، هذى نغمتى هذا نشيدُ فؤادىَ المتكلِّمِ

١٩٤٧

ذكريات

كــــانَ ليْلٌ، كـــانتِ الأنجُمُ لُغـــزاً لا يُحَلُّ
كــان فى روحــىَ شىءٌ صــاغَــهُ الصــمتُ الُملُّ
كــان فى حــسّىَ تخــديرٌ ووعْىٌ مــضــمــحلُّ
كــان فى الليلِ جُمــودٌ لا يُطاقُ
كــانت الظُلمــة أســراراً تُراقُ
كنتُ وحــدى لم يكــن يتــبَعُ خَطوى غــيــرُ ظلى
أنا وحـــدى، أنا والليـل الشـــتـــائىُّ... وظـلى

لم أكــنْ أحلُــمُ لكــن كـــانَ فــى عـــينىَّ شىءُ
لم أكــنْ أبسـمُ لكــن كـــان فــى روحىَ ضــــوءُ
لم أكــنْ أبكــى ولكــنْ كـــان فــى نفــــسى نَوْءُ
مــرَّ بى تذْكــارُ شىء لا يُحَــدُّ
بعضُ شىء مــا لَهُ قــبلُ وبَــعْــدُ
ربَّمــا كــانَ خــيــالاً صــاغَــهُ فكرىْ وليـلى
وتـلفــتُّ ولكــنْ لم أقـــابلْ غــيـــرَ ظلــى

كـان صـمْتٌ راكـدٌ حـولى كـصَـمت الأبديَّه
مـاتت الأطيـارُ أو نـامتْ بأعـشـاش خَـفـيَّـه
لم يـكنْ ينطـقُ حـتى الرَغـبـاتُ الآدمـيَّـه
غيرَ صَـوْت رنَّ فى سَمْعى وذابا
لحظةً لـم أدرِ حـتى أينَ غـابا
آه لو أدركـتُ من ألـقـاهُ فى الـصَـمْتِ المُملّ
أتراني لم أكـنْ أمـشى أنا وحـدى وظـلى؟

كـانـت الظُلْـمـةُ تمتـدُّ إلى الأفُقِ الغـريبِ
كلُّ شىء مـغـرَقٌ فـيهـا كلقبى، كـشُحُـوبى
ظلـمـةٌ ممتـدَّةٌ كـالـوهْم كـالموتِ الرهـيبِ
غـيرَ ضـوْء خاطـف مَرَّ بجَـفْنى
لحظةً لم تَدْرِ مـاذا كـانَ، عـينى
كـانَ ضـوءاً لونُهُ لونُ خَـيـال مـضـمـحلّ
مـرَّ بى لَمْـحـاً وأبـقـانى أنا وحْـدى وظـلّى

كـان فى الجـوِّ الشـتـائىّ ارتعـاشٌ وجُـمُـودُ
جَـمَـدَ الظلُّ من الـبَـرْد وغـشَّـاهُ الرُكـود
لـيـلةٌ يرجـفُ فى أجـوائـهـا حـتى الجليـدُ
غيرَ دفءِ طاف فى قلبى الوجيعِ

فـزتُ فـيـه من شتـائـى بربيعٍ
وإذا فى عُـــمْق قلـبى فــرحـــةُ الفَـــجْــر المطلّ
غـــيــرَ أنى كـنتُ فى الليلِ أنا وحـــدى وظـلى

كـــانَ فى روحى فَــراغٌ جــائعٌ كـــاللاً نهـــايه
كـــانَ ظلى صـــامـتـــاً لا لحنَ لا رجْع حكـايه
باهـتـــاً يتـــبَعُ مَـــسْــرَى خُطُواتـى دونَ غـــايه
غيرَ كأسٍ عَـبَرت حين صَرَخْتُ
قـطرةٌ واحــــدةٌ ثـم ارتويـتُ
أتراهُ كـــانَ أكـــذوبةَ إحــــســــاسى المُضلّ
أوَمــــا كنتُ أنا وحـــــدى مع الليلِ وظـلّى؟

كـــان قلبـى مُـتــعَـــبـاً يـسكَنهُ حُـــزنٌ فظـيعُ
رقـــصتْ فـــيـــه وشـــدَّتْه إلـى الجُــرْح دُمـــوعُ
صـــورٌ فى قَـــعْــره يـصـبُـغُ مـــرآهـا النجـيـعُ
كـــانَ، لـكنَّ يداً مـــرَّتْ عليـــه
حـــملتْ بعـضَ تحـــاياها إليـــه
باركـتْ آلامـــهُ الـــســـوداءَ كـــانــت يدَ طـفلِ
أىُّ طفلٍ؟ لم يـكنْ فى الليل غـــيــرى غـيــر ظلى

١٩٤٨

تهم

أعبِّر عمَّا تُحسُّ حَياتي وارسمُ إحساسَ روحي الغريبْ
فأبكي إذا صدمتْني السنين بخَنْجرها الأبديِّ الرهيبْ
وأضحَكُ مما قضاهُ الزمان على الهيكلِ الآدميِّ العجيبْ
وأغضَبُ حين يُدَاسُ الشعور ويُسْخَرُ من فَوَران اللهيبْ

أعبِّرُ عن كلِّ حسٍّ أعيهْ
وأبكي الحياةَ ولا أُنْكِرُ
وأضحَك من كلِّ ما تحتويهْ
وأغضَبُ لكنَّني أشعُرُ

يقولونَ شاعرةٌ في السَحاب تحلِّقُ خلفَ سَراب النجومْ
أنانيَّةٌ لا تُحسُّ الوجود وإن صرعتهُ جبالُ الغمومْ
خياليَّةٌ تمقُتُ الكائنات وتخلُقُ عالَمها في الغيومْ
خريفيَّةٌ تكرَهُ الضاحكين لتدفِنَ جبهتها في الهُمومْ

أنانيَّةٌ وأحبُّ البَشَرْ
خياليَّةٌ وحياتي تسيرْ
خريفيَّةٌ وأناجي الزَهَرْ
وعاطفتي لهَبٌ من شُعورْ

يقــولونَ: عــاشــقــةٌ للظلامْ تُحبُّ الدياجى وتَهْـوَى السُكونْ
وتنشــدُ أشـعـارَهـا للجـبـال وتَرسمُ أحـلامَـهـا للعـيـونْ
تحـبُّ الحـيـاةَ ولكنَّهـا تعـكِّرُهـا بخـيـال المُنـونْ
ترَى جـوَّها غـيـهـبـاً حـالكاً يضـيقُ بآثـامـهِ المُلْهَـمـونْ

أحـبُّ الظـلامَ ولـكـنـنـى
أثـورُ علـى كلِّ أحـلامكـم
أحبُّ الحـيـاةَ عـلى أنـنى
أحـقِّـرُ مـوكبَ أيامكـم

يقـولونَ: جـامـدةُ الحسِّ تَحـيْـا مع الأمـس فى حُلُمٍ جـامـدِ
يقـولون: صـوفيَّـةٌ فـالحيـاةُ تنوحُ علـى حِـسِّـهـا الخـامـدِ
عـواطفُـهـا جَـمَـدَتْ كـالنجـوم كـتـهـويمـةِ القَـمَـرِ البـاردِ
وتحليـقُـهـا كـانَ ثم أمَّـحى على صَـدرِ إحسـاسـهـا الراكـدِ

يقـولونَ لكنَّنى تـائهـه
ألوذُ بصَـمتْى الخـفىِّ الغـريبْ
أعـيشُ حـيـاتـىَ كـالآلهـه
وقلبى شـعـورٌ وروحى لهـيبْ

يقــولون دَعــهم غــداً يـعلمــون ودعنى أنـا للشَّــذى والجــمــالْ
أحبُّ الحــيــاةَ بـقلبى الـعــمــيق وأمــزُجُ واقــعــهَــا بالخــيــالْ
أحبُّ الـطبــيــعـــةَ حبَّ جـنون أُحبُّ الـنخــيـلَ أُحبُّ الجـبــالْ
وأعــشَق ذاتي فــفى عــمــقـهــا خــيـالُ وجـودٍ عــميـقِ الظلالْ

وأهتُـفُ يا نارَ قـلبى الـغـــريبْ
ومــوجَ أحـاســيــسى الثــائره
إذا اتهــمــوا فلـمــاذا أُجــيبْ
بغـيـرِ ابتــســامتىَ الســاخـرهَ؟

١٩٤٧

رماد

أهكذا داستْ علينا الحياه	لم تُبْقِ منا صَدَى
لم تُبْقِ إلا النَدَمَ الأسودا	وصوْتَ وا خيبتاهْ

أهكذا لم يَبْقَ إلا الرَمَاد	في المَوْقد الذابلِ؟
أليسَ من كوكبنا الآفلِ	إيماضةُ تُستعادْ؟

أليس عنَّا نَبَأ أو نشيدْ	أو هَمْسَةٌ واحده؟
ألم تَعُدْ قصَّتُنا البائده	توقظُ عِرقاً جديدْ؟

ألم يَعُدْ قطُّ لنا من مكانْ	في القصَّة الجاريه؟
أليسَ في كاساتنا الخاليه	شيءٌ يُهمُّ الزمانْ؟

وذلك الموكبُ والسائرونْ	فوقَ ثَرَى المُنْحدَرْ
لم يُدركوا أنَّ هَوانا اندثر	في عُمْقِ قبرِ السكونْ

ووقع أقدام الهَوَى الراحله	إلى مكان بعيد
تنقُلُها الريحُ فلا تستعيدْ	ألحانَها القافله

ونحن ما زلنا نجُرُّ الحنينْ والأمسَ والذكرياتْ
أقيادُنا مثقَلَةٌ بالحياة ونحنُ في الميِّتينْ

ونحن ما زِلنا نسوق الرَّمادْ لنُطعمَ الموْقِدا
وأذرعُ الأحلام ترجو سُدَى خَلْقَ غَدٍ من جمادْ

وبعثَ ماضٍ لونُ أركانه مِنْ مِزَقِ الأحلامْ
أمسَى رهيباً تُنكِرُ الأيامْ عارِي جُدْرانِه

أمسَى بعيداً تحجُبُ الوديانْ أسوارُهُ القاتمه
تعيثُ فيه الهدأةُ الساهمه ويحكُمُ النسيانْ

والرِّيحُ لم تُبْقِ على بابِه حُروفَ أسمائنا
لم تُبْقِ حتى وقْعَ أقدامِنا في جَوِّ محرابِهِ

وربَّما طافتْ به في ذُهُولْ أشباحُنا الباكيه
تطوفُ حولَ الغُرَفِ الخاليهْ سُدىً تُريدُ الدُخُولْ

أشباحُنا يُضلُّها الإعصارْ تحتَ غلاف الضبَّابْ
تَظَلُّ ولهى تلطُمُ الأبوابْ والحائطَ المُنْهارْ

أشـبــاحُنا حــافــرةٌ في ارتعــاد　　مــقــبــرةَ الـذكــريات
لا صــورةٌ تنبُض فــيـهــا حيــاة　　لا شىءَ غــيــر الرَّمَــادْ

تُنصِتُ في رُغْبٍ وفي إعــيــاءْ　　عند الســيــاجِ الحــزينْ
فــلا تـعى إلا بـقــايا أنينْ　　تُرسِلـهُ الأقــبــاءْ

أشـبـاحُناَ تستـفـهمْ النسيانْ　　عن أمـــســهـــا الـضــائعْ
فـــلا تَـرىَ إلا الردَىَ الجـــائعْ　　يقـــوِّضُ البُـنـيْـــان

وأذرعُ السَــرْو تَمُـــدُّ الذُهُولْ　　فــوق شُــحــوب الخــرابْ
كـأنهــا تَقْـذِفُ فوقَ القُبــاب　　مَـــعْـنى الردَى والذُبـولْ

ولـفظـةٌ واحــــدةٌ واحــــده　　تــكــرَّرتْ فــى المَــكــانْ
سـمـعـتُـهـا تفـحُّ كـالأفــعـوان　　فـى الشُــرف البــارده

أبصـرتُـهــا مكتــوبةً باللـهــيبْ　　فـى الغُــرَفِ البــاليــه
وفـوقَ سـاقِ السـرْوة الـعــاريه　　وفـى الـفِـنـاءِ الجــديبْ

أحسـستُـها تَهـمس معنىً «مَضى»　　مـلءَ المســاء الـكـئـيبْ
أبصــرتُهـــا فى كلِّ ركنٍ رهـيبْ　　أبـصـــرت لفـظَ «انقـــضـى»

وتلتــقى أشــبــاحُنا فــى المَســاءْ　　بــاردةً واجــــــــمـــــــــه
تنـظُرُ فى تقـطيــبــةٍ ســاهمــه　　فــى سَــــوْرةٍ من غـــبــــاءْ

أشــبــاحُنا تطـلُبُ مــاضـيـنا　　لا تُــدْرِكُ الأســــــــــرارْ
كـيف انقـضى؟ ألم يعـدْ فى الدارِ　　صــــــــــوْتٌ يـنــاديـنـا؟

أهكـذا داستْ علـينـا الحــيـــاه　　لـم تُـبـقِ مــنـا صَـــــــدَى؟
لـــم تُـــبْـــقِ إلا الـــنَـــدَمَ　　وصــوْتَ واخــيــبــتــاه؟

١٩٤٨

الخيط المشدود فى شجرة السرو

-١-

فى سَوادِ الشارعِ المُظلم والصمتِ الأصمِّ
حيثُ لا لونَ سوى لونِ الدياجى المدلهمِّ
حيثُ يُرخى شجرُ الدُفلى أساهُ
فوقَ وجه الأرضِ ظلاًّ،
قصةٌ حدّثنى صوتٌ بها ثم اضمحلا
وتلاشتْ فى الدّياجى شَفتاهُ

-٢-

قصةُ الحبِّ الذى يحسبه قلبكَ ماتا
وهو ما زالَ انفجاراً وحياةَ
وغداً يَعصرُكَ الشوقُ إليَّا
وتناديني فتَعيَى،
تَضغَطُ الذكرى على صَدركَ عبئا
من جنون، ثم لا تَلمُسُ شيئا
أيُّ شيءٍ حُلمٌ لفظٌ رقيقُ
أيُّ شيءٍ، ويناديكَ الطريقُ
فتُفيقُ.

ويراكَ الليلُ فى الدَرْب وحيدا
تسألُ الأمسَ البعيدا
أن يعودا
ويراكَ الشارعُ الحالمُ والدُفْلى، تسيرُ
لونُ عينيك انفعالٌ وحبورُ
وعلى وجهك حبٌّ وشعورُ
كلّ ما فى عمق أعماقكِ مرسومٌ هناكْ
وأنا نفسى أراكْ
من مكانى الداكن الساجى البعيدْ
وأرى الحُلْمَ السعيدْ
خلفَ عينيكَ يُناديني كسيرا
.... وترىَ البيتَ أخيرا
بيتنا، حيثُ التقينا
عندما كان هَوانا ذلك الطفلَ الغريرا
لونُهُ فى شفتَينا
وارتعاشاتُ صِباهُ فى يَدَيْنا

-٣-

وترى البيتَ فتبقى لحظةً دونَ حرَاكْ:
«ها هو البيتُ كما كان، هناك

لم يزلْ تحجبُهُ الدُفلَى ويحنو
فوقَهُ النارنجُ والسروُ الأغنُّ
وهنا مجلسنا...

ماذا أُحسُّ؟

حَيرةٌ في عُمق أعماقي، وهمسُ
ونذيرٌ يتحدَّى حُلمَ قلبي
ربما كانت... ولكن فيمَ رُعبي؟
هي ما زالتْ على عَهد هوَانا
هي ما زالت حَنانا
وستلقاني تحاياها كما كنا قديما
وستلقاني....».

وتمشي مطمئناً هادئا

في الممرِّ المظلم الساكن، تمشي هازئا
بهتافِ الهاجسِ المنذر بالوَهم الكذوب:
«ها أنا عُدت وقد فارقتُ أكداسَ ذنوبي
ها أنا ألمحُ عينيك تُطلُّ
ربما كنت وراءَ البابِ، أو يُخفيكِ ظلُّ
ها أنا عُدَتُ، وهذا السلَّمُ
هو ذا البابُ العميقُ اللونِ، مالي أحجمُ؟
لحظـةً ثم أراها

لحظةً ثم أعى وَقْعَ خُطاها
ليكن.. فلأطرقِ البابَ...»

وتمضى لَحظاتْ
ويَصرُّ البابُ فى صوت كئيبِ النَّبَراتْ
وتَرى فى ظُلْمة الدهليزِ وجهاً شاحبا
جامداً يعكسُ ظلاً غاربا:
«هلْ...؟» ويخبو صوتُكَ المبحوحُ فى نَبرِ حزينْ
لا تقولى إنها...»

«يا لَلجنونْ!
أيها الحالمُ، عَمَّن تسألُ؟
إنها ماتتْ»

وتمضى لحظتانْ
أنت ما زلتَ كأنْ لم تسمعِ الصوتَ المُثيرْ
جامداً، تَرْمُقُ أطرافَ المكانْ
شارداً، طرفُكَ مشدودٌ إلى خيطٍ صغيرْ
شُدَّ فى السرْوة لا تدرى متى؟
ولماذا؟ فهو ما كانَ هناكْ
منذُ شهرينِ، وكادتْ شفتاكْ
تسألُ الأختَ عن الخيطِ الصغيرْ
ولماذا علّقوهُ؟ ومتى؟

ويرنُّ الصوتُ في سمعكَ: «ماتتْ..»
«إنها ماتتْ..» وترنو في برودِ
فترَى الخيطَ حبالاً من جليدِ
عقدتها أذرُعٌ غابت ووارتها المَنُونْ
منذ آلاف القُرونْ
وتَرى الوجهَ الحزينْ
ضخَّمتْهُ سحُبُ الرُّعب على عينيكَ، «ماتتْ..»

-٤-

هي «ماتتْ..» لفظةٌ من دونِ معنى
وصَدى مطرقة جوفاءَ يعلو ثم يَفنى
ليسَ يعنيكَ تَوَاليه الرتيبُ
كل ما تُبصرهُ الآن هو الخيطُ العجيبُ
أتراها هي شَدَّتهُ؟ ويعلو
ذلك الصوتُ المُملُّ
صوتُ «ماتت» داوياً، لا يضمحلُّ
يملأ الليلَ صُراخاً ودويا
«إنها ماتت» صَدىً يَهمسهُ الصوتُ مليا
وهُتافٌ رددته الظلماتُ
ورَوتهُ شجراتُ السرو في صَوتٍ عميقِ

«إنها ماتت» وهذا ما تقولُ العاصفاتُ
«إنها ماتت» صَدَى يصرخُ في النجم السحيقِ
وتكادُ الآن أن تسمعهُ خلفَ العروقِ

-٥-

صوتُ ماتتْ رنَّ في كلٍّ مكانِ
هذه المطرقةُ الجوفاءُ في سَمع الزمانِ
صوتُ «ماتت» خانقٌ كالأفعوان
كلُّ حرف عصبٌ يلهثُ في صَدرِكَ رُعبا
ورؤى مشنقة حمراءَ لا تملكُ قلبا
وتجنّى مخلبٍ مُختلجٍ ينهشُ نهشا
وصَدَى صوت جحيميٍّ أجَشا
هذه المطرقةُ الجوفاءُ: «ماتت»
هي ماتت، وخلا العالمُ منها
وسَدىً ما تسألُ الظلمةَ عنها
وسَدىً تُصغي إلى وَقع خُطاها
وسُدَىً تبحثُ عنها في القمر
وسدىً تحلُمُ يوماً أن تراها
في مكان غير أقباء الذكَرْ
إنها غابتْ وراءَ الأنجُمِ

واستحالتْ وَمضةً من حُلمِ

-٦-

ثم ها أنتَ هُنا، دونَ حَراكْ
مُتعَباً، توشكُ أن تنهارَ فى أرض الممرّ
طرفُكَ الحائرُ مشدودٌ هناكْ
عند خيط شُدَّ فى السروةِ، يطوى ألفَ سرّ
ذلك الخيطُ الغريبْ
ذلك اللُغزُ المُريبْ
إنه كلُّ بقايا حبِّكَ الذاوى الكئيبْ.

-٧-

وَيراكَ الليلُ تَمشى عائدا
فى يديكَ الخيطُ، والرعشةُ، والعرْقِ المُدَوِّى.
«إنها ماتتْ..» وتَمضى شاردا
عابثاً بالخيط تطويه وتَلوى
حولَ إبهامكَ أُخْراهُ، فلا شىءَ سواهُ،
كلُّ ما أبقى لكَ الحبُّ العميقُ
هو هذا الخيط واللفظُ الصفيقُ
لفظُ «ماتت» وانطوى كلُّ هُتافٍ ما عداهُ

١٩٤٨

للقارئ

وردت فى سياق القصائد بضع كلمات أوربية، قد يهم القارئ أن يقرأ لكل منها شرحاً موجزاً:

يوتوبيا Utopia

كلمة إغريقية معناها «لا مكان» استعملتها للدلالة على مدينة شعرية خيالية لا وجود لها إلا فى أحلامى، ولا علاقة لهذه المدينة بيوتوبيا التى تخيلها الكاتب الانكليزى توماس مورفى فى كتاب ألفه باللغة اللاتينية سنة ١٥١٦ ورسم فيه صورة سياسية ادارية للجزيرة المثلى كما يريدها هو، قياساً على جمهورية أفلاطون.

ديانا Diana

عند اليونان القدماء، إلهة القمر، وحامية الصيد، كانوا يتخيلون أنها تسوق عُربة القمر البيضاء كل مساء عبر السماء.

نارسيس Narcisse

زهرة النرجس فى الأساطير اليونانية القديمة، إن نارسيس كان شابا فاتنا شديد الغرور بجماله، فعاقبته الآلهة على كبريائه بأن جعلته يعشق صورته، بعد أن رآها منعكسة فى ماء بحيرة صافية ذات يوم، ثم رقت له فحولته إلى الزهرة التى مازالت تحمل اسمه.

ابولو Apollo

إله الوحى والفن، وقائد عربة الشمس فى الفضاء عند قدماء الإغريق، وهو شقيق ديانا التى مر ذكرها.

لابرنث Labyrinth

كلمة إغريقية الأصل، معناها بناء ذو مسالك معقدة وأبواب لا حصر لها، متصلة بعدد كبير من الممرات والدهاليز والأقباء، بحيث إذا دخله إنسان لم يملك الخروج منه.

وقد استعملت هذه اللفظة فى قصيدة «الأفعوان» اسما لطريق شيده «أمير غريب الطباع، ثم مات الأمير. . . وأبقى الطريق. .» وربما كان باعث كلمة أمير فى ذهنى، اقتران كلمة- لابرنثوس- بشبه حكاية أسطورية تتعلق بتاريخ مصر القديم، فقد حكى عن هيرودوتس أنه حين مرّ بمصر رأى بناء غريباً هائل الضخامة أشبه بلغز كبير محيّر، من دخله لم يجد مخرجاً منه، شيده أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ومن يدرى؟ لعل الملك الذى شيد هذا البناء أراد أن يتخذ منه مخبأ لا يدركه فيه «أفعوانه» الخاص.

هياواثا Hiawatha

بطل أسطورة من أساطير هنود الشمال فى أمريكا أختارها الشاعر الأمريكى لونكفلو موضوعاً لملحمة شعرية كتبها سنة ١٨٥٥، والجزء الذى تهمنا الإشارة إليه من هذه الملحمة، أن زوجة هياواثا الشابة قد ماتت على أثر شتاء قاس انشب ثلوجه وأعاصيره فى القرية، منزلا بسكانها الجوع والحمى والموت؛ ولذلك استعملت كلمة «هياواثا» فى قصيدة «النكن اصدقاء» رمزاً لصرخات الاستغاثة والشكوى فى أرض يموت سكانها مدفونين فى الثلج جائعين محمومين.

فهرست

مأساة الحياة

أغنية للإنسان(١)

عاشقة الليل

شظايا ورماد

فى عام ١٩٤٧ صدرت لى أول مجموعة شعرية. وقد سمّيتها «عاشقة الليل» لأن الليل كان يرمز عندى إلى الشعر، والخيال، والأحلام المبهمة، وجمال النجوم، وروعة القمر، والتماع دجلة تحت الأضواء. وكنت فى الليل أعزف على عودى فى الحديقة الخلفية للبيت بين الشجر الكثيف، حيث كنت أغنى ساعات كل مساء. وقد كان الغناء سعادتى الكبرى منذ طفولتى، وكنت أحبس أنفاسى إذا ما سمعت صوت عبد الوهاب، أو أم كلثوم يحمله إلىّ جهاز حاك (غرامافون) يدور فى بيت الجيران، وكنت سريعة الحفظ لأى أغنية أسمعها، وكانت أمى لا تفتأ تندهش دهشة كبيرة عندما تسمعنى أغنى، وما زلت أذكر صوتها فى صغرى وهى تتلفت، وتقول: يا إلهى ! من أين حفظت ابنتى كل هذه الأغانى؟ ومتى سمعتها؟ وكيف؟ ولم تدر أننى كنت حين أسمع حاكيًا يدور بأغنية أقف مسمَّرة فى مكانى حتى لو كنت فى الشارع.

وفى تلك الأيام البعيدة لم يكن المذياع قد دخل الحياة فى العراق طبعًا، فكان الاستماع إلى الأغانى لا يتم إلا عن طريق الإسطوانات، ولم تبدأ إذاعة بغداد البث إلا فى سنة ١٩٣٥، كما أتذكر، يوم أن بلغت الثانية عشرة من العمر.

نازك الملائكة



المجلس الأعلى للثقافة